

الجمهورية العربية المتحدة
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة إحياء التراث الإسلامي

المعجب في تلخيص أخبار المغرب

[من لندن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين]
[مع ما يتصل بتاريخ هذه الفترة من أخبار القراء وأعيان الكتاب]

تأليف
عبد الواحد المراكشي
الترجمة سنة ١٤١٧ هـ

تحقيق
الأستاذ محمد سعيد العمري

الكتاب الثالث

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عورتيه



تصدير

بقلم

الدكتور مهدي علام

رئيس لجنة احياء التراث الاسلامي

التاريخ هو رقيب الحياة ، يسجل الأحداث ، ويحفظها لمن يطلع عليها ليقرأ في ضوءها الماضي ، ويستمد منها العظة للحاضر ، ويخطط في هديها للمستقبل .

وقد قال الرئيس جمال عبد الناصر في « الميثاق الوطني » : « إن العمل العظيم الذي تمكن الشعب من إنجازه بالثورة الشاملة ذات الاتجاهات المتعددة ، قد تحقق بفضل ضمانات تمكن النضال الشعبي من توفيرها ، ومنها وعيه العميق بالتاريخ وأثره في الإنسان المعاصر من ناحية ، ومن ناحية أخرى لقدرة هذا الإنسان على التأثير في التاريخ .

والكتاب الذي يسعدني أن أقدمه للقراء ، « المُعْجَب في تلخيص

أخبار المَغْرِب » تأليف عبد الواحد المراكشى ، كتاب تاريخ يتحدث
عن مرحلة من مراحل النضال العربى الإسلامى فى جزء عزيز من الوطن
الكبير الذى يرتبط به كل عربى وكل مسلم .

وقد حققه وأكمل النقص الذى كان فى مخطوطاته أستاذ له فى
التاريخ والأدب والتحقيق ماضٍ مجيد ، وحاضر متدفق ، ومستقبل
مشرق .

ولم يكن يستطيع القيام بهذا العمل إلا مؤرخ بصير بالتاريخ ،
وأديب فاحص ذو نظرة ناقدة للنصوص الأدبية التى تشيع فى الكتاب .
وليس الأستاذ محمد سعيد العريان فى حاجة لأن يقدم للقراء فى
العالم العربى : فقد سبقت كتبه ومقالاته وبحوثه إلى التعريف به منذ
ثلث قرن .

وحسبى أن أقدم ، باسم لجنة إحياء التراث الإسلامى ، بالمجلس الأعلى
للشئون الإسلامية ، هذا العمل الجليل ، فى العيد الحادى عشر للشورة
العربية التى قادها ورعاها الرئيس جمال عبد الناصر .

مهدى علام

القاهرة
صفر سنة ١٣٨٣
نوليه ١ سورا سنة ١٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

موضوع الكتاب

هذا كتاب أدب وتاريخ ، أُلِّفه مؤلفه مدعواً إليه في الربع الأول من القرن السابع الهجري ، ليكون تعريفاً لأهل المشرق بأحوال المغرب ، فجاء تعريفاً شافياً وافياً بما أراد مؤلفه والمؤلف له ، وقد مات مؤلفه وانطوى تاريخه منذ قرون ، فليس لنا من أسباب العلم به والكشف عن ذاته وصفاته ونسبه وأدبه إلا اللمحات الضئيلة الخافتة التي تلمع من ثنايا كتابه ، ومات السيد الكريم الذي أُلِّفَ من أجله الكتاب ، فلسنا نعرف اسمه ولا رسمه ولا صفته ولا صلته بأحداث عصره ، إلا ما يتراءى لنا من ذلك في ثنايا الكتاب كذلك ، على سبيل الحدس والتخمين لا على وجه القطع واليقين ؛ مات المؤلف والمؤلف له ، وانطوى تاريخهما في مَدْرَجَةِ الإهمال أو في مَدْرَجَةِ النسيان ، ولكن الكتاب بقي تتوارثه الأجيال خلفاً عن سلف حتى انتهى إلينا ، ليعرّفنا التعريف الشافي الوافي بأحوال المغرب العربي منذ كان للمغرب العربي دولة ، إلى السنة الحادية والعشرين من القرن السابع الهجري . . .

أما الحدود الجغرافية لهذا المغرب كما يصفه مؤلف هذا الكتاب ، فتتسع وتنبسط حتى تشمل شبه جزيرة الأندلس ، من جبال البرانس إلى المحيط

الأطلسي ، بما تضم من دول ومدائن ، ثم ما يلي بلاد الأندلس جنوباً على الشاطئ الأفريقي ، من المغرب الأقصى ، إلى الجزائر ، إلى تونس . . . إلى حدود مصر الغربية ؛ إذ كانت هذه المساحة المنبسطة في عرف كثير من المؤرخين القدماء ، هي المغرب .

وأما الأحوال التي يصفها مؤلف الكتاب في الكتاب من أحوال هذا المغرب الكبير ، فليست هي تاريخه السياسي وما تعاقب على عرشه ، أو عروشه من ملوك وأمراء فحسب ، وليست هي كذلك تاريخه الأدبي والعلمي وما ازدهر فيه من ألوان الأدب وفنون الفكر والمعرفة ومن اشتهر به من أهل البيان والرأي ، وليست هي الخصائص الاجتماعية والصفات النفسية لمن ينتسبون إليه وَيَلْتَرُجُونَ على ظهره من أمراء وسوقة ، وليست هي طبيعة أرضه وسمائه وخصبه وجذبه وجناته وقفاره ومناجمه وأنهاره . . . ولكنها كل ذلك وغير ذلك من أحوال المغرب ؛ فهو كتاب يصف التاريخ السياسي لذلك المغرب الكبير في تلك الحقبة وصفاً شافياً وافياً في إيجاز وبلاغة ، كما يصف تاريخه الأدبي والعلمي في براعة وفن ، ولا يغفل إلى جانب ذلك أن يتحدث عن طبيعة المكان والسكان ، ما تراه العين من ذلك وما هو من إحساس النفس وإلهام العاطفة والشعور . . .

وقد أَلَفَ المؤلّف كتابه هذا قبل أن يخلع إهاب الشباب ، فقد كان يوم أَلَفَه في الأربعين من عمره ، وهي آخر نضج الشباب وأولُ حكمة المشيب ، أَلَفَه لِيَذْكُرَ به وطنه وهو بعيد عن وطنه ، قد فارقَه منذ بضع سنين غير آمل - فيما يبدو - أن يعود إليه ، فجاء صورةً من الشعور إلى صور

من الذكريات تفيض بها نفس جياشة بالحنين ؛ فهو إذن كتاب أدب وفن ، وهو كتاب تاريخ وسياسة ، وهو إلى هذا وذاك تقويم جغرافي اقتصادي اجتماعي لذلك المغرب الكبير في تلك الحقبة الزاهرة من تاريخه .

قيمته بين المراجع التاريخية

ولست أزعم أن لي حق الحكم على الكتاب من حيث قيمته بين المراجع التاريخية ، فلست عند نفسي بالمنزلة التي توهلني لمثل هذا الحكم ، ولكنني إلى ذلك أستطيع أن أؤكد أنه كتاب فريد بين كتب التاريخ في موضوعه ، وموضوعه الأصيل - فيما رأيته - هو تاريخ دولة الموحدين ، فهو يصف تاريخها وصف عيان ومشاهدة على نحو لم يشارك مؤلفه فيه أحد من دونها تاريخ تلك الدولة ، وإن القارئ الخبير بألوان التعبير ليتبين روح الصدق في كل ما يرويهِ المؤلف في كتابه من خبر وما يصف من حادثة وما يرى من رأي أيضاً ، برغم صواب ذلك الرأي أو خطئه . وبعض الخطأ في الرأي نوع من صدق الرأي !

أما ما قبل تاريخ الموحدين مما أورده مؤلف الكتاب ، فهو تلخيص دقيق متقن لروايات في تاريخ المغرب سبقه إلى تدوينها مورخون قدماء روى عنهم موجزاً أو سهياً ، على أسلوبهم في الرواية أو على أسلوبه في السرد والتسلسل والانسجام ، فانهى إلينا علمهم بالتاريخ - عن طريقه - قبل أن ينحدر الزمن بذلك التاريخ إلى وادي النسيان ؛ ولكنه في أي أحواله . واصفاً أو راوياً ، لم يخرج عن الإطار العام الذي اختاره لموضوعه أو اختيار

له ، فكان كتابه - كما أراد - أوفى كتاب أدبي في تاريخ المغرب لمن يريد أن يعرف موجزا عن تاريخ المغرب إلى أواخر الربع الأول من القرن السابع الهجرى ...

فهو إذن مرجع أصيل من مراجع التاريخ عن دولة الموحدين لا يمكن أن يستغنى عنه باحث في تاريخ تلك الدولة من دول المغرب ، وهو إلى ذلك موجز من روايات شتى عن تاريخ المغرب قبل دولة الموحدين قد ضاع كثير من مصادره فصار بذلك أصلا من أصول تاريخ المغرب قبل دولة الموحدين ، وهو إلى هذا وذاك كتاب أديب مغربي لم يكن تدوين التاريخ فنه الأصيل ، ولكنه طُلب إليه - في غريته - أن يصف تاريخ بلاده في كتاب ، فزأوج بين الأدب والتاريخ في ذلك الكتاب !

إن له فيما يسرد من التاريخ وما يصف من حال البلاد أسلوب الأديب المطبوع وإن لم يُذكر له اسم بين أدباء المغرب ولا أدباء المشرق ، وإنه ليخيّل إلى - من طول ما تصفحت من أساليب الكتاب وأصحاب البيان ، ومن طول ما عالجت من فنون الكتابة - أن ذلك الكتاب ليس هو أول ما أنشأ المؤلف من فصول وما حبر من صحائف ، بلى ، قد لا يكون له قبل هذا الكتاب كتاب ، ولكني أكاد أُجزم أنه كتب كثيرا وعالج من الكتابة فنونا شتى قبل أن يعالج إنشاء هذه الفصول التي ضمّنها هذا الكتاب وأحسبه كان من كتاب الإنشاء في بلاط بعض أمراء الموحدين قبل أن تقذف به النوى إلى المشرق ليؤلف هذا الكتاب ...

وإذا صحّ حدسي هذا فإنه يلتقي بصيصاً من الضوء على التاريخ الغامض

لهذا الأديب المجهول ، الذى فارق وطنه فى ظروف غامضة وهو لم يَزَلْ بعدُ فى الثانية والثلاثين من عمره ، ثم لم يَعدْ إليه إلا اسماً على غلافِ كتاب أَلَفه فى غربته النائية ، الباقية على مرّ القرون ...

مؤلف الكتاب

إنه أديبٌ غريب ، ومورِّخٌ ليس له تاريخ !
أولُ ما نعرف على وجه اليقين من أخباره ، أنه مؤلف هذا الكتاب ، وأن اسمه عبد الواحد بن على ، ينتسب إلى تميم ، ويُلقب «محيي الدين» ، وأصله من مراکش كذلك وُجد اسمه على غلاف كتابه ...
أما تاريخ حياته ، وكيف عاش ، وأين قَضَى ، ومَتَى ، ولمن أَلَف كتابه ذاك ، وأين - فكل ذلك مجهول لا سبيل إلى العلم به إلا لَمَحاً خاطفاً أو حَدْساً واستنتاجاً ، من خلال عبارات متناثرة بين أول هذا الكتاب وآخره ...

إن ذلك الكتاب هو تاريخ المغرب الكبير إلى أواخر الربع الأول من القرن السابع الهجرى ، وهو أيضاً تاريخ الأديب المغربى المجهول «عبد الواحد المراكشى» ، لا مرجع لتاريخه غيره

فمنه نعرف أنه وُلِدَ فى مراکش فى السابع من ربيع الآخر سنة ٥٨١ فى بدء حكم أبي يوسف المنصور الموحّدى^(١) .

وأنه غادر مراکش وهو فى التاسعة إلى فاس ، حيث قرأ القرآن وجوَّده

(١) انظر ص ٤٤٦

وأذن له في روايته ، ثم عاد إلى مراكش ، ولكنه لم يقطع صلته بفاس ، فلم يزل يتردد بين الحاضرتين سنين^(١) .

وأنه كان في فاس سنة ٥٩٥ وسنه إذ ذاك أربع عشرة سنة ، وفيها التقى بالعالم الطبيعي العظيم أبي بكر بن زهر ، وكان بينهما حديث ومسامرة ، وابن زهر يومئذ في الثمانين أو جاوزها^(٢) .

وأنه عبر إلى الأندلس حين بلغ الثانية والعشرين ، حيث التقى بجماعة من أهل الفضل لهم ذكر وصيت^(٣) ، وحيث اتصل سببه بالأمير أبي إسحاق ابن أبي يوسف المنصور الموحدى ، وكان يومئذ حاكماً لإشبيلية ، من قبل أخيه محمد الناصر سلطان الموحدين لذلك العهد ، فصفا بينهما الود وتوثقت أواصر المحبة^(٤) .

وأنه نرح إلى قرطبة في العام التالى حيث لزم حلقة شيخه وأستاذه أبي جعفر الحميرى سنتين يتأدب بأدبه ويروى عنه^(٥) .

وأنه عاد إلى مراكش في سنة ٦١٠ وشهد بيعة السلطان يوسف الثانى فى الرابع عشر من شعبان^(٦) .

وأنه قد أتيح له بعد ذلك ببضعة أشهر ، وهو لم يزل بعد شاباً فى الثلاثين ، أن يخلو إلى السلطان يوسف هذا فيحدثه ويستمع إلى حديثه^(٧) .

(١) انظر ص ١٤٥

(٢) انظر ص ٢٧٨ - ٢٨٢

(٣) انظر ص ٤٠٧

(٤) انظر ص ١٤٥

(٥) انظر ص ٣٨٧ - ٣٨٨

(٦) انظر ص ٣٧٩

(٧) انظر ص ٤٠٩

وأنه لم يَطِبْ له المَقَام بعد ذلك طويلاً في المغرب ، فعبر البحر ثانية إلى الأندلس^(١) ، ليقيم في كنف صفيّه الأمير أبي إسحاق حاكم إشبيلية وعمّ السلطان يوسف الثاني فيتصل بينهما الود حتى يقول له الأمير مرة بعد مرة . « والله إني لأشتاقك إذا غبتَ عني أشدّ الشوق وأصدقَه ... »^(٢) .

وأنه في آخر يوم من سنة ٦١٣ ، وعمره يومئذ اثنتان وثلاثون سنة ، ودّع صاحبه ، وودّع المغرب والأندلس جميعاً^(٣) لأسبابٍ غير معلومة ، فركب البحر المائج في سنة ٦١٤ متجهاً إلى الشرق ، إلى مصر وما وراء مصر من بلاد المشرق ، ثم لم يَعد ...^(٤) .

وأنه قد انقطع عن المغرب منذ ذلك التاريخ ، لأنه أنشأ لنفسه حياة جديدة في المشرق ، ولكنها حياة قلقة مضطربة ، كلها حنين وشكوى وضيق ، و«همومٌ تزدهم على خاطر ، وغمومٌ تستغرق الفكر»^(٥) .

وأنه قضى في مصر سنين^(٦) ، ثم غادرها إلى الحجاز^(٧) ، ثم غادر الحجاز إلى غيره من بلاد المشرق ، إلى الشام ، أو إلى بغداد^(٨) ، تائهاً في بيداء من الهموم والغموم والحنين الدائم والقلق المورق .

(٢) انظر ص ٣٨٨

(٤) انظر ص ٣٨٨

(٦) انظر ص ٤١٠

(١) انظر ص ٣٠٥

(٣) انظر ص ٣٨٨

(٥) انظر ص ٢٤

(٧) انظر ص ٣٨

(٨) حدثني العلامة الأسناذ محمد العاسي ، الوزير السابق في المغرب ، ورئيس الجامعات المغربية ، وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة - في أثناء زيارة له ينزله بالرباط - أنه وقف على نص في كتاب - لم يذكره لي - يؤرخ لبعض علماء بغداد في القرن السابع فيذكر منهم عبد الواحد المراكشي . وهو خبر يمكن أن يضيف سطرًا جديدًا إلى تاريخ مؤلف هذا الكتاب .

وأنه لقي في أثناء تجواله ببلاد المشرق وزيرا من خاصة أمير المؤمنين أبي العباس أحمد الناصر لدين الله العباسي ، فأضفى عليه من عطفه ، وأصفاه ودّه ، ولطف به ، « وتتوالى عليه نعمه ، ويأخذ بضبعه من حضيضى الفقر والخمول اعتناؤه وكرمه »^(١) ، فيسأله ذلك الوزير بحق ما بينهما من الإحسان والحب ، أن يملى له أوراقاً « تشتمل على بعض أخبار المغرب ، وهيئته ، وحدود أقطاره ، وشيء عن سير ملوكه ، وخصوصاً ملوك المصامدة بنى عبد المؤمن ، من لدن ابتداء دولتهم ... » فيملى عبد الواحد كتاب المعجب هذا ، ويكون فراغه من إملائه يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة ٦٢١ . . .^(٢) ثم يُقرأ عليه قراءة تصحيح بعد يومين من إملائه في « السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٢١ ... »^(٣) .

ثم تنتهى أخبار عبد الواحد ، فلا يعود إلى المغرب ، ولا يذكره أحد في المغرب ؛ ويموت فلا يذكره ذاكر في مراكش ، ولا في فاس ، ولا في إشبيلية ، ولا في قرطبة ؛ وكان له أهل ودار في مراكش ، ومسعى إلى قصر سلطان الموحدين في فاس ، وأشواق مشبوبة بينه وبين عم السلطان في إشبيلية ، وذكر على السنة الكثير من أهل العلم والأدب في قرطبة ... ذلك هو عبد الواحد المراكشى كما تحدّث عن نفسه في كتابه « المعجب

(١) انظر ص ٢٣

(٢) انظر ص ٤٦١

(٣) انظر ص ٤٦١

في تلخيص أخبار المغرب » فماذا كان في حياته وبين أهله ، وأين كان موضعه من الحياة العامة في بلاده ؟

هذا سؤال لم يُجب عنه أحد بعد ، لأن عبد الواحد لم يخلف من ذكره غير هذا الكتاب ؛ ولكنني مع ذلك أزعم أنني أستطيع جواباً وإن لم يكن بين يديّ من مصادر العلم غير هذا الكتاب . . .

إن عبد الواحد المراكشي لم يكن نكرة في قومه ، ولم يكن نكرة عند نفسه ، وإن في هذا الكتاب الذي خلفه عبد الواحد تاريخاً لبلاده وتاريخاً لنفسه ، أمارات صريحة الدلالة على أرومته ومكانته من قومه وموضعه من الحياة العامة في بلاده . . .

إن فتىً من مراكش ، يتاح له في الرابعة عشرة من عمره أن يرحل إلى فاس ليتخذ مجلساً في حضرة العالم الطبيب أبي بكر بن زهر يتحدث إليه ويسمع منه وينتسب له ويذكر أباه وأهله . . . (١)

ويتاح له وهو في الثانية والعشرين أن يكسب صداقة أمير إشبيلية ، وهو أمير من أمجد أمراء الموحدين ، كان أبوه أمير المؤمنين المنصور ، وأخوه لم يزل أمير المؤمنين الناصر . . . (٢)

ويتاح له وهو شاب لم يبلغ الثلاثين أن يخلو إلى السلطان أبي يعقوب الثاني يتحدث إليه ويسمع منه وهو من هو صرامةً وعنفواناً وقوة . . . (٣)

(١) انظر ص ١٤٢ .

(٢) انظر ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .

(٣) انظر ص ٤٠٩ .

إن فتي يتاح له كل ذلك مما ذكر في كتابه ، ونحو ذلك مما لم يذكر ،
لا يمكن أن يكون فتي من سواد الناس .

وهنا يقتضي التحقيق أن أقف هنيهة عند بعض عبارات أوردتها
المراكشي في كتابه ، تُلقي ضوءاً قوياً على بعض الغموض الذي يكتشف
حياته وأسباب رحلته النائية إلى المشرق ؛ أما أولها فهي تعليقه على
كتاب وصل إليه من صديق له من أبناء الولاية في «سوس» سنة ٥٩٧ -
وكانت سن المراكشي يومذاك ست عشرة سنة - يصف فيه موقعة بين
جيش الناصر بن أبي يوسف وثائر من «جزولة» كان قد شق عصا الطاعة ،
فيتعجب المراكشي من وصول نبي هذه الموقعة إليه من صديقه «قبل
وصوله إلى من جهة كتاب الموحدين المتولّين له» . . . (١) .

وعبارة أخرى ، هي قوله عند الحديث عن الأمير أبي إسحاق إبراهيم
من أولاد السلطان أبي يوسف المنصور . «وهو خيرُ ولده وأجدرُهم بالأمر
لو كانت الأمور جارية على إيثار الحق واطّراح الهوى» (٢) .

وعبارة ثالثة ، هي قوله عند الحديث عن الوزير أبي عبد الله الحسني .
«سمعتَه يقول وأنا عنده في بيته : جملة ما وصل إلى من أمير المؤمنين
أبي يوسف . . . الخ» (٣) .

وعبارة أهم من كل ذلك ، هي قوله عند الحديث عن الأمير يحيى من

(١) انظر ص ٣٩٦ .

(٢) انظر ص ٣٨٧ .

(٣) انظر ص ٣٩٢ .

أولاد السلطان أبي يعقوب بن عبد المؤمن . « كان يحيى هذا ، رحمه الله ،
لى صديقاً ، ومن جهته تلقيتُ أكثر أخبارهم ، لم أر فى الملوك ولا فى
السُّوقَة مثله ، رحمةُ الله عليه ؛ وما استجزت لفظَة الصداقة ، مع أن
الواجب لفظ الخدمة ، إلا لما كان رحمه الله يكتب إلى : أخى وصديقى ،
فى بعض الأوقات ، وولّى ، فى بعضها . اجتمعت عندى بخطّه رقاعٌ كثيرة
خلع علىّ فيها من فضله وحلّانى بما لم أكن أستحقّه ... (١) » .

فما دلالة هذه العبارات جميعاً ؟

أليست أولها دليلاً على أن عبد الواحد كان - وهو لم يزل فى السادسة
عشرة - أهلاً لأن يتلقى كلّ أنباء الفتوح أو بعضها « من جهة كتاب
الموحدين المتولّين لها » ؟

وهل يكون للعبارة الثانية دلالة غير أن عبد الواحد كان يرى أن ولاية
الناصر عرش الموحدين دون أخيه أبي إسحاق كانت أمراً يقوم على
إطراح الحق وإيثار الهوى ؟

وعلام تدل العبارتان الأخيرتان ؟ ومن يكون عبد الواحد حتى يتحدث
إليه الوزراء فى بيوتهم عما وصل إليهم من صلوات الملوك ، وحتى يصطفيه
أبناء السلاطين ويتولّوه بالإحسان والمبرة ويُنقِضُوا إليه بأسرار الدولة
ويكتبوا إليه الرّقاع إذا غاب ؟ ...

(١) انظر ص ٣١٧ .

ثم نعود إلى ما بدأنا فنسأل كرة أخرى ، فيم كانت هجرة عبد الواحد إلى المشرق ، تلك الرحلة التي بدأت من إشبيلية حيث كان يعيش في كنف الأمير أبي إسحاق في موضع الإعزاز والكرامة ، والتي انتهت به إلى شكوى الفقر والاختلال والهموم والغموم والأحزان ؟

لغير الحج ولا شك كانت رحلته تلك ، ولغير طلب العلم أيضاً ، فلو أنها كانت للحج لما تأخر عن أداء الفريضة من سنة ٦١٤ - وهي السنة التي بدأ فيها رحلته من مرسية - إلى سنة ٦٢٠ وهي السنة التي حج فيها ، ولو أنها كانت للعلم لسمعنا من روايته وقرأنا من خبره في مَسَانِدِ الحديث ما يشير إلى بعض ما حصَّله من العلم في السنين السبع أو الثمان التي قضاها في المشرق منذ غادر الأندلس إلى أن أُملي كتاب المعجب ؛ وإذن فإن رحلته لم تكن للحج والزيارة ، ولا للعلم والرواية ؛ ولكنها كانت لسبب آخر يتصل من قريب أو من بعيد بتطورات السياسة المغربية في تلك السنين ، فقد عرفنا عرفاناً لا يتطرق إليه الشك أن عبد الواحد كان ينتهى في المغرب إلى أسرة عربية مجيدة يباهى بالانتساب إليها ^(١) .

وأن أسرته هذه كانت من الغنى والجاه بحيث أُتيح له في سن مبكرة أن يرُود أقطار المغرب في العُدُوتَيْن ذهاباً وجيئة مرات عدة ^(٢) .

وأنه كان أهلاً لأن يتلقى أنباء الفتوح في إبانها من جهة كتاب الموحدين المتولين لذلك الأمر ^(٣) .

(١) انظر حديثه مع ابن زهر ص ١٤١ - ١٤٦ .

(٢) انظر ما اقتبسنا من تلخيص حياته في ص ٥ - ١٢ من هذا التقديم .

(٣) انظر ص ١٧٥ .

وأنه كان يشهد بيعة السلطان^(١) ، ويتاح له أن يخلو إليه^(٢) ، ويتخذ من ولده صديقاً يأنس إليهم ويتلقى عنهم أخبار القصر مشافهة أو في رقاع مكتوبة^(٣) .

وأنه كان صاحب رأى في سياسة الدولة يتيح له أن يقول في سر أو في علانية إن ذلك الأمير كان أحقّ بعرش الموحدين من ذلك الأمير وأنه أكفأ له وأنهض بأعبائه^(٤) .

عرفنا ذلك كله عرفان اليقين ، وعرفنا معه أن عرش الموحدين في تلك الحقبة من حياة عبد الواحد المراكشي كانت تتنازع أسباب الانتقاض والفتنة ، ففي كل بلد ثائر من بنى عبد المؤمن أو من زعماء البربر وروساء القبائل أو من قادة الجند يحاول أن يستأثر بالحكم فيما يليه من البلاد ، فما تزال السرايا ذاهبة آية لتأديب العصاة والثائرين ، وما تزال الطير تأكل من الرووس المعلقة على أبواب مراكش وفاس .

وقد كان الخليفة على عرش الموحدين مدة من ذلك العهد هو السلطان محمد الناصر ، ابن السلطان أبي يوسف المنصور ، وآخر الأمير أبي إسحاق إبراهيم حاكم إشبيلية وصديق المراكشي ؛ ثم ولى ذلك العرش من بعده ولده أبو يعقوب الثاني ، وكان عبد الواحد من شهود بيعته ، وعمه

(١) انظر ص ٤٠٧ .

(٢) انظر ص ٤٠٩ .

(٣) انظر ص ٣١٧ و ٣٨٧ - ٣٨٨ .

(٤) انظر ص ٣٨٧ .

أبو إسحاق لم يزل حاكماً على إشبيلية^(١) ، وهو الذى يصفه عبد الواحد فيقول إنه خير أبناء المنصور وأجدرهم بالأمر « لو كانت الأمور جارية على إشار الحق وأطراح الهوى » .

وكان الأمير أبو إسحاق هذا قد وَزَرَ لأخيه الناصر مدة^(٢) ، ثم خُلع عن الوزارة وأبعد ثانية إلى إشبيلية ، ومن أصفياه هنالك عبد الواحد . . . ثم نرى عبد الواحد يودّع صديقه أمير إشبيلية وداعاً لا لقاء بعده ، ليبحر إلى المشرق متنقلاً بين بلاده في هم وغم واضطراب وقلق وفقر وحاجة . . .

فمن ذا يزعم بعد ذلك أن عبد الواحد قد مضى في هذه الرحلة مختاراً ليخلف ما كان فيه من الجاه والنعم إلى الفقر والقلق واضطراب العيش؟ لم يهجر عبد الواحد بلاده إذن مختاراً كما كان يهجر المغاربة بلادهم في تلك السنين للحج أو لطلب العلم ، وإنما هجرها مُكرهاً لسبب من تلك الأسباب السياسية الكثيرة التى يُبعد لئلا يزعجها أهلُ الرأى عن بلادهم في أيام الجور والطغيان . . .

وفى ذلك المتنfy الذى أُلجئ إليه بلا إرادة . أنشأ كتابه « المعجب » ، استجابة لدعاء الوزير العباسى الذى أصفاه وده وأغدق عليه إحسانه ، واستجابة فى الوقت ذاته لتلك العاطفة التى كانت تُدقُّ صدره شوقاً

(١) كانت ولاية الناصر محمد فى سنة ٥٩٥ ، وطل على العرش الى أن مات فى سنة ٦١٠ ، ثم ولى العرش من بعده ولده أبو يعقوب ، فأقام على العرش الى ما بعد هجرة عبد الواحد من المغرب بسنين ذات عدد .

(٢) انظر ص ٣٨٧ .

إلى بلاده وحنيناً إلى صحابته هناك وأهله . . . وليس مثلَ اجترار الذكريات
دواءً من داء الحنين إلى الأهل والوطن !

نقص الكتاب :

وقد قدمت في صدر هذا البحث موجزا في وصف ذلك الكتاب فلا أعود
إليه ، وإني لأرجو أن يصف الكتاب نفسه لقارئه أبلغ مما أستطيع
أن أصف ، ولكني لا أرى مندوحة من الإشارة إلى الحظ التعس الذي
صاحب مؤلفه حيا وميتا ، ذلك الحظ الذي حرّم قراء العربية وعلماء
التاريخ قبل اليوم من الانتفاع بنسخة كاملة من كتابه « المعجب في
تلخيص أخبار المغرب » ، فكما اندثر ذكر مؤلفه المراكشي في بلاده
وفي بلاد هجرته منذ قرون عدّة ، اندثر كذلك كتابه فليس منه اليوم -
فيما يُعرف - إلا مخطوطة واحدة في مكتبة ليدن ، وأحسبها قد جلبت
من المشرق ، الشام أو العراق^(١) ، وهي إلى ذلك مخطوطة غير كاملة ،
لأن كراسة منها تحتوى على عشرين ورقة قد فُقدت ، ويشير تسلسل التاريخ
إلى أن هذه الكراسة كانت تتضمن الحديث عن تنمة تاريخ الحكم بن
هشام ومن وليه من أُمراء بني أمية بالأندلس إلى عهد الحكم المستنصر ،
وقد كانت ولاية الحكم الأول في صفر سنة ١٨٠ وولاية الحكم الثاني
في رمضان سنة ٣٥٠ ، فبين الحكّمين نحو مئة وسبعين سنة تضمنت
تاريخها تلك الكراسة المفقودة وعن هذه المخطوطة الناقصة أخرج العلامة
دوزي الطبعة الأولى من هذا الكتاب في سنة ١٨٤٧ منذ أكثر من مائة

(١) انظر التعليق رقم (٨) ص ٧ من هذا التقديم .

عام ، ثم طُبع بعد ذلك في مصر بلا تحقيق طبعتين - أو أكثر - نقلا عن طبعة دوزى ، باسمه حيناً وباسم «تاريخ الأندلس» حيناً آخر ، ثم طبعه دوزى طبعة ثانية في سنة ١٨٨١ ، ثم أخرجته شركة النشر المغربية بفاس سنة ١٩٣٨ بتحقيق الأستاذ محمد الفاسي ...

محاولات لتكميل النقص :

ثم بدا لي أن أحاول نشره جديداً مكمّلاً على أسلوب آخر يتحقق به النفع ، وكان لا بد أن يسبق هذه المحاولة بحثٌ طويل وجهدٌ متصل للوصول إلى نص أصلي لذلك الجزء الناقص من الكتاب ...

وإذا كنت لم أقطع الأمل في العثور على نسخة أخرى منه في بعض الخزائن الخاصة أو العامة في الشرق أو في الغرب أستعين بها على تكميل ذلك النقص ، فإنني لم أركن إلى ذلك الأمل ومضيت ألتمس وسائل أخرى لتكميله ...

وقد كان يَسْعَى بِأَيْسَرِ الجهد أن أحاول ذلك التكميل بالسير على نهج المؤلف وطريقته في السرد التاريخي والرواية لسدّ الثغرة ، مع الإشارة إلى مكان الزيادة من الأصل والتنبيه إلى المراجع التي اقتبست منها أو أو استندت إليها ، كما يفعل كثير من ناشري كتب التراث عن مخطوطات مبتورة ؛ ولكنني آثرت أن أحاول - قبل ذلك - محاولةً أخرى أقرب إلى الصدق والأمانة ، فإن نجحت وإلا عدتُ مُكرهاً إلى ذلك السبيل ...

وقد كانت المحاولة التي حاولتها تقوم على أساس أن الحقبة التي يتناولها الجزء المفقود من تاريخ المغرب والأندلس تسبق مولد المؤلف بقرون ، فمن المؤكد أنه لم يكن مصدراً أصيلاً فيما يروى من أخبارها وإنما نقل عن غيره من مؤرخي جيل سبقه ، ولعله قد نقل ما نقل عنهم بحروفه ونصه . على عادة القدماء في أكثر ما يروون من علم السابقين ، فإذا كان الأمر على ما وصفته فإن من الممكن استكمال ذلك النقص لو أنني اهتديت إلى المصادر الأصلية التي نقل عنها المراكشي ما أورد في كتابه من تاريخ تلك الحقبة ...

وعلى هذا النهج بدأت البحث ، فتتبعت أسماء الرواة وأصحاب الأخبار الذين اعتمد عليهم المراكشي فيما ذكر من أحداث التاريخ في كتابه ، وكان أكثر اهتمامي بتتبع الرواة الذين نقل عنهم تاريخ الحقبة التي سبقت ذلك النقص والحقبة التي تلتها ، فأنتهيت من تتبعي إلى أن أكثر ما يرويه المؤلف من تاريخ الحقيبتين مُسند الرواية إلى أبي نصر الحميدى ، أو منقول عن كتاب « جذوة المقتبس » ...

ولم يخطر لي إلا بعد بحث طويل في كتب الطبقات ومعاجم الرجال ، أن أبا نصر الحميدى من رواة الحديث لا من المؤرخين ولا من الأدباء ، فلما بحثت عنه ثمة وجدته ، وعرفت أنه صاحب « جذوة المقتبس » ؛ فهما مصدر واحد لا مصدران ، لأنهما مؤلف وكتابه ، ينقل عنهما المراكشي فيقول مرة . « روى أبو نصر الحميدى ... » ويقول مرة أخرى . « وفي جذوة المقتبس ... »

وقد عاش أبو نصر الحميدى فى القرن الخامس الهجرى ، وكان فىما يروى من فنون أهل الحديث يعرض للتاريخ فيسرد أخبارا ويقص قصصاً ويتحدث عن ملوك ودول وأحداث ، فقوى عندى الظن أن يكون فى كتابه « جذوة المقتبس » شئ من ذلك القبيل ، وأن يكون هو المصدر الذى نقل عنه المراكشى تاريخ تلك الحقبة التى اخترمها النقص ، فلو أننى وقفتُ عليه لاستطعت أن أخرج من الظن إلى يقين ، وربما هدانى ذلك إلى تكميل النقص فى كتاب المراكشى دون حاجة إلى انتظار العثور على نسخة أخرى من كتابه ...

وبحثت عن كتاب « جذوة المقتبس » فلم أقف له على خبر عند أحد ، إلا خبر واحد ، هو أن مخطوطة فريدة منه فى مكتبة أكسفورد ، فالتمتست السبيل إلى استنساخها أو تصويرها ... وأعانى على ذلك الأستاذ الكبير أمين مرسى قنديل المدير السابق لدار الكتب العربية بالقاهرة بكل ما يملك من وسائله ...

وبعد جهد وزمن وصلت النسخة المصورة من كتاب « جذوة المقتبس » فى ذكر ولاية الأندلس ، وأسمااء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوى النباهة والشعر ...

وكان وصول هذه النسخة المصورة إلى يدي فى سنة ١٩٤٩ (١) ، وفيها وجدتُ شيئاً يمكن أن يكون فيه تمام النقص (٢) .

(١) فى هذه السنة كنت أحاول طبعة سابقة من كتاب المعجب ، فأشرت الى بعض هذا الجهد فى مقدمتها .

(٢) نشر كتاب (جذوة المقتبس) بعد ذلك مطبوعاً فى القاهرة عن هذه النسخة المصورة ، بتحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى .

إن صفحات كاملة من كتاب « جذوة المقتبس » تتطابق تمام التطابق مع صفحات كاملة من كتاب « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » قبل موضع النقص وبعده ، كأنهما - في تلك الصفحات - نسختان من كتاب واحد لمؤلف واحد . . .

ولكن المراكشي إذ ينقل عن الحميدى فيلتزم نصّه ، لا يلتزم ترتيبه في السرد في كل الأحوال ، فهو ينقل عنه أسطرا ، ثم يقف وقفة ليزيد خبراً أو يبسط قصة أو يروى شعراً أو ما يشبه ذلك ، ثم يعود إلى حيث وقف فيستأنف النقل عن الحميدى ، على أن تلك الزيادات التى يُقحمها إنما ينقلها أو ينقل أكثرها كذلك عن الحميدى نفسه ، ولكن من فصل آخر من فصول « جذوة المقتبس » .

أحقّ لى - وقد هدتنى المقابلة بين الكتابين إلى كشف ذلك النوع من التطابق - أن أزعم أنني قد عثرت على مخطوطة أخرى من كتاب المعجب تختلف بعض الاختلاف عن المخطوطة المحفوظة في مكتبة ليدن والتي نُشر عنها دوزى طبعته الأولى والثانية وعنهما نُشرت كل الطبعات التى ظهرت من بعد ؟

أم أقف دون ذلك فأزعم أنني قد عثرتُ على نسخة أخرى مخطوطة من الصفحات المفقودة ، هى الصفحات التى تقابلها من مخطوطة جذوة المقتبس؟ . . .

هو ذاك أو ما يشبهه شبيهاً قريباً ، ولكنى لا أجروُ على مثل ذلك الزعم ، وإن كان من حقى أن أقول إننى قد وجدت بديلاً من الصفحات المفقودة

من كتاب المعجب يمكن أن يكْمُلَ بها على صورة تَقَرُّب من صورته الأولى كأنها هي ، لو أنني أثبتُ تلك الصفحات مكان الصفحات المفقودة ، ملتزماً طريقة المؤلف فيما كان ينقل لكتابه عن جذوة المقتبس . ملتزماً النص ما أمكن ، دون التزام ترتيب السرد ؛ وهذا ما فعلته . . .

على أنى قد زدت على ذلك اقتباسات أخرى من مراجع أخرى ، على طريقة المراكشي كذلك ، ليكون الكتاب على نسق واحد ؛ وقد وضعت كل زيادة على مخطوطة ليدن بين علامتي الزيادة [] مع الإشارة إلى المرجع الذي نقلت عنه .

وما أرانى بعد الذى وصفتُ مسرفاً فى الدعوى إن زعمت أن هذه النسخة التى أنشرها من كتاب «المعجب فى تلخيص أخبار المغرب» هى النسخة الوحيدة الكاملة من هذا الكتاب ، أو الأقرب إلى الكمال ، ذلك لأن كل ما سبق نشره من نسخته - منذ نشره دوزى لأول مرة فى سنة ١٨٤٧ - ينقصه جزء كبير من التاريخ الذى ألفه المراكشي ، وقد كمل فى هذه النسخة .

تكميل آخر :

على أن ذاك النقص الذى أشرت إليه ووفق الله إلى تكميله على هذا الوجه لم يكن هو كلُّ النقص فى ذلك الكتاب ، إذ كان فيه إلى ذلك نقص آخر طبيعى يجب أن يكْمَلَ على وجه ما . . .

ذلك أن الكتاب - على ما قدّمْتُ من وصفه - يُعتبر مرجعاً أصيلاً فى تاريخ دولة الموحّدين فى المغرب ، وتلك ميزته الأولى ، ولكن دولة الموحّدين

- وإن كانت قد دخلت في طور الانحلال منذ وفاة الناصر محمد بن المنصور سنة ٦١٠ - لم ينته أجلها على التحقيق إلا في سنة ٦٦٨ ؛ وكان فراغ المراكشي من إملاء كتابه في سنة ٦٢١ ، قبل انتهاء أجل الدولة ببضع وأربعين سنة ، فلم يتضمن الفصول الأخيرة من تاريخها ؛ فهو في تقدير القارئ الذي يريد أن يتتبع تاريخ الدولة كتاب يحتاج إلى تكميل ...

ومن أجل ذلك عمدتُ إلى وجه آخر من التكميل ، بزيادة فصول على الكتاب ، مميّزة بعلامات الزيادة وبالتنبيه في الهامش ، تصف الأحداث التي جرت على دولة الموحّدين منذ التاريخ الذي انتهى إليه عبد الواحد في إملائه ، إلى آخر عهد الموحّدين في المغرب والأندلس سنة ٦٦٨ ، ليكون عصر الموحّدين كاملاً بين دفتي كتاب لم يؤلّف عن دولة الموحّدين كتابٌ مثله ...

أما بعد فهذا كتاب « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » لم آلُ جهداً في إخراجه على أكمل وجه يمكن أن يخرج فيه لقراء العربية ، ولست أحاول أن أصف ما بذلت له من الجهد أكثر مما يصف هذا الجهدُ نفسه في كل صفحة من صفحاته .
أسأل الله أن يضاعف النفع به ، وأن يجعل عملي فيه خالصاً لوجهه الكريم ...

محمد سعيد العريان

مكتوب على الورقة الأولى من المخطوطة ما يأتي :

« قال الشيخ الفقيه العالم الحافظ محيي الدين أبو محمد عبد الواحد ابن علي جامع هذا الكتاب :

« سمع عليّ جميع هذا التلخيص الذي جمعته في أخبار المغرب مولانا الفقيه الإمام الفاضل الوزير صاحب عز الدين قدوة العلماء أَوْحد الفضلاء أكمل الوزراء خاصة أمير المؤمنين أبو الفتح عبد الله ابن القاضي الأجل الوزير الفاضل صاحب شمس الدين أبي محمد ... ار بن محمد بن شريف الزهرى جعل الله الزمان ببقائه و ... (١) الفاضل المتفنى أبو الفتح نصر ابن القاضي المخلص أبي محمد عبد الكريم بن يعلى وسمع بعضه الأمير الأجل الكبير المحترم شجاع الدين أبو نصر عيسى بن الأمير الأجل الكبير المحترم إلا ... (١) الا ... (١) نصه ... اللط ... (١) ... »

(١) غير مقروء بالأصل .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مفنى الأمم ، وباعث الرُّم ، وواهب الحكم ، [ذى] البقاء
والقِدم ، الذى لا مطمع فى إدراكه لشواقب الأذهان ونوافذ الهمم ؛ أحمدته
على ما علّم وألهم ، وسوّغ وأنعم ، وصلى الله على كاشف الظُّلم ، ورافع
التُّهم ، ومُوضح الطريق الأمم^(١) ، المخصوصين بنجوامع الكلم ، والمبتعثِ
إلى جميع العرب والعجم ، وعلى آله وصحبه أهل الفضل والكرم ، وسلّم
عليه وعليهم وشرفَ وعظّم .

وبعد - أيها السيد الذى توالى على نِعْمه ، وأخذ بضبغى^(٢) من
حضيضى الفقر والخمول اعتناؤه وكرمه ، وقضى إحسانه إلى ومحبتَه التى
جُبِلتُ عليها بأن ألتزم من بره وطاعته ما أنا مُلتزمه - فإنك سألتنى -
بؤاك الله أعلى الرتب ، كما عمّر بك أنديّة الأدب ، ومنحك من سعادتى
الدنيا والآخرة أوفر القِسم ، كما جمع لك فضيلتى التدبير والقلم -
إملاءً أوراق تشتمل على بعض أخبار المغرب وهيئته وحدود أقطاره ،
وشيء من سير ملوكه ، وخصوصاً ملوك المصامدة بنى عبد المؤمن ، من
لدى ابتداء دولتهم إلى وقتنا هذا - وهو سنة ٦٢١ - وأن ينضاف إلى ذلك

(١) الطريق القريب البين .

(٢) أخذ بضبغى : أخذ بيدي وانتشلنى . والضبع (بسكون ثانية) : العضد (وبضمه) :
الحيوان المعروف .

نبذة من ذكر من لقيته أو لقيت من لقيه أو رويت عنه بوجه ما من وجوه الرواية ، من الشعراء والعلماء وأنواع أهل الفضل ؛ فلم أر بُدأ من إسعافك والمسارة إلى ما فيه رضاك ؛ إذ هي الغاية التي أجرى إليها ، والبغية التي أثابر أبداً عليها ، ولوجوب طاعتك على من وجوه يكثّر تعدادها ؛ فاستخرت الله عز وجل فيما ندبتني إليه ، واستعنته واعتمدت في كل ذلك عليه ؛ فهو الموثل والملجأ ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

هذا مع أني أعتذر إلى مولانا - فسح الله في مدته - من تقصير إن وقع ، بثلاثة أوجه من الأعذار :

فأولها ضعف عبارة المملوك وغلبة العي على طباعه . فمهما وقع في هذا الإملاء من فتور لفظ ، أو إخلال بسرد ، فهو خليف بذلك .
والوجه الثاني أنه لم يصحبنى من كتب هذا الشأن شيء أعتمد عليه وأجعله مستنداً كما جرت عادة المصنفين ، وأما دولة المصامدة خصوصاً فلم يقع إليّ لأحد فيها تأليف أصلاً . خلا أني سمعت أن بعض أصحابنا جمع أخبارها واعتنى بسيرها ، وهذا المجموع لا أعرفه إلا سماعاً .

والوجه الثالث أن محفوظاتي في هذا الوقت على غاية الاختلال والتشتت ؛ أوجبت ذلك همومٌ تزدحم على خاطر ، وغموم تستغرق الفكر ، فرغبة المملوك الأصغر إجراء مولانا إياه على جميل عادته وحמיד خلقه من التسامح والتغاضي ، لا زال مجده العالي يرفع الهمم ، ويعقد الذمم ، ويوصل النعم ، ويعمر ربوع الفضل والكرم .

القِسْمُ الْأَوَّلُ
المَغْرِبُ قَبْلَ عَصْرِ المَوْحِّدِينَ

قصر

في ذكر جزيرة الأندلس وحدودها

فأول ما يقع الابتداء به ذكرُ جزيرة الأندلس^(١) وتحديدُها والتعريفُ بمدنها ونبيذ من أخبارها وسير ماوكها ، من لدن فتحها إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ ؛ إذ هي كانت معتمد المغرب الأقصى ، والمعتبرة منه ، والمنظور إليها فيه ، وهي كانت كرسى الملكة ، ومقر التدبير ، وأم قري تلك البلاد ؛ لم يزل هذا معروفاً من أمرها إلى أن تغلب عليها يوسف بن تاشفين اللمتوني^(٢) ؛ فصارت إذ ذاك تبعاً لمراكش من بلاد العدو^(٣) . ثم تغلب عليها المصامدة بعده^(٤) ، فاستمر الأمر على ذلك إلى وقتنا هذا ، فأقول وبالله التوفيق :

أما حدود جزيرة الأندلس فإن حدها الجنوبي ينتهي الخليج الرومي

(١) ليست جزيرة الأندلس جزيرة يدور بها الماء من جميع جهاتها ، فهي تتصل من الشرق بالأرض الكبيرة (فرنسا) ، وانما سميت جزيرة على المجاز ، كما سميت جزيرة العرب في آسيا جزيرة وليست كذلك .

(٢) يعني دولة المرابطين ، وسيرد ذكرها فيما يأتي من الكتاب .

(٣) العدو في الأصل : المكان المتباعد ، وشاطئ الوادي ، ويعنى بها هنا : بلاد الشاطئ ، الأفرقي ، أو المغرب الأقصى ، وقد يعنى بها في بعض ما يلي من الكتاب : الشاطئ الأندلسي ، وكلا التعبيرين صحيح .

(٤) يعني دولة الموحد بن بنى عبد المؤمن .

الخارج من بحر مانطس ، وهو البحر الرومى^(١) مما يقابل طنجة^(٢) ، في موضع يعرف بالزقاق ، سعة البحر هنالك اثنا عشر ميلا ؛ وهذا الخليج هو ملتقى البحرين ، أعنى بحر مانطس وبحر أقيانس^(٣) .
وحدها الشمالى والمغربى البحر الأعظم ، وهو بحر أقيانس المعروف عندنا ببحر الظلمة .

وحدها المشرقى الجبل الذى فيه هيكل الزهرة الواصل ما بين البحرين : بحر الروم وهو مانطس ، والبحر الأعظم ؛ ومسافة ما بين البحرين في هذا الجبل قريب من ثلاث مراحل ، وهو الحد الأصغر من حدود الأندلس .

(١) يعنى البحر المتوسط ، ومانطس عند الجغرافيين العرب القدماء هو اسم للبحر الذى نسميه الآن بحر آزوف ، ويستطرق بحر آزوف هذا الى البحر الأسود ، الذى يستطرق الى بحر مرمرة ، الى البحر المتوسط الذى كان يسميه القدماء بحر الروم ، فكانوا سماه المراكشى بحر مانطس وهو يعنى بحر الروم ، تبعا لاستطراق الماء الى اقضاء من ناحية المشرق .
(٢) مرفأ على الساحل الأفريقى من بلاد مراكش يطل على البحر والمحيط وطنجة مدينه عريقة ، كان اسمها عند الرومان طنيجيس (Tangus) وكان بها مولد الرحالة العربى الشهير ابن بطوطة .

(٣) هو الأوفياتوس ، أو المحيط الأطلسى ، نسبة الى سلسلة جبال اطلس التى شرف عابه من المشرق ، وله فى كتب القدماء أسماء شتى ، فهو الأوفياتوس ، وبحر الظلمات ، أو بحر الظلمة ، والبحر الأخضر ، والمحيط ، واليه بلغ عتبة بن نافع الفهري فى فتوحه فى القرن الاول للهجرة ، وعلى شاطئه وقف على صهوة جواده وقفه المانورة وهو يقول : اللهم رب محمد ، لولا انى لا أعلم وراء هذا البحر يابسة لا تحتمت بفرسى هذا الهول المائج لأنشر اسم مجدك العظيم فى أقصى حدود الدنيا . . . أو كما قال :

ترى ماذا كان يحدث لو أن عقبة كان يعلم يومئذ أن وراء ذلك الهول المائج بلادا وناسا
ودنيا تعدل فى الفنى والعمران سائر بلاد الدنيا القديمة !

ولكن أحفاد عقبة من عرب الأندلس قد علموا فيما بعد ، ووطئت أقدامهم ارض أمريكا قبل أن تطأها قدم كولبوس بستين ، ولكنهم ضيعوا الأمانة واقتلوا الفرصة ، فنسب فضل اكتشاف أمريكا دونهم الى الأسبان ! (انظر كتابنا العرب لا خروستوف كولبس !)

وقد يسمى هذا المحيط الأطلنطى ، نسبة الى « أطلنطا » وهى الجزيرة الرملية التى خف بها فى متاهات الصحراء الكبرى على ما جاء فى بعض الأساطير .

وحدّاهما الأكبران الجنوبي والشمالي مسافةً كل واحد منهما نحو من ثلاثين مرحلة .

وهذا الجبل الذى ذكرنا فيه هيكّل الزهرة ، الذى هو الحد المشرقى من الأندلس ، هو الحاجز ما بين بلاد الأندلس وبين بلاد إفرنسه من الأرض الكبيرة ، أرض الروم التى هى بلاد إفرنجة العظمى^(١) . والأندلس آخر المعمور فى المغرب لأنها كما ذكرنا منتهية إلى بحر أقيانس الذى لا عمارة وراءه^(٢) .

ومسافة ما بين طليطلة التى هى قريبة من وسط الأندلس ، ومدينة رومية قاعدة الأرض الكبيرة ، قريب من أربعين مرحلة . ووسط الأندلس كما ذكرنا مدينة طليطلة العتيقة ، التى كانت قاعدة القوطا من قبائل الإفرنج ، ثم ملكها المسلمون زمان الفتح على على ما سيأتى بيانه .

وعرضها تسع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، وطولها ثمان وعشرون درجة بالتقريب ، فصارت بذلك قريباً من وسط الإقليم الخامس .

وأقل بلاد الأندلس عرضاً المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، على البحر الجنوبي منها ، وعرضها ست وثلاثون درجة ؛ وأكثر مدنها عرضاً بعض المدائن التى على ساحلها الشمالى ، وعرض ذلك الموضع ثلاث وأربعون

(١) كل ما يلى شبه جزيرة الأندلس شرقاً الى القسطنطينية ، كان يسمى عند القدماء بالأرض الكبيرة ، أو بلاد إفرنجة ، وقاعدتها رومية .
(٢) كذلك كانت معارفهم الى ذلك الوقت ، قبل اكتشاف القارة الأمريكية .

درجة ، فتبين بما ذكرنا أن معظم الأندلس في الإقليم الخامس أميلُ إلى الشمال ، فلذلك اشتد بردها وطالت مدة الشتاء فيها وعظمت جسوم أهل ذلك الميل وابتضت ألوانهم وكانت أذهانهم إلى الغلظ ما هي ، فنبت عن كثير من الحكمة.

وطائفة من الأندلس في الإقليم الرابع ، كإشبيلية ومالقة وقرطبة وغرناطة والمرية ومريسية ، فهذه البلاد التي ذكرنا في الإقليم الرابع أعدل هواء وأطيب أرضاً وأعذب مياها من البلاد التي في الإقليم الخامس ، وأهلها أحسن ألواناً وأجمل صوراً وأفصح لغة من أولئك ؛ إذ كان للميول والسموت في اللغات تأثير بين لمن استقرأ ذلك وفهم علته^(١) .

وجملة مدن الأندلس التي هي أمهات قراها ومراكز أعمالها ومواضع مخاطبات أولى الأمر منها ، أولاهها في الحد الشمالى مدينة شلب ، ثم مدينة إشبيلية ، ثم قرطبة ، ثم جيان ، ثم أغرناطة^(٢) ، ثم المرية ، ثم مريسية ، ثم بكنسية ، ثم مالقة وهي على البحر الرومى .

فالذى على البحر الأعظم من هذه المدائن : شلب ، وإشبيلية^(٣) ، وبينهما قريب من خمس مراحل .

والذى على البحر الرومى المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، وهي

(١) نفرد المراكشى هنا قاعدة فى علم الأحياء وعلم النفس الاجتماعى لا نعرف احدا عرض لها قبله ، وذكرها ابن خلدون بعده بقرنين من الزمان .

(٢) كذلك نسمى ، كما تسمى غرناطة (بفتح فسكون) وكانت آخر ما بقى فى يد العرب حتى أجلاهم عنها الأسبان . ومعنى غرناطة بالاسبانية : الرمانه ، لأنها وسست الجبال التى تكتنفها نشبه الرمانه .

(٣) تقع اشبيلية على نهر الوادى الكبير ، الذى يصب فى البحر الاعظم : الاطلسى .

من أعمال إشبيلية ؛ ثم مالقة ، وهى مستقلة ، ثم المريّة ، ثم دانية ؛
هذه كلها على البحر الرومى .

ثم سائر ما ذكرنا من المدن ليست على ساحل .
ولما استقر أمر المسلمين بالأندلس فى غرة المائة الثانية تخيروا مدينة
قُربطبة فجعلوها كرسىّ المملكة ومقرّ الإمارة ، فلم تزل على ذلك إلى أن
انقرضت دولة بنى أمية بالأندلس فتغلّب على كل جهة من الجزيرة
متغلّبٌ على ما سيأتى بيانه .

وهذه المدن التى ذكرتُ هى التى يملكها المسلمون اليوم ، وقد كانوا
يملكون قبلها مدناً كثيرة لم أذكرها فى هذا الموضع ؛ إلا أن ذكرها سيرد
فيما يأتى من تفصيل أخبار الأندلس ، تعرف ذلك بقولى « أعادها
الله للمسلمين » .

فهذه جملة من أخبار الأندلس وحدودها وبلادها الكائنة بأيدي
المسلمين .

ذكر فتح جزيرة الأندلس

ولع من تفصيل أخبارها وسير ملوكها
ومن كان فيها من الفضلاء منها ومن غيرها

ثم نعود إلى افتتاحها فنقول والله الموفق :

افتتح المسلمون جزيرة الأندلس في شهر رمضان سنة ٩٢ من الهجرة ، وكان فتحها على يد طارق ، قيل ابن زياد ، وقيل ابن عمرو ، وكان والياً على طنجة - مدينة من المدن المتصلة ببحر القيروان^(١) في أقصى المغرب ، بينها وبين الأندلس الخليج المذكور المعروف بالزقاق ، وبالمجاز رتبته موسى بن نصير أمير القيروان ؛ وقيل إن مروان بن موسى بن نصير خلف طارقاً هناك على العساكر وانصرف إلى أبيه لأمرٍ عرض له ، فركب طارق البحر إلى الأندلس من جهة مجاز الجزيرة الخضراء ، منتهزاً لفرصة أمكنته . . .

وذلك أن الذي كان يملك ساحل الجزيرة الخضراء وأعمالها من الروم^(٢) خطب إلى الملك الأعظم ابنته ، فأغضب ذلك الملك ، ونال منه وتوعدده ، فلما بلغه ذلك جمع جموعاً عظيمة وخرج يقصد بلد الملك ، فبلغ طارقاً خلواً تلك الجهة ، فهذه الفرصة التي انتهزها . . .

(١) مدينة عظيمة بالمغرب ، بناها عقبة بن نافع سنة ٤٥ هـ وجعلها معقلاً وحصناً لعسكره ، ومقر لولاية إفريقية ، واليها ينسب الحسن بن رشيق صاحب (العمدة) . والقيروان في اللغة : القافلة تخرج للغزو .

(٢) يذكر المراكشي فيما يلي سببين لدخول طارق الأندلس ، خلاصتهما أن الذي حجب إليه ذلك هو حاكم الجزيرة الخضراء من قبل ملك القوط ، وعند غيره من المؤرخين أن الذي دعاه إلى

وقيل إن العليج كتب إليه بالعبور لسبب أنا ذاكره ، وهو أن لُذْرِيقَ
ملك الجزيرة - لعنه الله - كان له رسمٌ : يوجّه إليه أعيان قواده
و[أمرء دولته] ببنايتهم ، فيرביهن عنده في قصوره ويؤدّهن بالآداب
الملوكية حسبما كانوا يرونه ؛ فإذا بلغت الجارية منهن وحسن أدبها ،
زوَّجها في قصره لمن يرى أنه كفء أبيها ، فوجّه إليه صاحب الجزيرة
الخضراء وأعمالها بابنته على الرسم المذكور ، فكانت عنده إلى أن
بلغت مبلغ النساء ، فرآها يوماً فأعجبته ، فدعاها فأبّت عليه ، وقالت
لا والله حتى تُحضِرَ الملوك والقواد وأعيان البطارقة وتتزوجني ، هذا بعد
مشورة أبي . فغلبته نفسه واغتصبها على نفسها ، فكتبت إلى أبيها تُعلمه
بذلك ؛ فهذا كان السبب الذي بعثه على مكاتبه طارق والمسلمين فكان
الفتحُ ، فالله أعلم أي ذلك كان .

فأول موضع نزل فيه يقال منها : المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء
اليوم : نزلها قبيل الفجر ، فصلى بها الصبح بموضع منها وعقد الرايات
لأصحابه ، فبقي بعد ذلك هناك مسجد وعرف بمسجد الرايات ، وهو
باق إلى وقتنا هذا ، أسأل الله إبقائه إلى أن تقوم الساعة . . .

... الفزرو كان حاكماً لسببة أو طنجة ، على الشاطئ الغربي . ويصفه ابن القوطية بأنه كان تاجراً
من تجار المعجم ، يعني الروم ، أو القوط ، لا أميراً من أمرائهم ولا حاكماً من حكامهم ، واسمه
بوليسان ، وكان يختلف من الأندلس إلى بلاد المغرب ، ويطلب إلى لذريق ، ملك القوط ، عتاق
الخيول والبراة من ذلك الجانب ، فتوفيت زوجة ذلك التاجر وترك له ابنة جميلة ، فأمره لذريق
بالتوجه إلى العدو ، فاعنذر له بوفاة زوجته وأنه ليس له أحد يترك ابنته معه ، فأمر بإدخالها
للمقصر ، ف وقعت عين لذريق عليها ، فاستحسنها ، فأنالها ، فأعلنت أباها بذلك عند فدومه . . .
فقصد طارق بن زياد فرغبه في الأندلس وذكر له شرفها وضعف أهلها وأنهم ليسوا أهل
شجاعة . . .

ثم دخل طارق هذا الأندلس وأمعن فيها واستظهر على العدو بها ، وكتب إلى موسى بن نصير مُؤيِّيه بخبر الفتح وغلَّبته على ما غلب عليه من بلاد الأندلس وما حصل له من الغنائم ، فحسده موسى على الانفراد بذلك ، وكتب إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان يُعلمه بالفتح وينسبه إلى نفسه وكتب إلى طارق يتوعده إذ دخلها بغير إذنه ، ويأمره ألا يتجاوز مكانه الذى ينتهى إليه الكتاب فيه حتى يلحق به ، وخرج متوجهاً إلى الأندلس ، واستخلف على القيروان ابنه عبد الله ، وذلك فى رجب من سنة ٩٣ ، وخرج معه حبيب بن أبى عبدة الفهرى^(١) ووجوه العرب والموالى وعرفاء البربر فى عسكر ضخم ، ووصل من جهة المجاز إلى الأندلس وقد استولى طارق على قرطبة دار المملكة وقتل لذريق الملك - لعنه الله - بالأندلس ، فتلقاه طارق وترضاه ، ورام أن يستل ما فى نفسه من الحسد له ، وقال له : إنما أنا مولاك ومن قبلك ، وهذا الفتح لك وبسببك . وحمل طارق إلى ما كان غنم من الأموال ؛ فلذلك نُسب الفتح إلى موسى بن نصير ، لأن طارقاً من قبيله ، ولأنه أتم من الفتح ما كان بقى على موسى .

وأقام موسى بالأندلس مجاهداً وجامعاً للأموال ومرتباً للأموال بقية سنة ٩٣ وسنة ٩٤ وأشهرًا من سنة خمس وتسعين ، وقبض على طارق ، ثم استخلف على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى ، وترك معه من العساكر ووجوه القبائل من يقوم بحماية البلاد وسد الثغور وجهاد العدو ، ورجع إلى القيروان ، ثم سار منها بما حصل له من الغنائم وأعدّه من الهدايا إلى

(١) فى عبره : حبيب بن أبى عبدة • جده عقبه بن نافع الفهرى صاحب الفتح فى افريقية .

الوليد بن عبد الملك - وكان بما وُجد بمدينة طُلَيْطَلَة حين فتحها ، مائدةُ سليمان بن داود عليهما السلام ، فيقال إنها طوق ذهب وطوق فضة ، مكلفة باللؤلؤ والياقوت - ومعه - فيما يقال - طارق ، فمات الوليد وقد وصل موسى إلى طبرية في سنة ٩٦ ، فحمل ما كان معه إلى سليمان بن عبد الملك ؛ ويقال إنه وصل وأدرك الوليد حيا ، فالله أعلم .

وأقام عبد العزيز بن موسى بن نصير أميراً على الأندلس إلى أن ثار عليه من الجند جماعة ، فيهم حبيب بن أبي عبدة الفهرى ، وزياد بن النابغة التميمي ، فقتله بعضهم ، وخرجوا برأسه إلى سليمان بن عبد الملك - وذلك في صدر سنة ٩٨ - (١) بعد أن أمروا على الأندلس أيوب ابن أخت موسى بن نصير (٢) ؛ ويقال إنهم كتبوا إلى سليمان بما أنكروا من أمره ، فأمرهم بما فعلوه ، فالله أعلم .

ثم اختلف الأمر هنالك ، ومكث أهل الأندلس بعد ذلك زماناً لا يجمعهم وال ، ثم ولّى عليها السَّمْعُ بن مالك الخولاني قبل المئة (٣) ، ا
 واجتمع عليه الناس

(١) كان مقتله في المسجد وهو قائم لصلاة الصبح ، وكان قد اتخذ داراً في كنيسة نشرف على مرج اشبيلية ، وأخذ امرأةً للربق القوطية وسماها أم عاصم ، وأواها إلى داره تلك ، وابتنى على باب الدار مسجداً هو الذي فنل فيه ، ويروى أن دمه قد بقى في ذلك المسجد زماناً .

(٢) هو أيوب بن حبيب اللحى .

(٣) كانت الأندلس يومئذ إلى وإلى أفريقية يولى عليها من يختار ، وكانت ولاية أفريقية بعد عزل موسى بن نصير إلى عبد الله بن يزيد مولى قيس ، فولى على الأندلس من قبله الحر بن عبد الرحمن ، فلم يزل عليها حتى استخلف عمر بن عبد العزيز ، فجعل على أفريقية اسماعيل ابن عبد الله مولى بني مخزوم ، وعلى الأندلس السَّمْعُ بن مالك الخولاني .

ثم ولي عليها الغمر بن عبد الرحمن بن عبد الله (١) .
ثم وليها عنيسة بن سحيم الكلبي وعُزل الغمر بن عبد الرحمن .
ثم وليها عبد الرحمن بن عبد الله العكبي نحواً من العشر ومئة ، وكان رجلاً صالحاً .

ثم وليها عبد الملك بن قطن الفهري ،
ثم عُقبة بن الحجاج ، فهلك عُقبة بالأندلس ورُدَّ عبد الملك بن قطن .
ثم جاء بلج بن بشر فادعى ولايتها من قبل هشام بن عبد الملك ، وشهد له بعض من كان معه ، ووقعت فتن من أجل ذلك ، واقترب أهل الأندلس فيها على أربعة أمراء ، حتى أرسل إليهم والياً أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، فحسم مواد الفتن ، وجمعهم على الطاعة بعد الفرقة .
وفي تقديم بعض هؤلاء الأمراء على بعض اختلاف ، إلا أن هؤلاء المذكورين كانوا أمراءها وولاة الحروب فيها أيام بني أمية قبل ذهاب دولتهم في المشرق (٢) .

(١) في غيره : الحر بن عبد الرحمن القيسي .
(٢) لم يتفق اثنان من رواة التاريخ - فيما وقفنا عليه - على تسمية الأمراء في هذه الفترة أو تعاقبهم ، فثمة التقص والزيادة والتقديم والتأخير ، وإنما كان ذلك لأن الأندلس لذلك العهد لم تكن خالصة للتبعية إلى الخليفة الأموي في دمشق ، بل كانت تتبعه حيناً وحيناً تتبع وإلى إفريقية ، ومن ثمة كان هذا الاختلاط والاختلال .

ذكر من دخل الأندلس من التابعين

وأناذاكرها هنا من دخل الأندلس من التابعين للجهاد والرباط :
فمنهم محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري ، يروى عن أبي هريرة .
ومنهم حنش بن عبد الله الصنعاني يروى عن علي بن أبي طالب
وفضالة بن عبيد .
ومنهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، يروى عن عبد الله بن عمر بن
الخطاب .
ومنهم يزيد بن قاسط (١) ، وقيل ابن قسيط ، السكسكي المصري ،
يروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص .
ومنهم موسى بن نصير الذي يُنسب الفتح إليه ، يروى عن تميم الداري .

(١) في غيره : زيد بن قاصد .

فصل

في فضل المغرب

وقد جاء في فضل المغرب غير حديث ، فمن ذلك ما حدثني الفقيه الإمام المتقن المتقن أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل انشيباني سماعا عليه بمكة في شهر رمضان من سنة ٦٢٠ قال : حدثني المؤيد بن عبد الله الطوسي قراءة عليه بنيسابور قال : حدثنا الإمام كمال الدين محمد بن أحمد بن صاعد القراوى قراءة عليه قال : حدثنا ابن عبد الغافر الفارسي : حدثنا محمد ابن عيسى بن عمرويه الجلودى : حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن سفيان حدثنا أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري قال : حدثنا يحيى بن يحيى عن هشام بن بشر الواسطي عن داود بن أبي هند عن أبي عثمان النهدي عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة » .

ومن فضل الأندلس أنه لم يُذكر قطُّ أحدٌ على منابرها من السلف إلا بخير^(١) .

(١) يشير الى بعض ما كان في الشرق نتيجة للتنافس على الخلافة، فقد كان بنو امية يسبون عليا على منابر دمشق ، وكان بعض الشيعة في بلاد الشرق ينالون من الشيخين أبي بكر وعمر ، وكان العبيديون في مصر يذكرون معاوية ويزيد بالسوء : واتسعت الفتنة في ذلك حتى اثم به كل من خاض فيه ، ويرى المغرب والأندلس من ذلك الشر ! .

فصل

اول الاختلال في الاندلس

وما زالت الولاة بالأندلس تليها من قبل بنى أمية أو من قبل من يقيمونه بالقيروان أو بمصر ، فلما اضطرب أمرهم في سنة ١٢٦ بقتل الوليد بن يزيد ابن عبد الملك ، اشتغلوا عن مراعاة أقاصى البلاد ، ووقع الاضطراب بأفريقية والاختلاف بالأندلس أيضاً بين القبائل ، ثم اتفقوا بالأندلس على تقديم قرشى يجمع الكلمة إلى أن تستقر الأمور بالشام لمن يخاطب ، ففعلوا ، وقدموا يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، فسكنت به الأمور ، واتفقت عليه القلوب ؛ واتصلت إمارته إلى سنة ١٣٨ بعد ذهاب دولة بنى أمية بست سنين^(١) .

(١) في جلدوة المقتبس بعد ذلك : « وكان ذهاب دولتهم جملة بقتل مروان بن محمد بن مروان بن الحكم في بعض نواحي القيوم من أعمال مصر في آخر ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومئة بعد بيعة أبى العباس السفاح بتسعة أشهر » .

ذكر خبر دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس

وفي هذه السنة دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأندلس ، الملقب بالداخل ؛ فقامت معه اليمانية ، وحارب يوسف ابن عبد الرحمن بن أبي عبدة^(١) بن عقبة بن نافع الفهري الوالي على الأندلس المذكور آنفاً ، فهزمه ؛ واستولى عبد الرحمن على قرطبة دار الملك ، وكان دخوله إياها يوم الأضحى من السنة المذكورة ، فاتصلت ولايته إلى أن مات سنة ١٧٢ .

وكان مولده بالشام سنة ١١٣ ، أمه أم ولد اسمها « راح »^(٢) ويكنى أبا المطرف ، دخل الأندلس في ذي القعدة ، واستولى على قرطبة دار مملكها في التاريخ المذكور .

وذلك أنه هرب من الشام لما انتشرت دولة بني العباس ، فلم يزل مستتراً ينتقل في بلاد المغرب حتى دخل الأندلس ، ودخل حين دخلها طريداً وحيداً لا أهل له ولا مال ، فلم يزل يُصرفُ حيله ويسمو بهمته والقدر مع ذلك يوافقه ، إلى أن احتوى على مملكها وملك بعض بلاد العدو ؛ وكان أبو جعفر المنصور إذا ذكر عنده قال : « ذاك صقر قريش »^(٣)

(١) انظر الهامش ص ١٢٤ .

(٢) كانت أمه « راح » بربرية ، من بني نمرة في طرابلس ، وكذلك كانت أم أبي جعفر المنصور بربرية ، فما أعجب التوافق بين الرجلين في الصرامة وبعد الهمة والاجتهاد على العظام ، وكلاهما أمه جارية من البربر .

(٣) روى ابن خلدون أن بني أمية لما نزل بهم بالشرق ما نزل وغلبهم بنو العباس على الخلافة وأزالوهم عن كرسياها وتبعوا بني أمية بالقتل ، كان ممن أفلت منهم عبد الرحمن بن معاوية هذا ، وكان قومه يتحينون له ملكاً بالمغرب ويرون فيه علامات لذلك ياترونها عن مسلمة ابن عبد الملك (عم أبيه) . فكان يحدث نفسه بذلك ، فخلص إلى المغرب ونزل على أخواله بني

وكان عبد الرحمن بن معاوية من أهل العلم ، وعلى سيرة جميلة من العدل ؛ ومن قضاته معاوية بن صالح الحضرمي الجُمُصِي (١) ، وله أدب وشعر ، وما أنشدونا له يتشوق إلى معاهده بالشام قوله (٢) :

أَيُّهَا الرَّاكِبُ الْمُيَّمِّمُ أَرْضِي إقْرَ مِنْ بَعْضِي السَّلَامَ لِبَعْضِي
 إِنْ جَسَمِي كَمَا عَلِمْتَ بِأَرْضِي وَفَوَادِي وَمَالِكِي بِأَرْضِي
 قُدِّرَ الْبَيْنُ بَيْنَنَا فَافْتَرَقْنَا وَطَوَى الْبَيْنُ عَنْ جَفَوْنِي غَمَضِي
 قَدْ قَضَى اللَّهُ بِالْغُرَاقِ عَلَيْنَا فَعَسَى بِاجْتِمَاعِنَا سَوْفَ يَقْضِي !

وله شعر كثير أبرع من هذا أورده المؤرخون في كتبهم (٣) .

نقرة ، واستنصر بفوم من زناتة ، ثم انتقل الى مكناسة فمليه وبعث مولاة بدرا الى اشباع بنى مروان فى الاندلس يستنصرهم ، فاجتمعوا عليه وبنوا له فى الاندلس دعوة ونشروا له ذكرا ، ووافق فدومه ما كان من الاحن بين اليمينية والمضرية ، فاجتمعت اليمينية على نصرته كيدا ليوسف بن عبد الرحمن الفهري ، وعبر عبد الرحمن المجاز والظروف مواتية ، ونشبت الحرب بينه وبين يوسف وهو ينتصر فى موقعة اترموقة ، حتى غلب يوسف على امره واحتز رأسه ودخل فرطبة حاضرة الملك ...

وظل عبد الرحمن الداخل يدعو للمنصور على منابر الاندلس زمانا ثم قطع دعوته ، ولكنه اكفى من ذلك بلقب الأمر نادبا مع الخلافة ، وظل خلفاؤه من بعده مقتصرين على لقب الامارة حتى كان عقبة بن عبد الرحمن الناصر ، وهو الثامن من امراء بنى أمية بالاندلس ، فتسمى بأمير المؤمنين ، كان ذلك حين ضعف امر الخلافة العباسية فى بغداد بعد المئة الثالثة ، وتوارث ابنائهم الامارة من بعده الى ان كانت آخرة الدولة المروانية فى الاندلس .

(١) فى الجذوة : معاوية بن طليح الحضرمي .

(٢) كتب بها الى اخته بالشام .

(٣) روى أن بعض اهله استقل ما رتب له من العطاء ، فكتب اليه يذكره بحقه ويسأله زيادة عطائه . وكانما شعر عبد الرحمن بعض المن فى كتاب قريبة هذا المرواني ، فكتب اليه مجيبا :

شَتَّانَ مَنْ قَامَ ذَا أَمْتَعَاضٍ مَنْتَضِي الشَّفَرَتَيْنِ نَصْلَا
 فِجَابٍ قَفْرًا ، وَشَقَّ بَحْرًا ، مُسَامِيًا لَجَّةً وَمَخْلَا =

وكانت مدة ولايته منذ استولى على قرطبة دار الملك إلى أن تُوفى ،
اثننتين وثلاثين سنة .

= دبر مُلكا ، وشاد عزّا ومنبراً للخطاب فصلا
وجند الجند حين أودى ومصر المصر حين أجلى
ثم دعا أهله إليه حيث أنشأوا أن هلمّ أهلا
فجاء هذا طريد جوع شديد روع يخاف قتلا
فنال أمناً ، ونال شبعاً ، ونال مالا ، ونال أهلا
ألم يكن حقّ ذا على ذا أعظم من مُنعم ومولى !

وبرى هذا الشعر على وجه آخر لسبب آخر ، ذلك ان جماعة من القادمين عليه من قبل الشام كانوا يتحدثون في مجلسه عن شجاعة الغمر بن يزيد بن عبد الملك في مجلس عبد الله ابن على السفاح أيام المحنة ، حين جبهه بالمعارضة لم نردعه هبة مجلسه ولا سيوف شيعته الحافين من حوله ، مستطيلا بنسبه وآله والملوك من آبائه ، حتى اغص عبد الله بن على يريقه ، لم يسكت حتى تناولته سبوف بنى العباس تمزقه ...

فكان الأمر عبد الرحمن حين استنمع الى حديث أولئك القوم في التنويه بشجاعة الغمر بن يزيد قد استصغر ذلك منه ورأى نفسه فيما بلغ بهمه اعظم قدرا منه ، وقال ذلك الشعر ...
* وبلعه وقد استقامت له الدولة ان بعض من اعانه يمن عليه بما بذل له من المعونة وبزعم انه لولا جهده ما بلغ الداخل مبلغا ، وأنه نال ما نال بسعده لا بتدبيره وعقله ، فحرك ذلك عبد الرحمن الى شعر يروى له ، وهو :

لا يُلفَ مُمتنٌ علينا قائلٌ : «لولاى ما ملك الأنام الداخلُ»
سعدى وحزمى والمهند والقنا ومقادرٌ بلغتُ وحالُ حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب نجمٌ يطالعنا ونجمٌ آفل
والحزمُ كلُّ الحزم ألا يغفلوا أيروم تدبيرَ البرية غافل ؟
ويقول قومٌ سعدُه لا عقلُه خيرُ السعادة ما حماها العاقل =

ولاية الامير هشام بن عبد الرحمن

ثم ولى بعد عبد الرحمن ابنه هشام ، يكنى أبا الوليد ، وسنه حينئذ ثلاثون سنة ، واتصلت ولايته سبعة أعوام إلى أن مات في صفر سنة ١٨٠ وكان حسن السيرة ، متحريراً للعدل ، يعود المرضى ، ويشهد الجنائز ، ويتصدق بالصدقات الكثيرة ، وربما كان يخرج في الليالي المظلمة الشديدة المطر ومعه صُرر الدراهم يتحرى بها المساكين وذوى البيوتات من الضعفاء ؛ لم يزل هذا مشهوراً من أمره إلى أن مات في التاريخ المذكور . أمه أم ولد اسمها حوراء (١) .

= أبني أمية قد جبرنا صدعكم بالغرب رغما والسعود قبائل
ما دام من نسلي إمام قائم فالملك فيكم ثابت متواصل

* ومن شعره وقد رأى نخلة فى دصافة بقرطبة :

تَبَدَّتْ لَنَا وَسَطُ الرُّصَافَةِ نَخْلَةٌ تَنَاءَتْ بِأَرْضِ الْغَرْبِ عَنْ بِلْدِ النَّخْلِ
فَقُلْتُ شَبِيهَى فِي التَّغْرِبِ وَالنَّوَى وَطَوَّلِ اكْتِثَابِي عَنْ بَنِي وَعَنْ أَهْلِ
نَشَأْتُ بِأَرْضٍ أَنْتَ فِيهَا غَرِيبَةٌ فَمِثْلُكَ فِي الْإِقْصَاءِ وَالْمُنْتَأَى مِثْلِي
سَقَّتْكَ غَوَادِي الْعُزْنِ فِي الْمُنْتَأَى الَّذِي

يَصْحُ وَيَسْتَمْرِي الْمَسَاكِينَ بِالْوَبْلِ

(١) فى نفع الطيب أن أمه اسمها حوراء .

ولاية الحكم بن هشام الملقب بالريفي

ثم ولي بعده ابنه الحكم وله اثنتان وعشرون سنة ، يكنى أبا العاص ، أمه أم ولد اسمها زُخرف ، وكان طاغياً مسرفاً ، وله آثار سوء قبيحة ، وهو الذي أوقع بأهل الرِّبَض الواقعة المشهورة ^(١) ، فقتلهم وهدم ديارهم ومساجدهم ؛ وكان الرِّبَض محلة متصلة بقصره ، فاتهمهم في بعض أمره ، ففعل بهم ذلك ، فسمى الحكم الربضي لذلك.

وفي أيامه أحدث الفقهاء إنشاء أشعار الزهد والحض على قيام الليل في الصوامع . أعنى صوامع المساجد ، وأمروا أن يخلطوا مع ذلك شيئاً من التعريض به ، مثل أن يقولوا : « يا أيها المسرف المتأدى في طغيانه ، المصّر على كبره . المتهاون بأمر ربه ، أفق من سكرتك ، وتنبه من غفلتك ... » وما نحا هذا النحو ؛ فكان هذا من جملة ما هاجه وأوغر صدره عليهم ،

(١) يقابل هذه الواقعة ان الحكم الربضي عدا في صدر ولايته قد انهك في لذاته ومبازله حتى اشتهر أمره وتعقبه الناس بالسنتهم ، وكان العقهاء يومئذ هم فادة الرأي في البلاد ، فاجتمع منهم بقرطبة جماعة من اهل العقه والورع ، منهم يحيى بن يحيى الليثي ، وطالوت بن عبد الجبار المعافري ، كلاهما من اصحاب مائك بن انس ومن رواة الموطأ ، فناروا به يريدون خلعهم واقامة أخيه المدبر بن هشام مكانه ، وكان اجتماعهم بالربض الغربي من قرطبة ، ثم زحفوا الى قصره ، فقاتلهم الحكم فغلبهم وهدم دورهم ومساجدهم ، وفر من بقي منهم على وجهه ، فمنهم من لحق بمس من ارض المدرة ، ومنهم من لحق بالاسكندرية من ارض المشرق ، ثم لم يلبث هؤلاء الذين لحقوا بالاسكندرية أن ناروا بها ثورة اخرى ، وكانت مصر يومئذ الى عبد الله بن طاهر من قبل المأمون ، فزحف اليهم عبد الله بن طاهر وغلبهم ، ففروا من وجهه الى اقريطش (كريت) فلم يزالوا بها الى أن ملكها الافرنج من أيديهم بعد مدة .

وكان أشدَّ الناس في أمر هذه الفتنة الفقهاء ، هم الذين كانوا يحرضون العامة ويشجعونهم ، إلى أن كان من أمرهم ما كان .

وحكى أبو مروان بن حيان صاحب أخبار الأندلس ، أنه لما تُسُوِّر عليه القصرُ وأُحس بالشر ، قال لأخص غلمانه : اذهب إلى فلانة ، إحدى كرائمه ، وقل لها تعطيك قارورة الغالية ^(١) . فأبْطأ الغلام وتلكأ ، فأعاد ذلك عليه ، فقال : يا مولاي ، هذا وقت الغالية ؟ فقال له : ويلك يا ابن الفاعلة ! بم يُعرف رأسى إذا قطع من رؤوس العامة إن لم يكن مضمخاً بالغالية ؟ ثم إنه ظهر بعد هذا عليهم ، وذلك أنهم كانوا يقاتلون القصرَ وعامة الحشم والجند يشغلونهم إلى أن دهمتهم الخيلُ من ورائهم ، فانهزموا وقُتلوا قتلاً قبيحاً ، وأمر بديارهم ومساجدهم فهدمت وحُرِّقت ، وأمر بنفى من بقى منهم عن البلاد ، فخرجوا حتى نزلوا جزيرة إقريطش من جزائر البحر الرومى المواجهة لبر برقة أول المغرب ، فلم يزلوا هنالك سنين إلى أن تفرقوا ، فرجع بعضهم إلى الأندلس ، واختار بعضهم سكنى صِقلِيَّة ، وانتقل بعضهم إلى الإسكندرية ^(٢) .

ومن أعجب ما حكى أبو مروان بن حيان المورخ مما يتصل بخبر هذه الواقعة ، قال : كان من أشد الناس على الحكم هذا تحريضاً ، رجلاً من الفقهاء اسمه طالوت ^(٣) كان جليل القدر في الفقهاء ، رحل إلى المدينة وسمع من مالك بن أنس وتفقه على أصحابه ، وكان قوياً في دينه ،

(١) الغالية : نوع من العطر .

(٢) ارجع الى ما ائبتناد في التعليق رقم ١ ص ٤٤ فيه بعض خلاف لما يذكره المراكشي .

(٣) هو طالوت بن عبد الجبار الماعزى .

فلما أوقع الحكم بأهل الریض - كما ذكرنا - وأمر بتغریب من بقى منهم ، كان ممن أمر بتغریبه طالوت الفقیه ، فعسر علیه الانتقال ومفارقة الوطن ، ورأى الاختفاء إلى أن تتغیر الأحوال ، فاستخفی فی دار رجل یهودی سنة كاملة ، والیهودیُّ فی کل ذلك یکرمه أبلغ الکرامة ، وبعظمه أشد التعظیم ؛ فلما مضت السنة طال علی الفقیه الاختفاء ، فاستدعی الیهودیُّ وشکره علی إحسانه إلیه ، وقال له : قد عزمت غداً علی الخروج وقصیدِ دارِ فلان الكاتب ^(١) ، لآنه قرأ علیّ ولی علیه حقّ التعلیم ، وقد بلغنی أن له جاها عند هذا الرجل ، فعسى هو یشفع لی عنده فیومنی ویدعنی فی بلدی ! فقال له الیهودی : یا مولای ، لا تفعل ، فما آمنهم علیک ! وجعل یحلف له بكل یمین یعتقده ، أنه لو أقام عنده بقية عمره ما أمّله ذلك ولا ثقل علیه ؛ فآبى إلا الخروج ، فخلی بینه وبين ذلك ؛ فخرج حتی آتى دارَ ذلك الكاتب بغلّس ، فاستأذن علیه فأذن له ، فلما دخل علیه رَحّب به وأدنی مجلسه ، وسأله أين كان فی هذه المدة ؛ فقَصَّ علیه قصته مع الیهودی ، ثم قال له : اشفع لی عند هذا الرجل حتی یومنی فی نفسی ویمنّ علیّ بترکی فی بلدی ! فوعده بذلك ، وركب من فوره ودخل علی الحكم ، فقال ^(٢) [له کل ما سمع من طالوت ،

(١) هو ابو البسام الکاتب وزیر الحكم بن هشام الریضی ، علی ما حکاه صاحب نعی الطیب .

(٢) من هنا یبدأ النقص الذی اشرنا الیه فی تقدیم الکتاب ، الی السطر . ١٥ . من ص ٦٧ وما بین العلامتین () هو الزیادة الّتی نقلناها عن حذوة المقبیس أو عن غیره لنکمیل ذلك النقص . وقد جعلنا النجمة الواحدة (*) فی آخر کل اقتباس من الجنوة ، والنجمتین (**) فی آخر کل اقتباس من غیره ، استغناء بهذا الرمز عن التعليق فی هامش الکتاب عند کل زیادة .

ووشى به إليه ؛ فأحضره الحكم إليه فعنفه ووبّخه ، فقال له طالوت : كيف يحل لي أن أخرج عليك وقد سمعت مالك بن أنس يقول : « سلطان جائر مدة خير من فتنة ساعة » ؟ قال الحكم : الله تعالى لقد سمعت هذا من مالك ؟ قال طالوت : اللهم إني قد سمعته . قال : فانصرف إلى منزلك وأنت آمن . ثم سأله أين استتر ، فقال : عند يهودى من مدة عام ، ثم إني قصدتُ هذا الوزير فغدر بي ! فغضب الحكم على أبي البسام وعزله عن وزارته ، وكتب عهداً ألا يخدمه أبداً ؛ فرؤى أبو البسام الكاتب بعد ذلك فى فاقة وذل ، فقليل : استجيب فى دعوة الفقيه طالوت ، رحمه الله تعالى (*) .

[واتصلت ولاية الحكم بن هشام إلى أن مات فى آخر ذى الحجة سنة ست ومئتين (**)] .

ولاية عبد الرحمن بن الحكم

[ثم ولى بعده ابنه عبد الرحمن وله ثلاثون سنة ، ويكنى أبا المطرف ،
وأمه أم ولد اسمها حلاوة] (*)

[ويعرف الأمير عبد الرحمن بالأوسط ، لأن الأول عبد الرحمن الداخل
والثالث عبد الرحمن الناصر] (**)

[وكان وادعاً محمود السيرة (*) ... عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة ،
وكانت أيامه أيام هدوء وسكون ، وكثرت الأموال عنده ، واتخذ القصور
والمنتزهات وجلب إليها المياه من الجبال ، وجعل لقصره مصنعاً اتخذ
الناس شريعة^(١) ، وأقام الجسور . وبني بالأندلس جوامع كثيرة
ورتب رسوم المملكة ، واحتجب عن العامة .

[وكان مولعاً بالسمع مؤثراً له على جميع لذاته ، قدم عليه زرياب المغنى
من العراق ، فركب بنفسه لتلقيه ، وبالغ في إكرامه ، وأقام عنده بخير
حال ، وأورث صناعة الغناء بالأندلس] (**)

[واتصلت ولايته إلى أن مات في صفر سنة ثمان وثلاثين ومئتين] (*)

(١) المصنع : حوض يتخذ ليجمع فيه ماء المطر - والنريعة : المورد العام .

ولاية الأمير محمد بن عبد الرحمن

[ثم ولي بعده ابنه محمد ، وأمه أم ولد اسمها تهتر^(١) ، فاتصلت ولايته إلى أن مات في آخر صفر سنة ثلاث وسبعين ومئتين (*) ...
لخمس وثلاثين سنة من ولايته ، ومولده سنة سبع ومئتين] (**)

[قال أبو محمد علي بن أحمد : وكان محباً للعلوم ، مؤثراً لأهل الحديث ، عارفاً ، حسن السيرة ، ولما دخل الأندلس أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد بكتاب «مصنف أبي بكر بن أبي شيبة» وقرئ عليه أنكر جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف واستشنعوه وبسطوا العامة عليه ومنعوه من قراءته ، إلى أن اتصل ذلك بالأمير محمد ، فاستحضره واستحضر الكتاب كله ، وجعل يتصفح جزءاً جزءاً إلى أن أتى على آخره - وقد ظنوا أنه يوافقهم في الإنكار عليه - ثم قال لخازن الكتب . هذا كتاب لا تستغنى خزانتنا عنه فانظر في نسخه لنا . ثم قال لبق بن مخلد : انشر علمك وارو ما عندك من الحديث واجلس للناس حتى ينتفعوا بك - أو كما قال - ونهاهم أن يتعرضوا له] (*)

[بقي بن مخلد]

[بقي بن مخلد أبو عبد الرحمن من حفاظ المحدثين وأئمة الدين

(١) في بعض المراجع : تهتر .

والزهاد الصالحين ، رحل إلى المشرق فروى عن الأئمة وأعلام السنة^١ منهم الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل ، وأبو بكر عبد الله بن محمد ابن أبي شيبة ، وأحمد بن إبراهيم الدورقي . وجماعة أعلام يزيدون على المتئين ، وكتب المصنفات الكبار والمنشور الكثير ، وبالغ في الجمع والرواية ورجع إلى الأندلس فملأها علماً جمّاً ، وألف كتباً حسناً تدل على احتفاله واستكثاره .

١ [قال أبو محمد علي بن أحمد : فمن مصنفات أبي عبد الرحمن بقى بن مخلد كتابه في تفسير القرآن ، فهو الكتاب الذي أقطع قطعاً لا أستثنى فيه أنه لم يؤلف في الإسلام مثله ، لا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره . ومنها في الحديث مصنفه الكبير الذي رتبّه على أسماء الصحابة رضى الله عنهم ، فروى فيه عن ألف وثلاثمئة صاحب ونيّف ، ثم رتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام ، فهو مصنف ومسند ؛ وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله . مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله فيه في الحديث وجودة شيوخه ؛ فإنه روى عن مئتي رجل وأربعة وثمانين رجلاً ليس فيهم عشرة ضعفاء وسائرهم أعلام مشاهير . ومنها مصنفه في فتاوى الصحابة والتابعين ومن دونهم الذي أربى فيه على « مصنف أبي بكر بن أبي شيبة » . و « مصنف عبد الرازق بن همام » . و « مصنف سعيد بن منصور » ، وغيرها ، وانتظم [مصنفه] علماً عظيماً لم يقع في شيء من هذه [المصنفات] ، فصارت تواليف هذا الإمام الفاضل قواعد للإسلام لا نظير لها ، وكان متخيراً لا يقلد أحداً ، وكان ذا خاصة من أحمد بن حنبل

وجاريا في مضمار أبي عبد الله البخاري وأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري وأبي عبد الرحمن النسائي رحمة الله عليهم. هذا آخر كلام أبي محمد .
[قال أبو سعيد بن يونس في تاريخه إن بقي بن مخلد مات بالأندلس سنة ست وسبعين ومئتين ...]

[روى أبو نصر الحميدى بسنده] أن امرأة جاءت إلى بقي بن مخلد فقالت له : إن ابني قد أسره الروم ولا أقدر على مال أكثر من دُويرة ولا أقدر على بيعها ، فلو أشرت إلى من يفديه بشيء ، فإنه ليس لي ليل ولا نهار ولا نوم ولا قرار ! فقال : نعم ، انصرفي حتى أنظري في أمره إن شاء الله قال : وأضرق الشيخ وحرّك شفتيه ... قال . فلبثنا مدة ، فجاءت المرأة ومعها ابنها فأنخذت تدعو له وتقول : قدرجع سالما وله حديث يحدثك به . فقال الشاب : كنت في يدي بعض ملوك الروم مع جماعة من الأسارى ، وكان له إنسان يستخدمنا كل يوم . يُخرجنا إلى الصحراء للخدمة ثم يردُّنا وعلينا قيودنا ، فبينما نحن نجيء من العمل مع صاحبه الذي كان يحفظنا ، فانفتح القيد من رجلى ووقع على الأرض ... ووصف اليوم والساعة ، فوافق الوقت الذي جاءت المرأة ودعا الشيخ . [قال الشاب] : فنهض إلى الذي كان يحفظنى وصاح على وقال : كسرت القيد ! فقلت : لا ، إلا أنه سقط من رجلى . قال : فتحيّر وأخبر صاحبه ، وأحضر الحداد وقيدونى ، فلما مشيت خطوات سقط القيد من رجلى ، فتحيروا في أمرى ، فدعوا رهبانهم فقالوا لى : ألك والدة ؟ قلت : نعم . فقالوا : وافق دعاؤها الإجابة . وقالوا : أطلقك الله فلا يمكننا تقييدك . فزودونى وأصبحونى إلى ناحية المسلمين . (هـ)

ولاية المنذر بن محمد

[ثم ولى بعده ابنه المنذر بن محمد ، ويكنى أبا الحكم ، وأمه أم ولد اسمها أثل ، وكان مولده فى سنة تسع وعشرين ومئتين ، فاتصلت ولايته سنتين غير خمسة عشر يوماً ، ومات وهو على قلعة يقال لها بُبَشْتَر محاصراً لعمر بن حفصون ، خارجى قام هناك وتحصن . وكان موته فى سنة خمس وسبعين ومئتين.] (٥)

ولاية عبد الله بن محمد

[فولى بعده أخوه عبد الله بن محمد ، وكان مولده سنة ثلاثين ومئتين ،
يكنى أبا محمد ، أمه أم ولد اسمها عشار ، طال عمرها إلى أن ماتت قبل
موته بسنة وشهر ، وكان وادعاً لا يشرب الخمر ، وفي أيامه امتلأت
الأندلس بالفتن وصار في كل جهة متغلب ، فلم يزل كذلك طول ولايته
إلى أن مات مستهل ربيع الأول سنة ثلاثمئة] (*)

ولاية عبد الرحمن الناصر

[ثم ولي بعده ابن ابنه عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ، وكان والده محمد قد قتله أخوه المطرف بن عبد الله في صدر دولة أبيهما عبد الله ، وترك ابنه عبد الرحمن هذا وهو ابن عشرين يوماً ، فولى الأمر وله اثنتان وعشرون سنة .

[قال أبو محمد علي بن أحمد : وكانت ولايته من المستطرف ، لأنه كان في هذا الوقت شاباً وبالحضرة جماعة أكابر من أعمامه وأعمام أبيه وذوى القعدة في النسب من أهل بيته . فلم يعترض معترض واستمر له الأمر . وكان شهماً صارماً .

[وكل من ذكرنا من الأمراء أجداده إلى عبد الرحمن بن محمد هذا فليس منهم أحد تسمى بإمرة المؤمنين ، وإنما كان يسلم عليهم ويُخطب لهم بالإمارة فقط . وجرى على ذلك عبد الرحمن بن محمد إلى آخر السنة السابعة عشرة من ولايته . فلما بلغه ضعف الخلافة بالعراق في أيام المقتدر وظهور الشيعة بالقيروان تسمى عبد الرحمن بأمير المؤمنين ، وتلقب بالناصر لدين الله .

[وكان يُكنى أبا المطرف ، وأمه أم ولد اسمها مزنة .

[ولم يزل منذ ولي يستنزل المتغلبين حتى استكمل إنزال جميعهم في خمس وعشرين سنة من ولايته وصار جميع أقطار الأندلس في طاعته.] (٥)

[وهايته ملوك الروم فأرسلوا الرسل والهدايا يخطبون وده ويطلبون
مهادنته . وكان فيمن قدم عليه منهم رسل صاحب القسطنطينية ، وذلك
سنة ست وثلاثين وثلاثمئة ، فاحتفل الناصر لقدمهم في يوم مشهود ،
وارتجل بين يديه في ذلك اليوم أبو الحكم منذر بن سعيد البلوطي
خطبته التي ملأت الأسماع وبهرت القلوب] (**)

(منذر بن سعيد البلوطي)

[وذلك أن الحكم المستنصر - ولده - كان مشغولاً ببأي على القالي
صاحب « النوادر » يؤهله لكل مهم في بابه ، فلما ورد رسول ملك
الروم أمره عند دخول الرسول إلى الحضرة أن يقوم خطيباً بما كانت العادة
جارية به . فلما كان في ذلك الوقت وشاهد أبو علي الجمع وعابن الحفل
جبن ولم تحمله رجلاه ولا ساعده لسانه . وفطن أبو الحكم منذر بن سعيد ،
فوثب وقام مقامه وارتنجل خطبة بليغة على غير أهبة ، وأنشد لنفسه
في آخرها .

هذا المقام الذي ما عابه فندُ لكن صاحبه أزرى به البلدُ
لو كنت فيهم غريباً كنت مطرفاً لكنني منهمو فاغتالي النكدُ
لولا الخلافة أبقى الله مهجتها ما كنت أبقى بأرض ما بها أحد (*)

[قالوا : كأنه عرض ببأي على القالي وتقديمهم إياه في هذا المقام .
والله أعلم .

وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه وثبات جنانه وبلاغة لسانه ، وكان الناصر أشدهم تعجبا منه ، وأقبل على ابنه الحكم فسأله عنه - ولم يكن يُثبت معرفته - فقال له : هذا منذر بن سعيد البلوطي . فقال : والله لقد أحسن ما شاء ، ولئن أخرني الله بعد لأرفعن من ذكره ، فضع يدك يا حكم عليه واستخلصه وذكرني بشأنه ، فما للصنيعة مذهبٌ عنه . ثم ولّاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهاء ، ثم ولّاه قضاء الجماعة بقرطبة ؛ ولما توفى الناصر وولى ابنه الحكم أقره على القضاء ، واستعفى غير مرة فما أعفاه ؛ وكان وقورا صليبا في الحكم مُقدما على إقامة العدل والحق وإزهاق الجور والباطل ، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، له كتب في السنة والورع ، والرد على أهل الأهواء والبدع ؛ ومن مصنفاته المتداولة : أحكام القرآن ، وكتاب الناسخ والمنسوخ . وله رسائل وخطبٌ مجموعة . وأشعار متفرقة مطبوعة ...

[ومن شعره في تلك الوقعة التي ارتجل فيها الخطبة بين يدي الناصر قوله :

مقالى كحدّ السيف وسطَ المحافل	فرقتُ به ما بين حقّ وباطل
بقلب ذكيّ ترتمي جمراته	كبارق رعدٍ عند رَعش الأنامل
فما دَحَضَتْ رجلى ولا زلّ مِقْوَلِي	ولا طاش عَقْلِي يوم تلك الزلازل
وقد حَدَقْتُ حولى عيونُ إخالها	كمثلِ سهامٍ أُثْبِتَتْ في المقاتل
ليخير إمام كان أو هو كائن	لمُقتَبَل أو في العصورِ الأوائل
ترى الناس أفواجا يؤمّون بابه	وكلّهم ما بين راجٍ وآمل

وفودُ ملوكِ الرومِ وسُطدَ فِنائِه مخافةً بأَس أو رجاءً لنائل
فَعش سائلاً أَقصى حياءَ مومَلاً فأنت رجاءُ الكلِّ حافٍ وناعل
ستملكها ما بينَ شرقٍ ومغرب إلى دربِ قسطنطينَ أو أرضِ بابل
[وذكر أن الناصر قال لابنه الحكم بعد أن سأله عنه : لقد أحسن ما
شاء ، فلئن كان حبرٌ خطبته هذه وأعدّها مخافة أن يدور ما دار فيتلافى
الوهى إنه لبديع من قدرته واحتياطه ، ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته
إنه لأعجبٌ وأغرب] (**))

[البُلُوطى منسوب إلى موضع هناك قريب من قرطبة يقال له فحوص
البُلُوط . ولى قضاء الجماعة بقرطبة في حياة الحكم المستنصر بالله ، وكان
عالماً فقيهاً ، وأديباً بليغاً ، وخطيباً على المنابر وفي المحافل مصقفاً . . .

[قال أبو عليّ محمد بن أحمد : وكان مائلاً إلى القول بالظاهر ، قوياً
على الانتصار لذلك . ومن مصنفاته كتاب « الإنباه على استنباط الأحكام
من كتاب الله » . وكتاب « الإبانة عن حقائق أصول الديانة » . وقد
كانت له رحلة كتب فيها وطلّب ، وسمع من ابن ولّاد بمصر كتاب
« العين » للخليل بن أحمد . ومن أبي بكر بن المنذر كتاب « الإشراف » ،
ولقى أبا جعفر أحمد بن محمد النحاس النحوى بمصر ، وله معه حكاية
مشهورة ؛ وذلك أنه حضر مجلساً في الإملاء . فأملى أبو جعفر في جملة ما
أملى قولَ الشاعر :

خليلٌ هل بالشام عينٌ حزينة تُبكي على ليلي لعلّي أعينها
قد أسلمها الباكون إلا حمامة مطوّقةً باتت ويات قرينها

تُجاذِبُهَا أُخْرَى عَلَى خَيْرِ رَأْيَةٍ يَكَادُ يُدَانِيهَا مِنَ الْأَرْضِ لَيْسُهَا
فَقَالَ لَهُ مَنْذَرُ بْنُ سَعِيدٍ : أَيْهَا الشَّيْخُ أَعَزَّكَ اللَّهُ ، بَاتَا يَصْنَعَانِ مَاذَا ؟
فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ ؟ فَقَالَ لَهُ مَنْذَرُ : بَانَتْ وَبَانَ قَرِينُهَا .
فَاسْتَبَانَ أَبُو جَعْفَرٍ مَا قَالَ ، وَقَالَ لَهُ ارْتَفِعْ . وَلَمْ يَزَلْ يَرْفَعُهُ حَتَّى أَدْنَاهُ
مِنْهُ ، وَكَانَ يَعْرِفُ ذَلِكَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَيَكْرَهُهُ .

[اتَّصَلَتْ وَلَايَةُ النَّاصِرِ - خَمْسِينَ سَنَةً وَأَشْهُرًا - إِلَى أَنْ مَاتَ فِي صَدْرِ
رَمَضَانَ سَنَةِ خَمْسِينَ وَثَلَاثَمِئَةٍ . وَلَمْ يَبْلُغْ أَحَدٌ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ مَدَّتَهُ فِيهَا .] (*)

ولاية الحكم المستنصر

[ثم تولى بعده ابنه الحكم بن عبد الرحمن ، ويلقب بالمستنصر بالله ، وله إحد ولى سبع وأربعون سنة ، يكنى أبا العاص ، وأمّه أم ولد اسمها مرجان ، وكان حسن السيرة جامعاً للعلوم محباً لها مكرماً لأهلها .] (*)

[قال أبو محمد ابن حزم : أخبرني تليد الخصى - وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بنى مروان - أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفى كل فهرسة عشرون ورقة ، ليس فيها إلا ذكر الدواوين لا غير . وأقام للعلم سوقاً نافقة جلبت إليها بضائعه من كل قطر .

[ولما وفد على أبيه أبو على القالى صاحب « النوادر » من بغداد أكرم مشواه وحسنت منزلته عنده . وأورث أهل الأندلس علمه ، واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه .] (**)

[أبو على القالى]

[وهو إسماعيل بن القاسم أبو على القالى اللغوى ، ولد بمِنَازَ جَرْد من ديار بكر فنشأ بها ورحل إلى العراق فى طلب العلم ، فدخل بغداد فى سنة ثلاث وثلاثمئة ، وسمع من شيوخها . . . ومال بطبعه إلى اللغة وعلوم

الأدب فبرع فيها واستكثر منها ، وأقام ببغداد خمساً وعشرين سنة ، ثم خرج منها قاصداً إلى المغرب في سنة ثمان وعشرين وثلاثمئة ، ووصل إلى الأندلس في سنة ثلاثين وثلاثمئة ، في أيام عبد الرحمن الناصر ، وكان ابنه ابو العاص الحكم بن عبد الرحمن من أحب ملوك الأندلس للعلم وأكثرهم اشتغالا به وحرصاً عليه ، فتلقاه بالجميل وحظي عنده وقرب منه وبالف في إكرامه ، ويقال إنه هو كان قد كتب إليه ورغبه في الوفود عليه . واستوطن قرطبة ونشر علمه بها ، وكان إماماً في علم اللغة متقدماً فيها متقناً لها ، فاستفاد الناس منه وعولوا عليه واتخذوه حجة فيما نقله ، وكانت كتبه على غاية التقييد والضبط والانتقان ، وقد ألفت في علمه الذي اختص به تواليف مشهورة تدل على سعة روايته وكثرة إشرافه ، وأملى كتاباً سماه « النوادر » يشتمل على أخبار وأشعار ولغة . سمع منه جماعات وحدثوا عنه ومن روى عنه أبوبكر محمد بن الحسن الزبيدي النحوي صاحب « مختصر كتاب العين » و « أخبار النحويين » و « الواضح في النحو » . وكان حينئذ إماماً في الأدب . ولكن عرف فضل أبي على على فعال إليه واختص به واستفاد منه وأقر له . وقال : سألت أبا على عن نسبه فقال : أنا إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد ابن سلمان مولى محمد بن عبد الملك بن مروان ، قال : وكان أحفظ أهل زمانه للغة وأرواهم وأعلمهم بعلم النحو على مذهب البصريين وأكثرهم تدقيقاً في ذلك ، قال : وسألته لم قيل له القالي ، فقال ، لما انحدرنا إلى بغداد كنا في رُفقة فيها أهل « قالي قلا » وهي قرية من قرى مَنَازِجُرد ،

وكانوا يُكرمون لمكانهم من الثغر ، فلما دخلنا بغداد نُسبتُ إليهم لكوني معهم وثبتَ ذلك على .

[قال أبو محمد علي بن أحمد - وقد ذكر كتاب أبي علي المسمى بالنوادر في الأخبار والأشعار - فقال : وهذا الكتابُ مُبارٍ للكتاب « الكامل » الذي جمعه أبو العباس المبرّد ، ولئن كان كتاب أبي العباس أكثر نحواً وخبراً إن كتاب أبي علي لأكثرُ لغةً وشعراً . قال : ومن كتبه في اللغة « البارع » كاد يحتوى على لغة العرب ، وكتاب في « المقصور والممدود والمهموز » لم يولّف في بابهِ مثله . وكان الحكم المستنصر قبل ولايته الأمور وبعد أن صارت إليه يبعثه على التّأليف وينشّطه بوسع العطاء ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام .

[ومات أبو علي بقرطبة في أيام الحكم المستنصر بالله في ربيع الآخر سنة ست وخمسين وثلاثمئة . وكان مولده سنة ثمانين ومئتين . وقيل سنة ثمان وثمانين . . . وأكثر من يحدث عنه بالمغرب أو يحكى عنه يقول : أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي ، نسبوه إليها لطول مقامه بها ووصوله إليهم منها .] (*)

عود إلى الحكم المستنصر

[وكان الحكم يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجلاً من التجار ويرسل إليهم الأموال لشرائها ، حتّى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه ، وبعث في كتاب الأغاني إلى مصنّفه أبي الفرج الأصفهاني - وكان نسبُهُ في بني .

أ.ية - وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين ، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يُخرجه إلى العراق ، وكذلك فعل مع القاضي الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم ، وأمثال ذلك ، وجمع بداره الحدائق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد فأوعى من ذلك كله ، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ، إلا ما يُذكر عن الناصر العباسي ابن المستضيء .
[وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن كان ، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ، ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده ، لعنايته بهذا الشأن.] (**) .
[واستوزر جماعة من أهل الأدب والشعر

[المصحفي وأبو بكر الزبيدي]

[منهم أبو الحسن جعفر بن عثمان المعروف بالمصحفي . وكان من أهل العلم والأدب البارع . وله شعر كثير يدل على طبعه وسعة أدبه . وكان الوزير الناظر في الأمور طوال عهد الحكم المستنصر وصدرا من عهد هشام المؤيد ولده ، ثم قوى المنصور ابن أبي عامر وتغلب فنكبه . . .

[ومنهم أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي النحوي ، كان صاحب شرطته ؛ وكان من الأمة في اللغة العربية ، ألف في النحو كتاباً سماه «الواضح» واختصر كتاب «العين» اختصاراً حسناً ، وجمع في «الأبنية» وفي «لحن العامة» وفي «أخبار النحويين» كتباً مشهورة ، وفي غير نوع

من الأدب ، وكان شاعراً كثير الشعر . أخبر أبو عمر يوسف بن عبد البر
قال : كتب أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي النحوي إلى أبي مسلم بن
فهد :

أبا مسلم إن الفتى بجَنَانِهِ وَمَقُولِهِ لا بالمراكب واللِّبَسِ
وليست ثيابُ المرء تُغْنِي قُلَامَةً إذا كان مقصوراً على قصر النَّفْسِ
وليس يُفِيدُ العلمَ والحلمَ والحِجَابَ أبا مسلم طولُ القعودِ على الكُرْسِيِّ
[وقال أبو محمد علي بن أحمد : كتب الوزير أبو الحسن جعفر بن
عثمان المصخفي إلى صاحب الشرطة أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي
اللغوي كتاباً فيه « فاضت نفسه » بالضاد ، فجأوبه الزبيدي بمنظوم بيّن
له فيه الخطأ دون تصريح . وهو :

قل للوزير السَّنيَّ مَحْتِلُهُ	لى ذمّة منك أنت حافظها
عنـايـة بالعلوم منخرة	قد بهّظ الأولين باحفظها
يقرّلى «عمرها» و«معمّرها» ^(١)	فيها و«نظامها» و«جاحظها»
قد كان حقاً قبولُ حرمتها	لكنّ صرفَ الزمان لا فظها
وفى خطوط الزمان لى عظة	لو كان يثنى النفوس واعظها
إن لم تحافظ عصابةً نُسبت	إليك قَدْماً فمن يحافظها
لا تدعن حاجتى مُطَرَّحَةً	فإن نفسى قد فاظ. فائظها

(١) يعنى سبويه ، وأبا عبيدة معمر بن المنى .

فأجابه المصحف :

خَضُّ فَوَاقَا فَأَنْتَ أَوْحَدُهَا	علماء ونقَّابها وحافظُها
كَيْفَ تَضِيعُ الْعُلُومُ فِي بِلَدٍ	أبنائهم كلُّهم يُحَافِظُهَا
أَلْفَاظُهُمْ كُلُّهَا مَعْطَلَةٌ	ما لم يَعُولْ عَلَيْكَ لِأَفْظِهَا
مَنْ ذَا يَسَاوِيكَ إِنْ نَطَقْتَ وَقَدْ	أَقَرَّ بِالْعَجْزِ عَنْكَ « جَاحِظُهَا »
عَلِمْتُ ثَنَى الْعَالَمِينَ عَنْكَ كَمَا	ثَنَى عَنِ الشَّمْسِ مِنْ يَلَاحِظُهَا
وَقَدْ أَتَنَى فُديتَ شَاغِلَةٌ لَدَّ	فَسْ أَنْ قَلْتَ فَاطَ فَاظُهَا
فَأَوْضَحْنَهَا تَفُزُ بِنَادِرَةٍ	قَدْ بَهَظَ الْأَوَّلِينَ بِأَهْظِهَا

[فأجابه الزبيدي وضمَّن شعره الشاهدَ على ذلك :

أَتَانِي كِتَابٌ مِنْ كَرِيمٍ مَكْرَمٍ فَنَفَسَ عَنْ نَفْسٍ تَكَادَ تَفْيِظُ
فَمَسَّرَ جَمِيعَ الْأَوْلِيَاءِ وَرُودُهُ وَبِئْسَ رِجَالٌ آخَرُونَ وَغِيظُوا
لَقَدْ حَفِظَ الْعَهْدَ الَّذِي قَدْ أَضَاعَهُ لَدَيْ سِوَاهِ وَالْكَرِيمُ حَفِيظُ

وباحثتُ عن « فَاظَتْ » وَقَبْلَ قَالِهَا

رِجَالٌ لَدَيْهِمْ فِي الْعُلُومِ حَفُوظُ

رَوَى ذَاكَ عَنْ « كَيْسَانَ » « سَهْلٍ » وَأَنْشَدُوا

مَقَالَ أَبِي الْغِيَّاطِ وَهُوَ مَغِيظُ

« وَسُمِّيَتْ غِيَّاطًا وَلَسْتُ بِغَائِظٍ عَدُوًّا وَلَكِنْ لِلصَّدِيقِ تَغِيظُ »

« فَلَا حَفِظَ الرَّحْمَنُ رُوحَكَ حَيَّةً

وَلَا وَهَى فِي الْأَرْوَاحِ حِينَ تَفِيظُ »

[قال أبو محمد : وقد يقال : « فاضت نفسه » بالضاد .
[ومن شعر الزبيدي وقد استأذن الحكم المستنصر في الرجوع إلى أهله
بإشبيلية فلم يأذن ، فكتب إلى جارية له هنالك تُدعى سلمى :

وَيَحَلِكْ يَا سَلَمَ لَا تُرَاعِي لَا بَدَ لِلْبَيْنِ مِنْ زِمَاعِ
لَا تَحْسِبِينِي صَبْرْتُ إِلَّا كَصَبْرِ مَيْتٍ عَلَى النَّزَاعِ
مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ عَذَابٍ أَشَدَّ مِنْ وَقْفَةِ الْوَدَاعِ
مَا بَيْنَنَا وَالْجِمامِ فَرَقٌ لَوْلَا الْمَنَاحَاتُ وَالنَّوَاعِي
إِنْ يَفْتَرِقُ شَمْلُنَا وَشَيْكََا مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ ذَا اجْتِمَاعِ
فَكُلُّ شَمْلٍ إِلَى افْتِرَاقٍ وَكُلُّ شَعْبٍ إِلَى انْصِدَاعِ
وَكُلُّ قُرْبٍ إِلَى بَعَادٍ وَكُلُّ وَصَلٍ إِلَى انْقِطَاعِ

توفي أبو بكر الزبيدي قريباً من الثمانين وثلاثمائة .
ومن شعر أبي الحسن جعفر المصحفي وزير الحكم المستنصر ، أنشده أبو
محمد علي بن أحمد :

يَا ذَا الَّذِي أَوْدَعَنِي سِرَّهُ لَا تَرْجُ أَنْ تَسْمَعَهُ وَنِيَّ
لَمْ أُجْرِهِ بِعَدِكَ فِي خَاطَرِي كَأَنَّهُ مَا مَرَّ فِي أُذُنِي
وله :

أَجَارِي الزَّمَانَ عَلَى حَالِهِ مُجَارَاةَ نَفْسِي لِأَنْفَاسِهَا
إِذَا نَفْسٌ صَاعِدَ شَفْهَهَا تَوَارَتْ بِهِ دُونَ جُلَاسِهَا
وَإِنْ عَكَفَتْ نَكْبَةً لِلزَّمَانِ عَكَفَتْ بِصَدْرِي عَلَى رَاسِهَا (٥)

• • •

فأجابه المصحف :

خَضَّ فَوَاقًا فَانَّتْ أَوْحَدُهَا	عِلْمًا وَنَقَّابَهَا وَحَافِظُهَا
كَيْفَ تَضِيعُ الْعُلُومُ فِي بِلَدٍ	أَبْنَاؤُهُ كُلُّهُمْ يُحَافِظُهَا
أَلْفَاظُهُمْ كُلُّهَا مَعْطَلَةٌ	مَا لَمْ يَعُولْ عَلَيْكَ لِأَفْظُهَا
مَنْ ذَا يَسَاوِيكَ إِنْ نَطَقْتَ وَقَدْ	أَقَرَّ بِالْعَجْزِ عَنْكَ « جَاحِظُهَا »
عَلِمْتُ نَيَّ الْعَالَمِينَ عَنْكَ كَمَا	ثَنَى عَنِ الشَّمْسِ مِنْ يَلَاحِظُهَا
وَقَدْ أَتَنَى قُدَيْبَتَ شَاغِلَةٌ لِلَّ	نَفْسِ أَنَّ قَلْتَ فَاطَ فَاظُهَا
فَأَوْضَحْنَهَا تَفْزُ بِنَادِرَةٍ	قَدْ بَهَظَ الْأَوَّلِينَ بِأَفْظُهَا

[فأجابه الزبيدي وضمَّن شعره الشاهدَ على ذلك :

أَتَانِي كِتَابٌ مِنْ كَرِيمٍ مُكَرَّمٍ فَنَفَسَ عَنْ نَفْسٍ تَكَادُ تَفِيضُ
فَسَّرَ جَمِيعَ الْأَوْلِيَاءِ وَرُودُهُ وَبَيَّ رِجَالُ آخَرُونَ وَغِيظُوا
لَقَدْ حَفِظَ الْعَهْدَ الَّذِي قَدْ أَضَاءَهُ لَدَيْ سَوَاهِ وَالْكَرِيمِ حَفِيفُ

وَبَاحِثٌ عَنْ « فَاظَتْ » وَقَبْلَى قَالَهَا

رِجَالٌ لَدَيْهِمْ فِي الْعُلُومِ حَفِظُوا

رَوَى ذَلِكَ عَنْ « كَيْسَانَ » « سَهْلٍ » وَأَنشَدُوا

« قَمَالَ أُنَى الْغِيَاظِ وَهُوَ مَغِيظُ

« وَسُمِّيَتْ غِيَاظًا وَلَسْتُ بِغَائِظٍ عَدُوًّا وَلَكِنْ لِلصَّدِيقِ تَغِيظُ »

« فَلَا حَفِظًا. الرَّحْمَنُ رَوْحُكَ حَيَّةٌ

وَلَا وَهَى فِي الْأَرْوَاحِ حِينَ تَفِيظُ »

[قال أبو محمد : وقد يقال : «فاضت نفسه» بالضاد .
ومن شعر الزبيدي وقد استأذن الحكم المستنصر في الرجوع إلى أهله
بإشبيلية فلم يأذن ، فكتب إلى جارية له هنالك تدعى سلمى :

وَيَحَاكِ يَا سَلَمَ لَا تُرَاعِي لَا بَدَ لِلْبَيْنِ مِنْ زِمَاعِ
لَا تَحْسِبِي صَبْرْتُ إِلَّا كَصَبْرِ مَيِّتٍ عَلَى النَّزَاعِ
مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ عَذَابٍ أَشَدَّ مِنْ وَقْفَةِ الْوَدَاعِ
مَا بَيْنَنَا وَالْجِمامِ فَرْقٌ لَوْلَا الْمَنَاحَاتُ وَالنَّوَاعِي
إِنْ يَفْتَرِقُ شَمْلُنَا وَشَيْكََا مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ ذَا اجْتِمَاعِ
فَكُلُّ شَمْلٍ إِلَى افْتِرَاقٍ وَكُلُّ شَعْبٍ إِلَى انْصِدَاعِ
وَكُلُّ قُرْبٍ إِلَى بَعَادٍ وَكُلُّ وَصَلٍ إِلَى انْقِطَاعِ

توفي أبو بكر الزبيدي قريباً من الثمانين وثلاثمئة .
ومن شعر أبي الحسن جعفر المصنفى وزير الحكم المستنصر ، أنشده أبو
محمد علي بن أحمد :

يَا ذَا الَّذِي أَوْدَعَنِي سِرَّهُ لَا تَرْجُ أَنْ تَسْمِعَهُ مِنِّي
لَمْ أَجْرِهِ بِعَدْلِكَ فِي خَاطِرِي كَأَنَّهُ مَا مَرَّ فِي أُذُنِي
وله :

أُجَارِي الزَّمَانَ عَلَى حَالِهِ مُجَارَاةَ نَفْسِي لِأَنْفَاسِهَا
إِذَا نَفْسٌ صَاعِدَتْ شَفْهَهَا تَوَارَتْ بِهِ دُونَ جُلَاسِهَا
وَإِنْ عَكَّفَتْ نَكْبَةً لِلزَّمَانِ عَكَّفْتُ بِصَدْرِي عَلَى رَاسِهَا (٥)

• • •

[وللحكم المستنصر شعر جيد ، فمما ينسب إليه قوله :
إلى الله أشكو من شمائلٍ مُسرفٍ على ظُلومٍ لا يَدِينُ بما دُنْتُ
نأت عنه دارى فاستزاد صردوده وإني على وجدي القديم كما كنتُ
ولو كنتُ أدري أن شوقَ بالغٍ من الوجد ما بُلَّغْتُه لم أكنُ بنتُ
وقوله :

عجبتُ وقد ودَّعْتُها كيف لم أمتُ وكيف انشنتُ بعد الوداع يدي معي
قيامُ قلتي العبري عليها أشكبي دماً ويا كيدي الحري عليها تقطعي (*)
[وكان الحكم قد رام قطع الخمر من الأندلس وأمر بإراقته ، وتشدد
في ذلك ، وشاور في استئصال شجرة العنب من جميع أعماله ، ففيل له
إنهم يعملونها من التين وغيره ، فتوقف عن ذلك .
[وفي أمره بإراقة الخمر في سائر الجهات يقول أبو عمر يوسف بن
هارون الكندي^(١) قصيدته المشهورة فيها ، متوجعا لشاربيها ، وإنما
أوردناها تحقيقاً لما ذكرنا عنه من ذلك ، وهي قوله :

(١) قال الحميدى فى جذوة المقتبس : يعرف بالرمادى ، أظن أحد آبائه كان من « رمادة »
موضع بالمغرب ، شاعر فرطى كبير السعسر سرج القول مشهور عند العامة والخاصة هنالك ،
أساركة فى فنون من المنظوم ، ونفق عند الكل حتى كان كبير من شيوخ الأدب فى وقته يقولون :
فنج الشعر بكندة وختم بكندة . يعنون امرأ القيس ، والمنبى ويوسف بن هارون ، وكانا
متعاصرين ، واستدللت على ذلك بمدحه أبا على اسماعيل بن القاسم القالى عند دخوله الأندلس
بالقصيدة التى انشدها عنه الحاكم أبو بكر متعصب بن عبد الله الأزدي ، وأولها :

مَنْ حاكمٌ بينى وبين عذولى الشجرُ شجوى والعويلُ عويلُ
وكان وصول أبى على القالى الى الأندلس سنة ثلاثين وثلاثمائة .

بَخَطِبِ الشَّارِبِينَ يَضِيقُ صَدْرِي وَتُرْمِضُنِي بَلِيَّتُهُمْ لَعَمْرِي
وَهَلْ هُمْ غَيْرُ عَشَاقٍ أَصِيبُوا بِفَقْدِ حَبَائِبٍ وَمُنَا بِهَجْرٍ
أَعُشَّاقَ الدَّامَةِ إِنْ جَزَعْتُمْ لِفُرْقَتِهَا فَلَيْسَ مَكَانَ صَبْرِ
سَعَى الْأَبْكَامِ حَتَّى أَرِيقَتْ دُمَاءٌ فَوْقَ وَجْهِ الْأَرْضِ تَجْرِي
تَضَوُّعَ رُفْهَا شَرْقًا وَغَرْبًا وَطَبَّقَ أَفْقَ قُرْطُبَةٍ بِعَطْرِ
فَقُلْ لِلْمُسْتَفْجِينَ لَهَا يَسْفَحُ وَمَا سَكَنَتْهُ مِنْ ظَرْفٍ بِكَسْرِ
وَلِلْأَبْوَابِ إِحْرَاقًا إِلَى أَنْ تَرْكُمَ أَهْلَهَا سَكَانَ قَفَرٍ :
تَحْرِيتُمْ بِدَاكِ الْعَدْلِ فِيهَا بَزَعْمَكَوْ فَإِنْ يَكُ عَنْ تَحَرِّي
... فَإِنْ أَبَا حَنِيفَةَ وَهُوَ عَدْلٌ وَفَرَّ عَنِ الْقَضَاءِ مَسِيرَ شَهْرٍ ...
فَقِيهٌ لَا يُدَانِيهِ فَقِيهٌ إِذَا جَاءَ الْقِيَاسُ أَتَى بِدُرٍّ
وَكَانَ مِنَ الْعَصَاةِ الْوَيْلَ لَيْلٍ يُقَطِّعُهُ بِلَا تَغْمِيضٍ شَمَرٍ
وَكَانَ لَهُ مِنَ الشُّرَاقِبِ جَارٌ يُوَاصِلُ مَغْرِبًا فِيهَا بِهَجْرٍ
وَكَانَ إِذَا انْتَهَى نَبِيَّ بِصَوْتِ الْ مَضَاعِ بِسَجْنِهِ مِنْ آلِ عَمْرٍو (١)
« أَضَاءَهُنَّ وَأَتَى مِنْ أَضَاءِ وَآ لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسَدَادٍ ثَغْرٍ ! »
فَغَيَّبَ صَوْبَ ذَلِكَ الْجَارِ سَجْنٌ وَلَمْ يَكُنِ الْفَقِيهُ بِذَلِكَ يَدْرِى (٢)
فَقَدَّالَ وَفَدَّ مَدِينِ أَيْلٍ وَثَانٍ وَلَمْ يَسْمَعْهُ غَنَى نَلَيْتَ شَهْرِي ...
... أَجَارَتِي الْمُؤَنَسِي لَيْلًا غِنَاءُ لِخَيْرٍ قَطَعْتُ ذَلِكَ أَمْ لِشَرٍّ ؟

(١) ... في العمري ... وله المصنف الروي بعده .

(٢) ... إلى ... في الزيادة التي ... لها ... عن الحمدي () وعن غيره () ...
المدن التي أسرها ... في الكلام بعد ذلك كما جاء في مخطوطة لندن .

فقالوا إنه في سجن عيسى^(١) أتوه [به] بليل وهو يسرى
فنادى بالطويلة : وهي مما يكون برأسه لجليل أمر^(٢)
وَيَمَّمْ جَارَهُ عِيسَى بْنُ مُوسَى فلاقاه بإكرامٍ وبر
وقال : أَحَاجَةٌ عَرَضَتْ فَإِنِّي لَقَاضِيهَا وَمُتَّبِعُهَا بِشُكْرِ !
فقال : سَجَنْتَ لِي جَارًا يُسَعَّى بِعَمْرٍو ! قال : يُطْلَقُ كُلُّ عَمْرٍو ...
... بِسَجْنِي حَيْثُ وَافَقَهُ اسْمُ جَارٍ الْفَقِيهِ وَلَوْ سَجَنْتُهُمْ بَوْتَر !
فاطلقهم له عيسى جميعاً لجَارٍ لَا يَبِيتُ بِغَيْرِ سُكْرِ !
فإن أَحَبَبْتَ قُلُوبًا : لجوارٍ جَارٍ وَإِنْ أَحَبَبْتَ قُلُوبًا : لِطِلَابِ أَجْرِ
فإن أَبَا حَنِيفَةَ لَمْ يَوْبُ مِنْ تَطْلُبِهِ تَخْلُصُهُ بَوَزْرِ^(٣)

وتلخيص هذه الحكاية التي نظمها أبو عمر في شعره ، أن أبا حنيفة رحمه الله كان يجاوره رجلٌ كَيَّالٌ^(٤) ، فكان كلَّ ليلة يأخذ سمكة ورغيفاً وشيئاً من النبيذ ، فإذا صلى العشاء الآخرة أكل ثم شرب ، حتى إذا انتشى رفع عقيرته واندفع ينشد هذا البيت :

أَضَاعُونِي وَأَيَّ فِتْنٍ أَضَاعُوا لِيَوْمَ كَرِيهَةٍ وَسَدَادٍ ثَغْرِ
فلا يزال يُعيده حتى يغلبه النوم ، وكان أبو حنيفة - على ما اشتهر عنه - يُحْيِي الليل كله صلاةً ، فلما كان في بعض الليالي فَقَدَ صَوْتَ ذلك الرجل

(١) عيسى بن موسى صاحب الشرطة في بغداد لذلك العهد .

(٢) الطويلة كلمة يفسرها الشاعر : لباس خاص للراس .

(٣) بعد هذا البيت في رواية الحميدى .

نَوَاقِعُهَا مِنْ أَجْلِ النِّهْيِ سَرّاً وَكَمْ نَهْيٍ نَوَاقِعُهُ بِجَهْرٍ

(٤) في الجذوة أنه كان اسكافاً .

فقال لبعض مَنْ عنده : ما فعل جارُّنا هذا الذى كان يُغنى كلَّ ليلة ؟ أهو
مريدس أم غائب ؟ فقالوا له : إنه مسجون ! فقال : وَمَنْ سَجَنَهُ ؟ فقالوا :
خرج فى الليل لبعض حاجته فلقىه أصحابُ عيسى بن موسى صاحبِ
الشرطة فأتوا به فأمر بسجنه ؛ فلما أصبح أبو حنيفة لبس ثيابه وركب
دابته وقصد عيسى بن موسى فى بيته ، فلما أعلم عيسى بمكان أبي حنيفة
خرج يتلقاه مسرعاً ، وبالغ فى تكريمه وبرّه ، وسأله عن حاجته ، فقال :
لى فى سجنك جارُّ اسمه عمرو ؛ فقال عيسى يُطلقُ كلُّ من كان اسمه
عمرو بسجنى من أجل جارِّ الفقيه ! فأطلقه وخلقاً كثيراً معه ؛ فأتى
الرجلُ أبا حنيفة يتشكر له ، فلما وقعت عينه عليه قال له : أضعناك ؟
قال الرجل : لا والله ، بل حفظت الجوار حفظك الله !

[قال الحميدى : وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان]

والبيت الذى نظمهُ أبو عمر وكان يُغنى به الرجل جارُّ أبو حنيفة ،
هو للعرجي . رجل من ولد عثمان بن عفان ، سجنه المغيرة خال هشام بن
عباد الملك وعامله على مكة . فلم يزل بسجنه إلى أن مات وخرجت جنازته
من السجن .

[أبو عمر الرمادى]

ولأبي عمر هذا شعر كثير الجيد ، وهو من الطبقة الثالثة من طبقات
شعراء الأندلس ؛ فمما على حفظي له أول قصيدة يمدح بها أبا عليّ القالى
المتقدم الذكر ، وهى :

مَنْ حَاكَمُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَذُولِي الشَّجْوُ شَجْوِي وَالْعَوِيلُ عَوِيلِي
أَقْصِرْ فَمَا دِينَ الْهَوَى كُنْزٌ وَلَا أَعْتَدُ لَوَمِكَ لِي مِنَ التَّنْزِيلِ
عَجِبًا لِقَوْمٍ لَمْ تَكُنْ أَذْهَانَهُمْ لِهَوَى وَلَا أَجْسَادَهُمْ لِتُحُولِ
دَقَّتْ مَعَانِي الْحُبِّ عَنْ أَفْهَامِهِمْ فَتَأَوَّلُوهُ أَقْبَحَ التَّأْوِيلِ
فِي أَيِّ جَارِحَةٍ أَصُونُ مُعَذِّبِي سَلِمْتُ مِنَ التَّعْذِيبِ وَالتَّنْكِيلِ
إِنْ قَلْتُ فِي عَيْنِي فَتَمَّ مَدَامَعِي أَوْ قَلْتُ فِي قَلْبِي فَتَمَّ غَلِيلِي
[لَكِنْ جَعَلْتُ لَهُ الْمَسَامَحَ مَوْضِعًا وَحَجَبْتُهَا عَنْ عَذْلٍ كُلِّ عَذُولٍ^(١)]

هذا ما بقي في حفظي منها . وكان أبو عمر هذا من مقدمي شعراء الحكم
المستنصر . وكان مختصاً بأبي الحسن المصنف^(٢) ، منصوباً إليه ؛ وهو
الذي حمّله على هَجْوِ محمد بن أبي عامر^(٣) ، فلما أفضى الأمر إلى محمد
قبض على المصنف واستصنى أمواله ووضعه في المطبق ، فلم يزل به حتى
مات جوعاً وهُزْلاً ؛ وأما ما كان من أبي عمر الشاعر فإنه أوسع عقوبة
ونكالا . وأمر بتغريبه^(٤) ، فشَفِّعَ له عنده في أن يتركه ببلده ، فأذن في

(١) ما بين العلامتين زيادة عن نصح الطيب .

(٢) انظر ص ٦٢ .

(٣) هو المنصور بن أبي عامر ، وكان الحكم قد أسوزره لولده هشام ، فترقى أمره حتى بلغ
ما بلغ من الجاه والسلطان ، وصارت الدولة . والعرش ، والفصر ، والخليفة الصبي ، وأم
الجميلة - كل أولئك طوع يمينه ، وسيأتى من تفصيل أمره ما يغني هنا عن الإفاضة .

(٤) لم تكن أول حال الرمادي مع المنصور بن أبي عامر تؤذن بهذه الخاتمة ، فقد كان له
عليه دابة وعمده مكان ، روى أن المنصور قال له يوماً : « كيف ترى حالك معي ؟ » قال أبو عمر :
« فوق قدرتي وقدرتك » قالوا . فاطرق المنصور كالغضببان ، فأنسل الرمادي وخرج وفد ندم على
ما بدر منه ، وجعل يقول : أخطأت ، لا والله ما يفلح مع الملوك من يعاملهم بالحق ، ما كان ضرتني
لو قاتلته لاني بلغت السماء ومنطعت بالجزءاء ؟!

ذلك ، غير أنه خَرَج الأمر من جهته ألا يكلمه أحد من العامة ولا من الخاصة : أمر مناديه أن ينادى [بذلك] في جميع جهات قُرطبة ؛ فأقام أبو عمر هذا كلاميت إلى أن مات مَوْتة الوفاة في آخر أيام أبي عامر .

* * *

وكان الحكم المستنصر مواصلاً لغزو الروم ومَن خالفه من المحاربين ، فاتصلت ولايته إلى أن مات في صفر سنة ٣٦٦ ، فكانت مدة ولايته منذ بويغ له إلى أن مات ست عشرة سنة وأشهرًا ؛ وانقرض عقبه بعد موت ابنه هشام المؤيد ؛ لم يعش له ولد غيره .

وكان في المجلس من بعده على مكانه من المنصور ، فوجد فرصة ، فقال : وصل الله لولانا
الذين ، والحمد لله ، أن هذا المنصب صعب رزق وعناء ، لا يشكرون نعمة ، ولا يرعون إلا ولا دمة ،
المنصب من عناء ، وانصباب من احتساب ، وأعداء من أخطب ! ..
والأول : روح المنصور رأسه - وكان محامياً أهل الأدب والشعر - وقد اسود وجهه وظاهر
فيه المنصب المهرل ، ثم قال : ما بالك قوم يتسرون في شيء ، لم يستشاروا فيه ، وسنئون الأدب
الحكم وما لا يدرون أبرمى أم يستخط .. إلى آخر ما روى .
انظر الجزء الثاني من نهج الطبيب ، قصة الرمادي الشاعر مع المنصور ، .

ولاية هشام المؤيد بن الحكم المستنصر

ثم ولى بعده ابنه هشام بن الحكم ، يكنى أبا الوليد ، أمه أم ولد اسمها صبح ، وسنه إذ ولى عشرة أعوام وأشهر ، فلم يزل متغيباً لا يظهر^(١) ولا ينفذ له أمر ؛ وكان الذى تغلب على أمره أولاً وتولى حجابته وتنفيذ أموره وتدبير مملكته ، أبو عامر محمد بن عبد الله بن أبي عامر محمد بن الوليد ابن يزيد بن عبد الملك بن عامر المعافى القحطاني .

[المنصور بن أبي عامر]

وكان أصل ابن أبي عامر هذا من المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، من قرية من أعمالها تسمى طُرْش ، على نهر يسمى وادى آرّه ، إلا أنه كان شريف البيت قديم التعيين ، ورد شاباً إلى قرطبة ، فطلب العلم والأدب وسمع الحديث ، وتميّز في ذلك ؛ وكانت له همة يحدث بها نفسه بإدراك معالى الأمور ، وتزيد في ذلك حتى كان يحدث من يختص به بما يقع له من ذلك ؛ وله في ذلك أخبار عجيبة ، قد أورد منها الشيخ الفقيه المحدث

(١) فى الجذوة : متغلباً عليه لا يظهر ..

الضابط المتقن أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي^(١) طرفا في كتابه المترجم بـ «الأماني الصادقة» ، فمن جملتها قال الحميدي :
حدثني أبو محمد علي بن أحمد بن حزم قال : أخبرني أبو عبد الله محمد ابن إسحاق التميمي قال :

كان محمد بن أبي عامر نازلا عندي في حجرة فوق بيتي ، فدخلت عليه في بعض الليالي في آخر الليل ، فوجدته قاعداً على الحال التي تركته عليها أول الليل حين فصلتُ عنه ، فقلت له : ما أراك نمت الليلة ! قال : لا . قلت : فما أسهرك ؟ قال : فكرة عجيبة ! قلت : في ماذا تفكر ؟ قال : فكرت إذا أفضى إلى الأمر ومات محمد بن بشير القاضي بمن أستبدله ومن الذي يقوم مقامه ؟ فجئتُ الأندلس كلها بخاطري فلم أجد إلا رجلاً واحداً . قلت : لعاه محمد بن السليم^(٢) ؟ قال : هو والله هو ؛ لشد ما اتفق خاطري وخاطرك !

(١) ابن الحميدي شاعراً مؤرخاً حاداً راجعاً ، ساعد على الامام الفيلسوف ابن حزم المأثرى ، وعنه يروي أكثر عامه ، وكان مواده سنة ٤٢٠ ووفاته سنة ٤٨٨ وإن له رحلة الى المشرق ، البها كتابه عن كتابه الآخر المسمى بـ «الاماني الصادقة» وهو معروف ابن عبد الواحد كثيرا من أخباره عن المدة الأولى من تاريخ المغرب والأندلس . وانظر المقدم من ١٧ . والهامي رقم ٢ من ١٨ .

(٢) هو أبو بكر محمد بن إسحاق الشهير بالسليم ، فاضى الجماعة بمرطبه ، ذكره المعري من كتاب أهم رحلة الى المشرق ، وله تدرج مراسب به الى الحكم المنصر ، هو قوله :

لو أن أعضاء جسمي السننُ نطقَتْ بشكر نعماك عندي ، قلُّ شكري لك
أو كان ملكني الرحمن من أجلى شيئاً وصلتُ به يا سيدي أجلك
ومن تكن في الوري آماله كثرت فانما أملِي في أن ترى أملك !
توفي سنة ٣٦٧ .

قال الحميدى : وأخبرنى الفقيه أبو محمد على بن أحمد قال : كان ابن أبي عامر يوماً جالساً مع ثلاثة من أصحابه من طلبة العلم ، فقال لهم : لِيَخْتَرُ كُلُّ واحد منكم خطة أولَّيه إياها إذا أفضى إلى الأمر ! فقال أحدهم : تولينى قضاء كورة رِيَّة ، وهى مالقة وأعمالها ؛ فإنه يعجبني هذا التين الذى يجيئ منها !

وقال الآخر : تولينى حِسبة السوق ؛ فإننى أحب هذا الإسفنج !
وقال الثالث : إذا أفضى إليك الأمر فأمر أن يُطاف بى قُرْطبة كلها على حمار ووجهى إلى الذنب وأنا مطلى بالعسل ليجتمع على الذباب والتحل^(١) !
وافترقوا على هذا ؛ فلما أفضى الأمر إليه كما تمنى بلغ كل واحد منهم أمنيته على نحو ما طلب !

ولم تزل حاله تعلقو منذ ورد قرطبة إلى أن تعلق بوكالة السيدة صبح أم هشام المؤيد بن الحكم [المستنصر] والنظر فى أموالها وضياعها ، فزاد أمره فى الترقى معها إلى أن مات الحكم المستنصر ؛ وكان هشام صغيراً كما ذكرنا وخيفَ الاضطراب ، فضمن لصبح سكونَ الحال وزوال الخوف واستقرارَ المُلْك لابنها ؛ وكان قوى النفس ، وساعدته المقادير ، وأمدته المرأة بالأموال ؛ فاشتالَ العساكر إليه ، وجرت أحوال علت قدمه فيها ، حتى صار صاحب التدبير والمُتَلَبِّ على الأمور ؛ وحجب هشاماً المؤيد ، وتلقَّب هو بالمنصور ؛ فأقام الهيبة ، فدانت له أقطار الأندلس كلها

(١) راصح أن صاحبه هذا كان يسخر من أمنيته تلك ، فلم يخطر فى وهمه أن يكون شئ من ذلك ، ولكن كل ذلك قد كان ، لتبلغ السخرية تمامها !

وأمنت به ، ولم يضطرب عليه شيء منها أيام حياته ، لعظم هيئته وفرط سياسته .

واستوزر جماعة منهم الوزير أبو الحسن جعفر بن عثمان الملقب بالمصخفي^(١) ومنهم الوزير الكاتب أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري^(٢) ، ومنهم الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الذي اختصر كتاب العين - وقد تقدم ذكره^(٣) - وكان قد ولاه شرطته ، وكان الزبيدي هذا من بطانة الحكم المستنصر ووجوه أصحابه .

واستوزر أبا العلاء صاعداً بن الحسن الربيعي اللغوي البغدادي ، وله معه أخبار مستطرفة ، وله على سؤورد طرفاً منها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وكان محباً للعلوم ومؤثراً للأدب مفرطاً في إكرام من ينسب إلى شيء من ذلك [ويفيد] عليه متوسلاً به ، بحسب حفله منه وطلبه له ومشاركته فيه^(٤) .

أبو العلاء صاعد

ورد عليه الأندلس في أيام إمارته أبو العلاء صاعد بن الحسن الربيعي^(٥) المذكور آنفاً ، فعظمت منزلته عنده ونال منه أموالاً جمّة ؛ وكان وروده

(١) انظر ص ٦٢ .

(٢) ترجم له الجوزي في حدوده ص ١٠ .

(٣) انظر ص ٦٢ .

(٤) انظر قدّم له في حدوده ص ١٠ ، ورواه في الخطب رقم ٤ ص ٧٠ عما كان من شأنه وشأن الرمادي

في بعض مجالسه .

(٥) انظر الجذوة ص ٢٢٣ .

عليه سنة ٣٨٠ ؛ أظن أصله من بلاد الموصل ، دخل بغداد فقراً بها ، وكان عالماً باللغة والآداب والأخبار ، سريع الجواب ، حسن الشعر ، طيب المعاشرة ، فكه المجالسة ممتعاً ؛ فأكرمه المنصور وأفرط في الإحسان إليه والإفضال عليه ؛ وكان مع ذلك محسناً لطريف السؤال ، حاذقاً في استخراج الأموال ، طباً بلطائف الشكر .

أخبرني بعض مشايخ الأندلس بإسناد له ، أن أبا العلاء دخل على المنصور أبي عامر يوماً في مجلس أنسه ، وقد كان تقدم له أن اتخذ قميصاً من رقاع الخرائط التي كانت تصل إليه فيها الأموال منه ، فلبسه تحت ثيابه ؛ فلما خلا المجلس ووجد فرصة لما أراد ، تجرد وبقى في القميص المتخذ من الخرائط ، فقال له : ما هذا يا أبا العلاء ؟ فقال : هذه الخرائط التي وصلت إلي فيها صلات مولانا أنخذها شعاراً ! وبكى ، وأتبع ذلك من الشكر فصلاً كان رواه ، فأعجب ذلك المنصور ، وقال له : لك عندي مزيد ! وكان كما قال .

وَأَلَفَ له أبو العلاء هذا كتاباً ، فمنها كتاب سماه « كتاب الفصوص » على نحو كتاب النوادر لأبي علي القالي ؛ واتفق لهذا الكتاب من عجائب الاتفاق أن أبا العلاء دفعه حين كمل لغلام له يحمله بين يديه وعبر النهر ، نهر قرطبة ؛ فخانت الغلام رجله فسقط في النهر هو والكتاب ؛ فقال في ذلك بعض الشعراء - وهو أبو عبد الله محمد بن يحيى المعروف بابن العريف - بيتاً مطبوعاً بحضرة المنصور : وهو :

قد غاص في البحر كتاب الفصوص وهكذا كلُّ ثَقِيلٍ يَغُوصُ !

فضحك المنصور والحاضرين ، فلم يرع ذلك صاعداً ولا هالاً^(١) ، وقال
مرتجلاً مجيباً لابن العريف :

(١) يبدو ان مكانه يساعد من أبي عامر المنصور قد احدث عليه ظمونا كبيره عاجها
الحد الى معاديه والى من مدره ، وكان من اشد معاضيه ابن العريف الحوى هذا المذكور ،
وان لا يعد لا بدله حتى تأخذ منه نفعه ، روى ابن العريف دخل على المنصور يوما وعنده
مساعده الاموى ، العامرية ، وعلى سر أسنائه الى باب الرهراء نسر العبن فى بهائه والحيال فى
أبيهته ، وأسند ابن العريف ابانا ، منها

فالعامة تزهى على جميع المباني

وأنت فيها كسيف قد حل فى غمدان

وعمدان وسر الأتواء من سدوف اليمن ، وقد كن المنصور يرعى بيمانيه ، فقام صاعد
بماوس ابن العريف مرتجلاً :

يأبى الحاجب المعتلى على كيوان

ومن به قد تناهى فخار كل يمان

العامة أضحت كجنة الرضوان

فريضة لفرير ما بين أهل الزمان

تم منى من اسناد الى ان قال فى سنة العامة :

انظر الى النهر فيها ينساب كالشعبان

والطير يخطب سكرًا على ذرا الأغصان

والقضب نلتف سكرًا بيميس القضببان

والرومى يفتتر زدوا عن مبسم الأقحوان

والترجس الغش يرنو بوجنة النعمان

وراحة الريح تمنا ر نفحة الريحان

قدم مدى الدهر فيها فى غبطة وأمان !

عاد إلى معدنه إنما توجد في قعر البحار الفصوص
وكتاباً آخر على نحو كتاب الخزر جي أبي السري سهل بن أبي غالب ،
سماه « كتاب الهَجَفَجَف بن غَدَقَان بن يثرب مع الخِنَوْتِ بنت مخزومة
ابن أنيف » ...

وكتاباً آخر في معناه سماه « كتاب الجوّاس بن قَعَطَل المَذْحِجِي مع
ابنة عمه عفراء » ، وهو كتاب مليح جدا انخرم أيام الفتن بالأندلس
فنقصت منه أوراق لم توجد بعد ؛ وكان المنصور كثير الشغف بهذا الكتاب
أعنى الجوّاس ، حتى رتب له من يخرج له أمامه كل ليلة .

ويقال إن أبا العلاء لم يحضر بعد موت المنصور مجلس أنس لأحد ممن
ولى الأمور بعده من ولده ، وادّعى وجعاً لحقه في ساقه لم يزل يتوكأ منه
على عصا ويعتذر به في التخلف عن الحضور والخدمة إلى أن ذهبت دولتهم ،
وفي ذلك يقول في قصيدته المشهورة في المظفر أبي مروان عبد الملك بن
المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر ، وهو الذي ولى بعد أبيه ، وأولها :

إليك حدوتُ ناجية الركاب محمّلةً أمانى كالهضاب
وبعتُ ملوك أهل الشرق طراً بواحدٍها وسيدها اللباب

= فاستحسن المنصور ارتجاله ، وقال لابن العريف . مالك فائدة في منافضة من هذا ارتجاله ،
كيف تكون رويته ؟ فقال ابن العريف . إنما أنطمه وقرب عليه المأخذ احسانك ، ففسال له
صاعد . فيخرج من هذا أن قلة احسانك لك أسكنك وبعبت عليك المأخذ !
فضحك المنصور وقال : غير هذه المازعة ألقيت بأديكما !
وقد كانت كثرة حساد صاعد سببا الى ماشاع على السنة الرواة من أنباء انتحاله واحتياله
وتزييه .

على أن الحق أن أبا العلاء كان أدبيا من أهل الذوق والبيان لا راويه من أهل العلم باللغة
والخبير فحسب .

وفيهما يقول :

إلى الله الشَّكِيَّةُ من شَكَاةٍ رَمَتْ ساقِي فِجْلٍ بها مُصَابِي
وأَقْصَتْنِي عن المَلِكِ المَرْجَى وَكُنْتُ أَرِمُ حَالِي باقْتِرَابِي
ومما اسْتَحْسَنَ له قَوْلُهُ [فِيهَا] :

حَسِبْتُ النِّعَمِينَ عَلَى الْبَرَايَا فَالْفَيْتُ اسْمَهُ صَدْرَ الْحِسَابِ
وما قَدَّمْتَهُ إِلَّا كَأَنِّي أُقَدِّمُ تَالِيًا أُمَّ الْكِتَابِ

قال أبو عبد الله الحميدى^(١) : أخبرني أبو محمد علي بن الوزير
أبي عمر أحمد بن سعيد بن حزم ، أنه سمع أبا العلاء ينشد هذه القصيدة
بين يدي المظفر في عيد الفطر سنة ٣٩٦ - قال أبو محمد : وهو أول
يوم وصلت فيه إلى حضرة المظفر - ولما رآني أبو العلاء استحسنها وأصغى
إليها كتبها لي بخطه وأنفذها إلى . انتهى كلام الحميدى .

وكان أبو العلاء كثيرًا ما تُسْتَخَرُ له الألفاظ ويُسأل عنها فيجيب
بأسرع جواب ، على نحو ما يحكى عن أبي عمر الزاهد المطرّز غلام ثعلب ؛
ولولا أن أبا العلاء كان كثير المزح لحمل على التصديق في كل ما
يأتى به من ذلك ؛ وقد ظهر صدقه في بعض ما قال ؛ فمما يحكى عنه من
هذا المعنى أنه دخل على المنصور يوما وفي يد المنصور كتاب ورد عليه من
عامل له في بعض البلاد اسمه ميامان بن يزيد ، يذكر فيه القلب والتزييل ،
وهذه عندهم أسماء لمعاناة الأرض قبل الزرع ، فقال له : أبا العلاء ! قال :

(١) حذره المعبس ص ٢٢٤ .

لبيك مولانا ! قال : هل رأيت فيما وقع إليك من الكتب كتاب « القوالب والزوايل » ^(١) لميدمان بن يزيد ؟ قال : إى والله يا مولانا ؛ رأيته ببغداد فى نسخة لأبى بكر بن دُرَيْد بخط كأكُرْع النمل فى جوانبها علامات الوُضَاع هكذا هكذا ... فقال له : أما تستحى أبا العلاء ؟ هذا كتاب عاملى ببلد كذا وكذا واسمه كذا يذكر فيه كذا - للذى تقدم ذكره - وإنما صنعت لك هذه الترجمة ^(٢) مولدة من هذه الألفاظ التى فى هذا الكتاب ونسبته إلى عاملى لأختبرك ! فجعل يحلف له أنه ما كذب وأنه أمرٌ وافق .

وقال له المنصور مرة أخرى وقد قدم طبق فيه تمر : يا أبا العلاء ، ما التَّمَرُ كُلُّ فى كلام العرب ؟ قال : يقال تَمَرُ كُلِّ الرجلُ تَمَرُ كُلًّا إذا التف فى كسائه !

وله من هذا كثير ، ولكنه مع هذا كان عالماً .

قال أبو عبد الله الحميدى ^(٣) : حدثنى أبو محمد على بن أحمد قال : حدثنى الوزير أبو عبدة حسان بن مالك بن أبى عبدة . عن أبى عبد الله العاصمى النحوى قال : لما قدم صاعد بن الحسن اللغوى على المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر ، جَمَعْنَا معه ، فسألناه عن مسائل من النحو غامضة فقصر فيها ، فلما رآه ابن أبى عامر كذلك قال : دعوه ، هو من طبقتى فى النحو ، أنا أناظره . قال : ثم سألنا صاعد فقال : ما معنى قول امرئ القيس :

(١) فى الأصل : القوالب والدواب ، والصحيح عن « أنباء الرواة » وإنما أنرناه لأن

الزوايل « أقرب الى أن تكون مولدة من « التزويل » على ما يشار إليه بعد .

(٢) فى الجذوة : وإنما صنعت هذا تجربة لك .

(٣) الجذوة ص ٢٢٥ .

كَأَنَّ دِمَاءَ الْهَادِيَاتِ بِنَحْرِهِ عَصَارَةُ حِنَاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلٍ... ؟
فقلنا : هذا واضح ، وإنما وصف فرساً أشهب عُقِرَتْ عليه الوحش
فتطاير دمها على صدره فجاء هكذا . فقال صاعد : سبحان الله ! أنسى قوله
قبل هذا :

كُمَيْتٌ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالِ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمَنْزَلِ... ؟
قال : فبهتنا كأننا لم نقرأ هذا البيت قط ، واضطررنا إلى سؤاله عنه ،
فقال : إنما عني أحد وجهين : إما أنه تَغَشَّى صدره بالعرق ، وعرق الخيل
أبيض ، فجاء مع الدم كالشيب ؛ وإما شيء كانت العرب تصنعه ، وهو
أنها كانت تَسِمُ باللبن الحار في صدور الخيل فيتمتع ذلك الشعر
وينبت مكانه شعر أبيض ؛ فأَيُّمَا عني من أحد هذين الوجهين فالوصف
مستقيم .

قال أبو عبد الله [الحميدى] : وحدثنا أبو محمد علي بن أحمد قال :
حدثني أبو الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت الفقيه ، أن أبا العلاء
صاعداً سأل جماعة من أهل الأدب في مجلس المنصور أبي عامر عن قول
الشماخ بن ضرار :

دار الفتاة التي كُنَّا نقول لها يا ظبية عَطَّلَا حَسَانَةَ الْجَيْدِ
تُدْنِي الْحَمَامَةَ مِنْهَا وَهِيَ لَاهِيَةٌ مِنْ يَانِعِ الْمَرْدِ قِنَوَانَ الْعِنَاقِيدِ
فقالوا : هي الحمامة ، تنزل على غصن الأراك أو الكرمة فتنفضه
فتتمكن الظبية منه فترعاه . فأنكر ذلك عليهم صاعد وقال : إن الحمامة في
هذا البيت هي المرأة ، وهي اسم من أسمائها ؛ فأراد أن هذه الجارية

المشبهة بالطيبة إذا نظرت في المرأة أدنت المرأة منها في المنظر شعرها الذي هو كقنوان العناقيد من يانع الكرم أو المرْد ، فرأته .

ومن عجائب الدنيا التي لا يكاد يتفق مثلها ، أن صاعد بن الحسن اللغوى هذا أهدى إلى المنصور أبي عامر أَيْلاً وكتب معه هذه الأبيات :

يا حَرَزَ كُلِّ مُخَوِّفٍ ، وَأَمَانَ كَـ	لِّ مُشَرِّدٍ ، وَمُعِزٍّ كُلِّ مُدَلِّلٍ
جَدُّوَالِكَ إِن تَخْصُصْ بِهِ فَلَاهِلِهِ	وَتُعْمُ بِالْإِحْسَانِ كُلَّ مُوَمِّلٍ
كَالْغَيْثِ طَبَّقَ فَاسْتَوَى فِي وَبْلِهِ	شُعْتُ الْبِلَادِ مَعَ الْمَرَادِ الْمُقْبِلِ
اللَّهُ عَوْنُكَ مَا أَبْرَكَ بِالْهَدَى	وَأَشَدَّ وَقَعَكَ بِالضَّلَالِ الْمُشْعَلِ
مَا إِنْ رَأَتْ عَيْنِي ، وَعِلْمُكَ شَاهِدُ	شِرْوَى عَلَاتِكَ فِي مُعِمْ مُخَوِّلِ
أَنْدَى بِمُقَرَّبَةِ كِسْرَحَانِ الْغَضَا	رَكْضاً ، وَأَوْغَلَ فِي مِثَارِ الْقَسْطِ
مَوْلَايَ : مَوْنِسُ غُرْبَتِي ، مُتَخَطِّقِي	مِنْ ظُفْرِ أَيَّامِي ، مُمْنَعِ مَعْقِلِي
عَبْدٌ نَشَلْتُ بِضَبْعِهِ وَغَرَسْتَهُ	فِي نِعْمَةِ أَهْدَى إِلَيْكَ بِأَيْلِ
سَمِيَّتُهُ « غَرَسِيَّةٌ » وَبَعَثْتُهُ	فِي حَبْلِهِ لِيَتَاحَ فِيهِ تَفَاوُلِي
فَلَيْنَ قَبِلْتَ فَتِلْكَ أَشْنَى نِعْمَةٍ	أَسْدَى بِهَا ذُو مَنَحَةٍ وَتَطَوَّلِ
صَبَحَتَكَ غَادِيَةُ السَّرُورِ وَجَلَّتْ	أَرْجَاءُ رَبِّعِكَ بِالسَّحَابِ الْمُخْضِلِ

فَقَضَى اللَّهُ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ أَنَّ غَرَسِيَّةَ بِنِ شَانِجُ مِنْ مُلُوكِ الرُّومِ - (١) وَكَانَ أَمْنَعُ مِنَ النِّجْمِ - أُسْرَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِعَيْنِهِ الَّذِي بَعَثَ فِيهِ صَاعِدَ الْبَالِئِلِ وَسَمَاهُ غَرَسِيَّةَ مُتَفَانِلًا بِأَسْرِهِ ؛ (٢) وَهَكَذَا فَلْيَكُنِ الْجَدُّ لِلصَّاحِبِ وَالْمُصْحُوبِ .

(١) ملك البشكنس -

(٢) روى صاحب نفح الطيب خبر أسره فقال :

« وَسَبَبُ اخْذِهِ أَنَّهُ خَرَجَ يَتَصِيدُ ، فَلَقِيَتْهُ خَيْلُ لِلْمَنْصُورِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ ، فَاسْرَتْهُ وَجَاءَتْهُ بِهِ ، فَكَانَ هَذَا الْإِتْفَاقُ مَا عَظُمَ بِهِ الْعَجَبُ ! »

وكان أسر غرسية هذا في ربيع الآخر سنة ٣٨٥ .
خرج أبو العلاء صاعد هذا من الأندلس أيام الفتن وقصد صقلية فمات
بها في قريب من سنة ٤١٠^(١) - فيما بلغني - عن سن عالية .

رجع إلى المنصور بن أبي عامر

ولم يزل المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر طول أيام مملكته مواصلاً
لغزو الروم ، مفرطاً في ذلك لا يشغله عنه شيء .
وكان له مجلس في كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته
ما كان مقياً بقرطبة .

وبلغ من إفراط حبه للغزو أنه ربما خرج للمصلى يوم العيد فحدثت
له نية في ذلك فلا يرجع إلى قصره ، بل يخرج بعد انصرافه من المصلى
كما هو من فوره إلى الجهاد ، فتتبعه عساكره وتلحق به أولاً فأولاً ، فلا
يصل إلى أوائل بلاد الروم إلا وقد لحقه كل من أراد من العساكر .
غزا في أيام مملكته نيفاً وخمسين غزوة ذكرها أبو مروان ابن حيان كلها في
كتابه الذي سماه بـ «المآثر العامرية» ، واستقصاها كلها بأوقاتها وذكر
آثاره فيها ؛ وفتح فتوحاً كثيرة ، ووصل إلى معاقل قد كانت امتنعت
على من كان قبله ، وملاً الأندلس غنائم وسبياً من بنات الروم وأولادهم
ونسائهم ...

(١) كذا روى المراكشي نقلاً عن الحميدى ، وفي ابن خلكان وبقوت ان وفاته كانت بصقلية
سنة ٤١٧ وفي انباء الرواة : سنة ٤١٩ وروى ابن الأبار في التكملة انه كان بقرطبة سنة ٤١٤
يقرى اللغة .

وفي أيامه تغالى الناس بالأندلس فيما يجهّزون به بناتهم من الثياب والحلى والدور ؛ وذلك لرخص أثمان بنات الروم ، فكان الناس يرغّبون فى بناتهم بما يجهزونهن به مما ذكرنا ، ولولا ذلك لم يتزوج أحد حرة ؛ بلغى أنه نُودى على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة - وكانت ذات جمال رائع - فلم تساو أكثر من عشرين ديناراً عامرية .

وكان فى أكثر زمانه لا يُخلُّ بأن يغزو غزوتين فى السنة ، وكان كلما انصرف من قتال العدو إلى سرادقه يأمر بأن ينفض غبار ثيابه التى حضر فيها معمة القتال ، وأن يُجمع ويُحتفظ به ؛ فلما حضرته المنية أمر بما اجتمع من ذلك أن يُنثر على كفنه إذا وُضع فى قبره^(١) .

وكانت وفاته بأقصى ثغور المسلمين ، بموضع يعرف بمدينة سالم ، مبطوناً ؛ فصحّت له الشهادة ، وتاريخ وفاته سنة ٣٩٣ فكانت مدة إمارته نحواً من سبع وعشرين سنة .

وكان معافى النسب ، وأمه تميمية اسمها فريهة^(٢) بنت يحيى بن زكريا التميمى ، كان يعرف بابن برّطل ؛ ولذلك قال فيه أبو عمر أحمد ابن محمد بن درّاج الشاعر المعروف بالقسطلى من قصيدة له :

تلاقَتْ عليه من تميمٍ ويعرُبُ شُموس تَلالا فى العلا وبُدُورُ
من الجَمِيرَيْن الذين أكفُّهم سحائبُ تهجى بالندى وبُحورُ

(١) ويروى أنه أمر بما اجتمع من ذلك الثراب ان تصنع منه لبنه يجعلونها كالوسادة لراسه فى قبره ، رحمه الله !
(٢) فى الجدوة : بريهة .

[ابن دراج القسطلی]

وأبو عمر هذا من فحول شعراء الأندلس والمجيدین منهم ، ذكره أبو منصور الثعالی فی کتاب الیتیمه وقال فیہ : القسطلی عندهم كأبی الطیب بصقع الشام . هذا قول أبي منصور أو معناه^(١) ؛ وكنت أنا فی أيام شبیبتي مولعاً بشعره كثير الدراسة له ، فلم یبق اليوم علی خاطری منه شیء أصلاً ، خلا بیتین هما مما ارتجل فی بعض مجالسه ، وهما :

أجلِ الكلام إذا نطقتَ فإنما عقلُ الفتی فی لفظه المسموعِ
كالمرء یختبرُ الإناء بصوته فیرى الصحیح به من المصدوعِ

[المظفر بن أبي عامر]

ثم تقلد الوزارة والحجابه بعد ابن أبي عامر هذا ، ابنه أبو مروان عبد الملك بن أبي عامر ، وتلقب بالمظفر ، فجرى فی الغزو والسیاسة والنیابة عن هشام المؤید [وحجابه] علی سَنَنِ أبیه ؛ وكانت أيامه أعیاداً فی الخصب والأمان ، دامت سبع سنین ، إلى أن مات وثارَت الفتن بعده .

(١) نص عبارة الثعالی : « أبو عمر . . . كان یصقع الأندلس كالمنبئی یصقع الشام ، وهو احد الشعراء الفحول ، وكان یجید ما یُنظم ویقول :

الناصر ابن أبى عامر

[أول الفتنة]

ثم تقلد ما كان يتقلده من بعده ، أخوه عبد الرحمن ، وتلقب بالناصر
فخلط وتسمى ولى العهد^(١) ؛ ولم يزل مضطرباً الأمور مدة أربعة
أشهر ، إلى أن قام عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن
الناصر ، لثمان عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ ، فخلع
هشاما المؤيد ، وأسلمت الجيوش عبد الرحمن بن محمد بن أبى عامر ،
فقتل وصُلب^(٢) . - وكان محمد بن هشام بن عبد الجبار - المتقدم
ذكره - لما قام تَلَقَّبَ بالمهدى - وبقي الأمر كذلك إلى أن قُتل محمد بن
هشام بن عبد الجبار . . .

ورُدَّ هشام المؤيد إلى الأمر ؛ وذلك يوم الأحد السابع من ذى الحجة سنة
٤٠٠ ؛ وبقي كذلك و جيوش البربر تحاصره مع سليمان بن الحكم بن

(١) حمل هشاما المؤيد - وكان لم يزل محجوباً مكعوف اليد عن التصرف فى شئون
الدولة - على أن يوليه العهد من بعده ، فكان هذا أول الفتنة .

(٢) حكى صاحب نفع الطيب عن ابن الرقيق قال :

« ومن أعجب ما روى أنه من نصف نهار يوم الثلاثاء لأربع بقين من جمادى الآخرة الى
نصف نهار يوم الأربعاء ، فتحت قرطبة ، وهدمت الزهراء ، وخلع خليفة وهو المؤيد ، وولى
خليفة وهو المهدى ، وزالت دولة بى عامر العظيمة ، وقتل وزيرهم محمد بن علاجة ، وأقيمت جيوش
من العامة ، ونكب خلق من الوزراء ، وولى الوزارة آخرون ، وكان ذلك كله على يد عشرة رجال
فحاميين وجزارين وزباليين ، وهم جند المهدى » !

سليمان^(١) ؛ واتصل ذلك إلى خمس خلون من شوال سنة ٤٠٣ ؛ فدخل
البربر مع سليمان قُرطبة ، وأخلّوها من أهلها ، حاشا المدينة وبعض الرّبض
الشرقي ، وقُتل هشام المؤيد بن الحكم المستنصر
وكان .. كما ذكرنا - في طول دولته متغلباً عليه لا يتفدّ له أمر ؛
وغلب عليه في هذ الحصار ، أعنى حصار البربر ، واحد بعد واحد من
العبيد ، بعد محمد بن أبي عامر المنصور وولديه عبد الملك المظفر
وعبد الرحمن الناصر .

(١) هو سليمان بن الحكم من سليمان بن عبد الرحمن الناصر الأموي الذي تلقب فيما بعد
بالمستعين .

[تفصيل ما سبق إجماله]

ولاية محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي

قام^(١) محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، على هشام بن الحكم في جمادى لآخرة - كما تقدم - فخلعه وتسمى بالمهدي ، وكان يُكنى أبا الوليد ، أمه أم ولد اسمها مُزَنَة ، وكان له ولد اسمه عبيد الله . وكان مولد المهدي في سنة ٣٦٦ ، وقُتل وله من العمر سبع وثلاثون سنة^(٢) . ولم يزل [المهدي] واليا إلى أن قام عليه - يوم الخميس لخمس خلون من شوال سنة ٣٩٩ - هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر مع البربر ، فحاربه ببقية يومه والليلة الآتية وصبيحة اليوم الثاني ؛ فقام عامة أهل قرطبة مع المهدي ، فانهمز البربر وأسر هشام بن سليمان ، فأُتي به إلى المهدي فضرب عنقه .

واجتمع البربر عند ذلك فقدّموا على أنفسهم سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، وهو ابن أخى هشام القائم المذكور ؛ فنهض بالبربر إلى الثغر ، واستجاش النصارى وأتى بهم إلى باب قرطبة ؛ فبرز إليه جماعة أهل قرطبة ، فلم تكن إلا ساعة حتى قُتل من أهل قرطبة نيف وعشرون ألف رجل ، في جبل هنالك يعرف بجبل قنطش ،

(١) في الأصل ثم قام .

(٢) لعل صوابها : أربع وثلاثون سنة .

وهي الوقعة المشهورة ، ذهب فيها من الخيار والفقهاء وأئمة المساجد والمؤذنين خلقٌ كثير .

واستتر محمد بن هشام المهدي أياماً ، ثم لحق بِطُلَيْطَلَة ؛ وكانت الثغور كلها من طُرُطُوشَة إلى الأَشْبُونَة باقيةً على طاعته ودعوته . واستجاش بالإفرنج وأتى بهم إلى قرطبة ؛ فبرز إليه سليمان بن الحكم مع البربر ، إلى موضع بقرب قرطبة على نحو بضعة عشر ميلاً يدعى « دار البقر »^(١) ، فانهمز سليمان والبربر ، واستولى المهدي على قرطبة ؛ ثم خرج بعد أيام إلى قتال جسهور البربر ، وكانوا قد عاثوا بالجزيرة ، فالتفوا بموضع يعرف بوادي آره ؛ فكانت الهزيمة على محمد بن هشام المهدي ؛ وانصرف إلى قرطبة ، فوثب عليه العبيد مع واضح الصقلي^(٢) ، فقتلوه وردوا هشاماً المؤيد كما تقدم قبل^(٣) .

فكانت مدة ولاية المهدي منذ قام إلى أن قُتل ستة عشر شهراً ، من جملة الستة الأشهر التي كان فيها سليمان بقرطبة وكان هو بالشعر ؛ وانقرض عقبه فلا عقب له^(٤) .

(١) في الجدود . عقبه الجبر .

(٢) كان واضح الصقلي من موالى بني عامر ، وكان يسمى أبضا واضحاً العامري ، فقد أخذ بنار مواليه اذى من أعان على قتل المهدي ، كما مهد الأمر لنفسه بذلك ، اذ تولى الحجابة بعدها لهشام المؤيد .

(٣) انظر الصفحة السابقة .

(٤) حكى الامرئ عن ابن الرقيق قال . « واعد كان قيامه مشغوما على الدين والدنيا ، فانه فاتح ابواب المنه بالاندلس وماحى معالمها ، حتى تفرقت الدولة وانتثر السلك وكسر الرؤساء وتناول العدو اليها واحذها شئنا شئنا حتى محى اسم الاسلام منها . »

ولاية سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر

المتلقب بالمستعين بالله

قام سليمان بن الحكم يوم الجمعة لست خلون من شوال سنة ٣٩٩ ،
وتلقب بالمستعين بالله ، ثم دخل قرطبة كما تقدم في ربيع الآخر سنة
٤٠٠ ، فتلقب حينئذ بالظافر بحول الله ، مضافاً إلى المستعين بالله ؛ ثم
خرج عنها في شوال من السنة بعينها ، فلم يزل يجول بعساكر البربر
معه في بلاد الأندلس ، يفسد وينهب ويُقفر المدائن والقُرى بالسيف
والغارة ، لا يُبقى البربرُ معه على صغير ولا كبير ولا امرأة ، إلى أن دخل
قرطبة في صدر شوال سنة ٤٠٣ .

[أولية بني حمود]

وكان من جملة جنده رجلاً من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب ،
يسميان القاسم وعلياً ابني حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله
ابن عمر بن إدريس [بن إدريس] بن عبد الله بن الحسن بن الحسن
ابن علي بن أبي طالب ، رضى الله عنهم ؛ فجعلهما قائدين على المغاربة ،
ثم ولى أحدهما سبتة وطنجة ، وهو عليُّ الأصغر منهما ؛ وولى القاسم
الجزيرة الخضراء ، وبين الموضعين المجاز المعروف بالزقاق ، وسعة البحر
هنالك اثنا عشر ميلاً ، وقد ذكر فيما قبل .

وافترق العبيد إذ دخل البربر مع سليمان قرطبة ، فملكوا مدنا عظيمة وتحصنوا فيها ، فراسلهم على بن حمود المذكور - وقد حدث له طمعٌ في ولاية الأندلس - فكتب إليهم يذكر لهم أن هشام بن الحكم إذ كان محاصراً بقرطبة كتب إليه يولِّيه عهده^(١) . فاستجابوا له وبإيعوه ، فرحف من سبتة إلى مالقة ، وفيها عامر بن قُتُوح الفائقى ، مولى فائق مولى الحكم المستنصر ؛ فاستجاب له وأدخله مالقة ، فتملكها على بن حمود وأخرج عنها عامر بن قُتُوح ؛ ثم زحف بمن معه من البربر وجمهور العبيد إلى قرطبة ، فخرج إليه محمد بن سليمان فى عساكر البربر فانهزم محمد ابن سليمان ، ودخل قرطبة على بن حمود ، وقتل سليمان بن الحكم صبِراً : ضرب عنقه بيده يوم الأحد لتسع بقين من المحرم سنة ٤٠٧ ، وقتل أباه الحكم بن سليمان بن الناصر أيضاً فى ذلك اليوم ، وهو شيخ كبير له اثنتان وسبعون سنة !

وكانت مدة ولاية سليمان - منذ دخل قرطبة إلى أن قتل - ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر وأياماً ، وكان قد ملكها قبل ذلك ستة أشهر على ما تقدم ، وكانت مدته - منذ قام مع البربر إلى أن قُتل - سبعة أعوام وثلاثة أشهر وأياماً .

وانقطعت دولة بنى أمية فى هذا الوقت وذُكِرُهم على المنابر فى جميع أقطار الأندلس ، إلى أن عادت بعد ذلك فى الوقت الذى نذكره إن شاء الله تعالى .

(١) يذكر هنا أن عبد الرحمن الناصر بن أمى عامر رعم أن هشاماً المؤيد ولاء عهده ، وكان ذلك أول الفتنة التى تقوص بها بنيان بنى عامر وبدأ انحلال الأندلس !

وكانت أم سليمان هذا أم ولد اسمها ظبية ، ومولده سنة ٣٥٤ ، ترك من الولد ولي عهده محمداً ، لم يعقب ، والولد ، ومسلمة .

وكان سليمان أديباً شاعراً ؛ قال الحميدى : أنشدني أبو محمد علي بن أحمد قال : أنشدني فتى من ولد إسماعيل بن إسحاق الننادى الشاعر كان يكتب لأبي جعفر أحمد بن سعيد بن الدب ، قال : أنشدني أبو جعفر قال : أنشدني أمير المؤمنين سليمان الظافر لنفسه . قال أبو محمد : وأنشدنيها قاسم بن محمد المرواني قال : أنشدنيها وليد بن محمد الكاتب لسليمان الظافر أمير المؤمنين :

عجبا يهابُ الليثُ حدَّ سِنَانِي	وأهابَ لحُظِّ فَوَاتِرِ الْأَجْفَانِ
وأقارُعُ الأهوالِ لا مُتَهَيِّبًا	منها سوى الإعراض والهجران
وتملكك نفسى ثلاثُ كالدُّمَى	زُهرُ الوجوه نواعمُ الأبدان
ككواكبِ الظلماءِ لُحْنٌ لِنَاظِرِ	من فوق أغصان على كُثبان
هذى الهلالُ وتلك بنتُ المشتري	حُسْنًا ، وهذى أختُ غصن البان
حاكمتُ فيهن السُّلُوَ إِلَى الصُّنَى	فقدضى بسلطان على سُلْطَانِي
فابحُخْن من قلبي الحِمْي وثَنَيْنِي	في عزِّ مُلْكِي كالأسير العاني
لا تعذِّلوا ملكًا تذلل للهوى	ذلُّ الهوى عزٌّ وملكٌ ثان
ما ضرَّ أُنَى عَبْدُهُنَّ صِبَابَةٌ	وبنو الزمان وهُنَّ من عبداني
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى	كلَّفًا بهن فلستُ من مروان
وإذا الكريمُ أحبُّ أَمَّنْ إلفه	خطب القلي وحوادث السلوان
وإذا تجارى في الهوى أهلُ الهوى	عاش الهوى في غبطة وأمان

ولإنما قصد المستعين بهذه الأبيات معارضة الأبيات التي عملها العباس
ابن الأحنف على لسان هرون الرشيد فنسبت إليه ، وهي :

مَلِكُ الثَّلَاثِ الْآنَسَاتُ عِنَانِي وَحَلَلَنْ مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ
مَا لِي تُطَاوِعُنِي الْبَرِيَّةُ كُلُّهَا وَأَطِيعُهُنَّ وَهْنٌ فِي عِصْيَانِي
مَا ذَاكَ إِلَّا أَنْ سُلْطَانَ الْهَوَى وَبِهِ قَوِينَ أَعَزُّ مِنْ سُلْطَانِي

[ابن حزم الظاهري]

أبو محمد الذي يحدث عنه الحميدى : هو أبو محمد علي بن أحمد
ابن سعيد بن حزم بن غالب بن صلح بن خلف بن معدان بن سفيان بن
يزيد الفارسي ، مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد
شمس بن عبد مناف القرشي ، قُرئَ على نسبُه هذا بخطه على ظهر كتاب
من تصانيفه .

أصلُ آبائه الأذنين من قرية من إقليم لبُلَّة من غرب الأندلس ، سكن
هو وأبوه قرطبة ، وكان أبوه^(١) من وزراء المنصور محمد بن أبي عامر ،
ووزراء ابنه المظفر بعده ؛ وكان هو المدبر لدولتيهما ، وكان ابنه أبو محمد
الفقيه وزيراً لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر الملقب
بالمستظهر بالله ، أخى المهدي المذكور آنفاً ؛ ثم إنه نبذ الوزارة وأطرحها
اختياراً ، وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسُّنن ، فنال من ذلك
ما لم ينل أحدٌ قبله بالأندلس .

(١) هو الوزير أبو عمر أحمد بن حزم .

وكان على مذهب الإمام أبي عبد الله الشافعي رحمه الله ، أقام على ذلك زماناً ، ثم انتقل إلى القول بالظاهر ، وأفرط في ذلك حتى أربى على أبي سليمان داود الظاهري وغيره من أهل الظاهر ؛ وله مصنفات كثيرة جليلة القدر شريفة المقصد في أصول الفقه وفروعه ، على مهية الذي يسلكه ، ومذهبه الذي يتقلده ؛ وهو مذهب داود بن علي بن خلف الأصبهاني الظاهري ومن قال بقوله من أهل الظاهر ونفاة القياس والتعليل .

بلغني عن غير واحد من علماء الأندلس أن مبلغ تصانيفه في الفقه والحديث والأصول والنحل والميل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المخالفين له - نحو من أربعمئة مجلد - تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة : وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في مدة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفاً ، فقد ذكر أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الفرغاني في كتابه المعروف بالصلة . وهو الذي وصل به تاريخ أبي جعفر الطبري الكبير : أن قوماً من تلاميذ أبي جعفر لخصوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفي في سنة ٣١٠ وهو ابن ست وثمانين سنة ، ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته ، فصار لكل يوم أربع عشرة ورقة ؛ وهذا لا يتهيأ لمخلوق إلا بكريم عناية الباري تعالى وحسن تأييده له .

ولأبي محمد بن حزم بعد هذا نصيب وافر من علم النحو واللغة ، وقسم صالح من قرض الشعر وصناعة الخطابة ؛ فمن شعره :

هل الدهر إلا ما عَرَفْنَا وأدركْنَا فجائعه تبقى ولذاته تفتي

إذا أمكنت فيه مسرة ساعة
إلى تبعات في المعاد وموقف
حصلنا على هم وإثم وحسرة
حينئذ لا ولي ، وشغل بما أتى
كان الذي كنا نسر بكونه
وله من قصيدة طويلة :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة
ولو أنني من جانب الشرق طالع
ولي نحو أكناف العراق صباية
فإن ينزل الرحمن رحلى بينهم
فكم قائل : أغفلته وهو حاضر
هنالك يدري أن للبعد قصة
[^(١) فيا عجباً من غاب عنهم تشوقوا
وإن مكاناً ضاق عني لضيق
وإن رجالاً ضيعوني لضيع

ومنها في الاعتذار عن مدحه لنفسه :

ولكن لي في يوسف خير أسوة
يقول - وقال الحق والصدق - إنني
وليس على من بالنبي اتتسى ذنب
حفيظ عليم ؛ ما على صادق عتب

(١) ما بين العلامتين () زيادة عن نسخ الطيب .

ومن المختار له قوله :

لا يَشْمَتَنَّ حَاسِدِي إِنْ نَكَبْتُ عَرَضْتُ
فَالدهر ليس على حال بِمُتْرَكٍ
ذو الفضلِ كالتبرِ طوراً تحت مِيقعة^(١)
وتارةً في ذُرَى تاجٍ على مَلِكٍ !

ومن ذلك قوله :

لئن أَصْبَحْتُ مرتَجِلاً بِشَخْصِي فروحى عندكم أَبداً مُقِيمُ
ولكنُ للعيانِ لطيفُ معنى له سَأَلَ المُعَايَنَةَ الكَلِيمُ

ومن أجود ما أحفظ له بيتان قالهما في رجلٍ نمام :

أَنْتُمْ مِنَ المِرآةِ فى كُلِّ ما درى وَأَقْطَعُ بَيْنَ الناسِ مِنْ قُضْبِ الهِنْدِ
كَأَنَّ المَنايَا والزَمَانَ تَعَلَّمَا تَحِيلُهُ فى القِطْعِ بَيْنَ ذَوَى الوُدِّ !
وُجِدَ بِخَطِّهِ أَنَّهُ وُلِدَ يَوْمَ الأَرْبَعاءِ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ وَقَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ
آخِرَ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ ٣٨٤ .

توفى رحمه الله فى سلخ شعبان من سنة ٤٥٦ .

ولمَّا أوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجل وإن كانت قاطعة للنسق
مزيحةً عن بعض الغرض ، لأنَّه أشهر علماء الأندلس اليوم وأكثرهم ذكراً

(١) المِيقعة : خشبة القصار التى يدق بها ، والطريقة : ورواية نفح الطيب : تحت متربة .

فى مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء ؛ وذلك لمخالفته مذهب مالك
بالمغرب واستبداده بعلم الظاهر ، ولم يشتهر به قبله عندنا أحد ممن علمت ،
وقد كثر أهل مذهبه وأتباعه عندنا بالأندلس اليوم (١) .

(١) كذلك كان شأنه . فيما يحكى المراكشى . بعد وفاته بما بغرب من فرنين ، أما فى حماته
فكم شجع علمه المعهده وطمعنوا فمسه حتى بغيرت عليه فلوب الخاصه والعامة ، وحتى نفر الى
الماده مجردا مسوحشا الى ان مات ، فلا يبتس أصحاب الرأى بما يلفون فى حياتهم من عتب
وشفوه ويؤوه . ومدبر . وكأنما كان ابن حزم - رحمه الله - ينظر الى هذا المعنى يظهر الغيب
حين قال :

* فكم قائل : اعمله وهو حاضر *

الآيات !

ولاية على بن حمود الناصر

ثم ولى على بن حمود على ما تقدم ، وتسمى بالخلافة ، وتلقب بالناصر .
ثم خالف عليه العبيد الذين كانوا بايعوه ، وقدموا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، ولقبوه بالمرتضى ، وزحفوا به إلى غرناطة ، وهى من البلاد التى تغلب عليها البربر ؛ ثم ندموا على تقديمه لما رأوا من صرامته وجدة نفسه ، وخافوا من عواقب تمكنه وقدرته ، فانهزموا عنه ودسوا عليه من قتله غيلة ، وخفى أمره .
وبقى على بن حمود بقرطبة مستمراً الأمر عامين غير شهرين ، إلى أن قتله صقالبة له فى الحمام سنة ٤٠٨ ، وكان له من الولد يحيى ، وإدريس .

ولاية القاسم بن حمود المامون

ثم ولى بعده أخوه القاسم بن حمود ، وكان أَسَنُّ منه بعشرة أعوام ، وكان وادعاً ، أَمَنَ النَّاسُ معه ، وكان يُذَكَّرُ عنه أَنَّهُ تَشَيَّعَ ؛ ولكنه لم يُظهر ذلك ولا غَيَّرَ على الناس عادةً ولا مذهبا ، وكذلك سائر من ولى منهم بالأندلس^(١) .

فبقي القاسم كذلك إلى شهر ربيع الأول سنة ٤١٢ ، فقام عليه ابن أخيه يحيى بن على بن حمود ، بمالقة ، فهرب القاسم عن قرطبة بلا قتال وصار بإشبيلية ، وزحف ابن أخيه المذكور من مالقة بالعساكر ودخل قرطبة بلا قتال ، وتسمَّى بالخلافة . وتلقَّب بالمعتلى ؛ فبقي كذلك إلى أن اجتمع للقاسم أمره واستمال البربر وزحف بهم إلى قرطبة . فدخلها سنة ٤١٣ وهرب يحيى ابن على إلى مالقة ، فبقي القاسم بقرطبة شهوراً واضطرب أمره .

وغلب ابن أخيه يحيى على المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، وهى كانت معقِلَ القاسم . وبها كانت امرأته وذخائره .

وغلب ابن أخيه الثانى إدريس بن علىُّ صاحب سَبْتَةِ على طنجة ، وهى كانت عُدَّة القاسم . يلجأ إليها إن رأى ما يخافه بالأندلس .

(١) بهنى بنى حمود ، وهم - كما علمت - من بنى الحسن بن على -

وقام عليه جماعة أهل قرطبة بالمدينة ، وغلَّقوا أبوابها دونه^(١) ، وحاصروهم نيفاً وخمسين يوماً ، وأقام الجمعة في مسجد خارج قرطبة ، يعرف بمسجد ابن أبي عثمان ، أثره باق إلى اليوم ؛ ثم إن أهل قرطبة زحفوا إلى البربر ، فانهزم البربر عن القاسم وخرجوا من الأرباض كلها في شعبان سنة ٤١٤ ، ولحقت كل طائفة من البربر ببلد غلبت عليه .

وقصد القاسم إشبيلية ، وبها كان ابنه محمد والحسن ، فلما عرف أهل إشبيلية خروجه عن قرطبة ومجيئه إليهم ، طردوا ابنه ومن كان معهم من البربر ، وضبطوا البلد ؛ وقدَّموا على أنفسهم ثلاثة من أكابر البلد ، أحدهم القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي^(٢) ، ومحمد بن يريم الألحاني ، ومحمد بن الحسن الزبيدي ؛ ومكثوا كذلك أياماً مشتركين في سياسة البلد وتدبيره ؛ ثم استبد القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد بالأمر والتدبير ، وصار الآخرون من جملة الناس .

ولحق القاسم بشريش ، واجتمع البربر على تقديم ابن أخيه يحيى ، فزحفوا إلى القاسم فحاصروه حتى صار في قبضة ابن أخيه ، وانفرد ابن أخيه يحيى بولاية البربر .

وبقى القاسم أسيراً عنده وعند أخيه إدريس بعده إلى أن مات إدريس ، فقتل القاسم خنقاً سنة ٤٣١ ، وحُمِلَ إلى ابنه محمد بن القاسم بالجزيرة ، فدفنه هناك .

(١) لما ثار عليه أهل قرطبة ونقضوا طاعته، خرج إلى ما وراء الأسوار فحاصروهم بالمدينة .

(٢) هو رأس أسرة بنى عباد ملوك إشبيلية فيما بعد .

فكانت ولاية القاسم منذ تسمى بالخلافة بقرطبة إلى أن أسره ابن أخيه ،
ستة أعوام ، ثم كان مقبوضاً عليه ست عشرة سنة عند أبنى أخيه يحيى
وإدريس ، إلى أن قتل - كما ذكرنا - في أول سنة ٤٣١ .

ومات وله ثمانون سنة ، وله من الولد محمد والحسن ، أمهما أميرة
بنت الحسن بن قنن بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن
إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب .

ولاية يحيى بن على المعتلى

اختلف فى كنيته ، ف قيل أبو القاسم ^(١) ، وقيل أبو محمد ؛ وأمه
لَبُونَةُ بنت محمد بن الحسن بن القاسم المعروف بقنُون بن إبراهيم بن
محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن
ابن على بن أبي طالب .

وكان الحسن ابن قنُون من كبار ملوك الحَسَنِيِّين وشُجعانهم ومَرَدَتِهِم
وطُغاتهم المشهورين .

فتسمى يحيى بالخلافة بقرطبة سنة ٤١٣ كما ذكرنا ، ثم هرب عنها
إلى مالقة سنة ٤١٤ كما وصفنا ، ثم سعى قوم من المفسدين فى ردِّ دعوته
إلى قرطبة فى سنة ١٦ فتم لهم الأمر ، إلا أنه تأخر عن دخولها باختياره ،
واستخلف عليها عبد الرحمن بن عَطَاف اليفرَني ^(٢) ، فبقى الأمر كذلك

(١) فى الجنوة : ف قيل أبو اسحاق .

(٢) منسوب الى يفرن : من قبائل البربر ، وقد بلغ من حاحه وسلطانه ان عبيد الله بن محمد
المهدى - وكان ابوه الخليفة بعد انتهاء دولة بنى عامر - كتب اليه مسترفدا :

أقول لآمالى : ستبلغ إن بدا	محيا ابن عطاف ، ونعم المومل !
فقلت : دعانى ؛ كلَّ يوم تعلُّ	فقلت لها : إنَّ لاح يُغنى التعلُّ
لئن كان منى كلَّ حين ترحلُ	فإني إنَّ أحلُّ به لست أرحل
فتى تردُّ الآمالُ فى بحر جوده	وليس على نُعمى سواه المعول =

إلى سنة ١٧ ، ثم قُطعت دعوته عن قرطبة ، وبقي يتردد عليها بالعساكر إلى أن اتفقت على طاعته جماعة البربر ، وسلموا إليه الحصون والقلاع والمدن ، وعظم أمره بقرمونة ، فصار محاصراً لإشبيلية طامعاً في أخذها ،

= قالوا : فضن عليه ابن العطف اليفرنى حتى برد الجواب ، فكتب اليه ابن المهدي ثانية يقول :

أيها الممكن من قدرته لا يراك الله إلا محسناً
إنما المرء بما قدمه فتخير بين ذم وثنا
لا تكن بالدهر غراً وإذا كنت فانظر فعله في ملكنا
كل ما خولت منه ذاهباً إنما تصحب منه الكفنا
مدد كفاً نحو كف طالما أمطرت منه السماء الهتنا
أو أرحتي بجواب مؤنس فميطال البر من شر العنا

ولكن ابن العطف مع ذلك لم يلن له ، ولأن له أحد كتابه فاعطاه خمسين درهما ، فلم يسمع بذلك ابن العطف طرده ٠٠ ثم لم يلبث ابن عطف أن نزلت به النكبة، فتزوج ذلك الكاتب امرأته وسكن في داره وتخول في نعمته ، فكتب بالفحم على حائط تلك الدار :

أيا دار قولي أين ساكنك الذي أبي لومه أن يترك الشكر خالدا
تسمى وزيراً ، والوزارة سبة لمن قد أبي أن يستفيد المحامدا
وولي ولكن ليس يبرح ذمه فيها هو قد أرضى عدواً وناقدا
وأضحى وكيل كان يأنف فعله نزيلك في الحوض المنع واردا
جزاء بإحسان لذا ، وإساءة لذاك ، وساع ورث الحمد قاعدا

وانما أوردنا هذه الحكاية لدلالاتها على مقدار ما كان من تبدل أمور الدولة ومنازل الأشراف في غمار تلك الفتنة التي كانت !

فخرج يوماً وهو سكران إلى خيل ظهرت من إشبيلية بقرب قرمونة ،
فلقيها وقد كمنوا له ، فلم يكن بأسرع من أن قتلوه ، وذلك يوم الأحد
لسبع خلون من المحرم سنة ٤٢٧ .
وكان له من الولد : الحسن ، وإدريس ، لأُمِّي ولد .

[ردُّ الأمر إلى بني أمية]
ولاية عبد الرحمن بن هشام المستظهر

ولما انهزم البربر عن قرطبة مع أبي القاسم كما ذكرنا ، اتفق رأى أهل قرطبة على ردِّ الأمر إلى بني أمية ، فاختاروا منهم ثلاثة : وهم عبد الرحمن ابن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، أخو المهدي المذكور آنفاً^(١) ، وسليمان بن المرتضى المذكور آنفاً^(٢) ، ومحمد بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان القائم على المهدي بن الناصر^(٣) .

ثم استقر الأمر لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ، فبويع بالخلافة لثلاث عشرة ليلة خلت لرمضان سنة ٤١٤ ، وله اثنتان وعشرون سنة ، وتلقب بالمستظهر ؛ وكان مولده سنة ٣٩٢ في ذى القعدة ، يكنى أبا المطرف^(٤) وأمه أم ولد اسمها غاية .

ثم قام عليه أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر ، مع طائفة من أراذل العوام ، فقتل عبد الرحمن ابن هشام ، وذلك لثلاث بقين من ذى القعدة سنة ٤١٤ المؤرخة ، ولا عقب له .

(١) انظر ص ٨٨ .

(٢) انظر ص ٩٨ .

(٣) كان أول من قام على المهدي ، هشام بن سليمان بن عبد الرحمن ، ثم خلفه على رئاسة البربر بعد مصرعه ، ابن أخيه سليمان بن الحكم بن سليمان . انظر ص ٨٨ .

وكان في غاية الأدب والبلاغة والفهم ورقة النفس ؛ كذا قال أبو محمد
على بن أحمد ، وكان خبيراً به لأنه وَزَرَ له .

وقال الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد : كان المستظهر
شاعراً [مطبوعاً] ^(١) ويستعمل الصناعة فيجيد ، وهو القائل في ابنة عمه :
حمامةُ بيتِ العَبْشَمِيِّينَ ^(٢) رُفِرَتْ فطِرتُ إليها من سَراتِهِمْ صُفِرَا
تَقِلُّ الثريا أن تكون لها يداً ويرجو الصباحُ أن يكون لها نَحْراً
وإني لَطَعَانُ إذا الخيلُ أَقْبَلَتْ جَوَانِبُهَا حتى ترى جُونها شُفِرَا
ومُكْرَمُ ضَيْفَى حين ينزلُ ساحتى وجاعلُ وفرى عند سائله وفرا
وهي طويلة ، قالها أيام خِطْبَتِهِ لابنة عمه أم الحكم بنت سليمان المستعين
قال أبو عامر : « وكان متهماً في أشعاره ورسائله ، حتى كتب أبياتاً
ليعلی بن أبي زيد حين وفد عليه ارتجالاً ، فعجب أهل التمييز منه ،
وأما أنا فقد كنت بلوته ، وكان ورود يعلی فجأة ولم يبرح من مجلسه
حتى ارتجل الأبيات وأنا والله أخاف أن يزل ، فأجاد وزاد . » هذا آخر
كلام أبي عامر .

(١) الزيادة عن الجذوة .

(٢) العبشميون : بنو عبد شمس .

ولاية محمد بن عبد الرحمن المستكفي بالله

ولى محمد بن عبد الرحمن المذكور وله ثمان وأربعون سنة وأشهر ، لأن مولده فى سنة ٣٦٦ ، وكنيته أبو عبد الرحمن ، أمه أم ولد اسمها حوراء ، وكان أبوه قد قتله ابن أبى عامر فى أول دولة هشام المؤيد ، لسعيه فى القيام وطلبه للأمر .

وكان محمد بن عبد الرحمن هذا يلقب بالمستكفي بالله ، وكانت ولايته سنة أشهر وأياماً ، وكان فى غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير ؛ وزر له رجلٌ حائك يعرف بأحمد بن خالد ، هو كان المدبر لأمره والمدير لدولته ؛ فقل فى دولة يُديرها حائك ! . . . !

ولم يزل كذلك إلى أن خُلع وقُتل وزيره المذكور فى داره : دخل عليه عوامٌ أهل قرطبة نهاراً فتولّوه بالحديد إلى أن برّد ، وخلعوا المستكفي بالله وأخرجوه عن قرطبة ، بعد أن أقام ثلاثة أيام مسجوناً لا يصل إليه طعام ولا شراب ؛ ثم نفّوه - كما ذكرنا - فلحق بالثغور ، ورجع الأمر إلى يحيى ابن على الفاطمي^(١) .

وانتهى المستكفي المذكور من الثغر إلى قرية تعرف بـ « شَمْنَت » بالقرب من مدينة سالم ، ومعه أحد قواده ، وهو عبد الرحمن بن محمد بن

(١) يعنى المعلى ابن حمود ، وآل حمود فاطميون من بنى الحسن بن على كما مر .

السلیم ، من ولد سعید بن المنذر القائد المشهور أيام عبد الرحمن الناصر ، فكرِه هذا القائد التمادی معه ؛ فاستدعى المستكنی غداءه ، فعمد القائد إلى دجاجة فدهنها له بعُصارة نبت يقال البیش^(١) - وهو كثير ببلاد الأندلس وخصوصاً بتلك الجهة - فلما أكلها المستكنی مات مكانه ، فغسله وكفنه وصلّى عليه ودفنه ؛ فقبره هناك ، ولا عقب له^(٢) .

ثم أقام يحيى بن على الفاطمی فی الولاية نافذ الأمر ، إلا أنه لم يدخل قرطبة ، وإنما كان مقياً بقرمونة كما قد قدمنا^(٣) إلى أن قُتل فی التاريخ الذى تقدم ذكره^(٤) .

(١) زهرة ذات اللون ، عصارتها سم نافع .

(٢) وهو أبو د ولادة ، صاحبة ابن زيدون .

(٣) ونائبه على قرطبة هو ابن عطف المذكور آنفا . انظر ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٤) انظر ص ١٠٤ .

ولاية هشام المعتد بالله

ولما انقطعت دعوة يحيى بن على الفاطمى عن قرطبة فى التاريخ الذى ذكرنا ، أجمع رأى أهل قرطبة على ردّ الأمر إلى بنى أمية ، وكان عميدهم فى ذلك والذى تولى مُعظمه وسعى فى تمامه ، الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر ابن أبى عبدة ؛ وقد كان ذهب كل من ينافس فى الرئاسة ويخُبُّ فى الفتنة بقرطبة ؛ فراسل جهور من كان معه على رأيه من أهل الثغور والمتغلبين هنالك على الأمور ، وداخلهم فى هذا الأمر ، فاتفقوا بعد مدة طويلة على تقديم أبى بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، وهو أخو المرتضى المذكور آنفاً^(١) .

وكان هشام هذا مقياً بحصن يدعى ألبُنت ، من الثغور ، عند أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم القائد المتغلب بها ؛ فبايعوه فى شهر ربيع الأول سنة ٤١٨ ، وتلقّب بالمعتد بالله .

وكان مولده فى سنة ٣٦٤ ، وكان أسنَّ من أخيه المرتضى بأربعة أعوام ، وسنّه يوم بُويع له أربع وخمسون سنة ، أمّه أُمُّ ولد اسمها «عائب» . فبقى ينتقل فى الثغور ثلاثة أعوام لا يستقر بموضع ، ودارت هنالك فتن عظيمة بين الرؤساء المتغلبين واضطراب شديد ، إلى أن اتفق أمرهم واجتمع

(١) انظر ص ٩٨

رأيهم على أن يسير إلى قرطبة قصبة الملك ، فسار إليها ودخلها في الثامن من ذى الحجة سنة ٤٢٠ ، فلم يُقَمَّ بها إلا يسيراً حتى قامت عليه طائفة من الجند ، فخلع ، وجرت أمور يطول شرحها ، من جملتها إخراج المعتد بالله هذا من قصره هو وحشمه ، والنساء حاسرات عن أوجههن ، حافية أقدامهن ، إلى أن أدخلوا الجامع الأعظم على هيئة السبايا ، فأقاموا هنالك أياماً يتعطفُ عليهم بالطعام والشراب ، إلى أن أخرجوا عن قرطبة . ولحق هشام ومن معه بالشغور بعد اعتقالٍ بقرطبة ، فلم يزل يجول في الشغور إلى أن لحق بابن هود المتغلب على مدينة لارده وسرقسطة وأفراغة وطرطوشة وما والى تلك الجهات ، فأقام عنده هشام إلى أن مات في سنة ٤٢٧ ولا عقب له ؛ فهشام هذا آخر ملوك بني أمية بالأندلس .

نسبه : هو هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم .

وبخلعه انقطعت الدعوة لبني أمية وذكرهم على المنابر بجميع أقطار الأندلس والدعوة إلى الآن .

فهذا آخر ما انتهى إلينا من أخبار بني أمية بالأندلس على شرط التلخيص .

ذكر أخبار الأندلس

بعد انتقال الدعوة الأموية عنها

ومن ملكها من الملوك الى وقتنا هذا ، وهو سنة ٦٢١

ومال قرطبة بعد انتهاء الدولة الاموية

ولما انقطعت دعوة بني أمية كما ذكرنا بالأندلس ولم يبق من عقبهم من يصلح للإمارة ولا من تليق به الرئاسة ، استولى على تدبير مُلك قرطبة جَهْور بن محمد بن جهور ، ويكنى أبا الحزم ، وقد تقدم ذكر نسبه في ترجمة هشام المعتد .

وأبو الحزم هذا قديم الرئاسة شريف البيت ، كان آباؤه وزراء الدولة الحكمية والعامرية ، وهو موصوف بالدهاء وبُعد الغور وحصافة العقل وحسن التدبير ؛ ولم يدخل من دهائه في الفتن الكائنة قبل ذلك ؛ كان يتصاونُ عنها ويُظهر النزاهة والتدين والعفاف ؛ فلما خلا له الجو وأصفّر الفناء وأقفر النادى من الرؤساء وأمكنته الفرصة ، وثب عليها فتولى أمرها واضطلع بحمايتها .

ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهراً ، جرياً على ما قدّمنا من إظهار سُنن العفاف ؛ بل دبرها تدبيراً لم يُسبق إليه ؛ وذلك أنه جعل نفسه مُمَسِّكاً للموضع إلى أن يجيء من يتفق الناس على إمارته فيسلم إليه ذلك ؛ ورتّب البوابين والحشم على تلك القصور على ما كانت عليه أيام الدولة ، ولم يتحوّل عن داره إليها ، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدي رجال رتبهم لذلك وهو المشرف عليهم ، وصير أهل الأسواق جُنُداً له ،

وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم مُحصاة عليهم يأخذون ربحها ورؤوس الأموال باقية محفوظة ، يُؤخذون بها ويراعون في كل وقت كيف حفظهم لها ، وفرق السلاح عليهم وأمرهم بتفرقته في الدكاكين والبيوت ، حتى إذا دهمهم أمر في ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه حيث كان من بيته أو دكانه .

وكان أبو الحزم هذا يشهد الجنائز ويعود المرضى ، جارياً على طريقة الصالحين ، وهو مع ذلك يدبّر الأمور تدبير الملوك المتغلبين ، وكان آمناً وادعاً وقرطبة في أيامه حرماً يأمن فيه كل خائف .

واستمر أمره على ذلك إلى أن مات في غرة صفر سنة ٤٣٥ فكانت مدة تدبيره منذ استولى إلى أن مات أربع عشرة سنة وأشهرًا .

ثم ولي ما كان يتولى من أمر قرطبة بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور ، فجرى في السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه ، غير مُخل بشيء من ذلك ، إلى أن مات أبو الوليد المذكور في سلخ شوال من سنة ٤٤٣ .

فغلب عليها بعد أمور جرت ، الأمير الملقب بالمأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، فدبرها مدة يسيرة إلى أن مات .

وخلف فيها بعده من البربر رجل يعرف بابن عكاشة ، أظن اسمه موسى ؛ فكان بها إلى أن غلبه عليها وأخرجه منها الأمير الظافر بحول الله أبو القاسم محمد بن عباد على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

فهذا آخر أخبار قرطبة وكونها داراً للملك .

وبعد غلبة المعتمد عليها صارت تبعاً لإشبيلية .

فصل

[رجع الحديث إلى بني حمود]

ومطمع بنى عباد في التغلب على قرطبة

وأما أحوال الحسنيين ، فإنه لما قُتل يحيى بن علي^(١) كما ذكرنا لسبع خلون من المحرم سنة ٤٢٧ ، رجع أبو جعفر أحمد بن موسى المعروف بابن بقنة ، ونجا الخادم الصقلي ، وهما مدبراً دولة الحسنيين ، فأتيا مالقة ، وهى دار مملكتهم ، فخاطبا أخاه إدريس بن علي ، وكان بسبته ، وكان يملك معها طنجة ، واستدعياه ، فأتى مالقة ، وبايعاه بالخلافة على أن يجعل حسن بن يحيى المقتول مكانه بسبته ؛ ولم يبايعا واحداً من ابني يحيى ، وهما إدريس وحسن ، لصغرهما ؛ فأجابهما إلى ذلك ؛ ونهض نجا مع حسن هذا إلى سبته وطنجة ، وكان حسن أصغر ابني يحيى ولكنه أسدّهما رأياً .

وتلقّب إدريس بالمتأيد ، فبقى كذلك إلى سنة ٣٠ أو ٣١ ، فتحركت فتنة ، وحدث للقاضي أبي القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد صاحب إشبيلية أمل في التغلب على تلك البلاد ، فأخرج ابنه إسماعيل في عسكر

(١) يعنى المعتلى بن حمود .

مع من أجابه من قبائل البربر، ونهض إلى قرمونة فحاصرها، ثم نهض إلى حصن يدعى أشونة، وحصن آخر يدعى أستجة، فأخذهما؛ وكانا بيد محمد بن عبد الله، رجل من قواد البربر من بني برزال؛ فاستصرخ محمد بن عبد الله إدريس بن عليّ الحسنی وقبائل صنهاجة، فأمدّه صاحب صنهاجة بنفسه، وأمدّه إدريس بعسكر يقوده ابنُ بَقْنَة أحمدُ ابن موسى مدبرُ دولته؛ فاجتمعوا مع محمد بن عبد الله، ثم غلبت عليهم هبةُ إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن عباد، قائدِ عسكر أبيه القاضي أبي القاسم، فافترقوا، وانصرف كل واحد منهم إلى بلده؛ فبلغ ذلك إسماعيل ابن محمد، فقوى أمله، ونهض بعسكره قاصداً طريق صاحب صنهاجة، وقدّر صاحب صنهاجة أنه سيلحقه، فوجه إلى ابن بَقْنَة يسترجعه، وإنما كان فارقه قبل ذلك بساعة، فرجع إليه، والتقت العساكر؛ فما كان إلا أن تراءى الجمعان، فولى عسكرُ ابن عباد منهزماً، وأسلموا إسماعيل، فكان أولَ مقتول، وحُمِلَ رأسه إلى إدريس بن عليّ الحسنی.

وقد كان إدريس استشعر بالهلاك، فنزل عن مالقة إلى جبل بُبَاشْتَر، وهو الذي قام فيه ابن حفصون المتقدم الذكر^(١)، فتحصّن به وهو مريض مُدْنَف، فلم يَعيش إلا يومين ومات، وترك من الولد يحيى، قُتل بعده، ومحمدًا الملقب بالمهدى، وحسنًا الملقب بالسامى؛ وكان له ابن هو أكبر بنيه، اسمه علي، مات في حياة أبيه وترك ابنا اسمه عبد الله. أخرجه عمه ونفاه لما ولى.

(١) انظر ص ٥٢ .

وقد كان يحيى بن على المذكورُ قبلَ قد اعتقل ابنى عمه محمداً والحسن ابنى القاسم بن حمود بالجزيرة ، وكان الموكَّل بهما رجلاً من المغاربة يعرف بأبى الحجاج ، فحين وصل إليه خبرُ قتل يحيى^١ ، جمع من كان في الجزيرة من المغاربة والسودان ، وأخرج محمداً والحسن ، وقال ؛ هذان سيِّداكم ! فسارع أجمعهم إلى الطاعة لهما ، لشدة ميل أبيهما إلى السودان قديماً وإيثاره لهم ؛ وانفرد محمداً بالأمر دون الحسن ، ومَلِك الجزيرة ، إلا أنه لم يتَسَمَّ بالخلافة ، وبقي معه أخوه الحسن مدة ، إلى أن حدث له رأى في التنسك ، فلبس الصوف وتبرأ عن الدنيا وخرج إلى الحج مع أخته فاطمة بنت القاسم ، زوجة يحيى بن على المعتلى^(١) .

فلما مات إدريس كما تقدم ، رام ابنُ بَقْنَةَ أحمدُ بن موسى ضَبْطَ الأمر لولده يحيى بن إدريس المعروف بِحَيُّون ، ثم لم يعجزر على ذلك الجَسَرَ التام ، وتَحَيَّر وتردَّد .

ولما وصل خبر قتل إسماعيل بن عباد وموت إدريس بن على إلى نَجَا الخادم الصَّقْلِي ، وكان بسبته ، استخلف عليها من وثق به من الصقالبة ، وركب البحر هو وحسن بن يحيى إلى مالقة ، ليرتَّب الأمر له ؛ فلما وصلا إلى مرسى مالقة ، خارت قوى ابن بَقْنَةَ وهرب إلى حصن كمارش ، على ثمانية عشر ميلاً من مالقة .

(١) رواية المعرى : « وكان محمد بن القاسم بن حمود لما اعتقل أبوه القاسم بمالقة سنة ٤١٤ هـ من الاعمال راجع بالجزيرة الخضراء وملكها وبلغ بالمصم ، الى أن هلك سنة ٤٤٠ ، ثم ملكها بمده ابنه القاسم الواثق الى أن هلك سنة ٤٥٠ » .

ولم يذكر المعرى شيئاً عن تنسك محمد بن القاسم ونسبه الصوف .

ودخل حسن ونجا مالقة ، واجتمع إليهما من بها من البربر ، فبايعوا حسن بن يحيى بالخلافة ، وتَسَمَّى المستعلى ، ثم خاطب ابن بقنة وأمنه ، فلما رجع إليه قبض عليه وقتله ، وقتل ابن عمه يحيى بن إدريس .

ورجع نجا إلى سبتة وطنجة ، وترك مع الحسن رجلا كان من التجار يعرف بالسطينى ، كان نجا كثيرَ الثقة به ، فبقي الأمر كذلك نحواً من عامين .

وكان الحسن بن يحيى متزوجاً بابنة عمه إدريس ، فقبل إنها سمته أسفاً على أخيها ، فلما مات احتاط السطينى على الأمر ، واعتقل إدريس ابن يحيى ، وكتب إلى نجا بالخبر .

وكان للحسن ابنٌ صغيرٌ عند نجا ، فقبل إنه اغتاله أيضاً فقتله ، فالله أعلم .

ولم يُعقب حسن بن يحيى ، فاستخلف نجا على سبتة وطنجة من وثق به من الصقالبة عند وصول الخبر إليه ، وركب البحر إلى مالقة ، فلما وصل إليها زاد في الاحتياط على إدريس بن يحيى ، وأكَّد اعتقاله ، وعزم على محو أمر الحسينيين جملة ، وأن يضبط تلك البلاد لنفسه ، فدعا البربر الذين كانوا جندَ البلد ، وكشف الأمر علانية ، ووعدهم بالإحسان فلم يجدوا لمساعدته بدءاً ، فوافقوه في الظاهر ، وعظم ذلك في أنفسهم باطناً ؛ ثم جمع عسكره ، ونهض إلى الجزيرة ليستأصل محمد بن القاسم ، فحاربه أياماً ، ثم أحسَّ بفتور نيات الذين معه ، فرأى أن يرجع إلى مالقة فإذا حصل فيها نَفَى من يخاف غائلته منهم واستصلح سائرهم

واستدعى الصقالبة من حيثما أمكنه ليقوى بهم على غيرهم ؛ وأحس البربر بهذا منه ، فاغتالوه في الطريق من قبل أن يصل إلى مالقة ، فقتل وهو على دابته في مضيق صار فيه وقد تقدمه إليه الذي أراد الفتك به ، وفر من كان معه من الصقالبة بأنفسهم ؛ ثم تقدم فارسان من الذين غدروا به يركضان حتى وردا مالقة ، فدخلا وهما يقولان : البشرى البشرى ! فلما وصلا إلى السطيفي ، وضعا سيفيهما عليه فقتلاه .

ثم وافى العسكر فاستخرجوا إدريس بن يحيى من محبسه ، فقدموه وبايعوه بالخلافة ، وتسمى بالعالى ، فظهرت منه أمور متناقضة ، منها أنه كان أرحم الناس قلبا ، كثير الصدقات : يتصدق كل يوم بخمسمائة ، ورد كل مطرود عن وطنه إليه ، ورد عليهم ضياعهم وأملاكهم ، ولم يسمع بغيا في أحد من الرعية ؛ وكان أديب اللقاء ، حسن المجلس ، يقول من الشعر الأبيات الحسان ^(١) ؛ ومع هذا فكان لا يصحب ولا يؤثر إلا كل ساقط رذل ، ولا يحجب حرمة عنهم ، وكل من طلب منه حصنا من حصون بلاده ممن يجاوره من صنهاجة أو بني يفرن أعطاه إياه ؛ وكتب إليه أمير صنهاجة أن يسلم إليه وزيره ومدبر أمره وصاحب أبيه وجدته : موسى بن عفان السبتي ، فلما أخبره بأن الصنهاجي كتب إليه يطلبه منه وأنه لا بد من تسليمه إليه ، قال له موسى بن عفان : افعل ما تومر ، ستجدني إن شاء الله من الصابرين ! فبعث به إلى الصنهاجي فقتله .

(١) مدحه أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا الفنداقى الأشبونى من شعراء الذخيرة ، بقصيدته المشهورة التي يقول في أولها :

وكان قد اعتقل ابنى عمه محمداً وحسناً ابني إدريس بن علي في حصن
إيرش ، فلما رأى ثقته الذي في الحصن اضطراب آرائه ، خالف عليه
وقدّم ابن عمه محمد بن إدريس ، فلما بلغ ذلك السودان المرتبين في
قصة مألقة ، نادوا بدعوة ابن عمه محمد بن إدريس ، وراسلوه بالمجيء
إليهم وامتنعوا بالقصة .

ألبرقٍ لائح من أندرين ذرفت عيناك بالماء المعين
لعبت أسيافه عارية كمخاريق بأيدي لاعبين
ولصوت الرعد زجر وحنين ولقلبي زفرات وأنين
وأناجي في الدجى عاذلتني : ويك إلا أسمع قول العاذلين
الى ان يقول بعد وصف رائع لمجلس أنس وشراب :

وكان الشمس لما أشرقت فانشنت عنها عيون الناظرين
وجه إدريس بن يحيى بن علي بن حمود أمير المؤمنين
وبعض في مدحه حتى ينتهي الى قوله :

يابني أحمد يا خير الورى لأبيكم كان وفد المسلمين
نزل الوحي عليه فاحتبي في الدجى فوقهم والروح الأمين
خلقوا من ماء عدل وتقى وجميع الناس من ماء وطنين
انظرونا نقتبس من نوركم إنه من نور رب العالمين !

فيل انه انشده اياها من وراء حجاب ، اسفاه لطيفه حلفاء بني العباس في المشرق ، فلما
بلغ قوله :

* انظرونا نقتبس من نوركم *

امر ان يرفع الحجاب ، وقابل وجهه وجه الشاعر دون حجاب ، وأمر له باحسان جزيل .

واجتمعت العامة إلى إدريس بن يحيى ، واستأذنوه فى حرب القصبة والدفاع عنه ؛ ولو أذن لهم ما ثبت السودان فُواقَ ناقة^(١) ، فأبى ، فقال لهم : الزموا منازلكم ودعوني ؛ فتفرقوا عنه .

وجاء ابن عمه ، فسُلِّم عليه ، وبويع بالخلافة ، وتسمى بالمهدى ، وولى أخاه عهده ، وسماه السامى ، واعتقل ابن عمه إدريس بن يحيى فى الحصن الذى كان هو معتقلا فيه .

وظهرت من محمد بن إدريس هذا شهامةٌ وجرأةٌ شديدة هابه بها جميع البربر ، وأشفقوا منه ، وراسلوا المرتب فى الحصن الذى فيه إدريس بن يحيى هذا واستألوه ، فأجابهم وقام بدعوة إدريس .

وقد كان إدريس أولَ ولايته بعد قتل نجا - كما تقدم - قد ولى سبَنة وطنجة رجلين من بَرغواطَة ، قبيلة من قبائل البربر ، من عبيد أبيه ، اسم أحدهما رزق الله ، والآخر سَكَات ؛ فلما خُلع إدريس كما تقدم ، بقيا حافظين لمكانتيهما .

فلما قام - كما ذكرنا - بدعوته صاحبُ حصن إِيرُش ، لم يُظهر محمدٌ مبالاةً بذلك ، بل ثبت ثباتاً شديداً ، وكانت والدته تشجعه وتقوى مَنته وتُشرف على الحرب بنفسها فتحسن إلى من أبلى : فلما رأى البربر شدةَ عزمه وثباته ، فَتَّ ذلك فى أعضادهم وتخلَّوا عن إدريس بن يحيى ، ورأوا أن يبعثوا به إلى سَبَنة وطنجة ، إلى البَرغواطيين اللذين ذكرنا ، وقد كان إدريس جعل ابنه عندهما فى حضانتهم ؛ فلما وصل إليهما

(١) كناية عن السرعة

أظهرها تعظيمه ومخاطبته بالخلافة ، إلا أنهما حجباه حجباً شديداً ولم يدعيا أحداً من الناس يصل إليه ؛ فتلطّف قوم من أكابر البربر حتى وصلوا إليه ، وقالوا له : إن هذين العبدین قد غلبا عليك ، وحالا بينك وبين أمرك ؛ فأذن لنا نكفيكما ؛ فأبى ؛ ثم أخبرهما بذلك ، فنفيا أولئك القوم ، وأخرجوا إدريس بن يحيى وبَعَثَا به إلى الأندلس ، وتمسكا بولده لصغره ؛ إلا أنهما في كل ذلك يخطبان لإدريس بالخلافة .

ثم إن محمد بن إدريس أنكر من أخيه الملقب بالسامى أمراً ، فنفاه إلى العدو ، فصار في جبال غُمارة ، وهى بلاد تنقاد لهؤلاء الحسنين ، وأهلها يعظمونهم تعظيماً مفرطاً .

ثم إن البرابرة خاطبوا محمد بن القاسم^(١) الكائن بالجزيرة الخضراء ، واجتمعوا إليه ووعدوه بالنصر ؛ فاستفزه الطمع وخرج إليهم ، فبايعوه بالخلافة ، وتسمى بالمهدى ؛ وصار الأمر في غاية الأخلوكة^(٢) والفضيحة : أربعة كلهم يتسمى بأمير المؤمنين ، في رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخاً في مثلها .

فأقاموا معه أياماً ثم افترقوا عنه إلى بلادهم ، ورجع محمد^(٣) خاسئاً إلى الجزيرة ومات لأيام ؛ فقليل إنه مات غمّاً ؛ وترك نحواً من ثمانية ذكور .

(١) أبو القاسم بن حمود الذى ولى الخلافة قبل ابن أخيه يحيى المعتلى وتلقب بالأمون ، وكان محمد هذا مقيماً بالجزيرة منذ خروجه من اشبيلية ودورة الدائرة على أبيه . انظر ص ٩٨ و ١٠١ .

(٢) كذا بالأصل ، ويظن دوزى أنها محرفة عن « الأصحوكة » ، ولا داعى لهذا الظن .
(٣) يعنى محمد بن القاسم .

فتولى أمر الجزيرة بعده ابنه القاسم بن محمد بن القاسم ، إلا أنه لم يتسم بالخلافة .

وبقى محمد بن إدريس [المهدي] مالقة إلى أن مات سنة ٤٤٥ (١) .
وكان إدريس بن يحيى المعروف بالعالى (٢) عند بنى يقرن بتاكروته ؛
فلما توفى محمد بن إدريس بن يحيى ردت العامة إدريس العالى إلى مالقة
واستولى عليها ، وهو آخر من ملكها من الحسنيين (٣) ؛ فلما مات (٤)
أجمع البربر رأيهم على نفي الحسنيين عن الأندلس إلى العدو والاستبداد
بضبط ما كانوا يملكونه من البلاد ، ففعلوا ذلك وتم لهم ما أرادوا منه .

كانت الجزيرة الخضراء وما والاها من القرى إلى تاكروته ، ومالقة
وما والاها أيضاً إلى حصن منكب ، وغرناطة وأعمالها - فى ملك البربر ؛
وملكوا مع ذلك بعض أعمال إشبيلية ، كحصن أشونة ، وقرمونة ، وشلبير ؛
ولم يزالوا كذلك إلى أن أخرج من أيديهم ما كانوا يملكونه من أعمال

(١) فى نصح الطبيب ان وفاته كانت سنة ٤٤٤ .

(٢) هو ممدوح ابى زبد الاشبونى السابق ذكره .

(٣) بروى المعرى ان ادريس بن يحيى المالى لم يكن آخر ملوكهم ، فقد بويح من بعده ولده
محمد بن ادريس ولعب بالمسعى ، ثم سار اليه باديس بن جيوس سنة ٤٤٩ فنقلب على مالقة ،
وسار محمد المسعى هذا الى المرية مخلوعا ، ثم استندعاه أهل المغرب الى مليلة وبايعوه سنة
٤٥٦ فظل الى ان مات سنة ٤٦٠

وقد سبق فى هامش ص ١١٥ ما نقلناه عن القرى من حدث عن الوائق بن المعتصم بن القاسم
ابن حمود ، وانه ظل اميرا على الجزيرة الخضراء الى سنة ٤٥٠ .

فان صح ما رواه القرى من هذا لم يكن ادريس بن يحيى المهدي آخر ملوك بنى حمود فى
الأندلس ، الا ان يكون المراكشى قد اراد - فيما نعلمه من ذلك عن الحبلى - انه آخرهم فى
مالقة . وقد كانت مالقة دار ملكهم منذ ضعف شان البربر فى قرطبة .

(٤) كانت وفاته بين سننى ٤٤٦ - ٤٤٧

إشيلية المعتضد بالله أبو عمرو عبّاد بن محمد بن إسماعيل بن عباد
اللمخى ، ثم أتم ابنه أبو القاسم المعتمد على الله ما ابتدأه أبوه من ذلك .
وهذا آخر أخبار الحسينيين وما يتعلق بها ، حسبما أورده أبو عبد الله
محمد بن أبي نصر الحميدى ، عليه عوّلت فى أكثر ذلك ، ومن كتابه
نقلت ، خلا مواضع تبينت غلطه فيها أصلحتها جهد ما أقدر .
وعلى الله قصد السبيل وهو المستول فى الهداية قولا وعملا .

فصل

يتضمن ذكر أحوال الأندلس بعد انقطاع
الدعوة الاموية عنها على الاجمال لاعلى التفصيل

وأما حال سائر الأندلس بعد اختلال دعوة بنى أمية ، فإن أهلها تفرقوا
فرقاً ، وتغلب في كل جهة منها متغلب ، وضبط كل متغلب منهم ما
تغلب عليه ، وتقسّموا ألقاب الخلافة ؛ فمنهم من تسمى بالمعتضد ،
وبعضهم تسمى بالمأمون ، وآخر تسمى بالمستعين ، والمقتدر ، والمعتصم ،
والمعتمد ، والموفق ، والمتوكل ؛ إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية ؛ وفي
ذلك يقول أبو علي الحسن بن رشيق :

بما يزهدنى في أرض أندلس سماعٌ مُقْتَدِرٍ فيها ومعتضدٍ
ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها كالهَرُّ يحكى انتفاخاً صولة الأسد
وأنا ذاكرٌ إن شاء الله في هذا الفصل أسماءهم والجهات التي تغلبوا
عليها ، على نحو ما شرطتُ من الإجمال ؛ إذ لكل منهم أخبارٌ وسيرٌ
ووقائعٌ لو بسطتُ القول فيها خرج هذا التصنيف عن حد التلخيص إلى
حيز الإسهاب ، وأيضاً فالذى منعى عن استيفاء أخبارهم أو أخبار أكثرهم
قلة ما صَحِبَتِي من الكتب ، واختلال معظم محفوظاتي .

ملوك الطوائف

فأولهم في الربع الشرقي ،^(١) رجل اسمه سليمان بن هود ، تلقب بالمؤمن ،
وتلقب ابنه بالمقتدر ، وتلقب ابنه بالمستعين^(٢) .
كان بنو هود هؤلاء يملكون من مدن هذه الجهة الشرقية^(٣) :
طرطوشه^(٤) وأعمالها ؛ وسرقسطة^(٥) وأعمالها ؛ وأفراغة ، ولاردة ،

(١) في الأصل : الجنوبي ، وإنما تقع البلاد التي ذكرها في الشرق الشمالي لا في الجنوب .
(٢) كذا بالأصل ، وفي غيره من المراجع أن سليمان بن هود هذا تلقب بالمستعين ، وابنه بالمقتدر ، وابنه بالمؤمن . وهو أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود بن عبد الله بن موسى ، مولى أبي حذيفة الجذامي ، وجدهم هود هو الداخل إلى الأندلس .
(٣) في الأصل : الجنوبية .

(٤) مدينة جليله على نهر أبرد ، اسمها الروماني درتوزة (Dertosa) استولى عليها العرب في بداية الفتح ، ثم عاد الأسبان فملكوها ، فاسترجعها عبد الرحمن بن الحكم في عهد أبيه الحكم بن هشام الرضي ، ولوجودها في طرف بلاد المسلمين كان الخلفاء يجعلونها منفى لمن يرون إبعاده من أهل الفتنة ، ولما انحلت وحدة الدولة ونجم ملوك الطوائف ، صارت طرطوشة إمارة مستقلة يحكمها مولى من موالى بني عامر اسمه نبيل الصقلبي ، ويحكم معها بالنسبة ، وفي سنة ٤٥٢ ثارت طرطوشة بأمرها هذا الصقلبي ، فليجأ إلى المفسد بن هود صاحب سرقطة ، ودخلت طرطوشة منذ ذلك اليوم في طاعة بني هود .

ثم كان استيلاء النصارى عليها في منتصف شعبان سنة ٥٤٣ ، وكان الذي استولى عليها هو ريموند بيرانجه صاحب برشاونه ، بمساعدة فرسان الهيكل الصليبيين واساطيل بيزة وجنوة ، كما استولى في السنة نفسها على أفراغة ولاردة ، ونقع أفراغة ولاردة مما يلي طرطوشة نحو الشمال على ساحل بحر الروم .

(٥) مدينة كبيرة على نهر أبرد ، ترتفع عن البحر ١٨٤ مترا ، تحديق بها البساتين ، فتحها العرب سنة ٩٤ واتخذوها قاعدة من قواعدهم في الأندلس ، وكان صاحب الأمر فيها لهمسد بنى مروان أمير من بني قصى ، وهي أسرة أسبانية دانت بالاسلام ، وكان منها أمراء وقواد في جيش الدولة .

ثم توارثها محمد بن لب آخر أمراء بني قصى الأسباني الأصل ، أمراء من بني تجيب ، وبنو تجيب : أسرة عربية كانت تقيم بسرقسطة منذ أول الفتح .

فلما كانت أيام الفتنة ، وثب أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود عامل لاردة على سرقسطة ، فاستخلصها لنفسه من بني تجيب ، وجعلها حاضرة ملكه ، وتسمى أبو أيوب هذا بالمستعين ، وهذا مبدأ دولة بني هود ، وتوفي المستعين في سنة ٤٣٨ ، فخلفه ابنه أحمد المقتدر سيف الدولة إلى سنة ٤٧٤ ، وتسلسل الملك في بني هود إلى أن استولى النصارى على سرقسطة سنة ٥١٢ .

وقلعة أيوب ^(١) . هذه اليوم كلُّها بأيدي الأفرنج ، يملكها صاحب
برشونة لعنه الله ؛ وهى البلاد التى تسمى أرغن ، حد هذا الاسم آخر
مملكة البرشونى مما يلى بلاد إفرنسة .

* * *

[^(٢) ويجاور بنى هود هو لاء رجل آخر اسمه عبد الملك بن
عبد العزيز يكنى أبا مروان ، قديم الرئاسة ، هو أحق ملوك الأندلس
بالتقدم لشرف بيته ، ولا أعلم له لقباً ، كان يملك بلنسية وأعمالها ^(٢)]

* * *

وكان يلى الثغر رجل آخر يقال له أبو مروان بن رزين ، كان يملك
إلى أول أعمال طليطلة .

* * *

وكان الذى يملك طليطلة وأعمالها : الأمير أبو الحسن يحيى بن
إسماعيل بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن عامر بن مطرف بن موسى بن
ذى النون .

(١) مدينه من اعمال سرقسطة ، بالقرب من مدينه لبلة ، بنى قلعتها ايوب بن حبيب اللخمى
ابن اخن موسى بن نصير العانج ، واليه نسب ، وكان سوطها فى يد الأسباني أرائل القرن
السادس .

(٢) اثبت العلامة دوزى هذه الزيادة فى طبعه فعلا عن هامش المخطوط ، وقد اثبتناها
حذوه ، وأبو مروان هذا حميد المنصور بن أبى عامر ، ولقبه المطهر ، وقد ولى امر بلنسية منذ
مات أبوه المؤمن سنة ٤٥٢ الى أن استولى عليها المأمون بن ذى النون سنة ٤٥٧

وكان عبد الملك بن عبد العزيز هذا صهرا لمجاهد العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية .

انظر « البيان المغرب فى اخبار الأندلس والمغرب » لابن عذارى .

وانظر ص ١٨١ من هذا الكتاب .

وأبو الحسن هذا أقدم ملوك الأندلس رياسة وأشرفهم بيتاً وأحقهم بالتقدم ، تلقب بالمأمون ؛ كان أبوه إسماعيل هو الذى تغلب على طليطلة من قبل واستبد بملكها أول الفتنة .

ولم يزل أبو الحسن هذا يملك طليطلة وأعمالها كما ذكرنا ، إلى أن أخرجه عنها الأذفنش لعنه الله^(١) ، واستولى عليها النصارى فى شهر سنة ٤٧٨^(٢) ، فهى قاعدة ملك النصارى إلى وقتنا هذا .

* * *

وكان يملك قُرطبة وأعمالها إلى أول الثغر: جهور بن محمد بن جهور المتقدم ذكره ونسبه^(٣) إلى أن غلبه عليها صاحب طليطلة إسماعيل بن ذى النون والد أبى الحسن المذكور آنفاً .

* * *

وكان يملك إشبيلية وأعمالها القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل ابن عبّاد اللخمى^(٤) ، تغلب عليها بعد أن أخرج عنها القاسم بن حمود وابنيه محمداً والحسن على ما سياتى الإيماء إليه إن شاء الله عز وجل .

(١) هو الفونس السادس ملك قشتالة .
(٢) فى الأصل : سنة ٣٧٦ ، وهو خطأ صوابه ما أثبتناه ، وطليلة من اول ما استرد الافرنج من مدن الأندلس العظيمة ، وفى ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبى :

يا أهل أندلس حثوا مطيكمو فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات فى سَفَط؟

(٣) انظر ص ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ .

(٤) انظر ص ١٠٠ .

وكان يملك مالقة والجزيرة وغرناطة وما الى ذلك : البربر بنو بَرَزَال
الصَّنْهَاجِيُّونَ على ما قدمناه^(١) .

وتغلب على المريّة وأعمالها زهير العامري الخادم ، ثم ملكها بعده
خيران العامري أيضاً الخادم ، ثم تغلب عليها بعدهما أبو يحيى محمد
ابن معن بن صمادح المتلقب بالمعتصم ؛ فلم يزل فيها إلى أن أخرجه
عنها يوسف بن تاشفين اللمتوني في شهر سنة ٤٨٤ .

* * *

وكان يملك دانية وأعمالها مجاهد العامري ، أصله رومي ؛ مولى لأبي عامر
محمد بن أبي عامر ، ثم ملكها بعده ابنه علي بن مجاهد وتلقب بالموفق ،
لا أعلم في المتغلبين على جهات الأندلس أضون منه نفساً ولا أظهر عرضاً
ولا أنقى ساحة ، كان لا يشرب الخمر ولا يقرب من يشربها ، وكان مؤثراً
للعوام الشرعية مكرماً لأهلها ، توفي قبل فتنة المرابطين بيسير ، لا أتحقق
تاريخ وفاته^(٢) .

[بنو الأفطس]

وكان يملك الثغر الذي من الجهة المغربية^(٣) من الأندلس وبعض المدن
المجاورة للبحر الأعظم : ابن الأفطس المتلقب بالمظفر ، ذهب عنى
اسمه^(٤) ، ثم كان له ابن اسمه عمر ، يكنى أبا محمد ، تلقب بالمتوكل
على الله ، كان يملك بعلبليوس وأعمالها ، ويابرة ، وشترين ، والأشبونة .

(١) بمعنى اصحاب بني حمود .

(٢) ظل على بن مجاهد على أمر دانية حتى عليه عليها المقدر احمد بن سليمان بن هود .
صاحب مرسلة ، سنة ٤٦٨ ، فخرج عنها وكان آخر العهد به .

(٣) في الأصل الشمالية . (٤) هو محمد بن عبد الله .

كان المظفر هذا أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو والشعر ونوادير الأخبار وعيون التاريخ ، انتخب مما اجتمع له من ذلك كتاباً كبيراً ترجمه باسمه ، على نحو الاختيارات للروحي ، وعيون الأخبار لأبي محمد بن قتيبة ؛ جاء هذا الكتاب في نحو من عشرة أجزاء ضخمة^(١) وقفت على أكثره ، ترجمته «المظفرى» .

وكان لابنه المتوكل قدم راسخة في صناعة النظم والنثر ، مع شجاعة مفرطة وفروسية تامة ، وكان لا يُغيبُ الغزو ولا يشغله عنه شيء ، واتصلت مملكته إلى أن قتله المرابطون أصحاب يوسف بن تاشفين ، وقتلوا ولديه الفضل والعباس صبراً : ضربوا أعناقهم في غرة سنة ٤٨٥ . وكانت أيام بنى المظفر بمغرب الأندلس أعياداً ومواسم ، وكانوا ملجأً لأهل الآداب ، خلدت فيهم ولهم قصائد شادت مآثرهم وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم

[عبد المجيد بن عبدون]

وفيههم يقول الوزير الكاتب الأبرع ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد ابن عبدون ، من أهل مدينة يابرة ، قصيدته الغراء ، لأجل عقيلته العذراء ،

(١) قال ابن بسام : كان المظفر أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع ، وله التصنيف والمشتهر أيضاً اسمه بالكتاب المظفرى ، في الترايق ، والتأليف الفائق ، المترجم بالتذكرة ، خمسين مجلداً ، يشتمل على فنون وعلوم ، من مغاز وسير ومثل وخبر وجميع ما يختص به علم الأدب .

ويقول ابن الأبار أنه كان كثير الأدب جم المعرفة محبا لأهل العلم جماعة للكتب ذا خزانة عظيمة .

وحكى الشقندى أن كتاب « المظفرى » في نحو مائة مجلدة
توفى المظفرى سنة ٤٦٠ .

التي أزرت على الشعر ، وزادت على السحر ، وفعلت في الأبواب فعل
الخمير ، فجلّت عن أن تُسأى ، وأنفت من أن تُضاهى ؛ فقل لها النظير ،
وكثر إليها المشير ، وتساوى في تفضيلها وتقديرها باقل وجريير ؛ فله
هى من عقيلة خدرٍ قُرِبَتْ بسهولة حتى أطمعت ؛ وبَعُدَتْ حتى عَزَتْ
فامتنعت ؛ وأوردتها في هذا المصنف وإن كان فيها طولٌ مخرج عن الحد
الذى رسمته ؛ مُخِلٌّ بالتلخيص الذى شرطته ؛ لصحة مبانيها ؛ ورشاقة
ألفاظها وجودة معانيها ؛ سلك فيها أبو محمد رحمه الله طريقة لم يُسبق
إليها ؛ وورد شرعة لم يُزاحم عليها ؛ فلذلك قل مثلها لابل عديم ، وعز
نظيرها فما تُؤمهم ولا علم ، وهى (١) :

[قصيدة ابن عبدون]

الدهر يُفجع بعد العين بالأثر	فما البكاء على الأشباح والصور ؟
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة	عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حربٌ وإن أبدى مُسالمة	والبيضُ والسودُ مثلُ البيضِ والسمر
ولا دُوادة بين الرأس تأخذه	يدُ الضرابِ وبين الصارم الذكّر
فلا تغرنك من دنياك نومتها	فما صناعةُ عينيها سوى السهر
ما الميالى - أقال الله عثرتنا	من الليالى وخانتها يدُ الغير -

(١) افترنا فيما سبق من الكتاب على ايراد النصوص الأدبية الى ذكرها المؤلف دون شرح
لها او معانيها . اد كان من معاني اللغة ما يفنى عن ذلك ، ولكننا فى هذه القصيدة - دون
غيرها - قد اشرنا ان نخرج عن هذا النطاق الى حد ما ، لنوضح الرموز التاريخية التى اشار
إليها ابن عبدون فى مضامير قصيدته .

في كل حين لها في كل جراحة
تسر بالشيء لكن كى تغر به
كم دولة وليت بالنصر خدمتها
هوت بدارا وقلت غرب قاتله
واسترجعت من بنى ساسان ما هبت
والحق اختها طسما ، وعاد على
وما أقالت ذوى الهيئات من يمن
منا جراح وإن زاعنت عن النظر
كالإسم ثار إلى الجاني من الزهر
لم تبق منها وسل ذكراك - من خبر (١)
وكان عصباً على الأملاك ذا أثر (٢)
ولم تدغ لبنى يونان من أثر (٣)
عاد وجزم منها ناقض المرر (٤)
ولا أجارت ذوى الغايات من مضر (٥)

(١) التضمير هنا أيضا يعود على الليالى . والمعنى : كم دولة هيات لها الليالى اسباب النصر والناييد ، ثم كرت عليها فسلبتها كل ما منح ولم تبق لها خبرا .

(٢) دارا : ملك من ملوك العرس ، قالوا انه لبث فى الملك ثلاثين سنة ، ثم قتله الاسكندر ، والعل الكسر ، والغرب : الحد ، والعصب : السيف ، والأملاك : جمع ملك ، والأثر بضم الهمزة والناء : فرند السيف ، والمعنى : أن الليالى سقطت بدارا عن عرشه ، وكان على أعدائه من الملوك سيما قاطعا ، ثم لم تبق على قاتله فحطمت سبيعه وجرعته منيته . وقد تغلب الاسكندر على سائر ملوك عهده ، وبسط سلطانه على اكر المعمور ، ومات وله من العمر بضع وثلاثون سنة .

(٣) بنو ساسان : الأكاسرة من ملوك فارس ، حكموا بعد ملوك الطوائف الى عهد الفتح العربى ، وكانت مدة حكمهم اربعة قرون ونصف قرن .

(٤) طسم ، واختها جديس : من قبائل العرب البائدة ، كان موطنهما باليمامة ، ولهما خبر مشهور فى تاريخ الجاهلية ، فقد كان ملك اغبيلتين رجلا من طسم اسمه عملوق ، وكان غشوما ظالما متقادا لشهوانه ، مجرنا على حرمان الناس ، وكان جديس تلقى من شره ما لا طاقة به ، فاجمعت أمرها - بتدبير امرأة منها اسمها عفيرة - على الفسك به ، فكان من ذلك إبادة طسم وجديس . و « عاد » التى ورد ذكرها فى البيت : هى التى عنها الله سبحانه بقوله : « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » . « وأما جرهم » فقبيلة من بنى يعرب بن فحطان ، هاجرت من اليمن الى الحجاز انتجاعا للرزق ، واصهر اليهم اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، وقد كثر عديدهم فى الحجاز حتى صاروا ذوى قوة وسلطان ، ثم بغوا وضلوا فأبادهم الله وأذهب ريحهم . والمرر بكسر الميم : جمع مرة ، وهى القوة وشدة الحلق ، وناقض المرر : هو الدهر ، لأنه لا يدع ذا قوة على قوته !

(٥) كانت الرئاسة والملك وترف الحضارة فى اليمن ، وكان المضرئون من أهل الشمال اصحاب مثل وغايات وأهداف بعيدة ، ولامر ما كان محمد بن عبد الله - صلوات الله عليه - مضريا ، ولكن الليالى لم تبق على أحد من هؤلاء ولا من أولئك !

ومزقت سباً في كل قاصية فما التقى رائح منهم بمبتكر^(١)
 وأنفذت في كليب حكمها ، ورمت مهلهلابين سنع الأرض والبصر^(٢)
 ولم ترد على الضليل صحته ولا ثنت أسداً عن ربها حجر^(٣)
 ودوخت آل ذبيان وإخوتهم عبساً ، وغصت بني بدر على النهر^(٤)

(١) يشير الى قوله تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية : جنتان عن يمين وشمال : كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ٠٠٠ ، الآيات الى قوله تعالى : « وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ٠٠٠ » وكانت أرضهم « مأرب » من بلاد اليمن . والابتكار ، والبكور : ضد الرواح ، والمعنى أنهم تفرقوا في اقاصي البادية فلم يلتق رائح منهم بفاد !

(٢) كليب : هو كليب بن ربيعة الذي يقال فيه « أعز من كليب وائل » وبلغ من عزه أنه كان لا يوقد أحد نارا مع ناره ، ولا يورد أحد ابلا مع ابله ، وكانت أخته زوجا لابن عمهما جساس بن مرة ، الذي يقال له حامى النجار ومانع الفمار ، وكان لجساس جارة اسمها البسوس تدل بجواره وحمايته ، وكان لها ناقة اسمها السراب ، فبينما ابل كليب ذات يوم على الحوض ترتوى ، اذ لمح كليب بينها هذه الناقة ، ففوق اليها سهمه فأصاب ضرعها ، فرأى جساس في ذلك انتهاكا لحرمة ، فخرج الى كليب معتقلا زمحه صرعه ، فشبت الحرب بين بكر وتغلب ابني وائل ، ودامت فيما يقال أربعين سنة ، وتشهر في تاريخ الجاهلية باسم حرب البسوس ، وكان الساعى لئلا كليب أخاه الحارث ، وبقه مهلهل - وانما لقب كذلك لأنه أول من هلهل الشعر ، أى رققه ، وهو خال امرئ القيس - فلما وضعت الحرب أوزارها ، ذهب المهلهل في الأرض حتى نزل بقوم من مدحج ، فأقام بين أطهرهم ، وأصهر اليهم ، وأطمانت به الدار ، ولكن القدر كان يتربص به ، فبينما هو ذات يوم في بعض القفار ومعه عبدان من عبيده ، اذ بدا لعبيده أن يقتلاه لسبب ما ، فأنفذا ما اعترضا ، ومات سيد ربيعة في بلد قفر لم يدر به أحد ، فذلك قول ابن عبدون : وأنفذت في كليب ٠٠٠ البيت .

(٣) الضليل : هو امرؤ القيس بن حجر ملك كندة ، وكانت أسد قد قتلت أباه حجرا . فحمل امرؤ القيس عبء الثأر له ، ومضى على وجهه يتنقل بين البلاد مستعديا على بني أسد ، حتى بلغ بلاط قيصر ، ثم اعتل علة لا برء منها ، وأدركه أجله - فيما يقال - بانقصة من بلاد الروم .

(٤) ذبيان ، وعبس : أخوان من بني بغيض بن ريث بن غطفان ، وبنو بدر : بطن من ذبيان ، وكانت بين عبس وذبيان في الجاهلية حرب كحرب البسوس ، تشتهر باسم حرب داحس والغبراء ، وداحس والغبراء : فرسان ذكر وأثنى لقيس بن زهير العبسى ، وحمل بن بدر الذبياني ، فأجرياها ذات مرة في السباق على رهان ، ثم تلاحيا ووقع بينهما دم ، فشبت تلك الحرب ، وكان من قتلاها حمل بن بدر ، وأخوه حذيفة ، وكان عندما دهمتهما خيل عبس يستنقعان في ماء بموضع اسمه جفر الهباءة ، وظلت الحرب ناشبة زمانا بين عبس وذبيان ، وفيها اشتهر عنزة ابن شداد العبسى .

وَأَلْحَقْتُ بِعَدِيِّ بِالْعِرَاقِ عَلَى يَدِ ابْنِهِ أَحْمَرَ الْعَيْنِينَ وَالشَّعَرَ (١)
وَأَهْلَكْتُ إِبْرَوِيزاً بِابْنِهِ وَرَمْتُ بِيَزْدَ جَرْدَ إِلَى مَرَوْ فَلَمْ يَحْرُ (٢)
وَبَلَّغْتُ يَزْدَجْرَدَ الصِّينَ وَاخْتَزَلْتُ

عنه سوى الفرس جمع الترك والخزر
ولم ترد مواضي رستم وقتنا ذي حاجب عنه سعدا في ابنة الغير (٣)
يوم القليب بنو بدر فنواوسعى قليب بدر بمن فيه إلى سقر (٤)

(١) هو عدى بن زيد الشاعر ، وكان نصرانيا في الجاهلية ، ومقامه بالحيرة من أرض العراق ، وقد حبسه النعمان بن المنذر ملك الحيرة ثم قله ، وكان له ولد اسمه زيد بن عدى ، قد أحفظه مصرع أبيه على يد النعمان ، فلم يزل يلتمس الأسباب إلى كسرى ابرويز ملك فارس حتى صار له في بلاطه شأن ، فأنهز فرصة أمكسه وأوعر صدر كسرى على النعمان ، فتوعدده بالسرا ، وعلم النعمان بذلك ففر عن عرشه وقاعدة ملكه بنفل بين العبائل في بادية الجزيرة ٠٠ ثم مضى إلى كسرى ، يأمل أن يحمله على الصفح ، فلفيه ثمة زيد بن عدى شامتا ، وانتهى أمره إلى القتل ، أمر به كسرى فرمى بين أرجل الفيلة فوطئته حتى مات ، وكان بالنعمان برص ، فهذا معنى قول ابن عبدون « أحمر العينين والشعر » .

(٢) ابرويز : هو كسرى ابرويز بن هرمز ، من أشد ملوك الفرس وأفداهم رأيا ، عدد أباه وولى العرش بعده ، ثم خشي أن يفعل به ولده ما فعل هو بأبيه ، فنفاهم ، وثقل على الرعية أمره فأرادوا الخلاص منه ، فنصدوا ابنه شيرويه في بابل ، فبايعوه بالملك ، ولفى ابرويز على يدي ولده شيرويه مثل ما لعى أبوه هرمز على يديه .

أما يزدجرد : فهو يزدجرد بن شهريار ابرويز ، آخر ملوكهم ، وقد فر عن عرشه وناعة ملكه حين وطى جيش سعد بن أبي وقاص أرض بلاده ، وأمر أن تنقل أمواله إلى الصين ، وقد طل الأمل يداعبه في العودة إلى عرشه سنين ، فلما كانت أيام عثمان بن عفان وخرج الأحنف ابن قيس إلى الصين غازيا ، وبدا ليزدجرد أن يقاوم ، فعقد مع الترك والصغد والخزر حلفا ، وكان مقام كسرى في ذلك الوقت بمرور الروذ ، فد عاد إليها من الصين على أمل ، فلما لفت جيوش المسلمين بجيوش كسرى وحلفائه من الترك والصغد والخزر ، أنزل حلفاء كسرى وخلعوه ، ففر على وجهه فلم ير بعدا الا قتلا .

فهذا ما عناه ابن عبدون في هذا البيت والبس الذي يليه . ولم يحر : لم يرجع ، فعله : حار ، يحور .

(٣) رستم : هو رستم الأرمني قائد جيش الفرس يوم القادسية ، وذو حاجب : هو خرزاد حامل رايتهم ، وسعد : هو ابن أبي وقاص قائد جيش المسلمين في فارس ، وابنة الغير : الداهية .

(٤) يشير إلى غزوة بدر وما أصاب المشركين فيها من انكسار وذلة .

ومزقت جعفرأ بالبيض واختلست من غيلة حمزة الظلام للجُزر^(١)
وأشرفت بخبيب فوق فارعة وألصقت طلحة الفياض بالعفر^(٢)
وخضبت شيب عثمان دماً وخطت إلى الزبير ولم تستحي من عمر^(٣)
ولا رعت لأبي اليقظان صخبته ولم تزوده إلا الصيخ في الغمر^(٤)
وأجزرت سيف أشقاها أبا حسن
وأمكنك من حسين راحتي شمر^(٥)

(١) يعني جعفر بن أبي طالب ، وحمزة بن عبد المطلب ، وقد استشهد أولهما يوم مؤتة ، واستشهد حمزه يوم أحد ، والجزر جمع جزور ، وهو الحمل ، وطلام الجزر : الكريم .

(٢) تشير الى مصرع خبيب بن عدي الأنصاري ، وطلحة بن عبيد الله التميمي ، أما خبيب وكان من حمزه أنه أسر يوم الرحيع - في السنة الثالثة بعد الهجرة - فذهب به الى مكة حيث أسراه بعض موال عمه بن الحارث بن عامر بن نوفل ، وكان خبيب قد قتل أباه الحارث يوم بدر فأراد أن يهني منه ، وقد صلبه المشركون على خشبة في النعيم من أرض مكة ، والفارعة : الطويلة ، والمقصود خشية الصلب .

وأما طلحة فعلى يوم الجمل ، فله مروان بن الحكم ، وهو أحد العشرة الذين شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وكان من أجواد فرس . وبهال له طلحة الحير ، وطلحة العباسي ، وطلحة الملاحات أيضاً .

(٣) يعني عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعمر بن الخطاب ، وكان مصرع عثمان في اليوم الجمعة سنة ثمان من الهجرة . سنة خمس وثلاثين من الهجرة ، ولم يعرف فائله على الإطلاق ، وأما الزبير فعليه ابن جرموز في غمر قرب يوم الجمل ، وذلك أن الزبير يومئذ كان من حزب عائشة ، ولما رأى الجمعان دعاه على أنه فثاقولا ، فكانما بدا للزبير بعد حديثه مع علي أن الانسحاب في الحرب حيلة ، فأنزع اعتزال الحرب ، وحشد اعترضه ابن جرموز بالحجارة ، ثم انهزم مرة فمات ، وأما عمر فقتله أبو لؤلؤة النصرائي غلام الغيرة بن شعبة ، وحمزه مشهور .

(٤) أبو اليقظان : عامر بن ناسر ، وقد قتل بإحدى أصحاب معاوية يوم صفين سنة ست وثلاثين ، والدمج : المجن ، وكان قد عطش ودعا بشربه ماء ، فأنى خضبة فشربها ، ثم قال أخيراً رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من آخر شربه أشربها في الدنيا !

(٥) أبو حسن : علي بن أبي طالب ، وأما : عد الرحمن بن ماجم الجبيلي . قابل علي ، وقد ورد في بعض الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يا علي ، أشقاها الذي يخضب هذه من هذه) وأشار الى لحية علي ورأسه . وحسن : هو ابن علي بن أبي طالب ، وشمر : ابن الجوشن ، وكان ممن أعان علي قتل الحسين بكربلاء على شاطئ الفرات .

والمعنى : أياحت الميالي لسيف ابن ملجم أن يعل عليا ، وأمكنك شمر بن الجوشن من قتل الحسين .

وليتّها إذ فدّت عمراً بخارجة

فدّت علياً بمن شاءت من البشر^(١)

وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسن

أنت بمعضلة الألباب والفكر^(٢)

فبعضنا قائل ما اغتاله أحد

وبعضنا ساكت لم يؤت من حصر^(٣)

وأردت ابن زياد بالحسين فلم

يبوء بشنع له قد طاح أو ظفر^(٤)

(١) عمرو : هو عمرو بن العاص حليف معاوية وصاحب مصر ، وخارجة : رجل من دهط عمرو بن العاص في مصر . والبيت يشير الى قصة ومثل ، وتفصيل الأمر أن الخوارج في أيام الفتنة قالوا : ان عليا ومعاوية وعمرو بن العاص قد أفسدوا أمر هذه الأمة ، فلو قتلناهم لعاد الأمر الى حقه ، فوكل الى عبد الرحمن بن ملجم ان يقتل عليا ، وإلى الحجاج بن عبد الله الصريمي المعروف بالبرك ، ان يقتل معاوية ، وإلى زادويه الفارسي ان يقتل عمرا ، على أن يكون قتل الثلاثة في موعد واحد ، أما على فقتله ابن ملجم اغتيالاً ، وأما معاوية فأصاب الحجاج اليته ونجا ، وأما عمرو بن العاص فقد اشتكى وجعا في الليلة الموعودة لقتله ، لأمر إرادته الله ، فخرج خارجة ليصلي بالناس بدله ، فحين رآه زادويه علاه بسيفه فصرعه ، وسبق الى مجلس عمرو ، فلما رأى الناس يخاطبونه بالأمرة قال : أو ما فلتت عمرا ؟ قال : لا ، إنما قتلت خارجة . فقال : « أردت عمرا وأراد الله خارجة » فذهبت منلا . وقبل هو خارجة بن غانم ، قرشي من بني عدي ، شهد فتح مصر ، وكان على شرطة عمرو بن العاص ، أو قاضياً له .

(٢) ابن هند : معاوية بن أبي سفيان ، وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة ، وحسن : هو الحسن بن علي .

(٣) الحصر : المعنى ، وهو يشير الى ارتياب بعض المسلمين في ميتة الحسن بن علي وزعمهم أن امرأته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي سقته سما بدسياسة معاوية ، ليخلص العرش لولده يزيد !

(٤) ابن زيادة : هو عبيد الله بن زياد ابن أبيه ، وكان أميراً على الكوفة من قبل الأمويين حين وفد اليها الحسين يستنصر شيعة للمطالبة بالخلافة ، فدبر عبيد الله مقتله في كربلاء ، ثم لم يلبث ابن زياد أن لقي مصرع الحسين على يد إبراهيم بن الأشتر النخعي ، وكان على جيش المختار بن عبيد الثقفي ، وابن زياد على جيش لعبد الملك بن مروان .

ويبوء : يرجع والشنع : رباط النعل ، .. والمعنى : ان الليالي اقتصت للحسين من ابن زياد ، وان لم يساو شنع نعله أو قلامة ظفره !

- وَعَمَّتْ بِالطَّبِيِّ فَوْدَى أَبِي أَنْسٍ وَلَمْ تُرَدْ الرَّدَى عَنْهُ قَنَا زُفَرُ^(١)
وَأَنْزَلَتْ مُضْعَباً مِنْ رَأْسٍ شَاهِقَةٍ كَانَتْ بِهَا مَهْجَةُ الْمُخْتَارِ فِي وَزَرٍ^(٢)
وَلَمْ تَرَاقِبْ مَكَانَ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَلَا رَاعَتْ عِيَادَتَهُ بِالْبَيْتِ وَالْحَجَرِ^(٣)
وَأَعْمَلَتْ فِي لَطِيمِ الْجِنِّ حِيلَتَهَا
وَأَسْتَوْسَقَتْ لِأَبِي الذُّبَّانِ ذِي الْبَخْرِ^(٤)
وَلَمْ تَدْعُ لِأَبِي الذُّبَّانِ قَاضِيَهُ لَيْسَ اللَّطِيمُ لَهَا عَمْرُو بِمَنْتَصِرٍ^(٥)

(١) أبو أنس : هو الضحاك بن قيس الفهري ، وكان يدعو لعبد الله بن الزبير ، ومعه صاحبه زفر بن الحارث الكلبي ، فخرج للقائهما عبد الملك بن مروان ، فالتقى جيشاهما بمرج راهط من أرض الشام سنة ٦٤ ، فدارت الدائرة على الضحاك ، قتله دحية بن عبد الله الكلبي ، وفزع عنه زفر بن الحارث .

(٢) يعني مصعب بن الزبير ، وكان على الكوفة من قبل أخيه عبد الله ، فخرج عبد الملك ابن مروان لقتاله ، فالتقى في موضع يعرف بالجائليق ، فخذل مصعباً أصحابه ولم ينصره الا قلة ، ثم قتل وحمل رأسه الى عبد الملك ، فخر عبد الملك لله ساجداً .

وأما المختار : فهو المختار بن عبيد الثقفي ، رجل من أهل الفتنة ، كان يدعو تارةً لمحمد ابن الحنفية ، وطورا لعبد الله بن الزبير ، وحيناً لنفسه ، فلما انكشف سوء قصده ، خرج لحربه مصعب بن الزبير ، فتحصن المختار بقلعة الكوفة ، وحاصره مصعب في القلعة حتى أوشك ان يموت هو وأصحابه ظمًا وجوعاً ، فخرج يقاتل حتى قتل .

وقلعة الكوفة هذه ، هي الشاهقة التي كانت وزرا وملجأ للمختار ، والتي نزل منها مصعب فيما بعد ليلقى حتفه بالجائليق ، وقد كان منها في منعة لو أنه بقي !

(٣) يريد عبد الله بن الزبير ، وكان يسمى العائد ، لأنه كان يقول : انا العائد بالبيت ، ولكن عيادته بالبيت لم تمنع الحجاج بن يوسف الثقفي من نصب المجانيق لرمى الكعبة وهو عائد بها ، ثم من احتزاز رأسه وصلبه منكساً على خشبة قد أمسكت رجله وتدل منها جسده !

(٤) لطيم الجن : عمرو بن سعيد الأموي ، نبز بهذا الميل كان في فمه ، وبه أيضاً سمي الأشدق ، وقيل سمي الأشدق لتشادقه في الكلام ، وكان من فصحاء قريش وأهل الخطابة . وقد استدرجه عبد الملك بن مروان بحيلته حتى خلا به في داره ، فذبحه بيده وهو يقول كالمسوغ لفعلته : « او علمت يا أبا أمية أنك تبقى ويسلم لي ملكي لفديتك بدم النواظر ، ولكن قلما اجتمع فحلان في ذود الا عدا أحدهما على الآخر ! » ثم رمى برأسه الى أصحابه المحتشدين على الباب ونثر على رؤوسهم الدنانير ، فبردت حميتهم ، واستوسق الملك بمقتل عمر لعبد الملك ، وكان عبد الملك أبخر ، وينبذ بأبي الذبان !

(٥) قاضيه : سيفه ، والمعنى : لم تدع الليالي لعبد الملك سيفه الذي طالما قضب الأعناق واحتز الرموس .

وأحرقَتْ شِلْوَ زَيْدٍ بعد ما احترقتْ

عليه وجداً قلوبُ الآي والسُور (١)

وأظفرتْ بالوليد بن اليزيد ولم تُبقِ الخلافةَ بين الكأس والوتر (٢)

حَبَابَةُ حَبِّ رُمَانٍ أُتِيحَ لها وأحمرُّ قطرته نفحة القطر (٣)

ولم تعدْ قصب السِّفَاحِ نائبةً عن رأسِ مَرَوَانَ أو أشياعهِ الفُجَرِ (٤)

(١) الشلو: العضو ، وزيد هو زيد بن علي بن الحسين ، خرج الى الكوفة في سنة ١٢٢ في عهد هشام بن عبد الملك ، وبايعه أهلها بالخلافة ، ونشبت الحرب بينه وبين عمال بني أمية ، فانفض عنه من كانوا معه ، فقال لصاحبه نصر بن خزيمه : « يا نصر بن خزيمه ، انا اخاف ان يكونوا قد فعلوا حسينية ! » يعنى ان أهل الكوفة قد خدعوه ، ودعوه ثم أسلموه ، كما فعلوا مع الحسين من قبل ، وكذلك كان ، ولقى زيد مصير جده ، ودفن بمجرى ماء ، ثم دل عليه عامل بني أمية ، فنشبهه ، واحتز رأسه فبعث به الى دمشق حيث صلب على باب المدينة ، وصلب جسده بالكوفة ، وظل على خشبته ثلاث سنين ، ثم انزل قأحرق !

(٢) يشير الى مصرع الوليد بن يزيد ، وكان صاحب كأس ووتر ، مسرفا فى شهواته ، منهما فى دينه !

(٣) حبابه : قبنة كانت ليزيد بن عبد الملك - وكان كذلك صاحب كأس ووتر - وقد عشنها عشقا ملك عليه نفسه ، فبينما هو ذات يوم فى خلوة بها وقد صفت لهما الدنيا وطاب المكان ، اد تناولت رمانة فشرفت ببعض حياتها فماتت ، فحزن عليها حزنا هلك به بعد أسابيع ، ويعنى بالأحمر الذى قطرته نفحة القطر : الخمر ، وقد جاء هذا البيت ها موهما أن حبابه كان صاحبه الوليد المذكور فى البيت الذى سبقه ، وانما هى صاحبة ابيه يزيد بن عبد الملك ، وكان بينهما فى الخلافة ، هشام بن عبد الملك ، وقد لبث على عرش أميه عشرين سنة ! ولحبابه هذه أخبار مشهورة بين الجوارى المغنيات ، هى وسلامة القس ، وكانت مثلها من جوارى يزيد .

(٤) السفاح : هو عبد الملك بن محمد بن علي ، اول خلفاء الدولة العباسية ، وسمى السفاح ، لما سفح من دم بنى أمية ، أو لكرمه وما سفح من المال ، والفضب : السيوف ، ومروان المذكور فى البيت : هو مروان بن محمد ، آخر خلفاء الدولة الأموية ، وقد فر الى مصر بعد ذهاب ربحه ، وكان مصرعه بقرية من قرى الفيوم يقال لها (بوصبر) ثم احتز رأسه وبعث به الى السفاح ، فخر السفاح ساجدا لله وتمنل بشعر العدواني :

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ولا دعاؤهم للغيظ تروينى !

وبمقتل مروان استتب للملك لبنى العباس .

وَأَسْبَلَتْ دَمْعَةُ الرُّوحِ الْأَمِينِ عَلَى دَمِ بَفْحٍ لَّالِ الْمِصْطَفَى هَدَرٌ^(١)
وَأَشْرَقَتْ جَعْفَرًا وَالْفَضْلُ يَنْظُرُهُ

وَالشَّيْخُ يَحْيَى بَرِيقَ الصَّارِمِ الذِّكْرِ^(٢)
وَأَخْفَرَتْ فِي الْأَمِينِ الْعَهْدَ ، وَأَنْتَدَبَتْ

لِجَعْفَرِ بَابِنِهِ وَالْأَعْبُدِ الْغُدْرِ^(٣)
وَمَا وَفَتْ بَعُهودِ الْمُسْتَعِينِ وَلَا بِمَا تَأَكَّدَ لِلْمَعْتَزِ مِنْ مَرَرٍ^(٤)
وَأَوْثَقَتْ فِي عُرَاهَا كُلِّ مُعْتَمِدٍ وَأَشْرَقَتْ بِقِذَاهَا كُلِّ مُقْتَدِرٍ
وَرَوَّعَتْ كُلِّ مَأْمُونٍ وَمُؤْتَمِّنٍ وَأَسْلَمَتْ كُلِّ مَنْصُورٍ وَمُنْتَصِرٍ^(٥)

(١) دمع - موعج على فرسخ من مكة ، قيل له من بنى الحسن بن علي : الحسين بن علي بن الحسن ، والحسن بن محمد بن الحسن ، وعبدالله بن اسحاق بن ابراهيم بن الحسن ، وكان مقتلهم في انام المهدي العباسي ، وذمت دمعهم هدرا .

(٢) جعفر ، والفضل ، ابا يحيى بن خالد البرمكي ، واشرفت ، اغصت ، بمعنى : سبقت اللامالي جعفر بن يحيى السدوسي ، وجاءته الكعبة بفنائه ، واخوه وابوه ينظرانه ، يعني تعلقت آمالهما به وهو في عهده واطفائه ، ونكبة البرامكة مشهورة في التاريخ فلا حاجة بنا الى الحديث عنها .

(٣) الامير هو محمد بن هرون الرشيد ، وكان الرشيد قد ولاه العهد من بعده ، وجعل العهد من بعده لاهله الامير ، فاحد عاهلها الواثق الا دفن احداهما بصاحبه ، فلما ولي الامير الخلافة ، بدا له ان يجمع ابناء من ولاه العهد ليجعلها من بعده لابسه موسى ، فكان ذلك اول الشر من الامير ، واستشرى الامير حتى انتهت بميل الامير وولي اخيه العرش . اما جعفر المذكور بهامه فهو جعفر بن المعصم الملقب بالموكل ، عاشر خلفائهم ، اعان على قتله ابنه المنصور ، وكان قتلها من عهده ، والاعمد - العبد ، والغدر - جمع عادر ، وكان سبب مقتله انه اراد ان يكون الخلافة من بعده اوانه الامير ، دون اخيه المنصور ، فحفظها له ، وكان قبل الموكل اول ما ظهر من نسله اوالي - المعتمد في الدولة العباسية .

(٤) الموكل هو ابو العباس احمد بن محمد بن المعصم ، ولي الخلافة بعد المنصور بن الموكل ، سنة ٢٤٨ هـ ، بسبب العمة منه وبين المعز بن الموكل فخلع في سنة ٢٥٢ هـ ثم قتل بعد حمله بالبحر ، وولي المعز بمسند طعنه فاجتمعت له الكلمة وبايعه الناس ، ولكنه لم يلبث في الخلافة الا ثلاث سنين واشهرها ثم قتل .

(٥) المعتمد ، والمعندر ، والمأمون ، والمؤمن ، والمنصور ، والمنصر : القاب خلافة ، لا يعني بها الشاعر - فمما ارى - احدا يعينه ، واحسبه اراد ان يقول : ان الايام لا تقى بعهد لخليفة ولا تبقي على نعمة لملك .

وأعثرت آل عَبَّادٍ لَمَّا لَهْمُ
بذيل [زَبَاء] لم تَنْفِرَ من الذُّعْرِ (١)

* * *

بنى المظفر والأَيَّامُ - لا نُزِلَتْ -
مراحلٌ ، والورى منها على سَفَرِ (٢)
سُحْقاً ليومكم يوماً ولا حملتْ

بمثله ليلةٌ في غابِرِ العُمُرِ
مَنْ لِلْأُسْرَةِ ، أَوْ مَنْ لِلْأَعْنَةِ ، أَوْ
من اللَّطْبِي وعوالى الخطِ قَدْ عُقِدَتْ
أطرافِ أَلْسِنِهَا بالعىِّ والحَصْرِ
وطَوَّقَتْ بالمانيا السودِ بَيْضَهُمْ
فَاعَجَبَ لَذاكَ وما منها سوى الذِكرِ
من للبراعةِ أَوْ من للبراعةِ أَوْ
من للسَّاحَةِ أَوْ لِلنَّفْعِ والضررِ
أَوْ دَفَعَ كَارِثَةً أَوْ رَدَعَ آزِفَةً
أَوْ قَمَعَ حَادِثَةً تَعْبًا على الْقُدْرِ
وَيْبَ السَّمَاكِ وَيَيْبَ الْبَاسِ لو سَلِمَا

وحسرةُ الدين والدنيا على عُمرِ (٣)

(١) «لما» : كلمة توجع تقال للعائر ، والزباء : الداهية الشديدة ، أو انفاة قد كثر الشعر في وجهها وتخيلت طلاله أمام عينيها أشباحاً فنزع وتنعر ، وموضع هذه الكلمة بياض بالأصل ، وقوله «لم تنفر من الذعر» إشارة إلى المثل المشهور «كل أذب نفور» ، ويروى البيت على وجه آخر ، وهو :

وأعثرت آل عباس - لعالمهم - بذيل رباء من بيض ومن سمر
وقال ابن بدرون في تفسيرها : «قوله بذيل رباء من بيض ومن سمر - تنبيهها على كثرة عدد عبيدهم - يعنى العباسيين - وقدرتهم على السلاح» قلت : وتنبيهها على تعدد ألوان هؤلاء العبيد ، فمنهم الترك والعجم والروم والزنج ، والبيض والسمر .

(٢) يبدأ الشاعر من هذا البيت حديثه في رثاء بنى الأقطس ، إذ كانوا أهل القصد ومدار القول ونسبب الادكار ومبعث الاعتبار .

(٣) هو أبو محمد عمر المتوكل بن المظفر .

سَقَتْ ثَرَى الْفَضْلِ وَالْعَبَاسِ هَامِيَةً
تُعْزَى إِلَيْهِمْ سَمَاحاً لَا إِلَى الْمَطَرِ (١)
ثَلَاثَةٌ مَا رَأَى السَّعْدَانِ مِثْلَهُمْ
وَأَخْبِرْ وَلَوْ عَزَزَا فِي الْحَوْتِ بِالْقَمَرِ (٢)
ثَلَاثَةٌ مَا ارْتَقَى النَّسْرَانِ حَيْثُ رَقُّوا
وَكُلُّ مَا طَارَ مِنْ نَسْرِ وَلَمْ يَطِيرِ
ثَلَاثَةٌ كَذَوَاتِ الدَّهْرِ مِنْذُ نَاوَا
عَنِ ، مَضَى الدَّهْرُ لَمْ يَرْبِعْ وَلَمْ يَحْرِ (٣)
وَمَرَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِيهِ أَطْيَبُهُ حَتَّى التَّمَتُّعِ بِالْأَصَالِ وَالْبُكَرِ
أَيْنَ الْجَلَالُ الَّذِي غَضَّتْ مَهَابَتُهُ قُلُوبَنَا وَعُيُونُ الْأَنْجَمِ الزُّهْرِ (٤)
أَيْنَ الْإِبَاءُ الَّذِي أَرْسَوْا قَوَاعِدَهُ عَلَى دَعَائِمٍ مِنْ عِزٍّ وَمِنْ ظَفَرِ
أَيْنَ الْوَفَاءُ الَّذِي أَصْفَوْا شَرَائِعَهُ فَلَمْ يَرِدْ أَحَدٌ مِنْهَا عَلَى كَدَرٍ
كَانُوا رَوَاسِيَ أَرْضِ اللَّهِ ، مِنْذُ مَضَوْا
عَنْهَا اسْتَطَارَتْ بَيْنَ فِيهَا وَلَمْ تَقْرِ
كَانُوا مَصَابِيحَهَا فَمَنْ خَبَّوْا عَثَرَتْ
هَذِي الْخَلِيقَةُ يَا اللَّهَ فِي سَدَرِ (٥)

(١) الفضل والعباس : ابنا المتوكل ، وقد ذنلها المرابطون حين اجتاحتها ارض بطليوس .

(٢) كذا بالأصل ، وفي غيره :

ثَلَاثَةٌ مَا رَأَى الْعَصْرَانِ مِثْلَهُمْ فَضلاً وَلَوْ عَزَّزُوا بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ

(٣) لم يربع بفتح الباء : لم يقف .

(٤) مهابته : منصوب على السببية ، معنى : غضت لهابته قلوبنا .

(٥) السدر : الحيرة .

كانوا شَجَى الدهر فاستهوتهم خَدَعُ
 منه بأحلام عاد في خطى الحضر^(١)
 وَيَلْمُهُ مِنْ طُلُوبِ الشَّارِ مُذْرِكُهُ
 منهم بأسد سُراة في الوغَى صُبْر^(٢)
 مَنْ لِي وَلَا مَنْ بِهِمْ إِنْ أَظْلَمَتْ نُوبُ
 ولم يكن ليلُها يُفْضِي إِلَى سَحَرِ^(٣)
 مَنْ لِي وَلَا مَنْ بِهِمْ إِنْ عَطَّلَتْ سُنَنُ
 وَأَخْفَيْتِ أَلْسُنُ الْآثَارِ وَالسَّيْرِ
 مَنْ لِي وَلَا مَنْ بِهِمْ إِنْ أَطْبَقَتْ مِخَنُ ولم يكن ورْدُها يَدْعُو إِلَى صَدْرِ
 على الفضائلِ إِلَّا الصَّبْرَ بَعْدَهُمْ سَلامُ مُرْتَقِبٍ لِلْأَجْرِ مُنْتَظِرِ
 يرجو. عسى وله في أُخْتِها أَمَلُ
 والدمرُ ذو عُقْبٍ شَتَّى وَذُو غُيْرِ
 قَرَّطُ آذَانَ مَنْ فِيهَا بِفَاضِحَةٍ
 على الحسانِ حَصَى الْيَاقُوتِ وَالذَّرْرِ
 سَيَّارَةٍ فِي أَقَاصِي الْأَرْضِ قَاطِعَةٍ
 شَقَاشِقًا هَدَرَتْ فِي الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ
 مُطَاعَةِ الْأَمْرِ فِي الْأَلْبَابِ قَاضِيَةٍ مِنْ الْمَسَامِعِ مَا كَمْ يُقْضَى مِنْ وَطَرِ

(١) في رواية أخرى : « في خطى الخطر » .

(٢) ويروى عجز البيت « لو كان ديننا على الأيام ذى عسر » .

(٣) ويروى صدر البيت « من لي ومن لهمو ان اظلمت نوب » .

وكان أبو محمد هذا^(١) يكتب للمتوكل على الله ، ونمت حاله معه ؛ وهو أحد كتّاب المغرب ، ومن جمع منهم فضيلتي الكتابة والشعر ، على أنه مُقل من النظم ، لم يثبت له منه إلا يسير بالنسبة إلى غزارة آدابه ونباهة قدره ؛ وسيمر من مختار رسائله في موضعه من هذا الكتاب ما يدل على ما وصفناه به .

حكى عن نفسه رحمه الله أنه كان بين يدي مؤدّبه ، وسنه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة ، فعنّ للمؤدّب أن قال :

« الشعرُ خطّةٌ خُسفِ »

وجعل يردد هذا القول . قال الوزير أبو محمد رحمه الله : فكتبت في لوحى مجيزاً له :

« لكل طالبٍ عُرْفِ »

ثم خطر لي بيت ثان ، وهو :

للشيخ عيّنةٌ عيِّبِ وللفتى ظَرْفُ ظَرْفِ

قال : فنظر إلى المؤدّب وقال : يا عبد المجيد ، ما الذى تكتب ؟ فأريته اللوح ؛ فلما رآه لطمنى وعرك أذنى وقال : لا تشغل بهذا ! وكتب البيتين عنده^(٢) .

(١) يعنى ابن عبدون دألم هذا الشعر .

(٢) مؤدّبه هذا - كما جاء فى نصح الطيب - هو أبو الوليد بن ضابط النحوى المالكى ، وكان فى ذلك الوقت شيخاً بسجلى بالشعر ، فكانما أراد ابن عبدون - وهو لم يزل صبياً بعد - التعريض به لاختاذه الشعر سبباً الى طلب العرف .
وروى ابن حاتم فى العلاند ، أن الذى نظم صدر البيت « الشعر خطه خسف » هو الموكل ابن الأفلح ، ثم ارتج عليه ، فأجازه ابن عبدون .
أما ابن بسام فى الذخيرة فيروى الخبر على نحو ما رواه المراكشى .
والعييه : الظرف والوعاء .

ومن غزارة حفظه رحمه الله ما حدث الوزير الأجل أبو بكر محمد ابن الوزير أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن عبد الملك ابن زهر - وكان أبو بكر هذا قد مات عن سن عالية ، نيف على الثمانين ^(١) - قال :

(١) كان مولده - فيما يروى - سنة ٥٠٧ وتوفى سنة ٥٩٥ وهى السنة التى لقيه فيها المراكشى بمراكش كما سيأتى بعد .

وقد ذكره ابن دحية فى كتابه « المطرب من أشعار المغرب » فقال : كان شيخنا الوزر أبو بكر بن زهر بىمكان من اللغة مكين ، ومورد من الطب عذب معين ، وكان يحفظ شعر ذى الرمة وهو ثلث لغة العرب ، مع الاشراف على جميع أقوال أهل الطب ، والمنزلة العليا عنه أصحاب المغرب ، مع سمو النسب ، وكثرة الأموال والنسب . ومن شعره الذائع قوله :

وَمُؤَسِّدِينَ عَلَى الْأَكْفِ خَدَوَهُمْ قَدْ غَالَهُمْ نَوْمُ الصَّبَاحِ وَغَالَنِي
مَازَلْتُ أَسْقِيهِمْ وَأَشْرَبُ فَضْلَهُمْ حَتَّى سَكِرْتُ وَنَالَهُمْ مَا نَالَنِي
وَالْخَمْرُ تَعْلَمُ كَيْفَ تَأْخُذُ ثَأْرَهَا إِنِّي أَمَلْتُ إِنَاءَهَا فَأَمَالَنِي !
وَزَوَى أَنَّهُ كَانَ بِمِرَاكُسٍ فِي أَوَاخِرِ الْقُرُونِ السَّادِسِ ، وَقَدْ فَارَقَ بَاشِيْبِيلِيَه طِفْلاً لَهُ ، فَذَكَرَهُ
وَحَنَّ إِلَيْهِ ، فَأَنشَأَ يَقُولُ مَتَشَوْقَا :

ولى واحد مثلُ فرّاح القَطَا
 وأُفْرِدْتُ عنه ، فياوحشَتَا
 تَشَهَّ—وَقْنَى وتَشَوَّقْتَهُ
 وقد تعب الشوق ما بيننا
 صغيرٌ تخَلَّفَ قلبى لديه
 لذلك الشُّخِصُ وذاك الوجِيه !
 غيبكى علىَّ وأبكى عليه
 فمنه إلىَّ ومنى إليه !

فبلغت هذه الآيات أبا يوسف النصور سلطان المغرب ، فاختذته لذلك رقة ، وأراد أن يفاخيه أبا بكر بما يسره ، من غير أن يفارق حضرته بمراكش ، فأرسل مهندسين إلى أشبيلية ، وأمرهم أن يحيطوا علما ببيوت ابن زهر وحارته ، ثم بينوا مثلها في مراكش ، ففعلوا ما أمرهم في أقرب مدة ، وفرضها بمثل فرشته ، وجعل فيها مثل آتته ، ثم أمر أن ينقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه إلى تلك الدار ، ثم احتال عليه حتى جاء إلى ذلك الموضع ، فرآه أشبه شيء ببيتته وحارته ، فتحير لذلك وظن أنه نائم وأن ذلك أحلام ، فقبل له ادخل البيت الذي يشبه بيتك ، فدخله ، فإذا ولده الذي تشوق إليه يلعب في البيت ، فحصل له من السرور ما لا مزيد عليه ولا يعبر عنه !

« بينا أنا قاعد فى دهليز دارنا وعندى رجل ناسخ أمرته أن يكتب لى كتاب الأغاني ، فجاء الناسخ بالكراريس التى كتبها ؛ فقلت له : أين الأصل الذى كتبت منه لأقابل معك به قال : ما أتيت به معى ؛ فبينما أنا معه فى ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجلٌ بدُّ الهيئة ، عليه ثياب غليظة أكثرها صوف ، وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير إتقان لها ؛ فحسبته لما رأيته من بعض أهل البادية ، فسلم وقعد وقال لى يابنى ، استأذن لى على الوزير أبى مروان ؛ فقلت له : هو نائم ؛ هذا بعد أن تكلفتُ جوابه غايةً التكلف ؛ حملنى على ذلك نزوة الصبا وما رأيته من خشونة هيئة الرجل ؛ ثم سكت غنى ساعة ، وقال : ما هذا الكتاب الذى بأيديكما ؟ فقلت له : ما سؤالك عنه ؟ فقال : أحب أن أعرف اسمه ، فإنى كنت أعرف أسماء الكتب ! فقلت : هو كتاب الأغاني : فقال : إلى أين بلغ الكاتب منه ؟ قلت : بلغ موضع كذا ، وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على قالبه ، فقال : وما لكاتبك لا يكتب ؟ قلت : طلبتُ منه الأصل الذى يكتب منه لأعارض به هذه الأوراق ، فقال : لم أجئ به معى ؛ فقال : يا بنى ، خذ كراريسك وعارض ؛ قلت : بماذا ؟ وأين الأصل ؟ قال : كنت أحفظ هذا الكتاب فى مدة صباى ؛ قال : فتبسمت من قوله ، فلما رأى تبسمى قال : يا بنى أمسك على ؛ قال : فأمسكت عليه وجعل يقرأ ، فوالله إن أخطأ واواً ولا فاء ؛ قرأ هكذا نحواً من كراستين ، ثم أخذت له فى وسط السفر وآخره ، فرأيت حفظه فى ذلك كله سواء .

« فاشتد عجبى ، وقمت مسرعاً حتى دخلت على أبى^(١) فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل ؛ فقام كما هو من قوره ، وكان ملتفاً برداء ليس عليه قميص ، وخرج حاسر الرأس حافى القدمين لا يرفق على نفسه ، وأنا بين يديه ، وهو يوسعنى لوماً ، حتى ترمى على الرجل وعانقه ، وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول : يا مولاي اعذرني ، فوالله ما أعلمنى هذا الجلف إلا الساعة ؛ وجعل يسبني ، والرجل يخفض عليه ويقول : ما عرفنى ؛ وأبى يقول : هب ما عرفك ، فما عذره في حسن الأدب .

ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به فتحدثنا طويلاً ؛ ثم خرج الرجل وأبى بين يديه حافياً حتى بلغ الباب ، وأمر بدابته التي يزكبها فأشربت ، وحلف عليه ليركبها ثم لا ترجع إليه أبداً .

« فلما انفصل قلت لأبى : من هذا الرجل الذي عظمته هذا التعظيم ؟ قال لى : اسكت ويحك ! هذا أديب الأندلس وإمامها وسيدها فى علم الآداب ، هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، أيسرُ محفوظاته كتاب الأغاني ؛ وما حفظه فى ذكاء خاطره وجودة قريحته ؟ »

(١) هو الوزير أبو مروان عبد الملك بن زهر .

[أبو بكر بن زهر]

سمعت هذه الحكاية من أبي بكر بن زهر رحمه الله حين دخلت عليه وقد وفد على مراکش لتجديد بيعة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف في شهر سنة ٥٩٥ .

وأنشدني الوزير أبو بكر المذكور في هذا التاريخ لنفسه - بعد أن سألتني عن اسمي وعن نسبي فتسميت وانتسبت وتسمى لي هو رحمه الله وانتسب من غير استدعاء ، تواضعاً منه وشرفاً نفس وتهذيب خلق ، قدس الله روحه وسامحه - :

لاح المشيبُ على رأسي فقلت له :

الشَّيبُ والعيبُ لا والله ما اجتمعا
يا ساقى الكأس لا تعدلِ إليَّ بها فقد هَجَرْتُ الحُمِيَّ والحميمَ معا
وأنشدني رحمه الله وقال احفظ عني :

إني نظرتُ إلى المرأة إذ جُلِيتُ فأنكرتُ مُقلتاي كلَّ مارأنا
رأيتُ فيها شَيْخاً لست أعرفه

وكنت أعرفُ فيها قبل ذاك فتى^(١)

(١) اورد نفع الطيب بعد عذون البسن .

فقلت أين الذي بالأمس كان هنا متى ترحل من هذا المكان متى ؟
فاستضحكت ثم قالت وهي معجبة إن الذي أنكرته مقلتك أتي
كانت سليمى تنادى : يا أخى ! وقد صارت سليمى تنادى اليوم : يا أبتا !

هذا ما أنشدنى لنفسه بلفظه ، رحمه الله ؛ وله شعر كثير
أجاد فى أكثره ؛ وأما الموشحات خاصة فهو الإمام المقدم فيها ،
وطريقته هى الغاية القصوى التى يجرى كل من بعده إليها ؛ هو
آخر المجيدين فى صناعتها ، ولولا أن العادة لم تجر بإيراد
الموشحات فى الكتب المجلدة المخلدة^(١) لأوردت له بعض ما بقى على
خاطرى من ذلك .

[رجع القول إلى ملوك الطوائف]

ثم رجع بنا القول إلى ذكر أحوال الأندلس ؛ فهؤلاء الرؤساء
الذين ذكرنا أسماءهم هم الذين ملكوا الأندلس بعد الفتنة وضبطوا
نواحيها ؛ واستبد كل رئيس منهم بتدبير ما تغلب عليه من الجهات
وانقطعت الدعوة للخلافة وذكر اسمها على المنابر ؛ فلم يذكر خليفة
أموى ولا هاشمى بقطر من أقطار الأندلس ، خلا أيام يسيرة
دعى فيها لهشام المؤيد بن الحكم المستنصر بمدينة إشبيلية

(١) قلت : يظهر أن الموشحات إلى ذلك العهد - سنة ٦٢١ - لم تكن عندهم من الأدب
الذى يستحق التدوين والتخليد ، وإنما كانت فنا شعبيلا لا يبلغ مقام الشعر ، هذا إلى أن
موازين الأدب فى الأندلس كانت تجعل الأدب المشرقى هو القدوة وعلم المشاركة هو العلم ، كما
ينظر بعضنا اليوم إلى الثقافة الأوربية ، جهلا بمقدار نفسه ، وقد أسرت إلى بعض هذا فيما
كتبت عن ابن عبد ربه فى مقدمة طبعة كتاب العقد التى أخرجتها المكتبة التجارية سنة ١٩٤١
- وعلى هذا الأساس كانوا ينظرون إلى الموشحات ، إذ كانت فنا أندلسيا خاصا ليس من فنون
المشاركة !

انظر نماذج من موشحات ابن زهر فى الجزء الأول من نفع الطيب .

وأعمالها ، حسبما اقتضته الحيلة واضطر إليه التدبير ، ثم انقطع ذلك حسبما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى ^(١) .
فأشبهت حال ملوك الأندلس بعد الفتنة حال ملوك الطوائف من الفرس بعد قتل دارا بن دارا ^(٢) .

[أولية المرابطين بالأندلس]

ولم يزالوا كذلك وأحوال الأندلس تضعف وثغورها تختل ، ومجاوروها من الروم تشتد أطماعهم ويقوى تشوفهم ؛ إلى أن جمع الله الكلمة ، ورأب الصدع ، ونظّم الشمل ، وحسّم الخلاف ، وأعز الدين ، وأعلى كلمة الإسلام ، وقطع طمع العدو ؛ بيّمن نقيب أمير المسلمين وناصر الدين أبى يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتونى ، رحمه الله ؛ ثم استمر على ذلك ابنه على ، وأعادا إلى الأندلس معهود أمنها وسالف نصارة عيشها ؛ فكانت الأندلس فى أيامهما حرماً آمناً ؛ وأول دعاء دُعى للخلافة العباسية - أبقاها الله - على منابر الأندلس فى أيامهما ؛ ولم تنزل الدعوة العباسية وذكر خلفائها على منابر الأندلس والمغرب ؛ إلى أن انقطعت بقيام ابن تومرت مع المصامدة فى بلاد السوس ^(٣) ، على ما يأتى بيانه إن شاء الله عز وجل .

(١) انظر ص ١٥٢ .

(٢) قتله الاسكندر الأكبر . انظر الهامش رقم ٢ ص ١٣٠ من هذا الكتاب .

(٣) انظر ما كتبناه فى المقدمة عن البلد الذى ألف فيه المراكشى كتابه : فهنا دلالة على هواء مع العباسيين ، ولوزير من وزراء الخليفة العباسى كان املاء كتابه ، فهل نجد هنا ايضا دلالة على خصومة سياسية بينه وبين الموحد بنى تومرت الذين اكرهوه على الاغراب عن وطنه ؟

فصل

ملك بنى عباد بإشبيلية

وإذ ذكرنا أحوال ملوك الأندلس المتعَلِّبين عليها بعد الفتنة على ما شرطنا من الإجمال ، فلنرجع إلى ذكر مملكة إشبيلية خصوصاً من جزيرة الأندلس ، وذكر من ملكها ؛ فبذلك يتصل نسق الأخبار كما نريده ، ويتطرق لنا القول فيما نقصده ؛ لأن ملك إشبيلية هو كان السبب في دخول يوسف بن تاشفين مع المرابطين الأندلس ، على ما سيذكر إن شاء الله تعالى ؛ فنقول :

أما أحوال إشبيلية فإنها كانت في طاعة الفاطميين ، أعنى : على ابن حمود ، والقاسم بن حمود ، ويحيى بن علي بن حمود : أيام كان الأمر دائراً بينهم على ما تقدم ذكره^(١) ؛ فلما زحف يحيى بن علي بالبرابر إلى قرطبة ، وهرب القاسم بن حمود منها وقصد إشبيلية - وقد كان ابنه محمد والحسن^(٢) مقيمين بها - اجتمع أمر أهل إشبيلية واتفق رأيهم على إخراج محمد والحسن عنها قبل وصول القاسم أبيهما ؛ فأخرجوهما ؛ وجاء القاسم فمنعوه دخول البلد أيضاً ، واتفقوا

(١) انظر ص ٩٠ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٢) يعنى : ابني القاسم .

على تقديم رجل منهم يرجع إليه أمرهم وتجتمع به كلمتهم؛ فتوارد اختيارهم بعد مخض الرأي وتنقيح التدبير على القاضي أبي القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي^(١)؛ لما كانوا يعلمونه من حصافة عقله ، وسعة صدره ، وعلو همته ، وحسن تدبيره ؛ فعرضوا عليه مارأوه من ذلك ، فتهيب الاستبداد ، وخاف عاقبة الانفراد أولاً ، وأبى ذلك إلا على أن يختاروا له من أنفسهم رجالا سماهم ، لكي يكونوا له أعواناً ووزراء وشركاء ؛ لا يقطع أمراً دونهم ، ولا يحدث حدثاً إلا بمشورتهم . . .

وهؤلاء المسمون هم : الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي ومحمد بن يريم الألهاني ، وأبو الأصبح عيسى بن حجاج الحضرمي ، وأبو محمد عبد الله بن علي الهوزني ، في رجال آخرين ذهبت غنى أسماؤهم إلا أني أعرف قبائلهم وبيوتهم . . . ففعلوا ذلك وأجابوه إلى ما أراد ؛ ولم يزل يدبر أمر إشبيلية وهؤلاء المذكورون وزراؤه .

وكان له من الولد إسماعيل ، وهو الأكبر ، يكنى أبا الوليد ؛ وعباد ، يكنى أبا عمرو ؛ فأما إسماعيل فخرج إلى لقاء البربر بعد أن

(١) كان فاضلاً مدبنة إسماعيل . أصله من لخم ، من ولد النعمان بن المنذر آخر ملوك الحيرة وقد حمله السابع ، واسمه نعم . إلى الأندلس . وكان قبل ذلك مصرانياً من أهل العربش ، فأقام بفقره بمغرب يومس من ألمجيم المساهة من أرض إشبيلية . ومحمد بن إسماعيل هذا أول من نخب من ولده . فلما ولي قضاء أسبيلية أحسن السياسة مع الرعية والملافة بهم ، فمغننه القلوب ، فلما كاتب العبيد وانصق أمر يحيى بن علي المستنلي ، ولده أهل إشبيلية أمرهم .

حدث لأبيه أمل في التغلب على ما كان البربر يملكونه من الحصون القريبة من إشبيلية ، بعسكر من جند إشبيلية ، فالتقى هو وصاحب صنهاجة ؛ فأسلمت إسماعيل عساكره وكان أول قتيل ، وقطع رأسه وسير به إلى مالقة ، إلى إدريس بن علي الفاطمي كما تقدم^(١) .
وبقى الأمر كذلك ، والقاضي أبو القاسم يدبر الأمور أحسن تدبير ، وكان صالحاً مصلحاً ، إلى أن مات في شهور سنة ٤٣٩ .

(١) انظر ص ١١٣ - ١١٤ .

ولاية المعتضد بالله العبادي

ثم ولي ما كان يليه بعده من أمور إشبيلية وأعمالها ، ابنه أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ، فجرى على سنن أبيه في إثارة الإصلاح وحسن التدبير وبسط العدل ، مدة يسيرة . ثم بدا له أن يستبد بالأمور وحده ؛ وكان شهماً صارماً حديد القلب شجاع النفس بعيد الهمة ذا دهاء ، وواتته مع هذا المقادير ؛ فلم يزل يعمل في قطع هؤلاء الوزراء واحداً واحداً ، فمنهم من قتله صبراً ، ومنهم من نفاه عن البلاد ، ومنهم من أماته خمولا وفقراً ؛ إلى أن تم له ما أراد من الاستبداد بالأمر ؛ وتلقب بالمعتضد بالله .

وقيل إنه ادعى أنه وقع إليه هشام المؤيد بالله ، ابن الحكم المستنصر بالله ؛ وكان الذي حلمه على تدبير هذه الحيلة ما رآه من اضطراب أهل إشبيلية ، وخاف قيام العامة عليه ، لأنهم سمعوا بظهور من ظهر من أمراء بني أمية بقرطبة : كالمستظهر ، والمستكفي ، والمعتد^(١) ؛ فاستقبحوا بقاءهم بغير خليفة ، وبلغه أنهم يطلبون من أولاد بني أمية من يقيمونه ؛ فادعى ما ادعاه من ذلك ؛ وذكر أن هشاماً عنده بقصره ، وشهد له خواص من حشمه ، وأنه في صورة الحاجب له

(١) انظر ص ١٥٠ - ١٠٨

المنفذ لأُمُوره ؛ وأمر بالدعاء له على المنابر ؛ فاستمر ذلك من أمره سنين ، إلى أن أظهر موته ونعاه إلى رعيته في سنة ٤٥٥ واستظهر بعهدٍ عهده له هشام المذكور فيما زعم ، وأنه الأمير بعده على جميع جزيرة الأندلس (١) .

ولم يزل المعتضد هذا يدوخ الممالك وتدين له الملوك من جميع أقطار الأندلس .

وكان قد اتخذ خُشباً في ساحة قصره جللها برؤوس الملوك والروساء عوضاً عن الأشجار التي تكون في القصور ؛ وكان يقول : في مثل هذا البستان فليُتنزه .

وجملة أمر هذا الرجل أنه كان أَوحد عصره شهامة وصرامة وشجاعة قلب وحِدَّة نفس ؛ كانوا يشبهونه ببأبي جعفر المنصور من ملوك بني العباس ؛ كان قد استوى في مخافته ومهابته القريبُ والبعيد ، لاسيما منذ قَتَلَ ابنه وأكبر ولده المرشحَ لولاية عهده صبراً . وكان سبب ذلك أن ولده المذكور - وكان اسمه اسماعيل - كان يبلغه

(١) ينسب أبو محمد بن حزم الظاهري في كتاب « نطق العروس » هذه الواقعة إلى أبيه القاضي محمد بن عباد ، ويرويها على الوجه الآتي : « أخلوكة لم يقع في الدهر مثلها ، فإنه ظهر رجل يقال له خلف الحصري ، بعد نيف وعشرين سنة من موت هشام بن الحكم المنعوت بالمؤيد ، وادعى أنه هشام ، فبويع وخطب له على جميع منابر الأندلس في أوقات شتى ، وسفكت الدماء وتصادمت الجيوش في أمره ، وأقام المدعى أنه هشام نيفاً وعشرين سنة ، والقاضي محمد بن اسماعيل في رتبة الوزير بين يديه ، والأمر إليه . . . »

وانظر ص ٨٦ و ٩٨ من هذا الكتاب : دعوى الناصر ابن أبي عامر ، ودعوى علي بن حمود ان كلا منهما ولاه هشام المؤيد عهده !

عنه أخبار مضمونها استطالة حياته وتمنى وفاته ، فيتغاضى المعتضد ويتغافل تغافل الوالد ، إلى أن أدى ذلك التغافل إلى أن سكر إسماعيل المذكور ليلة وتسور سور القصر الذى فيه أبوه ، فى عُبدان وأراذل معه ، ورام الفتك بأبيه ؛ فانتبه البوابون والحرس ، فهرب أصحاب إسماعيل ، وأخذ بعضهم فأقر وأخبر بالكائنة على وجهها ؛ وقيل إن إسماعيل لم يكن معهم وإنما بعثهم على ذلك وجعل لمن قتل أباه المعتضد جُعلاً سنياً ، فالله أعلم ؛ فقبض المعتضد على ابنه إسماعيل هذا واستصفى أمواله وضرب عنقه ؛ فلم يبق أحد من خاصته إلا هابه من حينئذ .

وبلغنى أنه قتل رجلاً بمكة كان يدعو عليه بها : كان هذا الرجل من بادية إشبيلية . كان المعتضد قد وضع يده على بعض مال لهذا الرجل الأعمى ، وذهب باقى ماله حتى افتقر ؛ ورحل إلى مكة ، فلم يزل يدعو على المعتضد بها إلى أن بلغه عنه ذلك ، فاستدعى بعض من يريد الحج وناولهُ حُتْماً فيه دنانير مطليّة بالسّم ، وقال : لا تفتح هذا حتى تدفعه إلى فلان الأعمى بمكة ؛ وسلم عليه عنّا ! فاتفق أن سلّم الرجل ومعه الحق ، فحين وصل مكة لقي الأعمى ودفع إليه الحق ، وقال : هذا من عند المعتضد ؛ فأنكر ذلك الأعمى ، وقال : كيف يظلمنى بإشبيلية ويتصدق علىّ بالحجاز ؟ فلم يزل الرجل يُخَفِّضُه إلى أن سكن وأخذ الحق ، فكان أولَ شَيْءٍ فعله أن فتح الحق وعمد إلى دينار من تلك الدنانير فوضعه فى فمه ، وجعل يقلّب سائرها بيده ، إلى أن تمكن منه السم ، فما جاء الليل حتى مات ؛ فاعجب لرجل بقاصية المغرب يعتنى بقتل رجل بالحجاز !

وقتل على هذه الصورة رجلا من المؤذنين من أهل إشبيلية ؛ فرّ منه إلى طليطلة ، فكان يدعو عليه بها في الأسفار ، مقدراً أنه آمن غائلته إذ صار في مملكة غيره^(١) ؛ فلم يزل يُعْمَل فيه الحيلة إلى أن بعث من قتله فجاءه برأسه .

وكان أكبر من يناويه من المتغلبين المجاورين له وأشدهم عليه ، البربر : صنهاجة وبنو بَرَزَال الذين بِقَرْمُونَة وأعمالها من نواحي إشبيلية فلم يزل يصرف الحيلة تارة ويجهز الجيوش أخرى إلى أن استنزلهم ؛ ففرّق كلمتهم وشتّت منتظم أمرهم ونفاهم عن جميع تلك البلاد ووصفت له أموره .

كان له عَيْنٌ بقرمونة يكتب له بأخبار البربر ؛ بَلَّغ من لطف حيلة المعتضد وقد أراد أن يكتب إلى ذلك الرجل الذي جعله عيناً له بقرمونة كتاباً في بعض أمره ، أن استدعى رجلا من بادية إشبيلية شديد البَلَه كثير الغفلة ، وقال له : اخلع ثيابك . وألبسه جُبّة جعل في جيبها كتاباً وخاط عليه ، وقال له : اخرج إلى قرمونة ، فإذا وصلت بقربها فاجمع حُزْمَة حطب وادخل بها البلد وقِفْ حيث يقف أصحاب الحطب ، ولا تَبِعْهَا إلا لمن يشتريها منك بخمسة دراهم ؛ وكان قد قرر هذا كَلِّه مع صاحبه الذي بقرمونة ؛ فخرج البدوي كما أمره المعتضد ، فلما قرب من قرمونة جمع حُزْمَة من الحطب ، ولم يكن قبل هذا يعانى جمعه ؛ فجمع حُزْمَة صغيرة ودخل بها البلد ، ووقف في موقف الحطابين ، فجعل الناس

(١) كان على طليطلة في ذلك الوقت بنو ذى النون .

يمرون عليه ويسومون منه حُرْمته ، فإذا قال لا أبيعها إلا بخمسة دراهم ، ضحك من يسمع هذا القول منه ومرت عنه ؛ فلم يزل كذلك إلى إن أجته الليل والناس يسخرون منه ، فبعضهم يقول : هذا آبنوس ! ويقول الآخر : لا بل هو عُودٌ هندي ! وما أشبه هذا ؛ حتى مرّ به صاحب المعتضد ، فقال له : بكم تبيع حُرْمتك هذه ؟ فقال : بخمسة دراهم ! فقال : قد اشتريتها فاحملها إلى البيت ؛ فقام يحملها والرجل بين يديه حتى بلغ بيته ، فوضع الحزمة ودفع إليه الخمسة الدراهم ؛ فلما أخذها وهم بالانصراف قال له : أين تريد في هذا الوقت وقد علمت خوف الطريق ؟ فبيت الليلة عندي فإذا أصبحت رجعت إلى منزلك .

فأجابه ؛ فأدخله إلى بيت وقدم له طعاماً ، وسأله كأنه لا يعرفه : من أين أنت ؟ فقال : أنا من بادية إشبيلية ؛ قال : يا أخى ، ما الذى جاء بك إلى هذا الموضع وقد علمت نكد البربر وشومهم وهوان الدماء عليهم فقال : حملتني على هذا الحاجة ! ولم يُظهر له أن المعتضد أرسله ؛ فلم يزل الرجل يحادثه إلى أن أخذه النوم ، فلما رأى غلبة النوم عليه قال له : تجرّد من ثوبك هذا فهو أهناً لنومك وأزوحُ لجسمك ! فتجرّد الرجل ونام ، وأخذ صاحب المعتضد الجبة ففتق جيبيها ، واستخرج الكتاب فقرأه وكتب جوابه ، وجعله في جيب الجبة وخاط عليه كما كان ؛ فلما أصبح الرجل لبس جبته ورجع إلى إشبيلية وقصد باب دار الإمارة واستأذن ، فأدخل على المعتضد ، فقال له : اخلع تلك الجبة ؛ وكساه ثياباً حسناً فرح بها البدوى ، وخرج من عنده فرحاً يرى أنه قد

خام عليه ؛ ولم يعلم فيم ذهب ولا بم جاء ؛ وأخذ المعتضد الكتاب من جيب الجبة فقرأه وتمم ما أراد من أمره .

وله في تدبير ملكه وإحكام أمره حيل وآراء عجيبة لم يسبق إلى أكثرها ، يطول تعدادها ويخرج عن حد التلخيص بسطها .

ولما قتل ابنه اسماعيل - كما تقدم - وكان قد لقبه المويد ، عهد بعده إلى ابنه أبي القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ، ولقبه بالمعتمد على الله ؛ فحسنت سيرة أبي القاسم هذا في حياة أبيه وبعد وفاته .

[نشأة المرابطين في مراکش]

وفي إمارة المعتضد بالله هذا نزل لمتونة^١ ومسوفة - قبيلتان عظيمتان من البربر - رحبة^٢ مراکش ؛ فتخيروها دار ملكهم لتوسطها البلاد ؛ وكانت إذ نزلوها غيضة لا عمران بها ، وإنما سميت بعبد أسود كان يستوطنها يخيف الطريق اسمه مراکش^(١) ؛ فاستوطنها البربر كما ذكرنا وقدهوا عليهم رجلا منهم اسمه تاشفين بن يوسف .

وكان المعتضد في كل وقت يستطلع أخبار العدو : هل نزل البربر رحبة مراکش ؟ وذلك لما كان يراه في ملحة كانت عنده أن هؤلاء القوم خالعوه أو خالعو ولده ومُخرجوه من ملكه ؛ فلما بلغه نزولهم

(١) ويروى ابن خلكان أن « مراکش » معناها « امش مسرعا » بلغة المصامدة ، وكان موضعها ماوى للصوم ، وكان المارون فيه يقولون لرفقاتهم هذه الكلمة ، فعرف الموضع بها !

جَمَعَ ولده وجعل ينظر إليهم مصعداً ومصوباً ويقول : يا ليت شعري مَنْ
تناله مَعْرَةٌ هؤلاء القوم ، أنا أو أنتم ؟ فقال له أبو القاسم من بينهم :
جعلني الله فداك وأنزل بي كل مكروه يريد أن يُنزل به بك ! فكانت دعوةً
وافقت المقدار .

وكان نزول لتونة ومسوفة قبيلتي المرابطين رحبة مراکش ، في
صدر سنة ٤٦٣ - وانفصلهم عنها جملةً واحدة في وسط سنة ٥٤٠ ؛
فكانت مدة إقامتهم في الملك منذ نزلوا رحبة مراکش إلى أن انفصلوا
عنها وأخرجهم عنها المصامدة ، نحواً من ست وسبعين سنة .

ثم توفي المعتضد بالله في شهر رجب من سنة ٤٦٤ ، واختلف في
سبب وفاته ، ف قيل إن ملك الروم سمّه في ثياب أرسل بها إليه ؛ وقيل
إنه مات حتف أنفه ، فالله أعلم .

ولاية أبى القاسم بن عباد المعتمد على الله

ثم قام بالأمر من بعده ، ابنه أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد إسماعيل بن عباد ؛ وزاد إلى المعتمد على الله : الظافر بحول الله . وكان المعتمد هذا يُشَبَّه بهارون الواثق بالله من ملوك بنى العباس ، ذكاءً نفس وغزارةً أدب ؛ وكان شعره كأنه الحلل المنشرة ، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع للملك قبله من ملوك الأندلس ؛ وكان مقتصرًا من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضمُّ إليه ؛ وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية ما لا يحصى ، كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة ، إلى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة ؛ وفي الجملة فلا أعلم خصلة تُحمد في رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم ، وضرب له فيها بأوفى سهم ؛ وإذا عُدَّتْ حسناتُ الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت فالمعتمد هذا أحدها ، بل أكبرها .

ولى أمرَ إشبيلية بعد أبيه ، وله سبع وثلاثون سنة^(١) ؛ واتفقت له المحنة الكبرى بخلافه وإخراجه عن ملكه في شهر رجب الكائن في سنة ٤٨٤ ؛ فكانت مدة ولايته إلى أن خُلع وأُسر : عشرين سنة ؛ كانت له في أضعافها مآثر أعيا على غيره جمعها في مائة سنة أو أكثر منها : كانت له رحمه الله همة في تخليد الثناء وإبقاء الحمد .

(١) لعل صوابها : سبع وعشرون سنة .

[عبد الجليل بن وهبون الشاعر]

كان من جملة شعرائه رجل من أهل مدينة مُرْسِيَّة اسمه عبد الجليل بن وهبون ، كان حسن الشعر لطيف المأخذ حسن التوصل إلى دقيق المعاني ؛ أنشد يوماً بين يدي المعتمد رحمه الله بعض الحاضرين ببيتين لعبد الجليل ابن وهبون هذا قالهما قديماً قبل وصوله إلى المعتمد ، وهما :

قلّ الوفاء فما تلقاه في أحد ولا يمرّ لمخاوقٍ على بالٍ
وصار عندهم عنقاء مُغرِبةً أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقالٍ
فأعجب المعتمد بهما وقال : لمن هذان البيتان ؟ فقالوا : هما لعبد الجليل ابن وهبون أحد خدم مولانا ! فقال المعتمد عند ذلك : هذا والله اللؤم البحت ، رجلٌ من خدامنا والمنقطعين إلينا يقول : « أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال » ! وهل يتحدث أحدٌ عنا بأسوأ من هذه الأحدثوة ؟ ؟ وأمر له بألف منقال ؛ فلما دخل عليه يتشكر له قال له : يا أبا محمد ، هل عاد الخبرُ عياناً ؟ قال : إى والله يامولاي . ودعا له بطول البقاء ؛ فلما هم بالانصراف قال له : يا عبد الجليل ، الآن حدث بها لاعتنها ، يعنى ألف مثقال^(١) .

(١) كان ابن وهبون صديقاً لابن عمار ، فلمله هو الذي أنشد المعتمد من شعره ووصل به حبسه حتى صار من جلسائه . وقد حكى المقرئ أن ابن وهبون كان يوماً في مجلس المعتمد وهو ينشد قول المتنبي في سيف الدولة مستحسناً :

إذا ظفرتُ منك العيون بنظرة أثاب بها مُعبي المطيِّ ورازمه
فقال ابن وهبون مرتجلاً :

لئن جاد شعر ابن الحسين فلانما تُجيد العطايا ، واللها تفتح اللها
تنبأ عجباً بالقريض ، ولو درى بأنك تروى شعره لتألها !

[رجع الحديث عن المعتمد بن عباد]

وله رحمه الله^(١) شعر كثير برز في أكثره وأجاد ما أراد ، وسيمر منه في أضعاف أخباره ما يشهد له بالتبريز عند ذوى التمييز ؛ فمما اختاره من شعره قوله :

عَلَّ فَوَادَكَ قَدْ أَبْلَّ عَلِيلُ وَأَغْنَمَ حَيَاتَكَ فَالْبِقَاءُ قَلِيلُ
لَوْ أَنَّ عَمْرَكَ أَلْفُ عَامٍ كَامِلٍ مَا كَانَ حَقًّا أَنْ يُقَالَ طَوِيلُ
أَكْذَا يَقُودُ بِكَ الْأَسَى نَحْوَ الرَّدَى وَالْعُودُ عُودٌ وَالشُّمُولُ شُمُولُ
لَا يَسْتَبِيكَ الْهَمُّ نَفْسَكَ عَنَوَةً وَالكَأْسُ سَيْفٌ فِي يَدَيْكَ صَقِيلُ
بِالْعَقْلِ تَزْدَحُمُ الْهَمُومُ عَلَى الْحَشَا فَالْعَقْلُ عِنْدِي أَنْ تَزُولَ عُقُولُ!
ومن شعره السيار ، لا بل الطيار ، قوله في مملوك له صغير كان يتصرف بين يديه ، أهده له صاحب طليطة ؛ اسم المملوك سيف :

سَمَّوْهُ سَيْفًا وَفِي عَيْنَيْهِ سَيْفَانِ هَذَا لِقَتْلِي مَسْلُوكٌ وَهَذَا
أَمَّا كَفَتْ قَتْلَةً إِبَالِ السَّيْفِ وَاحِدَةً حَتَّى أُتِيحَ مِنَ الْأَجْفَانِ ثَنَتَانِ
أَسْرَتُهُ وَثَنَانِي غُنْجٌ مُقْلَتُهُ أَسِيرُهُ فِكْلَانَا أَسْرٌ عَانِي
يَا سَيْفُ أَمْسِكْ بِمَعْرُوفِ أَسِيرِ هَوَى

لا يبتغى منك تسريحاً بإحسان!

ومن شعره الرشيق المليح الخفيف الروح ، الذى حكى الماء سلاسة والصخر ملاسة ، قوله في هذا المملوك وقد عذّر :

(١) يعنى المعتمد •

تَمَّ له الحسنُ بِالْعِدَارِ واقترن الليلُ بالنهارِ
 أَخْضَرُ في أبيضٍ تَبَدَّى ذلك آسِي وذا بَهَارِ
 فقد حوى مجلسي تماماً إن كان من ريقه عَقَارِ
 وبيننا هويوماً في قُبّة له يكتب شيئاً ، أو يطالع ، وعنده بعض
 كرائمه ، فدخلت عليه الشمس من بعض الكُوى الكائنة فيها ، فقامت
 دونه تستره من الشمس ، فقال رحمه الله بديهاً :
 قامت لتحجبَ ضوءَ الشمس قامتُها
 عن ناظري ، حُجِبْتُ عن ناظرِ الغيرِ
 علماً لعمرِكَ منها أنها قمرٌ
 هل تَكْشِفُ الشمسُ إلا صورةَ القمرِ !
 وبيننا جارية من كرائمه قائمة على رأسه تسقيه والكأس في يدها ،
 إذ لمع البرق فارتاعت ، فقال رحمه الله بديهاً :
 رِيَعْتُ من البرقِ وفي كَفِّها بَرَقُ من القهوةِ لَمَاعُ
 عَجِبْتُ منها وهي شمسُ الضُّحَا كيف من الأنوارِ ترتاعُ !
 وله مع هذا مَقَاطِعُ حسان كان يرتجلها في مجالس أنسه
 ولاستدعاء خاصة جلسائه ، منعني من استيفائها قلة ما على خاطري
 منها^(١) .

(١) كتب الی الطیب ابی محمد المعری يستدعيه .

أيها الصاحبُ الذي فارقتُ عيني ونفسي منه السنا والسناء -

وسيمر من شعره الذى قاله فى أيام محنته ما يفجر الصم ،
ويزعزع الشَّم ؛ وكان لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون أديباً شاعراً
حَسَنَ الأدوات ، فاجتمع له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لأحد قبله .

[أبو الوليد بن زيدون]

فمن جملة وزرائه الوزير الأجلُّ ذو الرياستين أبو الوليد أحمد
ابن عبد الله بن أحمد بن زيدون^(١) ، ذو الأدب البارِع والشعر
الرائع ، أحد شعراء الأندلس المجيدين وفحولها المبرِّزين ، كان
إذا نسب أنساك كثيراً ، وإذا مدح أزرى بزُهير ، وإذا فخر أناف
على امرئ القيس ؛ فمن جملة مقاطعه التى تشهد له بجودة الطبع
وإتقان الصنعة قوله :

= نحن فى المجلس الذى يَهَبُ الراحة والسمع والغنى والغناء
نتعاطى التى تُسمَّى من اللذَّةِ والرقَّةِ الهوى والهواء
فأته تُلَفِّ راحةً ومُحَيَّا قد أعدَّا لك الحيا والحياة
وعلم أن طائفة من كتابه ووزرائه مجتمعون بالزهراء فى مجلس انس ومسرة ، فكتب اليهم:
حَسَدَ القصرُ فيكمو الزهراء ولعمرى وعمر كم ما أساء
قد طلعتُم بها شمساً صباحاً فاطلحوا عندنا بدوراً مساء !

(١) كان ابن زيدون من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة ، وزر لابن جهور ، ثم فسد ما بينهما
فحبسه ابن جهور ، واحتال ابن زيدون فى طلب صفحة فلم يظفر بطائل ، ففر من محبسه الى
اشبيلية ، فاستخلصه ابن عباد لنفسه ، وله تاريخ مع ولادة بنت المستكفى تزخر به كتب الأدب .
وقد توفى سنة ٤٦٣ هـ بـاشبيلية ، وكان له ولد يكنى أبا بكر . ولّى الوزارة للمتمم بن عياد بعد
أبيه ، وقتل يوم سقوط قرطبة فى يد المرابطين .

بينى وبينك مالو شئت لم يضع
يابائعا حظّه منى ولو بُذلت
يكفيك أنك إن حمّلت قلبى ما لا تستطيع قلوب الناس يستطع
تة أحتمل ، وأستطل أضبر ، وعزّ أهن
وولّ أقبل ، وقُل أسمع ، ومُر أطمع !

وهو القائل - رحمه الله - يخاطب بنى جهور ، وكان قد وزّر
لهم قبل وزارته للمعتمد ؛ لأن أصله من مدينة قرطبة ، فنالته
منهم محنة ، فخرج عن قرطبة إلى إشبيلية وافداً على المعتمد ،
فعلت رتبته عنده ؛ فكان يبلغه عن بنى جهور ما يسوءه في
نفسه وقرابته بقرطبة ، فقال يخاطبهم :

بنى جهورٍ آخر قُتْمُو بجفائكم فؤادى ، فما بال المدائح تَعَبُّ
تَعْدُونَنى كالعنبرِ الوردِ ، إنما تَفُوحُ لكم أنفاسه حين يُحَرِّقُ
ومن نسيبه الذى يختلط بالروح رقة ويمتزج بأجزاء الهواء
لطافة قصيدته التى قالها يتشوق ابنة المهدي «ولادة»^(١) ، وهى
بقرطبة وهو بإشبيلية^(٢) :

[أضحى التناهى بديلاً من تدانينا

وناب عن طيب لُقيانا تجافينا]

(١) كذا بالأصل ، وإنما هى ولادة بنت المستكفى محمد بن عبد الرحمن الأموى .

انظر ص ١٠٧ - ١٠٨

(٢) أنبت المؤلف من القصيدة مختارات ، فأثرنا اثبات ما أغفله بين علامتى الزيادة]

بنتم. وبيناً فما أبتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
 نكاد حين تُناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسي لولائسنا
 حالت لفقدكم أيامنا فغدت سوداً ، وكانت بكم بيضاً يا لينا
 إذ جانب العيش طلق من تالفنا ومورد اللهو صافٍ من تصافينا
 وإذا هصرنا غصون الأنس دانية فطوفها فجئنا منه ما شينا
 ليسق عهدكم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
 من مبلغ ملبسينا بانتزاحهم حزناً مع الدهر لا يبلى ويُبلىنا
 إن الزمان الذي مازال يضحكنا أنساً بقرهم قد عاد يُبكينا !
 غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا

بأن نغص فقال الدهر آمينا
 فأنحل ما كان معقوداً بأنفسنا وانبت ما كان مضولاً بأيدينا
 وقد نكون وما يُخشى تفرقنا فاليوم نحن وما يُرجى تلاقينا
 [ما حقنا أن تقرأوا عين ذى حسد

بنا ، ولا أن تسروا كاشحاً فينا
 ياليت شعري ولم نعتب أعاديكم هل نال حظاً من العُتبى أعاديينا
 لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم رأياً ولم نتقلد غيره ديناً
 كنا نرى اليأس تُسلينا عوارضه

وقد يئسنا فما لليأس يغرينا [

ياسارىَ البرقِ غاد القَصْرَ فاسقِ بِهِ
من كان صِرْفَ الهوى والودَّ يسقينَا
[واسأل هنالك هل عيني تُذكرُني

إلفاً تَذْكُرُهُ أَمْسَى يُعْنِينَا]
ويا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا مَنْ لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَيًّا كَانَ يُحْيِينَا
[مَنْ لَا يَرَى الدَّهْرَ يَقْضِينَا مَسَاعِفَةً
فيه وإن لم يكن عنا يقاضينا]

* * *

لَوَبَّيْتَ مُلْكِ كَأَنَّ اللَّهَ أَنْشَأَهُ مِسْكًا وَقَدْ أَنْشَأَ اللَّهُ الْوَرَى طِينًا
أَوْ صَاغَهُ وَرِقًا مَحْضًا وَتَوَجَّهَ مِنْ نَاصِعِ الثَّبَرِ إِبْدَاعًا وَتَحْسِينًا
إِذَا تَأَوَّدَ آدَتُهُ رِفَاهِيَّةٌ تُدِي الْعُقُولَ وَأَدَمَّتُهُ الْبُرَى لِينًا
كَأَنَّمَا نَبَتَتْ فِي صَمْحَنٍ وَجَنَّتْهُ زُهُرُ الْكَوَاكِبِ تَعْوِيدًا وَتَزِينًا
مَاضِرًا أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرَفًا وَفِي الْمَوْدَةِ كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا]

* * *

لَا تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنَا يُغَيِّرُنَا : إِذَا طَالَ مَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَا
وَاللَّهُ مَا طَلَبْتَ أَهْوَاؤُنَا بَدَلًا مِنْكُمْ وَلَا أَنْصَرَفْتَ عَنْكُمْ أَمَانِينَا
[وَلَا اسْتَفَدْنَا خَلِيلًا عَنْكَ يَشْغُلُنَا وَلَا اتَّخَذْنَا بَدِيلًا مِنْكَ يُسْلِينَا]

يَارَوْضَةَ طَالَ مَا أَجَنَّتْ أَوَاحِظُنَا
وَرَدًّا جَنَاهُ الصَّبَا غَضًّا وَنَسْرِينَا

ويا حياةَ تَمَلَّأْنَا بِزَهْرَتِهَا مُنَى ضُرُوباً وَلَذَّاتِ أَفَانِينَا
[ويا نعيماً حَضَرْنَا مِنْ غَضَارَتِهِ

فِي وَشْيِ نَعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهَا حِينَا]
لِسْنَا نُسَمِّيكِ إِجْلَالاً وَتَكْرِمَةً فَقَدْرُكَ الْمَعْتَلَى عَنْ ذَاكِ يُغْنِينَا
إِذْ انْفَرَدْتَ فَمَا شُورَكْتَ فِي صِفَةٍ
فَحَسْبُكَ الْوَصْفُ إِبْضَاحاً وَتَبْيِينَا

يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أَبَدَلْنَا بِسَلْسِلِهَا
وَالْكُوثرِ الْعَذْبِ زُقُوماً وَغَسَلِينَا^(١)
كَأَنَّا لَمْ نَبْتَ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا

وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَاشِينَا
سِرَّانٍ فِي خَاطِرِ الظُّلَمَاءِ يَكْتُمُنَا حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا
[لَا غَرَوَ فِي أَنَّ ذَكَرْنَا الْحَزْنَ حِينَ نَهَتْ

عَنْهُ النَّهْيُ ، وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا]
إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَى يَوْمَ النَّوَى سُوراً مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا
[إِنْ كَانَ قَدْ عَزَّ فِي الدُّنْيَا اللَّقَاءُ فَفَى

مَوَاقِفِ الْحَشْرِ نَلْقَاكُمْ ، وَيَكْفِينَا
أَمَّا هَوَاكِ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ شَرْباً وَإِنْ كَانَ يُرْوِينَا فَيُظْمِينَا
لَمْ يَخْفَ أَفَقُ جَمَالٍ أَنْتِ كَوَكْبُهُ سَالِينَ عَنْهُ ، وَلَمْ نَهْجِرْهُ قَالِينَا

(١) موضع هذا البيت من الاصل بعد البيتين التاليين -

ولا اختياراً تجنّبناك عن كُتُبٍ لكن عَدَّتْنا على كُرّةِ عَوادينا
نأسى عليك إذا حثت مشعشة فيها الشّمول وغنّانا مغنّينا
لا أكّوس الراح تُبدى من شمائلنا

سيما أرتياح ولا الأوتار تلهينا
دوى على العهد ، ما دُمنا ، مُحافِظةً

فالحُرُّ من دانٍ إنصافاً كما دينا
فما ابتغينا خليلاً منك يَحْبُسنا ولا استَفدنا حبيباً عنك يُغْنينا
ولو صَبّا نحونا من عُلُوِّ مَطلعه بدرُ الدّجا لم يكن حاشاك يُضَيِّبنا
أولى وفاء وإن لم تبدل صِلّةً فالذّكر يُقْنِعنا والطيفُ يكفينا
وفي الجوابِ قناعٌ لو شَفَعَتْ به بيضُ الأيادي التي ما زلتِ تُولينا
عليك منى سلامُ الله ما بقيت صباة منك تخفيها فتخفيننا
أوردتها على الاختيار لا على النسق ، ولعل في كثير مما تركتُ
منها أحسن مما أوردت ، وإنما منعى من استيفائها الوفاء بشرطه
التلخيص (١) .

ومن شعره رحمه الله ، مما قاله في مدة صباه :

أخذتُ ثلثَ الهوى غَضباً ولى ثلثُ
وللمحبّين فيما بينهم ثلثُ
تالله لو حلف العشاقُ أنهمو
موتى من الوجد يوم البين ما حنثوا

(١) انظر التعليق رقم ٢ ص ١٦٣

قوم إذا هجروا من بعد ما وُصلوا
 ماتوا ، فإن عاد من يَهُوونَه بُعثوا
 ترى المحبين صرعى في عراصيمهم
 كفتية الكهف ما يذرون ما لبثوا
 وما قال رحمه الله يتشوق ابنة المهدي المذكورة^(١) ومعاهده بقرطبة
 وضمنها بيت أبي الطيب في أول قصيدته الكافورية :
 «بِمَ التعلُّ لا أهلٌ ولا وطنٌ ولا نديمٌ ولا كَأْسٌ ولا سَكَنٌ !
 قصيدة أولها :
 هل تذكرون غريباً عادَه شجنُ
 من ذِكركم وجفا أجفانه الوسنُ
 يُخفي لواعجه والشوق يفضحه فقد تساوى لديه السرُّ والعلنُ
 يا ويلته ! أبقى في جوانحه فؤاده وهو بالأطلال مرتهنُ
 وأرقَّ العينَ والظلماء عاكفة
 ورفاء قد شفيها ، أو شفني ، حزنُ
 فبتُ أشكو وتشكو فوق أَيْكتها ويات يهفو أرتياحاً بيننا الغُصنُ
 يا هل أجالسُ أقواماً أحبهم
 كُنَّا وكانوا على عهدٍ فقد ضغنوا
 أو تحفظون عهداً لا أُصيّعها
 إن الكرام يحفظ العهد تمتحنُ

(١) انظر التعليق رقم ١ ص ١٦٣ .

ومنها :

إن كان عادكم عيداً قريباً فتى

بالشوق قد عادته من ذكركم حزن

وأفردته الليالي من أحبته فبات ينشدُها مما جنى الزمن :

«بمّ التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن» آ

[أبو بكر بن عمار]

ومنهم الوزير أبو بكر محمد بن عمار ، ذو النفس العصامية ، والآداب الأهتمية ؛ كان أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبي القاسم محمد بن هاني الأندلسي^(١) ، وربما كان أحلى منزعا منه في كثير من شعره .

ولشعره ديوان يدور بين أيدي أهل الأندلس ، ولم ألف أحداً ممن أدرسته سني من أهل الآداب الذين أخذت عنهم إلا رأيته مقدماً له مؤثراً لشعره ، وربما تغالى بعضهم فشبهه بأبي الطيب ، وهيهات !

(١) هو أبو الحسن محمد بن هاني الأزدى ، من ولد المهلب بن أبي صفرة ، كان أبوه يقيم في المهدية بالمغرب ، ثم نزع إلى الأندلس في أيام الحكم المستنصر والمنصور بن أبي عامر ، فولد له محمد هذا في اشبيلية ، وحصل له حظ وافر من الأدب ، ومهر في الشعر ، وكانوا يعدونه في المغرب كالمصنوع في المشرق ، وكاننا متعاصرين
وكان ابن هاني مغاليا في مدائحه ، فاتهم بالكفر وساء فيه رأى الناس ، حتى اضطر إلى الهجرة ، واتصل بالمرز لدين الله العبيدي ، ومات في ظروف غامضة سنة ٣٦٢ وهو شاب في عتفوانه !

فمن قصائده المشهورة التي أجاد فيها ما أراد ، قصيدته التي كتب بها من سرقسطة حين فرّق المعتضد بالله بينه وبين المعتمد - لأنه شغله عن كثير من أمره فتفاه^(١) - وهي :

عَلَيَّ ، وَإِلَّا مَا بَكَاءُ الغمامِ وَفِي ، وَإِلَّا مَا نِيَّاحُ الحمامِ -
وعنِّي أثار الرعد صرخة طالبٍ لشارٍ وهزّ البرق صفحة صارم -
وما لبست زهر النجوم حدادها لغيري ولا قامت له في مآتم -
وفي هذه القصيدة يقول يمدح المعتضد بالله^(٢) :

[إذا ركبوا فانظروا أول طاعنٍ وإن نزلوا فارصده آخر طاعم]
أبى أن يراه الله إلا مُقلداً حميلة سيف أو جمالة غارم

(١) انظر إيماءة الى بعض اسباب ذلك ص ١٧٦ .

(٢) ومنها في مدح بني عباد :

ملوكُ أناخ العزُّ في عرصاتهم ومثوى المعالي بين تلك المعالم
هم البيت ما غير الطُّبَا لبناتُهُ بأُسٌ ، ولا غير القنا بدعائم
إذا قصّر الرُّوعُ الخطأ نهضت بهم

طوالُ العوالى في طوال المعاصم
وأيدٍ أبت من أن تثوب ولم تفز

بجزّ النواصي أو بحزّ الغلاصم
ندامى الوغى ، يُجرون بالموتِ كأسها

إذا رجعت أسيافهم بالجماجم
هناك القنا مجرورة من حفاظٍ وثمّ الطُّبَا مهزوزة من عزائم

ومن جيد نسيبه قوله في قصيدة يمدح بها المعتضد بالله :

جاءَ الهوى فاستشعروه عارُهُ ونعيمُهُ فاستعذّبوه أوارُهُ !
لا تَطْلُبُوا في الحُبِّ عِزًّا إِنَّمَا عَبْدَانُهُ في حُكْمِهِ أَحْرَارُهُ
قالوا أَضُرَّ بك الهوى فَأَجَبْتُهُمْ يَا حَبْدَاهُ وَحَبْدَا إِضْرَارُهُ
قلبي هو اختار السَّقام لجسمه زيا ، فخلوه وما يَخْتَارُهُ
عَيَّرْتُمُونِي بالنُّحُولِ وَإِنَّمَا شَرَفُ المِهْنَدِ أَنْ تَرِقَّ شِفَارُهُ
وَسَمَّيْتُمْ لفراقٍ من آلَفْتُهُ وَلَرَبِّمَا حَجَبَ الْهَلَالِ سِرَارُهُ
أَحْسِبْتُمْ السُّلْوَانَ هَبَّ نَسِيمُهُ أَوْ أَنَّ ذَاكَ النُّومَ عَادَ غِرَارُهُ
إِنْ كَانَ أَغْيَا القلبُ من حربِ الجوى

خَذَلْتُهُ مِنْ دَمْعِي إِذْ نَ أَنْصَارُهُ
مَنْ قَدْ قَلْبِي إِذْ تَشَنَّى قَدُّهُ وَأَقَامَ عُذْرِي إِذْ أَطْلَّ عِذَارُهُ
أَمْ مَنْ طَوَى الصَّبْحَ الْمُنِيرَ نِقَابُهُ وَأَحَاطَ بِاللَّيْلِ الْبَهِيمِ حِمَارُهُ
عُصْنُ وَلَكِنْ النُّفُوسَ رِيَاضُهُ رَشَأُ وَلَكِنْ الْقُلُوبَ عَرَارُهُ
سَخِرْتُ بِبَدْرِ التَّمِّ غُرَّتُهُ كَمَا أَزْرَتُ عَلَى آفَاقِهِ أَزْرَارُهُ
مَازَالَ لَيْلُ الْوَصْلِ مِنْ فَتَكَاتِهِ تَسْرِي إِلَيَّ بِعَرَفِهِ أَسْحَارُهُ
وَيَجُودُ رَوْضَ الْحَسَنِ مِنْ وَجَنَاتِهِ دَمْعِي فَيَنْدِي رَنْدُهُ وَبَهَارُهُ
حَتَّى سَقَانِي الدَّهْرُ كَأْسَ فِرَاقِهِ فَسَكِرْتُ سُكْرًا لَا يُفِيْقُ خُمَارُهُ
وَوَقَفْتُ فِي مِثْلِ الْمَحْصَبِ مَوْقِفًا لِلْبَيْنِ مِنْ حَبِّ الْقُلُوبِ حِمَارُهُ
حَيْرَانَ أَعْمَى الطَّرْفَ وَهُوسَاؤُهُ وَأَذَابَ فِيهِ الْقَلْبَ وَهُوَ قَرَارُهُ

ولئن يُذِئَهُ وهو مشواه فكم قد احرقتُ عودَ العفارة ناره
إن يَهْنِه أنى أضغتُ لِحْبَهُ قلبي وذاعت عنده أسرارُه
....فليهنِ قلبي أن شكاه وشاحه

لسواره فاقتص منه سواره !

فوحُسْنِه لقد انتدبتُ لوصفه بالبخل لولا أن حِمَصاً دارُه^(١)
بلد رمتني بالمُنَى أغصانه وتفجرت لي بالندى أنهارُه

ولا بن عمار هذا مع المعتمد أخبار عجيبة عني بجمعها أهل
الأندلس ، وأنا إن شاء الله مُورِدٌ منها مالا يُخلّ بالشرط الذي التزمته ،
ولا يخرج عن الحد الذي رسمته ، حسبما بقى على خاطري من ذلك ؛ لأنني
كنت في حادثة سني قد صرفتُ عنايتي إلى أخبار ابن عمار هذا مع
المعتمد ، لما تضمنته من الآداب ؛ وقد فتشتُ خزانة حفظي فلم أَلِفَ فيها
إلا نبذة يسيرة ، وأنا مُورِدُها إن شاء الله عز وجل .

فابن عمار هذا هو محمد بن عمار ، يكنى أبا بكر ، أصله من
شَلَب ، من قرية من أعمالها يقال لها شنبوس ، مولده ومولد آبائه بها .
كان خامل البيت ليس له ولا لأسلافه في الرياسة في قديم الدهر ولا حديثه
حظٌ ولا ذُكرٍ منهم بها أحد : ورَدَ مدينة شَلَب طفلاً فنشأ بها ، وتعلم علم

(١) يعني اشبيلية ، وكانوا يسمونها حمص ، تشبيها لها بحمص الشام - وقد اتفقت لي
زيارتها مع بعض أصحابي في صيف سنة ١٩٦١ ، وجلسنا في مطعم على شاطئ الوادي الكبير
وطلبنا طعاما ، فجاء لنا ففرايج مشوية على طريقة أهل حمص ، فوالله ما كان شعوري وشعور
صحبتي إلا أننا جالسون على شاطئ نهر العاص في حمص ، نأكل من طعامها ونشرب من مائها
ونرى ملامح أهلها في وجوه أهل اشبيلية .

الأدب على جماعة ، منهم أبو الجحاج يوسف بن عيسى الأعلم ؛ ثم رحل إلى قرطبة فتأدب بها ، ومهر في صناعة الشعر ، فكان قُصارَاهُ التكسب به ، فلم يزل يجول في الأندلس مسترفداً لا يخصُّ بمدحه الملوكة دون غيرهم ، بل لا يبالي ممن أخذ ولا من استعطف من ملكٍ أو سُوقَةٍ ، وله في ذلك خبر ظريف :

وذلك أنه ورد في بعض سفراته شلب ، لا يملك إلا دابة لا يجد علفها فكتب بشعر إلى رجل من وجوه أهل السوق ، فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيراً ووجه بها إليه : فرآها ابن عمار من أجل الصلات وأسنى الجوائز ؛ ثم اتفق أن عَلتَ حال ابن عمار وساعده الجد ونهض به البخت ، وانتهى أمره أن ولاه المعتمد على الله مدينة شلب وأعمالها أول ما أفضى الأمر إليه ، فدخلها ابن عمار في موكب ضخم وجملة عبيد وحشم ، وأظهر نخوة لم يُظهرها المعتمد على الله حين وليها أيام أبيه المعتضد بالله ؛ فكان أول شيء سأل عنه ، الرجلُ صاحبه صاحبُ الشعير ، فقال : ما صنع فلان ، أهو حي ؟ قالوا : نعم ؛ فأرسل إليه بمخلاته بعينها بعد أن ملأها دراهم ، وقال لرسوله : قل له : لو ملأتها بُراً للملأناها تبراً .

ولم يزل ابن عمار على الحال التي ذكرناها من التقلب في بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف ، إلى أن ورد على المعتضد بالله أبي عمرو ، فامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها :

أدرِ الزجاجة فالنسيمُ قد انبرى والنجمُ قد صرف العنانَ عن السرى

والصبحُ قد أهدي لنا كافورَه لما استردَّ الليلُ منا العنبراً^(١)
وفيها يقول يمدح المعتضد :

عَبَّادُ الْمُخَضَّرِ نَائِلُ كَفِّهِ والجوُّ قد لبس الرداءَ الأغبراً
قَدَّاحُ زَنْدِ الْمَجْدِ لَا يَنْفَكُ مِنْ نارِ الْوَغَى إِلَّا إِلَى نارِ الْقِرَى
يَخْتَارُ أَنْ يَهَبَ الْخَرِيدَةَ كاعباً
وَالطَّرْفَ أَجْرَدَ وَالْحُسَامَ مُجَوَّهَرًا^(٢)

(١) بـسـد :

وَالرَّوْضُ كَالْحُسْنَا كَسَاهُ زَهْرُهُ وَشَيْءٌ ، وَقَلْدَهُ نَدَاهُ جَوْهَرًا
أَوْ كَالْغَلَامِ زَهًا بوردِ رِيَاضِهِ خَجَلًا ، وَتَاهُ بِآسِهِنَّ مُعَذَّرًا
رَوْضُ كَأَنَّ النُّهْرَ فِيهِ مِعْصَمٌ صَافٍ أَطْلَ عَلَى رَدَائِ أَخْضَرَا
وَتَهْزُهُ رِيحُ الصَّبَا فَتَخَالَهُ سَيْفُ ابْنِ عِبَادٍ يَبْدُدُ عَسْكَرَا
(٢) بـسـد :

مَلِكٌ إِذَا ازْدَحَمَ الْمُلُوكُ بِمُورِدٍ وَنَحَاهُ لَا يَرِدُونَ حَتَّى يَصْدُرَا
أَنْدَى عَلَى الْأَكْبَادِ مِنْ قَطْرِ النَّدَى

وَأَلَدٌ فِي الْأَجْفَانِ مِنْ سِنَةِ الْكُرَى
لَا خَلْقَ أَفَرَى مِنْ شِفَارِ حَسَامِهِ إِنْ كُنْتَ شَبَّهْتَ الْمَوَاكِبَ أَسْطَرَا
أَيَقَهُتُ أَنِّي مِنْ دُرَاهِ بَجْنَةٍ لَمَّا سَقَانِي مِنْ نَدَاهِ الْكُوْثَرَا
وَعَلِمْتُ حَقًّا أَنَّ رَبِّي مُخْصِبٌ لَمَّا سَأَلْتُ بِهِ الْغَمَامَ الْمَطْرَا
مَنْ لَا تُوَاظِنُهُ الْجِبَالُ إِذَا احْتَبَى

مَنْ لَا تَسَابِقُهُ الرِّيحُ إِذَا جَرَى

وفي هذه القصيدة يقول في وصف وقعة أوقعها المعتضد بالبربر :

شقيت بسيفك أمة لم تعتقد
أثرت رُمحك من رؤوس كُماهم
وخضبت سيفك من دماء نُحورهم
إلا اليهود وإن تسموا بربرا
لما رأيت الغصن يُعشقُ مُثمرا
لما عهدت الحسن يلبس أحمر^(١)

ماضٍ وصدر الرمح يُكهم والظبا
قاد الكتائب كالكوكب فوقهم
من كل أبيض قد تقلد أبيضاً
ملك يروك خلقه أو خلقه
أقسمت باسم الفضل حتى شمته
وجهلت معنى الجود حتى زرتُه
فاح الثرى متعطراً بشنائه
وتتوجت بالزهر ضلع هضابه
هصرت يدي غصن الندى من كفه
حسبي على الصنع الذي أولاه أن
السيف أفصح من زياد خطبة
مازلت تُغني من عنا لك راجيا
حتى حللت من الرياسة محجرا
نمقتها وشياً بذكرك مُذهبا
تنبو وأيدي الخيل تعثر في البرى
من لأمهم مثل السحاب كنهورا
عَضِباً وأسمر قد تأبط أسمر
كالروض يحسن منظراً أو مخبراً
فرايته في بردته مصوراً
فقرأته في راحتيه مفسراً
حتى حسبنا كل ثرب عنبراً
حتى ظننا كل هضب قيصرأ
وجنت به روض السرور منوراً
أسعى بجعد أو أموت فأعدراً
في الحرب إن كانت يمينك منبراً
نيلاً ، وتُغني من عنا وتجبراً
رحباً وضممت منك طرفاً أحورا
وفتقتها مسكاً بحمدك أذفراً

ومن أبيات هذه القصيدة بيت لم أسمع لمتقدّم ولا متأخر بمثله ،
وهو قوله :

السيفُ أفصحُ من زيادٍ^(١) خطبةً في الحرب إن كانت يمينك منبراً
ولما أنشد المعتضد هذه القصيدة استحسناها وأمر له بمال وثياب ومركب
وأمر أن يكتب في ديوان الشعراء : فكان كذلك .

ثم تعلق بالمعتمد على الله وهو إذ ذاك شاب ، فلم تزل حاله معه
تتزايد ، ومَوَاتُ خدمته له تقوى وتتأكد ، إلى أن صار ابنُ عمار ألزقَ
بالمعتمد من شعرات قصه ، وأدنى إليه من حبل وريده ؛ كان المعتمد
لا يستغنى عنه ساعة من ليل ولا نهار .

ثم اتفق أن ولي المعتمد على الله ثنوب من قبل أبيه ، فاستوزر ابنَ عمارٍ
هذا في تلك الولاية ، وسلم إليه جميع أموره ، فغلب عليه ابنُ عمار
غلبة شديدة ، وساعت السمة عنهما فاقتضى نظر المعتضد
التفريق بينهما ، ونفى ابن عمار عن بلاده حسبما تقدم الإيماء إليه^(٢) .
فلم يزل ابن عمار مغترباً في أقاصي بلاد الأندلس ، إلى أن توفى المعتضد
بالله ، فاستدعاه المعتمد ، وقربه أشد تقريب ، حتى كان يشاركه فيما
لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه .

مَنْ ذَا يَنَافِخُنِي وَذِكْرُكَ صَنْدَلٌ أوردته من نارِ فكري مَجْمَرًا
فلئن وجدت نسيمَ حمدي عاطرا فلقد وجدت نسيمَ برك أعطرا
وإليكم كالروضِ زارته الصبا وحنا عليه الطل حتى نورًا .

(١) يعني زياد ابن أبيه .

(٢) انظر ص ١٧٠ .

وله معه أيام كونهما بشلب خبر عجيب ؛ وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة إلى مجلس أنسه ، على ما كانت العادة جارية به ، إلا أنه في تلك الليلة زاد في التحفّي به والبرّ له على المعتاد ، فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه : لتضعنّ رأسك معي على وسادٍ واحد ! فكان ذلك . قال ابن عمار : فهتف بي هاتف في النوم يقول : « لا تغترّ أيها المسكين ؛ إنه سيقتلك ولو بعد حين ! » قال : فانتبهت من نومي فزعاً ، وتعوّذت ، ثم عدت ، فهتف بي الهاتف على حالته الأولى ؛ فانتبهت ، ثم عدت ، فسمعتة ثالثة ؛ فانتبهت فتجردت من أثوابي والتفتفت في بعض الحصر . وقصدت دهليز القصر مستخفياً به ، وقد أزمعت على أني إذا أصبحت خرجت مستخفياً حتى آتي البحر فأركبه وأقصد بلاد العدو فأكون في بعض جبال البربر حتى أموت ؛ فانتبه المعتمد فافتقدني فلم يجلني ، فأمر بطلي ، فطلبت له في نواحي القصر ، وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تُحمل بين يديه ؛ فكان هو الذي وقع عني ؛ وذلك أنه أتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فتح ؛ فوقف بإزاء الحصير الذي كنت فيه ، فكانت مني حركة فأحس بي ، وقال : ما هذا يتحرك في هذا الحصير ؟ ثم أمر به فنفض ، فخرجت عرياناً ليس عليّ إلا السراويل ! فلما رأيته فاضت عيناه دموعاً وقال : يا أبا بكر ، ما الذي حملك على هذا ؟ فلم أربداً من أن صدقته . فقضت عليه قصتي من أولها إلى آخرها ، فضحك وقال : يا أبا بكر ، أضغاث أحلام ، هذه آثار الخمار . ثم قال لي : وكيف أقتلك ؟ أرايت أحداً يقتل نفسه ؟ وهل أنت عندي إلا كنفسى ؟ فتشكر له ابن عمار ودعا له بطول

البقاء ، وتناسى الأمر فنسيه ، ومرت على ذلك الأيام والليالي ، إلى أن كان من أمره ما سيأتى الإيماء إليه ، فصدقت رؤيا ابن عمار ، وقتل المعتمد نفسه كما قال !

ولما أفضى الأمر إلى المعتمد - كما ذكرنا - سأله ابن عمار ولاية شلب ، وهى كانت بلده ومنشأه كما تقدم ؛ فأجابه المعتمد إلى ذلك وولاه إياها أنبة ولاية ؛ جعل إليه جميع أمورها ، خارجها وداخلها ؛ فاستمرت ولاية ابن عمار عليها إلى أن اشتد شوق المعتمد إليه ، وضعف عن احتمال الصبر عنه ؛ فاستدعاه وعزله عنها واستوزره ؛ فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد .

ولم يزل المعتمد يُعده لكل أمر جليل ، ويؤمله لكل رتبة عالية ؛ وكان ابن عمار مع هذا لا يُنَاط به أمرٌ إلا اضطلع به وكان فيه كالسكة المحماة .

واشتهر أمره ببلاد الأندلس حتى كان ملك الروم الأذفنش إذا ذكر عنده ابن عمار قال : هو رجل الجزيرة ! وكان ابن عمار هو الذى ردّه عن قصد إشبيلية وقرطبة وأعمالها ؛ وذلك أنه خرج فى جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعاً فيها ، فخافه الناس ، وامتلأ صدور أهل تلك الجهات رعباً منه ، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه ؛ فتولى ابن عمار ردّه بالطف حيلة وأيسر تدبير ؛ وذلك أنه أقام سُفرة شطرنج فى غاية الإتقان والإبداع ، لم يكن عند ملك مثلها ، جعل صورها من الآبنوس والعود الرطب والصندل وحلاها بالذهب ، وجعل أرضها فى غاية الإتقان ؛ فخرج من عند المعتمد

رسولا إلى الأدفنش ، فلقبه في أول بلاد المسلمين ، فأعظم الأدفنش قدومه وبالغ في إكرامه ، وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه والمسايرة في حوائجه فأظهر ابن عمار تلك السفارة ، فرآها بعض خواص الأدفنش ، فنقل خبرها إليه ؛ وكان العليج - أعنى الأدفنش - مولعاً بالشطرنج ، فلما لقي ابن عمار سأله : كيف أنت في الشطرنج ؟ وكان ابن عمار فيه طبقة عالية فأخبره بمكانه منه ؛ فقال له : بلغني أن عندك سفرة في غاية الإتقان ! قال ابن عمار : نعم ؛ فقال : كيف السبيل إلى رؤيتها ؟ فقال ابن عمار لترجمانه : قل له أنا آتيك بها على أن ألعب معك عليها ، فإن غلبتني فهي لك ، وإن غلبتك فلي حكمي ! فقال له الأدفنش : هلمها لننظر إليها ؛ فأمر ابن عمار من جاء بها ، فلما وضعت بين يدي العليج صلب وقال : ما ظننت أن إتقان الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد ! ثم قال لابن عمار : كيف قلت ؟ فأعاد عليه الكلام الأول ، فقال له الأدفنش : لا ألعب معك على حكم مجهول لا أدري ما هو ، ولعله شيء لا يمكنني ! فقال ابن عمار : لا ألعب إلا على هذا الوجه ! وأمر بالسفرة فطويت ؛ وكشف ابن عمار سر ما أراده لرجال وثق بهم من وجوه دولة الأدفنش ، وجعل لهم أموالاً عظيمة على أن يوازروه على أمره . ففعلوا ؛ فتعلقت نفس العليج بالسفرة ، وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار ، فهوّنوا عليه وقالوا له : إن غلبته كانت عندك سفرة ليس عند ملك مثلها ، وإن غلبك فما عساه أن يحتكم ؟ وقبحوا عنده إظهار الملك العجز عن شيء يُطلب منه ، وقالوا له : إن طلب ابن عمار ما لا يمكن فنحن لك برده عن ذلك ؛ ولم يزلوا به حتى أجاب ،

وأرسل إلى ابن عمار فجاء ومعه السفارة ، فقال له : قد قبلت ما رسمته ! فقال له ابن عمار : فاجعل بيني وبينك شهوداً أسأهم له ؛ فأمر الأذفنش بهم فحضرُوا ، وافتتحا يلعبان ؛ وكان ابن عمار - كما ذكرنا - طبقةً بالأندلس ؛ لا يقوم له أحد فيها ؛ فغلب الأذفنش غلبةً ظاهرةً لجميع الحاضرين ، لم يكن للعلج فيها مطعن ؛ فلما حقت الغلبة قال له ابن عمار : هل صحَّ أن لى حكى ؟ قال : نعم ، فما هو ؟ قال : أن ترجع من ههنا إلى بلادك ! فاسودَّ وجه العلج وقام وقعد ، وقال لخواصه : قد كنت أخاف من هذا حتى هوّنتموه علىّ ! في أمثال لهذا القول ؛ وهم بالتكث والتأدى لوجهه ، فقبحوا ذلك عليه ، وقالوا له : كيف يَجْمُلُ بك الغدر وأنت ملكُ ملوكِ النصرارى في وقتك ! فلم يزالوا به حتى سكن ، وقال لا أرجع حتى آخذ أتاوة عامين خلاف هذه السنة ! فقال ابن عمار : هذا كله لك ! وجاءه بما أراد ، فرجع وكفَّ الله بأسه ، ودفعه بحوله وحُسن دفاعه عن المسلمين ؛ ورجع ابن عمار إلى إشبيلية وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به .

ثم إن المعتمد حدث له أمل في التغلب على مُرسية وأعمالها ، وهى التى تُعرف بِتُدْمِير^(١) ؛ وكانت بيد أبي عبد الرحمن محمد بن طاهر ، كان هو

(١) تدمير : كورة في شرق الأندلس قاعدتها مرسية ، وكان يحكمها قبل الفتح العربى امير قوطى من قرابة لذرير اسمه تبودمير Thodmir وكان له مع العرب ابان الفتح قصة من اطرف قصص المقاومة ، وباسم هذا الامير سمي العرب هذه الكورة ، وقيل بل سموها تدمير تشبيها لها بتدمير من بلاد الشام . اما مرسية فمدينة مستحذنة بعد الفتح العربى ، بناها العرب فى زمن عبد الرحمن بن الحكم سنة ٢٠٩ للهجرة ، ثم ازدادت عمراناً واصبحت من حواضر الأندلس فى زمن عبد الرحمن الناصر وابنه المستنصر (سنة ٣٠٠ الى ٣٦٦) .

المتغلب عليها والمدير لأمرها ؛ فجهاز المعتمد جيوشاً عظيمة ، وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها ؛ فوله ما تولى من ذلك ؛ وخرج ابن عمار حتى نزل على مرسية ، فأخذها وأخرج ابن طاهر عنها^(١) ؛ فلحق ابن طاهر حين خرج من مرسية ببني عبد العزيز ببلنسية^(٢) ؛ فكان بها إلى أن مات رحمه الله .

ولما تغلب ابن عمار على مرسية دار ملك بني طاهر كما ذكرنا ، حدثته نفسه وسؤل له سوء رأيه أن يستبد بأمره ، وأن يضبط تلك البلاد لنفسه ؛ فلم يزل يصرف الحيلة في ذلك إلى أن تم له بعضه ودانت له مرسية وأعمالها

= ولما نشبت الفتنة وتمزقت وحدة الأندلس ، ، استقل بمرسية فتى من موالى المنصور بن ابي عامر اسمه خيران الصقلي ، وخلفه عليها بعد موته زهير الصقلي العامري أيضا ، فظل يحكمها بضع سنين ، ثم نشبت معركة بينه وبين باديس بن حبوس صاحب غرناطة ، حقت فيها الهزيمة على زهير ، ففر من وجه خصمه الى حيث لا يعلم احد ا وقام في الامر من بعده في مرسية جماعة من ابناء البيوتات بها ، منهم الشيخ ابو بكر احمد بن اسحاق ، وابو بكر احمد بن طاهر ، وغيرهما ، ثم صارت امرتها لاحمد بن طاهر ، ثم من بعده لولده ابي عبد الرحمن محمد بن طاهر ، وفي عهده بدا للمعتمد بن عباد صاحب اشبيلية أن يستولى عليها ويضمها الى ملكه ، وكان شاعره ابن عمار على رأس الحملة ، ويقود جنده الأمير عبد الله بن رشيق ، فتغلب ابن عمار على المدينة ، وخلع أميرها ابن طاهر ، ثم بدا له أن يستولى عليها لنفسه .
وكان ابن عمار على ولاء مع الأدفونش السادس ملك قشتالة ، ولعله كان ينتظر منه معونة على ذلك ، ولكن الأمور سارت على غير ما أراد . . .

(١) يذكر بعض المؤرخين أن ابن عمار اعتقله في قلعة مونت قوط ، ثم عاد فقتله ، ولكن الفتح بن خاقان يذكر في القلائد أنه شهد وفاته سنة ٥٠٧ في بلنسية وقد جاوز التسعين ، ويذكر الى ذلك ما يفيد أنه كان في وقت ما معتقلا في مونت قوط .

(٢) بلنسية : حاضرة من حواضر الأندلس الكبرى ، متصلة بالبحر والجبل ، وكانت قاعدة الحكم في شرق الأندلس أيام بني أمية ، فلما كانت الفتنة استقل بها صقليان من موالى المنصور ابن ابي عامر ، هما : مبارك ومظفر ، فتقاسما سلطنتها ، مات أولهما ، وثار الأهالي بالآخر فطردوه ، وبايعوا صقليا آخر من العامريين اسمه لبيب ، ثم آل أمر بلنسية الى عبد العزيز بن عبد الرحمن ، من أحفاد المنصور بن ابي عامر ، فطالت مدته بها ، انظر ص ١٢٥ . ثم خلفه المظفر ابن عبد العزيز ، وهو الذي لجأ اليه ابن طاهر حين أخرجه ابن عمار عن بلنسية .

وطمع في ملك بلنسية ؛ إلى أن قام عليه رجل من أهل مرسية يقال له ابن رشيق ، كان أبوه من عُرَقاء الجند بها^(١) ؛ وكان ابن عمار قد خرج لبعض أمره ، فدعا ابن رشيق هذا إلى نفسه ، وقامت معه العامة وبعض الجند ، فسمع ابن عمار بذلك ، فجاء يركض حتى أتى المدينة وقد غلقت أبوابها دونه ؛ فحاصرها بمن معه أياماً ، فامتنعت عليه ولم يقدر على دخولها ؛ فبقي حائراً لا يدري ما يصنع ولا أين يتوجه ؛ وقد كان بلغ المعتمد قيامه عليه وخلع يده من طاعته ، فلم ير إلا الهروب ملجأً ، فهرب حتى لحق ببني هود بسرْقُسطة^(٢) ، فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافوا غائلته : وبغضه في عيونهم ما فعل مع صاحبه وولى نعمته ، فأخرجوه عن بلادهم .

ولم تزل البلاد تتقاذفه ، وملوكها تَشَنُّوه ، إلى أن وقع في حصن من حصون الأندلس في غاية المنعة يدعى شقورة^(٣) ، كان المتغلب عليه رجلاً يقال له ابن مبارك ، فأكرم وفادته وأحسن نزله^(٤) ، ثم بدا له بعد أيام فقبض عليه وقيده وجعله في سجنه ؛ فلما رأى ابن عمار ذلك منه قال له :

(١) مو - فيما نظن - عبد الله بن رشيق الذي ذكرنا في التعليق رقم ١ ص ١٨٠ انه كان قائد الجند مع ابن عمار في حملته على مرسية .

(٢) كان أميرها وقتئذ هو المؤمن ابن هود .

(٣) شقورة : حصن كالمدينة ، عامر بأهله ، شمالي مرسية ، وهو رأس جبل عظيم متصل منبع النهر ، ويخرج من أسفله نهران ، أحدهما النهر الكبير الذي يمر بقرطبة ، والثاني هو النهر الأبيض الذي يمر ببلنسية . قال ياقوت : وكان بها دار إمارة همشك .

(٤) رواية ابن خاقان في القلائد ، أن ابن عمار لما لجأ إلى المؤمن ابن هود ، زودوه بمال ، وأرسله على رأس طائفة من الجند إلى شقورة ليفتحها ، فقصد إليها وهو يظن أن سيملكها ، فلما بلغها احتال عليه صاحبها وأظهر له المودة ودعاه إلى النزول عنده ، فلما صار في يده وقد تفرق عنه أصحابه أثقله بالحديد !

لا عليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس بكوفى عندك وتعرضني عليهم ،
فما منهم إلا من يرغب في ؛ فمن كان أشدهم رغبة جعل لك مالا ووجهت
في إليه ! ففعل ابن مبارك ذلك ، فما عرضه على أحد من ملوك الأندلس !
إلا رغب فيه ؛ وكتب فيمن كتب إلى المعتمد ...

وفي ذلك يقول ابن عمار :

أصبحت في السوق يُنادى على رأسي بأنواع من المال
والله ما جاز على مالي من ضمني بالثمن الغالي !

. وفي هذا السجن يقول ابن عمار وقد استدعى نورة يستنظف بها
فتعذرت عليه ، فاستدعى موسى فأتى بها ؛ فقال في ذلك :

بُؤْسَى شَقُورَةٌ عِنْدِي أَرَبَى عَلَى كُلِّ بُؤْسَى
فقدت «هارون»^(١) فيها فظلت أطلب «موسى»

وبعث المعتمد على الله من رجاله من تسلّم ابن عمار من يد ابن مبارك ،
بعد أن بعث إليه بمال وخيل ، وأمر المعتمد الذين تسلموا ابن عمار أن
يزيدوا في الاحتياط عليه وتقييده ، فخرجوا به حتى وافوا قرطبة ، ووافق
ذلك كون المعتمد بها ، فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه ، على بغل
بين عدلى تبين ، وقيوده ظاهرة للناس ؛ وقد كان المعتمد أمر بإخراج الناس
خاصة وعامة حتى ينظروا إليه على تلك الحال ؛ وقد كان قبل هذا إذا دخل
قرطبة اهتزت له وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم وروساؤهم ، فالسعيد

(١) يعنى بهارون : اخا يؤازره !

منهم من يصل إلى تقبيل يده أو يردُّ عليه ابنُ عمار السلام ، وغيرُهم لا يصل إلا إلى تقبيل رِكابه أو طرف ثوبه ، ومنهم من ينظر إليه على بعد لا يستطيع الوصول إليه ؛ فسبحان مُحيل الأحوال ومُديل الدول !

فدخل ابن عمار قرطبة كما ذكرنا ، بعد العزة القعساء والملك الشامخ والرياسة الفارعة ، ذليلاً خائفاً فقيراً لا يملك إلا ثوبه الذي عليه ؛ فسبحان من سلبه ما وهبه ، ومنعه ما كان به أمتعّه .

وأخبر بعض الموكلين به ما اتفق لهم معه من فرط ذكائه وسرعة فطنته قال : لما قُرُبنا من قرطبة بحيث يرانا الناس ، خرج فارسٌ من البلد يركض يقصدنا ، فلما رآه ابن عمار - وكان معتمداً - أزال العمامة عن رأسه ، فجاء الفارس حتى وصل إلينا ، فنظر إلى ابن عمار ودخل معنا في الصف فمشى ، فسألناه فيم جاء ؟ فقال : الذي جئتُ فيه صنعه هذا الرجل قبل أن أصل إليه ! فعلمنا أنه أرسل ليزيل عمامته .

فأدخل على المعتمد على الله على الحالة التي ذكرت ، يرسف في قيوده ؛ فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونعمه ، وابن عمار في ذلك كله مطرقٌ لا ينبس ، إلى أن انقضى كلام المعتمد ؛ فكان من جواب ابن عمار أن قال : ما أنكر شيئاً مما يذكره مولانا أبقاه الله ، ولو أنكرته لشهدت على به الجمادات فضلاً عن ينطق ؛ ولكني عثرتُ فأقل ، وزلتُ فاصفح !

فقال المعتمد : هيهات ؛ إنها عشرة لا تقال !

وأمر به فأحدر في النهر إلى إشبيلية ، فدُخل به إشبيلية على الحال التي

دخل عليها قرطبة ، وجعل في غرفة على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك - وهو باق إلى وقتنا هذا - فطال سجنه هناك .

كُتِبَتْ عنه في هذا السجن قصائد لو توَّسل بها إلى الدهر لنزع عن جوره ، أو إلى الفلك لكفَّ عن دوره ؛ فكانت رُقَى لم تنجع ، ودَعَوَاتٍ لم تُسمع ، وتماثم لم تنفع ؛ فمنها قوله :

سجايك إن عافيت أنلَى وأسجح وعذرك إن عاقبتَ أجلى وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزية فأنت إلى الأدنى من الله تنجح
حنانيك في أخذى برأيك ، لا تُطع
عداى ولو أثنوا عليك وأفصحوا

فإن رجائي أنَّ عندك غير ما يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد أسلفتُ ودا وخدمة يكرآن في ليل الخطايا فيصبح
وهبني وقد أعقبتُ أعمال مُفسدٍ أما تفسدُ الأعمالُ ثُمَّتَ تصلح
أقلني بما بيني وبينك من رضى له نحو روح الله بابٌ مفتَح
وعفَّ على آثار جُرمٍ سلكتُها بهبة رَحْمَى منك تمحو وتمصيح
ولا تلتفتُ قول الوشاة ورأيهم فكلُّ إناءٍ بالذى فيه يرشَحُ
سيأتيك في أمرى حديثٌ وقد أتى بزور بنى عبد العزيز موَّشَحُ^(١)
وما ذاك إلا ما علمتُ فإننى إذا تُبت لا أنفك آسو وأجرح

(١) يعنى اصحاب بلسية . انظر التعليق رقم ٢ ص ١٨١

كَأَنِّي بِهِمْ لَا دَرَّ لِلَّهِ دَرَهُم أَشَارُوا تَجَاهِي بِالشَّمَاتِ وَصَرَحُوا
 وَقَالُوا سَيَجْزِيهِ فَلَانٌ بِفَعْلِهِ فَقُلْتُ وَقَدْ يَعْفُو فَلَانٌ وَيَصْفَحُ
 أَلَا إِنْ بَطْشًا لِلْمُوَيْدِ يَرْمِي وَلَكِنْ حُلْمًا لِلْمُوَيْدِ يَرْجَحُ
 وَمَا عَسَى الْوَاشُونَ أَنْ يَتَزَيَّدُوا سَوَى أَنْ ذَنْبِي وَاضِحٌ مُتَصَحِّحُ
 نَعَمْ لِي ذَنْبٌ غَيْرُ أَنْ لِحْلَمِهِ صِفَاءٌ يَزِلُّ الذَّنْبَ عَنْهَا فَيَسْفَحُ
 عَلَيْهِ سَلَامٌ كَيْفَ دَارَ بِهِ الْهَوَى إِلَيَّ فَيَلْدُنُو أَوْ عَلَيَّ فَيَنْزَحُ
 وَيَهْنِيهِ إِنْ مُتُّ السُّلُوُ فَإِنِّي أَمُوتُ وَلِي شَوْقٌ إِلَيْهِ مُبْرَحُ
 وَبَيْنَ ضُلُوعِي مِنْ هَوَاهُ تَمِيمَةٌ سَتَنْفَعُ لَوْ أَنَّ الْحَمَامَ يَجْلَحُ

ولما بلغت المعتمد هذه القصيدة وأنشدت بين يديه ، كان بحضرته رجل
 من البغداديين ، فجعل يُزري على هذا البيت « وبين ضلوعي ... » ويقول
 ما أراد بهذا المعنى ؟ فكان من جواب المعتمد - رحمه الله - أن قال : أما لئن
 سَلَبَهُ اللهُ المَرْوَعَةَ والوفاء ، لَمَا أَعَدَمَهُ الفِطْنَةُ والذكاء ، إنما نظر إلى بيت
 الهذلي من طرف خفي ، وهو :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ !

[قتل ابن عمار]

ولم يزل ابن عمار هذا بسجن المعتمد إلى أن قتله صبراً في شهر
 سنة ٤٧٩ .

وتلخيص خبر قتله ، أنه لما طال سجنه كتب إليه بالقصيدة التي تقدم

إنشادها ، فأدركت المعتمد بعض الرقة ، فوجه إليه ليلاً وهو في بعض مجالس أنسه ، فأثى به يرسف في قيوده ، فجعل المعتمد يعدد مننه عليه وأياديه قبله ، فلم يكن لابن عمار جواب ولا عذر ، غير أنه أخذ في البكاء ، وجعل يترقق للمعتمد ويمسح عطفيه ويستجلب من الألفاظ كل ما يقدر إنه يزرع له الرأفة في قلب المعتمد ؛ فتم له بعض ما أراد من ذلك ، وعظفت المعتمد عليه سابقته وقد يم حرمته ؛ فقال له قولاً يتضمن العفو عنه تعريضاً لا صريحاً : وأمر برده إلى محبسه ...

فكتب ابن عمار من فوره بما دار له مع المعتمد إلى ابنه الراضى بالله ، فوافاه الكتاب وبحضرته قومٌ كانت بينهم وبين ابن عمار إحنٌ قديمة ؛ فلما قرأ الراضى الكتاب قال لهم : ما أرى ابن عمار إلا سيتخلص ؛ فقالوا له : ومن أين علم مولانا ذلك ؟ فقال : هذا كتاب ابن عمار يُخبرني فيه أن مولانا المعتمد قد وعده بالخلاص ؛ فأظهر القوم الفرح وهم يبطنون غيره ...

فلما قاموا من مجلس الراضى نشروا حديث ابن عمار أقبحَ نشر ، وزادوا فيه زياداتٍ قبيحةً صُنّت هذا الكتاب عن ذكرها .

فبلغ المعتمد ذلك ، فأرسل إلى ابن عمار وقال له : هل أخبرتَ أحداً بما كان بيني وبينك البارحة ؟ فأنكر ابن عمار كل الإنكار ، فقال المعتمد للرسول قل له : الورقتان اللتان استدعيتَهما ، كتبتَ في إحداهما القصيدة ،

فما فعلتَ بالأُخرى^(١) ؟ فادعى أَنه بَيَّضَ فيها القصيدة ؛ فقال المعتمد :
هلمَّ المسوِّدة ! فلم يجد جواباً .

فخرج المعتمد حنقاً وبيده الطَّبْرزِينُ حتى صعد الغرفة التي فيها ابن عمار ،
فلما رآه علم أَنه قاتله ، فجعل ابن عمار يزحف وقيوده تُثقله ؛ حتى

(١) يلاحظ أَن السجناء في ذلك الوقت كان يؤذن لهم في الكتابة وتهيأ لهم أسبابها ، فهل يحدث مثل هذا اليوم في بلاد كثيرة !

وقد ذكر ابن خاقان في القلائد ، أَن صاحب شقورة لما كان ابن عمار معتقلاً عنده ، كان يأذن له في الكتابة إلى أصحابه ويأذن لهم في زيارته ومسامرته ، وأثبت لنا من هذا البسبب قصيدة متممة كتب بها ابن عمار إلى صديقه أبي الفضل بن حسداى الشاعر ، يستزيـره في معتقله من حصن شقورة ويصف له بعض ما هو فيه !
وفيها يقول :

أَدْرِكْ أَخَاكَ وَلَوْ بِقَافِيَةٍ كَالطَّلِّ يَوْقُظُ نَائِمَ الزَّهْرِ
فَلَقَدْ تَقَاذَفْتَ الرِّكَابَ بِهِ فِي غَيْرِ مَوَاقِفٍ وَلَا بِحَرِّ

ومنها في وصف الحصن :

عَالُ كَانَ الْجَنِّ إِذْ مَرَدَتْ جَعَلْتَهُ مَرْقَاةً إِلَى النَّسْرِ
وَحَشٌّ تَنَاجَرَتْ الْوُجُوهُ بِهِ حَتَّى اسْتَرْبَتْ بِصَفْحَةِ الْبَدْرِ
قَصْرٌ تَمَهَّدَ بَيْنَ خَافَقَتَيْنِ نَسْرَيْنِ مِنْ فَلَكَ وَمِنْ وَكْرِ
مَتَجَبِرٌ سَالَ الْوَقَارُ عَلَيْهِ عِظْفِيهِ مِنْ كِبَرٍ وَمِنْ كِبَرِ
مَلَكَتْ عَنَانَ الرِّيحِ رَاحَتُهُ فَجِيَادَهَا مِنْ تَحْتِهِ تَجْرِي

ثم يقول له داعياً إلى مواصلة ، أو مراسلته :

دَعِذَا وَصَلْنَا غَيْرَ مُؤْتَمِرٍ مُسْتَأْثَرًا بِالْحَمْدِ وَالشُّكْرِ
وَاصْبِرْ إِلَيْنَا إِنَّا لَنَبْدُ تَمْحُو الَّذِي كَتَبْتَ يَدُ الدَّهْرِ

انكبَّ على قدحى المعتمد يقبلهما ، والمعتمد لا يثنيه شيء ؛ فعلاه بالطبرزين
الذى فى يده ، ولم يزل يضربه به حتى برَد .
ورجع المعتمد فأمر بغسله وتكفينه ، وصلى عليه ودفنه بالقصر
المبارك ؛ فهذا ما انتهى إلينا من خبر ابن عمار ملخصاً حسبما بقى على
خاطرى .

[رجع الحديث إلى بنى عباد]

ولم يزل المعتمد هذا فى جميع مدة ولايته والأيام تساعد ، والدهر
على ما يريد يوازره ويعاضده ، إلى أن انتظم له فى ملكه من بلاد الأندلس
ما لم ينتظم الملك قبله ، أعنى من المتغلبين ، ودخلت فى طاعته مدن من
مدائنهم أعيت الملوك وأعجزتهم ، وامتدت مملكته إلى أن بلغت مدينة مرسية
وهى التى تُعرف بتُدْمير ، بينها وبين إشبيلية نحو من اثنتى عشرة مرحلة
وفى خلال ذلك مدن متسعة وقرى ضخمة .

وكان تغلبه على قرطبة وإخراجه ابن عكاشة منها يوم الثلاثاء لسبع
بقين من صفر سنة ٤٧١^(١) ، ثم رجع إلى إشبيلية واستخلف

(١) كانت قرطبة بعد زوال الخلافة عنها لبنى جهور ، فطمع المأمون بن ذى النون صاحب
طليطلة فى استخلاصها لنفسه ، فسير جيشه ، ولم يكن ذلك بعيداً من تدبير ابن عباد ، فلما
راى عبد الملك بن جهور تهديد ملكه ، طلب إلى المعتمد بن عباد أن يعينه ، فوافى جيشه قرطبة ،
ونزل بريضها الشرقى . ولم يتم للمأمون ما أراد ، فنزح عن قرطبة ، وخلا الجو بذلك لابن عباد ،
فأحرق جيشه بقصر ابن جهور ، وقبض عليه وعلى أخوته ، وأخرجوا عن قرطبة ، ودخلت
حاضرة الأندلس منذ ذلك اليوم فى ملك ابن عباد ، وصارت تابعة لإشبيلية ، وتولى أمرها
الظافر بن المعتمد ، ولكن أمارتها لم تخلص له طويلاً ، فقد كان أهلها متمسكين بدموة الخلفاء ،

عليها^(١) ولده عبّاداً ولقبه بالمأمون، وهو أكبر ولده، وُلد له في حياة أبيه المعتضد، وسماه عبّاداً، فكان المعتضد يضمه إليه ويقول: يا عبّاد، ياليت شعري من المقتول بقرطبة، أنا أو أنت؟ فكان المقتول بها عبّاداً هذا في حياة أبيه المعتمد وفي السنة التي زال عنهم الملك فيها.

[المرابطون بالأندلس]

ولما كانت سنة ٤٧٩ هـ جاز المعتمد على الله البحر قاصداً مدينة مراکش إلى يوسف بن تاشفين، مستنصراً به على الروم^(٢)؛ فلقبه يوسف المذكور أحسن لقاء، وأنزله أكرم نُزُل، وسأله عن حاجته، فذكر أنه يريد غزو الروم، وأنه يريد إمداد أمير المسلمين إياه بخيل ورجل ليستعين

= ياملون ان تعود مدينتهم حاضرة لخليفة من بنى مروان، فلم تلبث ان ثارت على الظافر، وكان ابن عكاشة على رأس النافرين، فبرز له الظافر ليلاً، منفرداً عن جنده، فلم يزل يدافع النافرين ويدافعونه حتى سقط صريماً، وظل جسده ملقى على الأرض حيث سقط حتى مر بجنته قبيل الصبح أحد الأئمة المفسين، فخلع رداءه عن منكبيه وستره به وأذاع نبأ مصرعه... وبلغ النبا المعتمد في أشبيلية فأوجعه، ولكن فجيعته في ولده لم تلته عن التدبير للكه. فلم يزل يسعى حتى استأصل دعاة الفتنة، وأخرج ابن عائشة عن قرطبة، وجعل ولايتها الى ولده المأمون خلفاً للظافر، فلم يزل والياً عليها حتى فتلته المرابطون يوم دخولهم قرطبة!

(١) يعني على قرطبة.

(٢) كان سبب ذلك أنه لما استولى الأذفونس سنة ٤٧٨ هـ على طليطلة من يد القادر بن ذي النون، قوى سلطانه وعظم أماله في الاستيلاء على أشبيلية وقرطبة وغيرها من قواعد الأندلس، فأجمع ملوك الطوائف - وكبيرهم ابن عبّاد - على أن يستعينوا بيوسف بن تاشفين ملك المغرب، فدعوه لنصرتهم، على ما يراود نفوسهم من خوفه وما يتوقعونه من طمعه في الاستتثار بملك الأندلس دونهم، وقد كان ما توقعوا وتوقع ابن عبّاد معهم، وكانت نكبة المعتمد على يدي نصيره الذي استجار به.

وكما فعل ابن عبّاد ببني جهور حين استعانوه لدفع المأمون بن ذي النون عن قرطبة فنكبهم واستخلصها لنفسه، فعل يوسف بن تاشفين ببني عبّاد.

هم في حربه ؛ فأُسرع أمير المسلمين المذكور إجابته إلى ما دعاه إليه ؛ وقال له : أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ، ولا يتولى هذا الأمر أحدٌ إلا أنا بنفسى !

فرجع المعتمد إلى الأندلس مسروراً بإسعاف أمير المسلمين إياه في طلبته ، ولم يدر أن تدميره في تدبيره ؛ وسلّ سيفاً يحسبه له ولم يدر أنه عليه ؛ فكان كما قال أبو فراس :

إذا كان غيرُ الله للمرءِ عُدَّةٌ أتته الرزايا من وجوه الفوائد
كما جَرَّتْ الحنفاءُ حتفَ حُذيفةٍ وكان يراها عُدَّةٌ للشدائد^(١)

فأخذ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في أهبة العبور إلى جزيرة الأندلس ؛ وذلك في شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة ، فاستنفر من قدر على استنفاره من القواد وأعيان الجند ووجوه قبائل البربر ؛ فاجتمع له نحو من سبعة آلاف فارس في عدد كثير من الرجل ؛ فعبر البحر بعسكر ضخم ، وكان عبوره من مدينة سبتة ؛ فنزل المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، وتلقاه المعتمد في وجوه أهل دولته ، وأظهر من بره وإكرامه فوق ما كان يظنه أمير المسلمين ، وقدم إليه من الهدايا والتحف والذخائر الملوكية ما لم يظنه يوسف عند ملك ؛ فكان هذا أول ما أوقع في نفس يوسف التشوف إلى مملكة جزيرة الأندلس .

(١) الحنفاء : فرس حذيفة بن بدر الغزاري، وكانت مباراته بها سببا الى شر كثير بين عباس وذييان ، وحروب استمرت سنين ، وكان فيها مقتل حذيفة يوم الهبأة - انظر التعليق رقم ٤ ص ١٣١ .

ثم إنه فصل عن الخضراء بجيوشه قاصداً شرق الأندلس ، وسأله المعتمد خولاً إشبيلية دارَ ملكه ليستريح فيها أياماً حتى تزول عنه وعشاء السفر ثم يقصد قصده ، فأبى عليه وقال : إنما جئت ناوياً جهاد العدو ، فحيثما كان العدو توجهت وجهه .

وكان الأذفنش^(١) - لعنه الله - محاصراً لحصن من حصون المسلمين يعرف بحصن الليط ؛ فلما بلغه عبور البربر أقلع عن الحصن راجعاً إلى بلاده مستنقراً عساكره ليلقي بهم البربر .

وتوجه يوسف المذكور إلى شرق الأندلس يقصد ذلك الحصن المحاصر ، والإصلاح بين المعتمد على الله وبين رجل كان تغلب على مرسية يقال له ابن رشيق قد تقدم ذكره في أخبار ابن عمار^(٢) ؛ فأصلح بينهما يوسف أمير المسلمين على أن يخرج له ابن رشيق عن مرسية ، ويعوضه المعتمد عن ذلك مالاً يجعله له ، ويوليه في جهة إشبيلية ولاية ؛ فأجاب ابن رشيق إلى ذلك ؛ وتسلم المعتمد مرسية وأعمالها .

ولقي يوسف أمير المسلمين ملوك الأندلس الذين كان عليهم طريقه ، كصاحب غرناطة (٣) ، والمعتصم بن صمادح صاحب المرية ، وابن عبدالعزيز أبو بكر صاحب بلنسية .

(١) هو الفونس السادس ملك قشتالة .

(٢) لم تخلص امرة مرسية لواحد بعد خروج ابن عمار عنها ، بل كانت دولة بين امراء عدة .
وانظر ص ١٨١

(٣) هو ابن باديس عبد الله بن بلكين الصنهاجي .

[وقعة الزلّاقة]

ثم إن يوسف المذكور استعرض جنده على حصن الرقة ؛ فرأى منهم ما يسره ، فقال للمعتمد على الله : هلمّ ما جئنا له من الجهاد وقصد العدو ؛ وجعل يُظهر التأفف من الإقامة بجزيرة الأندلس ، ويتشوّق إلى مراكش ، ويصغّر قدر الأندلس ، ويقول في أكثر أوقاته : « كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيماً قبل أن نراها ، فلما رأيناها وقعت دون الوصف ! » وهو في ذلك كله « يُسرّ حسواً في ارتقاء ^(١) » فخرج المعتمد بين يديه قاصداً مدينة طليطلة

واجتمع للمعتمد أيضاً جيش ضخم من أقطار الأندلس ؛ وانتدب الناس للجهاد من سائر الجهات ، وأمدّ ملوك الجزيرة يوسف والمعتمد بما قدروا عليه من خيل ورجال وسلاح ، فتكامل عدد المسلمين من المتطوعة والمرتزقة زهاء عشرين ألفاً ؛ والتفّوا هم والعدو بأول بلاد الروم .

وكان الأذفنش - لعنه الله - قد استنفر الصغير والكبير ، ولم يدع في أقاصي مملكته من يقدر على النهوض إلا استنهضه ، وجاء يجر الشوك والشجر ؛ وإنما كان مقصوده الأعظم قطع تشوّف البرابرة عن جزيرة الأندلس والتهيب عليهم ؛ فأما ملوك الأندلس فلم يكن منهم أحدٌ إلا يودى إليه الإتاوة ، وهم كانوا أحقر في عينه وأقل من أن يحتفل لهم !

(١) « يسر حسوا في ارتقاء » : مثل يضرب لمن يريد أن يمينك وهو إنما يقصد النفوس لنفسه ، كشأن من يؤتى بوعاء من اللبن فيظهر أنه يريد الرغوة ^{الخفيفة} لا يريد غيرها ، وهو في أثناء ارتقاؤه يحسو اللبن جرعة جرعة !

ولما تراءى الجمعان من المسلمين والنصارى ، رأى يوسف وأصحابه أمراً عظيماً هالهم ؛ من كثرة عددٍ ، وجودة سلاحٍ وخيلٍ ، وظهور قوة ؛ فقال للمعتمد : ما كنت أظن هذا الخنزير - لعنه الله - يبلغ هذا الحد !

وجمع يوسف أصحابه وندب لهم من يعظهم ويذكرهم ؛ فظهر منهم من صدق النية والحرص على الجهاد واستسهال الشهادة ما سرَّ به يوسف والمسلمون .

وكان ترائيهم يوم الخميس ، وهو الثاني عشر من شهر رمضان ؛ فاختلفت الرسلُ بينهم في تقرير يوم الزحف ليستعدَّ الفريقان ؛ فكان من قول الأدفنش لعنه الله : الجمعة لكم ، والسبت لليهود . وهم وزراؤنا وكتائبنا وأكثُرُ خدم العسكر منهم فلا غنى بنا عنهم ، والأحد لنا ؛ فإذا كان يوم الاثنين كان ما نريده من الزحف .

وقصد - لعنه الله - مخادعة المسلمين واغتيالهم ، فلم يتم له ما قصد... فلما كان يوم الجمعة تأهب المسلمون لصلاة الجمعة ولا أمارة عندهم للقتال ، وبني يوسف بن تاشفين الأمر على أن الملك لا تغدر ؛ فخرج هو وأصحابه في ثياب الزينة للصلاة ؛ فأما المعتمد فإنه أخذ بالحزم . فركب هو وأصحابه شاكي السلاح ، وقال لأمير المسلمين : صلِّ في أصحابك فهذا يومٌ ما تطيب نفسي فيه ، وها أنا من ورائكم ؛ وما أظن هذا الخنزير إلا قد أضمر الفتك بالمسلمين .

فأخذ يوسف وأصحابه في الصلاة ، فلما عقدوا الركعة الأولى ثارت في وجوههم الخيل من جهة النصارى ، وحمل الأدفنش - لعنه الله - في أصحابه

يظن أنه قد انتهر الفرصة ؛ وإذا المعتمد وأصحابه من وراء الناس ، فأغنى ذلك اليوم غنائاً لم يُشْهَد لأحد من قبله ؛ وأخذ المرابطون سلاحهم فاستووا على متون الخيل ، واختلط الفريقان ؛ فأظهر يوسف بن تاشفين وأصحابه من الصبر وحسن البلاء والثبات ما لم يكن يحسبه المعتمد ؛ وهزم الله العدو ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم في كل وجه ، ونجا الأدفنش - لعنه الله - في تسعة من أصحابه^(١) ؛ فكان هذا أحد الفتوح المشهورة بالأندلس ، أعز الله فيه دينه وأعلى كلمته وقطع طمع الأدفنش لعنه الله - عن الجزيرة ، بعد أن كان يقدر أنها في ملكه وأن رؤوسها خدم له ؛ وذلك كله بحسن نية أمير المسلمين .

وتسمى هذه الواقعة عندهم وقعة الزلاقة : وكان لقاء المسلمين عدوهم كما ذكرنا في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان الكائن في سنة ٤٨٠هـ^(٢) ورجع يوسف بن تاشفين وأصحابه عن ذلك المشهد منصورين مفتوحاً لهم وبهم^(٣) ؛ فسرّ بهم أهل الأندلس ، وأظهروا التيمن بأمير المسلمين والتبرك به ، وكثر الدعاء له في المساجد وعلى المنابر ، وانتشر له من الثناء بجزيرة الأندلس ما زاده طمعاً فيها ؛ وذلك أن الأندلس كانت قبله بصدد التلّاف من استيلاء النصارى عليها وأخذهم الإتاوة من ملوكها

(١) لم يتفق مؤرخو هذه الواقعة في تحديد عدد الناجين مع الأدفنش من عسكره ، وإن كانوا مجمعين على أن جيشه قد باد كله ، فادة وجنوداً ، إلا قلة لا يكاد يخطئها الإحصاء ، وأصيب الأدفنش نفسه في إحدى ركبتيه إصابة لزمه أمرها ما بقى من حياته !

(٢) كذا بالأصل ، وأكبر المؤرخين على أن وقعة الزلاقة كانت سنة ٤٧٩ في منتصف رجب ، أو في أوائل رمضان .

(٣) قالوا : وقد عف يوسف بن تاشفين عن الغنائم فلم يأخذ شيئاً منها يومئذ وأثر بها ملوك الأندلس !

قاطبة ؛ فلما هز الله القعدو وهزمه على يد أمير المسلمين ، أظهر الناس إعظامه ونشأ له الود في الصدور .

ثم إنه أحب أن يجول في الأندلس على طريق التفرج والتنزه ، وهو يريد غير ذلك ؛ فجال فيها ونال من ذلك ما أحب ، وفي خلال ذلك كله يُظهر إعظام المعتمد وإجلاله ، ويقول مصرحاً : إنما نحن في ضيافة هذا الرجل وتحت أمره وواقفون عند ما يحده .

[بين المعتصم بن صمادح والمعتمد بن عباد]

وكان ممن اختص بأمير المسلمين من ملوك الجزيرة وحظي عنده واشتدّ تقريبُ أمير المسلمين له : أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح المعتصم صاحب المربة^(١) .

وكان المعتصم هذا قديماً الحسد للمعتمد كثير النفاسة عليه ؛ لم يكن في ملوك الجزيرة من يناويه غيره ، وربما كانت بينهما في بعض الأوقات مراسلات قبيحة ، وكان المعتصم يعيبه في مجالسه وينال منه ، ويمنع المعتمد من فعل مثل ذلك مروءته ونزاهة نفسه وطهارة سريرته وشدة ملوكيته . وقد كان المعتمد قبل عبور أمير المسلمين بيسير توجه إلى شرق الأندلس

(١) المربة : مدينة على ساحل البحر الرومي ، كانت قاعدة الأسطول الاسلامي ، وكان بها خيران العامري من ملوك الطوائف ، ثم زهير من بعده ، فلما هلك زهير آلت الى عبد العزيز بن ابي عامر صاحب بلنسية ، وغلبه عليها غدر صهره ووزيره معن بن صمادح والد المعتصم المذكور ، فاستتب له الامر بها وأورثها خلفه المعتصم ...

يتطوَّف على مُملكته ويَطالِع أحوال عماله ورعيته ؛ فلما داني أول بلاد المعتمد خرج إليه في وجوه أصحابه ، وتلقاه لقاء نبيلًا ، وعزم عليه ليدخلن بلاده ؛ فأتى المعتمد ذلك ، ثم اتفقا بعد طول مُراودة على أن يجتمعا في أول حدود بلاد المعتمد وآخر حدود بلاد المعتمد ، فكان ذلك واصطُلحا في الظاهر ؛ واحتفل المعتمد في إكرامه ، وأظهر من الآلات السلطانية والذخائر الملوكية المعدَّة لمجالس الأنس ما ظنَّه مُكمِّدًا للمعتمد مُثيرًا لغمِّه ؛ وقد أعاد الله المعتمد من ذلك وصان خُلقه الكريم عنه وعَصَمَه بفضله منه ؛ ثم افترقا بعد أن أقام المعتمد عنده في ضيافته ثلاثة أسابيع ، ورجع المعتمد إلى بلاده ؛ وبأثر ذلك عبر إلى مراکش ولم يزل ما بينه وبين المعتمد معمورًا ، إلى أن عبر أمير المسلمين كما ذكرنا ، فلقبه المعتمد بهدايا فاخرة وتُحف جليلة ، وتلطَّف في خدمته حتى قرَّبه أمير المسلمين أشدَّ تقريب ، وكان يقول لأصحابه : هذان رَجُلَا هذه الجزيرة ! يعنى المعتمد والمعتمد ؛ وكان أكبر أسباب تقريب أمير المسلمين إياه ، ثناء المعتمد عليه عند أمير المسلمين ، ووصفه إياه عنده بكل فضل ؛ ولم يكن المعتمد بعيدًا من أكثر ما وَصَفَه به .

ولما اشتدَّ تمكُّنُ المعتمد من أمير المسلمين ، بدا له أن يسعى في تغيير قلبه على المعتمد وإفساد ما بينهما ؛ حَسَّن له ذلك سوء رأيه ودَنَسُ سريره وضعفُ بصره بعواقب الأمور ، وليَقْضِ الله أمرًا كان مفعولا ، وليبلغ القَدَر ميقاته ؛ وإذا أراد الله تمامَ أمر هَيَأَ له أسبابًا ، فشرع المعتمد فيما أراد

من ذلك ؛ ولم يدر أنه ساقط في البئر التي حَفَرَ ، وقتيل بالسلاح الذي
شَهَرَ (١) ...

فكان من جملة ما ألقى إلى أمير المسلمين ، أن جعل يُقرر عنده عَجَب
المعتمد بنفسه ، وفَرَطَ كبره ، وأنه لا يرى أحداً كفوًا له ؛ وزعم أنه
قال له في بعض الأيام وقد قال له المعتصم : طالت إقامة هذا الرجل بالجزيرة
– يعنى أمير المسلمين – : « لو عَوَّجْتُ له إصبعي ما أقام بها ليلة واحدة هو
ولا أصحابه وكانتك تخافُ غائلته ... وأى شئ هذا المسكينُ وأصحابه؟
إنما هم قوم كانوا في بلادهم في جهد من العيش ، وغلاء من السَّعر ، جئنا
بهم إلى هذه البلاد نُطعمهم حِسْبَةَ وائتجارا ، فإذا شبعوا أخرجناهم عنها
إلى بلادهم ...! » إلى أمثال هذا القول من تحقير أمرهم ؛ وأعانه على ذلك
قومٌ من وجود الأندلس ، إلى أن بلغوا ما أرادوه من تغيير قلب يوسف أمير
المسلمين على المعتمد .

(١) آل امر المعتصم هذا مع يوسف بن تاشفين الى مثل ما آل اليه امر ملوك الطوائف
جميعا ، فقد اقتحمت عساكر المرابطين بلاده سنة ٤٨٤ ، وكان في الاحتضار ، فتنفصت عليه
ساعاته الأخيرة ، اذ كان أكثر القتال تحت الذي كان به مضجعه ، قالت أروى حظيته :
« انى لعنده وهو يوصى ، وقد غلب على أكثر يده وسلطانه ، وممسكر أمير المسلمين يومئذ
بحيث نعد خيامهم ونسمع اختلاط اصواتهم ، اذ سمع وجبة من وجباتهم ، فقال : لا اله الا الله!
نقص علينا كل شئ حتى الموت ! » قالت أروى : فلا أنسى طرفا الى يرفعه ، وانشاده لى بصوت
لا اكاد اسمعه :

تَرَقَّقْ بدمعك لا تُفْنِه فبين يديك بكاء طويل !

وكان ذلك في ربيع الاول سنة ٤٨٤ قبل انزال المعتمد عن عرش اشبيلية ببضعة اشهر !
وكذلك كانت آخرة غيره من ملوك الطوائف : بنى هود بسرقسطة ، وبنى طاهر بمرسية ،
وبنى الافطس ببطليوس ... ثم كانت آخرة بنى عباد كما سيأتى !

وقد كان أمير المسلمين ضَرْبَ لنفسه ولأصحابه أَجلاً وَحَدَّ له ولهم مدَّةٌ يقيمونها في الجزيرة لا يزدون عليها ؛ وإنما فعل ذلك تطييباً لقلب المعتمد وتسكيناً لخطره ؛ فلما انقضت تلك المدَّة أو قاربت ، عَبَّرَ أمير المسلمين إلى العدو وقد وَغَرَ صدره وتغيرت نفسه .

وما النفس إلا نطفةٌ في قرارة إذا لم تُكَدَّرْ كان صفواً غديرها
هذا مع ما ذكرنا من طمعه في الجزيرة وتشوِّفه إلى مملكتها . وظهرت للمعتمد قبل عبوره أشياء عَرَفَ بها أنه غَيَّرَ عليه !

[نكبة بنى عباد]

ورجع أمير المسلمين إلى مراکش وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم المُقْعِدِ ؛ فبلغني أنه قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه : كنت أظن أني قد ملكت شيئاً . فلما رأيت تلك البلاد صَغُرَتْ في عيني مملكتي ؛ فكيف الحيلة في تحصيلها ؟

فاتفق رأيُه ورأى أصحابه على أن يرأسوا المعتمد يستأذنونه في رجالٍ من صلحاء أصحابهم رَغِبُوا في الرِّبَاطِ بالأندلس ومُجاهدة العدو والكُوفِ بِبعض الحصون المصاقيبة للروم إلى أن يموتوا ؛ ففعلوا ، وكتبوا إلى المعتمد بذلك . فأذن لهم . بعد أن وافقه على ذلك ابنُ الأَفسس المتوكل صاحبُ الثغور ؛ وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قومٌ من شيعتهم مبثوثين

بالجزيرة في بلادها ، فإذا كان أمرٌ من قيام بدعوتهم أو إظهارٍ لمملكتهم وجدوا في كل بلد لهم أعواناً^(١) .

[استيلاء المرابطين على الأندلس]

وقد كانت قلوب أهل الأندلس - كما ذكرنا - قد أشربت حب يوسف وأصحابه ، فجهز يوسف من خيار أصحابه رجالا انتخبهم ، وأمر عليهم رجلا من قرابته يسمى بلجيين ، وأسر إليه ما أراد ، فجاز بلجيين المذكور وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة فقال له : أين تأمرني بالكون ؟ فوجه معه المعتمد من أصحابه من يُنزل به بعض الحصون التي اختارها لهم ، فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه . وأقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على المعتمد . وكان مبدؤها في شوال من سنة ٤٨٣ بأخذ جزيرة طريف المقابلة لطنجة من العدو ، دون مقدمة ظاهرة توجب ذلك ، فتشعبت جموعه وأهواؤها ملتزمة ، وانتشرت بلاده وقلوب أهلها على محبته منتظمة .

ولما أخذ المرابطون جزيرة طريف ونادوا فيها بدعوة أمير المسلمين ، انتشر ذلك في الأندلس ، وزحف القوم الذين قدمنا ذكرهم ، الكائنون في الحصون ، إلى قرطبة ؛ فحاصروها وفيها عباد بن المعتمد الملقب بالمأمون ، وقد تقدم ذكره^(٢) وهو من أكبر ولده ؛ فدخلوا البلد ، وقتل عباد هذا بعد أن أبلى عذراً ، وأظهر في الدفاع عن نفسه جلدًا وصبراً ؛ وذلك في مستهل

(١) « الطابور الخامس » في إسبانيا منذ تسعة قرون ١

(٢) انظر ص ١٩٠ .

صفر الكائن في سنة ٤٨٤ ؛ فزادت الإحنة والمحنة ، واستمرت في غلوائها
الفتنة .

[ثورة إشبيلية]

وأجمعت على الثورة بحضرة إشبيلية طائفة ، فأعلم المعتمد بما اعتقدته
الطائفة المذكورة ، وكُشف له عن مرادها ، وأُثبت عنده سوء اعتقادها ،
وأغرى بتمزيق أديمها وسفك دماها ، وحُض على هتك حريمها وكشف
حُرْمها ؛ فأبى له ذلك مجده الأثيل ، ورأيه الأصيل ، ومذهبه الجميل ،
وما حباه الله به من حسن اليقين ، وصحة العقل والدين ؛ إلى أن أمكنتهم
الغرة يوم الثلاثاء منتصف رجب من السنة المذكورة ، فقاموا بجيش غير
مستنصر ، واستنسروا بُغاثاً غير مستنسر ؛ فبرز هو من قصره ، سيفه
بيده^(١) ، وغلالاته ترف على جسده ، لا ذرقة له ولا درع عليه ؛ فلقى على
باب من أبواب المدينة يسمى باب الفرج ، فارساً من الداخلين مشهور
النجدة شاكي السلاح ، فرماه الفارس برمح قصير أنابيب القناة ، طويل
شفرة السنان ؛ فالتوى الرمح بغلالاته وخرج تحت إبطه ، وعصمه الله منه ،
ودفعه بفضله عنه ؛ وصب هو سيفه على عاتق الفارس فشقه إلى أضلاعه
فخر صريعاً ، وانهزمت تلك الجموع ، ونزل المتسئمون للأسوار عنها .
وظن أهل إشبيلية أن الخناق قد تنقّس ، فلما كان عصر ذلك اليوم ،
عاودهم القوم ، فظهر على البلد من واديه ، ويئس من سُكنى ناديه ، وبلغ

(١) قالوا : كان في الحمام حين بلغه النبا ، فخرج للغارة في قميصه ٠٠٠١

فيه الأمل حاسده وشانيه ، وشَبَّت النار في شوانيه ، فانقطع عندها الأمل والقول . وذهبت القوة من أيدي أهلها والحول .

[الاستيلاء على إشبيلية]

وكان الذي ظهر عليها من جهة البر ، رجلٌ من أصحاب يوسف أمير المسلمين يُعرف بِحُدَيْر بن واشنو ؛ ومن الوادي رجلٌ يُعرف بالقائد أبي حمامة مولى بني سُجُوت ؛ والتوت الحال أياماً يسيرة ، إلى أن ورد الأمير سِيرُ ابن أبي بكر بن تاشفين - وهو ابن أخي أمير المسلمين - بعساكر متظاهرة ، وحشودٍ من الرعية وافرة ؛ والناس في خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزع ، وخالط قلوبهم الهلع ، يقطعون السبيل سياحة ، ويعبرون النهر سياحة ، ويتولَّجون مجارى الأقدار ، ويترامون من شرفات الأسوار ، حرصاً على الحياة ؛ والموفون بالعهد المقيمون على صريح الوُدِّ، ثابتون ؛ إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة خلت من رجب من السنة المذكورة ، وهذا يوم الكائنة العظمى ، والطامة الكبرى ، فيه حُمَّ الأمر الواقع ، واتسع الخرق على الراقع ، ودُخل البلد من واديه ، وأصيب حاضره وباده ؛ بعد أن جدَّ الفريقان في القتال ، واجتهدت الفئتان في النزال ، وظهر من دفاع المعتمد رحمه الله وبأسه ، وتراميه على الموت بنفسه ، ما لا مزيد عليه . ولاتناه لخلق إليه ؛ وفي ذلك يقول المعتمد بعد ما نزل بالعدوة أسيراً حسيراً :

لما تماسكت الدُموعُ وتنهَّت القلبُ الصَّدِيعُ
قالوا الخضوعُ سياسةٌ فليَبْدُ منك لهم خُضُوعُ

وألذُّ من طعم الخضوع على فمى السُّم النُّقيع
 إن تَسَلَّبَ عَنِ الدُّنَا مُلْكِي وَتُسَلِّمَنِ الْجَمُوعُ^(١)
 فالقلبُ بين ضلوعه لم تُسَلِّمِ القلبَ الضُّلُوعُ
 لم أُسَلِّبْ شَرَفَ الطُّبَا عِائِلُ الشُّرَفِ الرُّفِيعُ
 قد رُمْتُ يَوْمَ نَزَالِهِمْ أَلَا تُحَصِّنُنِي الدُّرُوعُ
 وبرزتُ ليس سوى القميصِ عن الحشا شَيْءُ دَفُوعِ
 وبذلتُ نفسي كي تَسِيلَ إِذَا يَسِيلُ بِهَا النُّجُوعُ
 أَجَلِي تَأَخَّرَ ، لم يكن بِهَوَايَ ذُلِّي وَالْخُشُوعُ
 مَا سِرْتُ قَطُّ إِلَى الْقِتَا لَوْ كَانَ مِنْ أَمَلِي الرُّجُوعُ
 شَيْمُ الْأَلَى أَنَا مِنْهُمْ وَالْأَصْلُ تَتَبِعُهُ الْفُرُوعُ
 فَشُنَّتِ الْغَارَةُ فِي الْبَلَدِ ، وَلَمْ يَتْرَكِ الْبَرَبِرُ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِهَا سَبْدًا وَلَا لَبْدًا ،
 وَانْتَهَبَتْ قُصُورَ الْمُعْتَمِدِ نَهْبًا قَبِيحًا ، وَأَخَذَ هُوَ قَبْضًا بِالْيَدِ^(٢) وَجُبِرَ عَلَى

(١) رواية أخرى لهذا البيت :

إن يسلب القوم العدا ملكي وتسلمني الجموع

(٢) لما صار المعتمد في أيدي البربر من أصحاب ابن تاشفين ، وضوا القيود في يديه ورجليه . قال الفتح بن خاقان في القلائد : « ثم جمع هو وأهله ، وحملتهم الجوارى المنشآت ، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات ، بعد ما ضاق عنهم القصر ، وراق منهم العصر ، والناس قد حنروا بضفتي الوادي ، وبكوا بدموع كالغواصي ، فساروا والنواح يحذوهم ، والبوح باللوعة لا يعدوهم . . . »

وفي ذلك نظم شاعرهم أبو بكر الداني قصيدته التي أولها :

تبكي السماء بمزنٍ رائح غادٍ على البهاليل من أبناء عباد

مخاطبة ابنه : المعتد بالله ، والراضى بالله ، وكانا بمُعَقِّلِينَ من معاقل
الأندلس المشهورة ، لو شاءا أن يمتنعا بهما لم يصل أحدهما ، أحد الحصنين
يسمى رُنْدَة ، والآخر مارتُله ، فكتب [إليهما] رحمه الله ، وكتبت السيدة
الكبرى أمهما ، مستعطفين مسترحمين ، مُعَلِّمين أن دم الكل منهم مُسْتَرَهَنٌ
بثبوتها ؛ فأنفا من الذل ، وأبيا وضع أيديهما في يد أحد من الناس
بعد أبيهما ؛ ثم عطفتهما عواطف الرحمة ، ونظرا في حقوق أبويهما المقترنة
بحق الله عز وجل ، فتمسك كل منهما بدينه ونبت ذنياه ، ونزلا
عن الحصنين بعد عهود مبرمة ، ومواثيق محكمة ؛ فأما المعتد بالله فإن
القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه ، وأما الراضى بالله
فعند خروجه من قصره قُتل غيلةً وأُخفي جسده (١) .

(١) كان المعتد بمارتلة ، والراضى برندة ، وقد كان ثابتهما في المقاومة سببا للتضييق على
أبيهما في محبه وانقاله بالحديد واعناته بالوان من المشقات لاطاقة له باحتماهما ، حتى
اضطره سوء ما يلقى الى الكتابة لهما يدعوهما الى الاستسلام برا به وعظما عليه ، ويروى الفتح
ابن خاقان في القلائد أن ولدا ثالثا للمعتد - واسمه عبد الجبار - ثار باركش : معقل كان
مجاورا لاشبيلية ، فسار نحوه الأمير سير بن أبى بكر بن تاشفين ، فما زال يقاومه اشهرًا وهو
ممنوع بحصنه لا يبلغ منه مبلغا . ثم قال صاحب القلائد يصف حال المعتد حين بلغه ذلك النبا :
انه « جزع جزعا مفرطا ، وعلم انه قد صار فى انشودة الشر متورطا ، وجعل يتشكى من فعله
- يعنى ولده - ويتظلم ، ويتوجع منه ويتالم ، ويقول : عرض بى للمحن ، ورضى لى ان امتحن ،
ورأله ما أبكى الا انكشاف من اتخلفه بعدى ، ويتحيفه بعدى ٠٠٠ إلخ »
وقد لقي هذا النائر مصرعه ، كما لقيه اخواه المأمون والراضى بمارتلة ورندة ، ولقيه من
قبلهم الظافر فى فتنة ابن عكاشة بقرطبة .
وللمعتد شعر كثير فى رثاء ولديه المأمون والراضى ، منه :

يقولون صَبْرٌ ، لا سبيل إلى الصبر سَأْبِكى وأبكى ما تطاول من عمرى
هَوَى الكوكبان الفتح ثم شقيقه يزيدُ ، فهل بعد الكواكب من صبر
افتحُ لقد فتحت لى باب رحمة كما بيزيد الله قد زاد فى أجرى

ورُحل بالمعتمد وآله ، بعد استئصال جميع أحواله ، ولم يصحب من ذلك
كله بُلغة زاد ؛ فركب السفين ، وحلّ بالعدوة محلّ الدفين ؛ فكان نزوله من
العدوة بطنجة ؛ فأقام بها أياماً ، ولقيه بها الحصرى الشاعر^(١) ،
فجرى معه على سوء عادته من قُبْح الكُدْية وإفراط الإلحاف ، فرفع إليه
أشعاراً قديمة قد كان مدحه بها ، وأضاف إلى ذلك قصيدة استجدها عند
وصوله إليه^(٢) ؛ ولم يكن عند المعتمد في ذلك اليوم مما زُوِّدَ به فيما بلغنى
أكثر من ستة وثلاثين مثقالاً ، فطَبَع عليها وكتب معها بقطعة شعر يعتذر

هوى بكما المقدارُ غنى ولم أمتْ وأدعى وفياً ! قد نكصتُ إلى الغدر
- توليتما والسنُّ بعدُ صغيرة ولم تلبث الأيَّامُ أن صغرتُ قدرى
فلو عُدتما لاخترتما العودَ في الثرى إذا أننا أبصرتُماني في الأسر
يُعيد على سمعى الحديدُ نشيده ثقيلاً ، فتبكي العين بالحسَّ والنَّقر
معى الأخوات الهالكاتُ عليكما وأمكما الشكلى المضرمة الصدر
فتبكي بدمع ليس للقطر مثله وتزجرها التقوى فتصغى إلى الزجر
أبا خالدٍ ، أورثتنى البثَّ خالداً أبا النصر مُدَّ ودَّعت ودَّعتى نصرى
وقبلكما ما أودع القلبَ حسرةً

تَجَدُّ طولُ الدهر ، تُكَلُّ أبى عمرو !

وأبو خالد هو يزيد الراضى ، وأبو النصر هو المأمون ، أما أبو عمرو فهو الظافر القليل بقرطبة
فى فتنة ابن عكاشة !

(١) هو أبو الحسن على بن عبد الغنى الضريير ، وهو غير أبى إسحاق الحصرى صاحب زهر
الآداب ، ولكنه ابن خالته .

(٢) يتعمد المؤلف - فيما يبدو - الغرض من قدر أبى الحسن الحصرى ويسرف فى معابته ،
فينسبه إلى الكدية وإفراط الإلحاف ، ويصف شعره الذى رفعه إلى المعتمد فى طنجة بالقدم ،
لتدليل على جفاء طبيعه وفساد ذوقه ، على أن صاحب نفع الطيب يروى هذا الخبر على وجه آخر ،

من قَلَّتْهَا - سقطتُ من حفظي - ووجهَ بها إليه^(١) ؛ فلم يجاوبه عن القطعة ،
على سهولة الشعر على خاطره وخَفَّتْ عليه .

كان هذا الرجل - أعنى الحصرى الأعشى - أسرع الناس في الشعر
خاطراً ، إلا أنه كان قليل الجيد منه ؛ فحرَّكه المعتمد على الله على
الجواب بقطعة أولها :

قُلْ لِمَنْ قَدْ جَمَعَ الْعِلْمَ وَمَا أَحْصَى صَوَابَهُ
كَانَ فِي الصُّرَّةِ شَعْرٌ فَتَنْظَرُنَا جَوَابَهُ
قَدْ أَثْبَنَّاكَ فَهَلَّا جَلَبَ الشَّعْرُ ثَوَابَهُ ؟

ولما اتصل بزعانفة الشعراء ومُلِحْنِي أَهْلَ الْكُدِيَّةِ مَا صَنَعَ الْمُعْتَمِدُ رَحِمَهُ اللَّهُ
مع الحصرى ، تعرَّضُوا لَهُ بِكُلِّ طَرِيقٍ ، وقصدوه من كل فج عميق ؛ فقال
في ذلك رحمه الله :

شُعْرَاءُ طَنْجَةٍ كُلُّهُمْ وَالْمَغْرِبِ ذَهَبُوا مِنَ الْإِغْرَابِ أَبْعَدَ مَذْهَبِ .
سَأَلُوا الْعَسِيرَ مِنَ الْأَسِيرِ وَإِنِّهِ بِسَوَالِهِمْ لِأَحَقُّ فَاَعْجَبْ وَاعْجَبِ
لَوْلَا الْحَيَاءُ وَعِزَّةُ لَحْمِيَّةٍ طَى الْحَشَا سَاوَاهُمْ فِي الْمَطْلَبِ .

يقول ان الحصرى كان قد ألف للمعتمد كتاب المستحسن من الأشعار ، فلم يقض بوصوله اليه
ولا وهو على تلك الحالة .

وقد كان مقام الحصرى في طنجة ، فهو لم يفد على المعتمد - وهو في طريقه الى منفاه -
مسنجديا كما نوسم عبارة المراكشي ، بل كان مستقبلا له ، وانتهاز فرصة وصوله الى طنجة
لبقدم اليه كتابا ، يضم مدائحه ، مضييفا الى ذلك وصيدة استجدها في مدحه .

(١) رواية المقرئ : (فلما اخذ المعتمد الكتاب قال للحصرى : ارفع ذلك البساط فخذ ماتحتة ،
لوالله ما املك غيرهه ! فوجد تحته جملة مال فاخذه .)

قد كان إن سُئل الندى يُجزل وإن
نادى الصريخُ بيباهِ اركبْ يركبِ

وله في هذا المعنى رحمه الله :

قُبِحَ الدهرُ فماذا صنعا كلما أعطى نفيساً نزعاً
قد هوى ظلماً بمن عادته أن ينادي كلَّ من يهوى لَعاً!
من إذا الغيثُ هَمَى منهيراً أحجلته كفه فانتقعا
من غمامُ الجودِ من راحته عصفت ريحٌ به فانتشعا
من إذا قيل الخنا صُمَّ وإن نطق العاقون همساً سَمعا
قل لمن يطمعُ في نائله قد أزال اليأسُ ذاك الطمعا
راح لا يملك إلا دعوةً جبر الله العُفَاة الضُّيعا .

وأقام المعتمد بطنجة - رحمه الله - أياماً على الحال التي تقدم ذكرها ،
ثم انتقل إلى مدينة مكناسة^(١) ، فأقام بها أشهراً ، إلى أن نفذ الأمر
بتسييرهم إلى مدينة اغمات ، فأقاموا بها إلى أن توفي المعتمد رحمه الله ، ودفن
بها فقبره معروف هناك^(٢) وكانت وفاته في شهور سنة ٨٧ و قيل سنة ٨٨

(١) مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى ، تقع الى الغرب من فاس ، وبينهما نحو ٣٥ ميلا .
(٢) اغمات : بلدة وراء مراكش ، بينهما مسير ساعات . ولم يزل قبر المعتمد معروفا بها
حتى اليوم ، وقد زاره المفري صاحب نفع الطيب سنة ١٠١٠ من الهجرة ، قال : فرأيت في ربوة
حسبها وصفه ابن الخطيب . يعنى لسان الدين ، وقد كان زاره قبيل ذلك بعشرين ولب فرن ،
ووصفه فقال : وهو بمقبرة اغمات ، في نشز من الأرض ، قد حفت به سدره ، والى جنبه فسر
اعتماد حطيه مولاة رميك ، وعليها هيئة التفرب ، ومعاونة الخمول من بع الملك ، فلا تملك
العين دمعها عند رؤيتها . قال ابن الخطيب : فانشئت في الحال :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات رأيت ذلك من أولى المهمات

فالله أعلم ، وسنه يوم تُوفى إحدى وخمسون سنة^(١) .
فمن أحسن ما مر بي مما رُئي به المعتمد على الله مقطوعةً من شعر ابن
اللبانة^(٢) أولها :

لِمَ لَا أَزُورُكَ يَا أُنْدَى الْمُلُوكِ يَدًا وَيَا سِرَاجَ اللَّيَالِي الْمُدْلَهَمَاتِ
وَأَنْتَ مِنْ لَوْ تَخْطِي الدَّهْرُ مُصْرَعَهُ إِلَى حَيَاتِي لِجَادَتْ فِيهِ أَبْيَاتِي !

الخ . . . قال محقق هذا الكتاب :

وقد كنت بالمغرب في ربيع سنة ١٩٦١ لبعض العمل ، فزرت مدينة مراكش ، وكان معي
في هذه الزيارة الأديب المؤرخ القاصي الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، فبدأ لنا - وقد عرفنا أن
انغمات على بعد قريب - أن نزور قبر المعتمد بن عباد ، فركبنا إليه سيارة ، في صحبة الأخ
الأديب المغربي عبد الهادي التازي ، ولكننا اضطررنا إلى الترحل قبل أن تبلغ القبر ، لأن
الطريق إليه موحل وغير مستو ، ولم تكن نظن أن بيننا وبينه - حين هبطنا من السيارة - غير
خطا معدودة ، ولم تكن كذلك ، فظللنا نمشي بين آكام وأغوار وتراب ووحل وشوك وماء راكد
حتى بلغنا قريبا من القبر في ظاهر البلدة ، ودلنا عليه بعض الصبية من أهلها ، وكانوا
يستذكرون دروسهم في ظل بستان قريب منه ، فرأينا فبرا على ربوة غير مرتفعة قد تهدمت
حيطانه ومار ترابه وفي جوفه مثل جحور الثعالب . . فوفعنا عليه ساعة نستحضر الذكرى والعبرة
ونقرأ ما تيسر من القرآن . ثم دلنا الصبية على طريق أضيق وأقل مشقة نصل به إلى المكان الذي
نتنظرنا فيه السيارة ، وصلنا إليها وعلينا غلاف من تراب مراكش الأحمر وفي نعالنا وحل كثير .
وقد تحدثت أو تحدثت بعض من معي عن بعض ما لقينا من المشقة في هذه الزيارة لعبر
الشاعر الملك ، فبلغ حديثنا بعض الأذان ، فلما كانت زيارتي التالية للمغرب في شتاء سنة
١٩٦٦ علمت أن الملك الحسن الثاني ، ملك المغرب وفقه الله قد أمر بتجديد القبر وتمهيد
الطريق إليه ، تعويضا للملك الشاعر عن بعض ما ناله حيا وميتا ، بعد تسعة قرون من محنته
الخالدة !

(١) كذا يروي المراكشي ، وأهل التاريخ مختلفون في تحديد سنة وفاته بين الحادية
والخمسين والخامسة والخمسين . وقد ذكر لؤلؤ (ص ١٥٨) أن المعتمد نولي العرش وعمره
٣٧ سنة ، وأنه بقى على العرش عشرين سنة ، وكانت وفاته بعد خلعه بأربع سنوات ، فعلى
هذا يبلغ عمره عند وفاته إحدى وستين سنة !

(٢) هو أبو بكر الداني محمد بن عيسى بن محمد اللخمي ، من مشاهير شعراء الأندلس في
المائة الخامسة ، وكان منقطعا إلى بني عباد ، وفيهم أجود مدائجه ومراثيه ، ولهم إبداع ما نظم
من شعره في مختلف الفنون ، وقد ألف كتابين في أخبار بني عباد ، أحدهما « السلوك في
وعظ الملوك » وقد ضمنه عدة مقطعات وقصائد في البكاء على أيامهم وما انتشر من نظامهم ، والآخر

لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ مِيقَاتُ وَلِلْمُنَى مِنْ مَنَایَهُنَّ غَايَاتُ
والدهرُ في صِبْغَةِ الْحَرْبِاءِ مَنْغَمَسُ أَلْوَانُ حَالَاتِهِ فِيهَا اسْتِحَالَاتُ
وَنَحْنُ مِنْ لُغْبِ الشَّطْرِ نَجِي فِي يَدِهِ وَرُبَّمَا قُمِرَتْ بِالْبَيْدِقِ الشَّاةُ
فَانْفَضَّ يَدِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَسَاكِنِهَا فَالْأَرْضُ قَدْ أَقْفَرَتْ وَالنَّاسُ قَدْ مَاتُوا
وَقُلْ لِعَالَمِهَا الْأَرْضَى قَدْ كَتَمَتْ سَرِيرَةَ الْعَالَمِ الْعُلَاوَى أَغْمَاتُ
طَوَتْ مَظَلَّتُهَا ، لَا بَلْ مَذَلَّتُهَا مَنْ لَمْ تَزَلْ فَوْقَهُ لِلْعَزَّ رَايَاتُ
مَنْ كَانَ بَيْنَ النَّدَى وَالْبَاسِ ، أَنْصَلُهُ

هِنْدِيَّةٌ وَعَطَايَاهُ هُنَيْدَاتُ
انْكَرْتُ إِلَّا التَّوَاءَ لِلْقِيُودِ بِهِ وَكَيْفَ تُنْكَرُ فِي الرُّوَضَاتِ حَيَّاتُ
وَقُلْتُ هُنَّ ذَوَابَاتُ فَلِمَ عُكِسَتْ مِنْ رَأْسِهِ نَحْوَ رَجْلِيهِ الذُّوَابَاتُ
رَأَوْهُ لَيْثًا فَخَافُوا مِنْهُ عَادِيَةً

عَلَّرَتْهُمْ فَلِعَدَوَى اللَّيْثِ عَادَاتُ ^(١)

وله قصيدة يرثيهم ^(٢) بها ، وهي كثيرة الجيد ، أولها :

تَبْكِي السَّمَاءُ بِدَمْعٍ رَائِحٍ غَادِي عَلَى الْبَهَائِلِ مِنْ أَبْنَاءِ عِبَادِ
عَلَى الْجِبَالِ الَّتِي هُدَّتْ قَوَاعِدُهَا وَكَانَتْ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ذَاتَ أَوْتَادِ

« الاعتماد في أخبار بني عباد » فصل فيه تاريخهم منذ كانوا حتى مضوا ٥٥٠ وله غير هذين كتاب
« سقيط الدرر ولقيط الزهر » ٥٠٠ وفي بمبورة سنة ٥٠٧ .

قال عنه ابن الأبار في التكملة : « وابن اللبابة » هذا هو الذي قال أحسن قصائده في المعتمد
ابن عباد صاحب السبيلية ، وكتب عن آل عباد من النثر ما حفظه الناس لنفسه .

(١) انظر سائر هذه القصيدة في قلائد العقيان .

(٢) انظر التعليق رقم ٢ ص ٢٠٣

والرايباتُ عليها اليباناتُ ذَوَتْ أنوارُها فغدت في خَفْضِ وَهَادِ
عريسةٌ دخلتها النائباتُ على أساودِ لهمُ فيها وآسادِ
وكعبةٌ كانت الآمالُ تَعْمُرُها فاليومَ لا عاكفُ فيها ولا بادِ
تلك الرماحُ رِماحُ الخطِّ ثَقَّفَها خَطَبُ الزمانِ ثقافاً غيرَ مُعتادِ
والبيضُ بيضُ الظُّبا فَلَّتْ مضاربُها

أيدى الردى وثنتها دونَ إغمدِ
لما دنا الوقتَ لم تُخَلِّفْ له عِدَّةٌ وكلُّ شئٍ لميقاتٍ وميعادِ
كم من درارىٍّ سعد قد هَوَتْ ووهت

هناكَ من دُرِّ المجدِ أفرادِ
نورٌ ونورٌ فهذا بعدَ نعمته ذوى وذاك خبأ من بعدِ إيقادِ
يا ضيفُ أَقْفَرِ بيتِ المكرماتِ فَخُذْ

في ضَمِّ رَحْلِكَ واجمع فَضْلَةَ الزادِ
ويا مُؤَمِّلِ وادبهم ليسكنهُ خفَّ القطينُ وجَفَّ الزرعُ بالوادِ
ضلتُ سبيلُ الندى بابنِ السبيلِ فسرَّ لغيرِ قصدٍ فما يهديكَ من هادِ
وفيها يقول :

نسيتُ إلا عِدَاةَ النهرِ كَوْنَهُمْ في المنشآتِ كأمواتٍ بألحادِ
والناسُ قد ملأوا العبرين واعتبروا من لؤلؤِ طافياتِ فوقِ أزبادِ
حُطَّ القناعُ فلم تُسْتَرْمُخْذَرَةٌ ومزقتُ أوجهُ تمزيقِ أبرادِ
تفرَّقوا جيرةً من بعدِ ما نشئوا أهلاً بأهلٍ وأولاداً بأولادِ

حَانَ الْوَدَاعُ فَضَجَّتْ كُلُّ صَارِخَةٍ وصارخٍ من مُفْدَاةٍ ومن فادٍ
سارت سفائنهم والنَّوْحُ يُتْبَعُهَا كأنها إبلٌ يحدو بها الحادى
كم سَالَ في الْمَاءِ مِنْ دَمْعٍ وَكَمْ حَمَلَتْ
تلك القطائعُ من قِطَعَاتِ أَكْبَادٍ
مَنْ لِي بِكُمْ يَا بَنَى مَاءِ السَّمَاءِ إِذَا ماءُ السَّمَاءِ أَبِي سُفْيَا حِشَا الصَّادِ (١)
وهي طويلة جداً (٢) ، هذا ما اخترت له منها .

[أبو بكر الداني]

وابن اللبانة هذا هو أبو بكر محمد بن عيسى ، من أهل مدينة دانية ؛
وهي على ساحل البحر الرومي ، كان يملكها مجاهد العامري وابنه على الموفق
على ما تقدم (٣) .

ولابن اللبانة هذا أخ اسمه عبد العزيز ، وكانا شاعرين ، إلا أن
عبد العزيز منهما لم يَرُضْ الشعر صناعةً ولا اتخذهُ مكسباً ، وإنما كان من
جملة التجار ؛ وأما أبو بكر فَرَضِيَهُ بضاعةً وتخيَّره مَكْسَباً وأكثرَ منه
وقَصَدَ به الملوك فأخذ جوائزهم ونال أسنى الرتب عندهم ؛ وشعره
نبيل المأخذ ، وهو فيه حسن المهيَّع ، جمع بين سهولة الألفاظ ورشاققتها ،

(١) تشير إلى اتصال نسبهم في لخم إلى النعمان بن المنذر بن ماء السماء، آخر ملوك الحيرة

(٢) انظر قلائد المعقَّيات ، ونفع الطيب .

(٣) انظر ص ١٢٧

وجودة المعاني ولطافتها ؛ كان منقطعاً إلى المعتمد ، معدوداً في جملة شعرائه ؛
 لم يَفِدْ عليه إلا آخرَ مدته : فلهذا قل شعره الذي يمدحه به .
 وكان - رحمه الله - مع سهولة الشعر عليه وإكثاره منه ، قليل المعرفة
 بعلمه ، لم يُجِدِ الخوض في علومه ، وإنما كان يعتمد في أكثره على جودة
 طبعه وقوة قريحته ؛ يدل على ذلك قوله في قصيدة له سيرد ما أختاره منها
 في موضعه (١) :

مَنْ كَانَ يُنْفِقُ مِنْ سَوَادِ كِتَابِهِ فَأَنَا الَّذِي مِنْ نُورِ قَلْبِي أَنْفَقُ
 وَلَا خُلِعَ الْمُعْتَمِدُ عَلَى اللَّهِ وَأُخْرِجَ مِنْ إِشْبِيلِيَّةٍ ، لَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ هَذَا
 يَتَقَلَّبُ فِي الْبِلَادِ ، إِلَى أَنْ لَحِقَ بِجَزِيرَةِ مُيَّرَقَةٍ (٢) ، وَبِهَا مُبَشِّرُ الْعَامِرِي
 الْمُتَقَلِّبُ بِالنَّاصِرِ ؛ فَحَظِيَ عِنْدَهُ وَعَلَّتْ حَالُهُ مَعَهُ ، وَلَهُ فِيهِ قَصَائِدُ أَجَادَ فِيهَا
 مَا شَاءَ ؛ فَمِنْهَا قَصِيدَةُ رَكَبَ فِيهَا طَرِيقَةً لَمْ أَسْمَعْ بِهَا لِمُتَقَدِّمٍ وَلَا مُتَأَخِّرٍ ،
 وَذَلِكَ أَنَّهُ جَعَلَهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا ، صَدْرُ الْبَيْتِ غَزْلٌ وَعَجْزُهُ مَدَحٌ ، وَهَذَا
 لَمْ أَسْمَعْ بِهِ لِأَحَدٍ ؛ وَأَوَّلُ الْقَصِيدَةِ :

وَضَحَّتْ وَقَدْ فَضَحَتْ ضِيَاءَ النَّيِّرِ فَكَأَنَّمَا الْبَحْفَتُ بِبِشْرِ مُبَشِّرٍ
 وَتَبَسَّمَتْ عَنْ جَوْهَرٍ فَحَسِبْتُه مَا قَلَّدَتْهُ مُحَامِدِي مِنْ جَوْهَرٍ

(١) ص ٢١٥

(٢) ميورقة ، ومنورقة ، ويابسة : هي أكبر جزائر الأندلس في بحر الروم على ساحلها الشرقي ،
 مصابة لقطلونيا وبلنسية ، ويسمى الجغرافيون المحدثون : جزائر البليار .
 وكان مقدم ابن اللبانة إلى ميورقة في آخر شعبان سنة ٤٨٩ - بعد بضعة أشهر ، أو بضعة
 عشر شهراً من موت المعتمد بن عباد بأغمات - وكان عليها مبشر بن سليمان العامري ، من موالى
 المنصور بن أبي عامر ، فمدحه ابن اللبانة بقصيدته التي مطلعها :

مَلِكٌ يَرُوعُكَ فِي حُلَى رِيْعَانِهِ رَاقَتْ بَرَوْنَقُهُ صِفَاتُ زَمَانِهِ !

وتكلمتُ فكانَ طيبَ حديثِها
هزّتْ بنعمةٍ لفظها نفسى كما
أذنبْتُ واستغفرتُها فجرتُ على
جادتُ على بوصلها فكانه
ولثمتُ فاها فاعتقدتُ بأننى
سمحتُ بتعنيقى فقلتُ صنيعه
نهدتُ كقسوةٍ قلبه فى معركِ
ومعاطفُ تحت الذوائبِ خلَّتْها
حسنتُ أمانى فى خمارِ مثلِ ما
وتوشحتُ فكانه فى جوشنِ
غمزتُ ببعضِ قسيهٍ من حاجبِ
أومتُ بمصقولِ اللِّحَازِ فخلَّتْه
وضعتُ حشايَها فُوقَ أرائكِ
من رامةٍ أو رومةٍ ، لا علمَ لى
بنتُ الملوكِ فقلْ لكِسرى فارسِ
عاديتُ فيها غرَّ قوى فاغتدوا
وكذلك الدنيا عهدنا أهلها
طاقتُ على بجمرةٍ من خمرة

مُتعتُ منه بطيب مسكٍ أذفرِ
هزّتْ بذكرِ كراهِ أعلى المنبرِ
عادته فى المذنبِ المستغفرِ
جدوى يديه على المقلِّ المقتِرِ
من كفه سُوغتُ لثمِ الخنصرِ
سمحتُ علاه بها فلم تتعذّرِ
وحشاً كلين طباعه فى محضِرِ
تحت الخوافى ما له من سَمهرِ
حُسنِ الكميّ أمانه فى مغفِرِ
قد قام عنبره مقام العنبرِ
ورنتُ ببعضِ سهامه من مخجَرِ
يؤمى بمصقولِ الصفيحةِ مُشهرِ
وضعَ السروجِ على الجيادِ الضمرِ
أأنتُ عن النعمان أم عن قيصِرِ
تُعزى وإلا قلْ لتبِعِ حنبرِ
لا أرضهم أرضى ولاهم معشِرِ
يتعافرون على الشريد الأعفرِ
فرايتُ مريخاً براحةٍ مُشترى

فَكَأَنَّ أَنْمُلَهَا سَيْوْفٌ مُبَشِّرٌ وَقَدْ اكْتَسَتْ عَلَقَ النَّجِيعِ الْأَحْمَرِ
مَلِكٌ أَزْرَةٌ بُرْدِهِ ضُمَّتْ عَلَى بَابِ الْوَصِيِّ وَعَزْمَةِ الْإِسْكَندَرِ

هذا ما اخترت له منها .

ومن نسيبه المليح الخفيف الروح قوله يتغزل ويمدح مبشراً هذا :

هَلَّا ثَنَّاكَ عَلَى قَلْبٍ مُشْفِقٍ فَتَرَى فَرَّاشاً فِي فِرَاشٍ يُحْرَقُ
قَدْ صِرْتُ كَالرَّمَقِ الَّذِي لَا يُرْتَجَى وَرَجَعْتُ كَالنَّفْسِ الَّذِي لَا يُلْحَقُ
وَعَرِقْتُ فِي دَمْعِي عَلَيْكَ وَغَمِّي طَرَفِي فَهَلْ سَبَبٌ بِهِ أَتَعَلَقُ
هَلْ خَدَعَةٌ بِتَحِيَةٍ مَخْفِيَةٍ فِي جَنْبِ مَوْعِدِكَ الَّذِي لَا يَصْدُقُ
أَنْتَ الْمَنِيَّةُ وَالْمَتَى ، فَبِكَ أَسْتَوِي ظِلُّ الْغَمَامَةِ وَالْهَجِيرِ الْمُحْرَقِ
لَكَ قَدْ ذَابِلَةُ الْوَشِيحِ وَلُونُهَا لَكِنْ سِنَانُكَ أَكْحَلُ لَا أَزْرَقُ
وَيَقَالُ إِنَّكَ أَيْكَةُ حَتَّى إِذَا غَنَيْتَ قِيلَ هُوَ الْحَمَامُ الْأَوْرَقُ
يَا مَنْ رَشَقْتُ إِلَى السُّلُوفِ فَرَدَّنِي سَبَقْتُ جَفَوْنُكَ كُلَّ سَهْمٍ يُرْشَقُ
لَوْ فِي يَدِي سِحْرٌ وَعِنْدِي أَخَذَةٌ لَجَعَلْتُ قَلْبَكَ بَعْضَ حَيْنٍ يَعَشَقُ
لِتَذُوقَ مَا قَدْ ذُقْتُ مِنْ أَلَمِ الْجَوَى وَتَرْقُ لِي مِمَّا تَرَاهُ وَتُشْفِقُ
جَسَدِي مِنَ الْأَعْدَاءِ فَبِكَ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَبِينَ لِطَرْفِ طَيْفٍ يَرْمُقُ
لَمْ يَدِرْ طَيْفُكَ مَوْضِعِي مِنْ مَضْجَعِي فَعَذَرْتُهُ فِي أَنَّهُ لَا يَطْرُقُ
جَفْتُ عَلَيْكَ مَنَابِتِي وَمَنَابِعِي فَالِدَمْعُ يَنْشَعُ وَالصَّبَابَةُ تُورِقُ

وَكَاَنَّ أَعْلَامَ الْأَمِيرِ مُبَشِّرٌ نُشِرَتْ عَلَى قَلْبِي فَأَصْبَحَ يَخْفِقُ^(١)

وفيها يقول ، يصف لعب الأسطول في يوم المهرجان :

بُشِّرَى بِيَوْمِ الْمِهْرَجَانِ فَإِنَّهُ يَوْمٌ عَلَيْهِ مِنْ احْتِفَائِكَ رَوْنَقُ

طارت بناتُ الماء فيه وريشها

ريشُ الغرابِ وغيرُ ذلكَ شَوْدَقُ^(٢)

وعلى الخليجِ كَتِيبَةٌ جَرَّارَةٌ مِثْلُ الْخَلِيجِ كِلَاهُمَا يَتَدَفَّقُ

وَبُنُو الْحُرُوبِ عَلَى الْجَوَارِيِ الَّتِي تَجْرِي كَمَا تَجْرِي الْجِيَادُ السَّبْقُ

مَلَأَ الْكُمَاةُ ظُهُورَهَا وَبُطُونَهَا فَأَنْتَ كَمَا يَأْتِي السَّحَابُ الْمُغْدِقُ

خَاضَتْ غَدِيرَ الْمَاءِ سَابِحَةً بِهِ فَكَأَنَّمَا هِيَ فِي سَرَابٍ أَيْنُقُ

عَجَبًا لَهَا ! مَا خَلَّتْ قَبْلَ عِيَانِهَا

أَنْ يَحْمِلَ الْأَسَدَ الضُّوَارِيَّ زَوْرَقُ

(١) بعده :

الْخَيْرُ رَانَةٌ تَلْتَضِي فِي كَفِّهِ وَالتَّاجُ فَوْقَ جَبِينِهِ يَتَأَلَّقُ

وَكَاَنَّ صَوْبَ حَيًّا وَصَعْقَةً بَارِقٍ مَاضٍ مِنْهُ نَدِيَّةٌ وَالْمَازِقُ

مَتَبَاعِدُ الطَّرْفَيْنِ : جُودٌ غَافِلٌ عَمَّا يَحُلُّ بِهِ ، وَعَزْمٌ مَطْرِقُ

بَأْسٌ كَمَا جَمَدَ الْحَدِيدُ وَرَاءَهُ كَرَمٌ يَسِيلُ كَمَا يَسِيلُ الزُّبَيْقُ

لَا تُعْجِبُ الْأَمْلَاكُ كَثْرَةً مَالِهِمُ النَّبْعُ أَصْلَبُ وَالْأَرَاكَةُ أَوْرَقُ

ضِدَّانَ فِيهِ لِمُعْتَدٍ وَلِمُعْتَفٍ السِّيفُ يَجْمَعُ وَالْعِطَاءُ يُفَرِّقُ

(٣) الشوذق : الصقر ، أو الشاهين .

هَزَّتْ مَجَادِيْفًا إِلَيْكَ كَأَنَّهَا أَهْدَابُ عَيْنٍ لِلرَّقِيبِ تُحَدِّقُ
وَكَأَنَّهَا أَقْلَامُ كَاتِبٍ دَوْلَةٍ فِي عَرْضِ قِرطاسٍ تَخُطُّ وَتَمْشِقُ
وَلَهُ فِيهَا إِحْسَانٌ كَثِيرٌ . وَلَهُ مِنْ قَصِيدَةٍ يَتَغَزَلُ :
فَوَادِي مُعْنَى بِالْحِسَانِ مُعْنَتْ وَكُلُّ مُوقَى فِي التَّصَابِي مُوقَتْ
وَلِي نَفْسٌ يَخْفَى وَيَخْفُتُ رَقَّةً وَلَكِنْ جَسْمِي مِنْهُ أَخْفَى وَأَخْفَتْ
وَبِي مَيْتُ الْأَعْضَاءِ حَى دَلَالُهُ غَرَامِي بِهِ حَى وَصْبِرِي مَيْتُ
جَعَلْتُ فَوَادِي جَفْنٍ صَارِمٍ جَفْنِهِ فَيَا حَرًّا مَا يَصَلِّي بِهِ حِينَ يُصَلِّتُ
أَذِلُّ لَهُ فِي هَجْرِهِ وَهُوَ يَنْتَمِي وَأَسْكُنُ بِالشُّكُوى لَهُ وَهُوَ يَسْكُتُ
وَمَا أَنْبَتَ حَبْلٌ مِنْهُ إِذْ كَانَ فِي يَدِي

لرِيحَانِ رِيْعَانِ الشَّيْبِيَّةِ مَنَّبَتِ

وَمِنْ جَيِّدِ مَا لَهُ مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا مَبْشَرًا نَاصِرَ الدَّوْلَةِ أَوَّلَهَا :
رَاقِ الرَّبِيعُ وَرَقَّ طَبْعُ هَوَانِهِ فَانْظُرْ نَضَارَةَ أَرْضِهِ وَسَمَانِهِ
وَاجْعَلْ قَرِينَ الْوَرْدِ فِيهِ سَلَافَةٌ يَحْكِي مُشْعَشَعُهَا مُصْعَدُ مَائِهِ
لَوْلَا ذُبُولُ الْوَرْدِ قُلْتُ بِأَنَّهُ خَدُّ الْحَبِيبِ عَلَيْهِ صِبْغُ حَيَاتِهِ
هَيَّاهُ أَينَ الْوَرْدُ مِنْ خَدِّ الَّذِي لَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْكَ عَهْدُ وَفَاتِهِ
الْوَرْدُ لَيْسَ صِفَاتُهُ كَصِفَاتِهِ وَالطَّيْرُ لَيْسَ غَنَاؤُهَا كَغَنَائِهِ
يَتَنَفَسُ الْإِصْبَاحُ وَالرَّيْحَانُ مِنْ حَرَكَاتِ مَعْطَفِهِ وَحُسْنِ رُؤَايِهِ
وَيَجُولُ فِي الْأَرْوَاحِ رُوحُ مَا سَرَتْ رِيَّاهُ مِنْ تَلِيقَاتِهِ بَلِيقَاتِهِ
صَرَفَ الْهُوَى جَسْمِي شَبِيهَ خَيَالِهِ مِنْ فَرَطِ خِفَّتِهِ وَفَرَطِ خَفَاتِهِ

ومن أحسن ما على خاطري له بيتان يصف بهما خالاً ، وهما :
بدا على خدّه خالٌ يُزِينُهُ فزادني شَغَفاً فيه إلى شَغَفِ
كَأَنَّ حَبَّةَ قَلْبِي عند رُؤْيَتِهِ طارت فقال لها : في الخدّ منه قَفِي !
ولا بن اللبانة هذا إحسان كثير ، منعى من استقصائه خوف الإطالة ،
وأيضاً فلأن هذا الكتاب ليس موضوعاً لهذا الباب ؛ وإنما يأتي منه فيه
ما تدعو إليه ضرورة سياق الحديث .

[.رجع الحديث إلى أخبار المعتمد .]

ثم رجع بنا القول إلى أخبار المعتمد على الله .
وبلغني أن رجلاً رأى في منامه قبل الكائنة العظمى على بني عباد بأشهر
يسيرة وهو بمدينة قرطبة ، كأن رجلاً أتى حتى صعد المنبر واستقبل الناس
بوجهه يُنشدهم رافعاً صوته :

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا عَيْشَهُمْ فِي ذُرَى مَجْدِهِمْ حِينَ بَسَقُ
سَكَتَ الدَّهْرِ زَمَاناً عَنْهُمْ ثُمَّ أَبْكَاهُمْ دُمّاً حِينَ نَطَقُ !
فما كان إلا أشهرٌ يسيرة حتى وقع بهم وأبكاهم الدهر كما قال .

وبلغ من حال المعتمد على الله بأغمت ، أن أثرَ حظيانه وأكرم بناته
ألجئت إلى أن تستدعى غزلاً من الناس تسدُّ بأجرته بعض حالها وتُصلح
به ما ظهر من اختلالها ؛ فأدخل عليها فيما أدخل غزلُ لبنت عَرِيفِ شُرطة
أبيها ؛ كان بين يديه يزَعُ الناس يوم بُروزه ، لم يكن يراه إلا ذلك اليوم ؛

واتفق أن السيدة الكبرى أمّ بنيه اعتلّت^(١) ، وكان الوزير أبو العلاء زهر
ابن عبد الملك بن زهر بمراكش ؛ قد استدعاه أمير المسلمين لعلاج^(٢) ؛
فكتب إليه المعتمد راعياً في علاج السيدة ومطالعة أحوالها بنفسه ؛ فكتب
إليه الوزير مودياً حقه ومجيباً له عن رسالته ومُسعفاً له في طلبته ؛ واتفق
أن دعا له في أثناء الرسالة بطول البقاء ؛ فقال المعتمد في ذلك :

دعا لي بالبقاء وكيف يَهْوَى	أسيرُ أن يطول به البقاء
أليس الموتُ أَرْوَحَ من حياةٍ	يطول على الشقى بها الشقاء
فمن يكُ من هواه لقاء حبيبٍ	فإن هوايَ من حَتْفِي اللقاء
أأرغب أن أعيش أرى بناتي	عَوَارِيَّ قد أَضَرَّ بها الحفَاء
خوادمَ بنتٍ من قد كان أعلى	مراتبه إذا أَبْدُو النداء
وطرْدُ الناسِ بين يَدَيَّ مَمْرِي	وكفُّهمو إذا غَصَّ الفناء
وركضُ عن يمينٍ أو شمال	لنَظْمِ الجيشِ إن رُفِع اللواء
يُعْنِيهِ أَمَامُ أو وراء	إذا اختلَّ الأمام أو الوراق
ولكنَّ الدعاء إذا دعاه	ضميرُ خالصٍ نَفَعَ الدعاء
جُزِيَتْ أبا العلاء جزاء برٍّ	نَوَى برّاً وصاحبك العلاء
سُيْسِلِي النفسَ عما فات عِلْمِي	بأنَّ الكُلَّ يُدْرِكُه الفناء

(١) هي السيدة اعتماد الرميكية ، مولاة رميك .

(٢) هو جد أبي بكر بن زهر السابق ذكره وذكر أبيه في ص ١٤١ وما بعدها من هذا
الكتاب ، وقد كان أبو العلاء هذا كما يقول ابن دحية في كتابه « المطرب من أشعار أهل المغرب »
وزير ذلك الدهر وعظيمه ، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه . وقد توفي بقزربة سنة ٥٢٥ .

وورد عليه أغماتَ أبو بكر بن اللبانة المتقدمُ الذكر ، ملتزماً عهد
الوفاء ، قاضياً ما يجب عليه من شكر النعمى ؛ فسُرَّ المعتمدُ بوروده ،
فلما أزمع ابن اللبانة على السفر ، استنفذ المعتمد وسعته ووجه إليه بعشرين
مثقالاً وثوبين ؛ وكتب إليه معها^(١) .

إليك النّزْر من كفّ الأسير	فإن تقبل تكن عين الشُّكُور
تقبّل ما يذوبُ له حياة	وإن عذرته حالاتُ الفقير !
ولا تعجبْ لخطبِ غَضٍّ منه	أليس الخسفُ مُلتزِمَ البُدُور
ورجّ لجبره عُقبَى نداه	فكم جبرتْ يده من كسير
وكم أعلتْ علاه من خَضِيض	وكم حطّت ظُباه من أمير
وكم من منبر حنّت إليه	أعلى مُرتقاه ، ومن سرير
زَمَانٍ تراحفتْ عن جانبيه	جِيَادُ الخيلِ بالموتِ المُبِير
فقد نظرتْ إليه عيونُ نحسٍ	مضت منه بمعدومِ النظير
نحوسٌ كُنَّ في عُقبَى سُعودٍ	كذاك تدور أقدارُ القدير
وكم أحظى رضاه من حظي	وكم شهّرتْ علاه من شهير
زَمَانٍ تنافستْ في الحظّ منه	مُلوكٌ قد تجوّر على الدهور !
بحيثُ يطير بالأبطالِ دُعرٌ	ويُلقي ثمَّ أرَجَحَ من ثبير

(١) أرسل المعتمد عطيه هذه الى ابن اللبانة مع ولده شرف الدولة ، وهو - على ما يصفه
ابن اللبانة - احسن الناس سمّاً ، واكثرهم صمتاً ، تخجله اللفظة ، وتجرحه اللحظة ، حريص
على طلب الادب ، مسارع في اقتناء الكتب ، متابر على نسخ الدواوين ، مفتاح فيها من خطه زهر
الرياحين . . .

فامتنع ابن اللبانة من قبول ذلك عليه ، وصرفه بجملة له إليه : وكتب
مجيئاً له عن شعره :

سقطت من الوفاء على خبير فذرني والذي لك في ضميري
تركت هواءك وهو شقيق ديني لئن شئت برودي عن غدور
ولا كنت الطليق من الرزايا لئن أصبحت أجحفت بالأسير
أسير ولا أصير إلى اغتنام معاذ الله من سوء المصير
إذا ما الشكر كان وإن تناهى على نعمي فما فضل الشكور؟
جذيمة أنت والأيام خانت

وما أنا من يقصر عن قصير^(١)

أنا أدرى بفضلك منك إني لبست الظل منه في الحرور
غني النفس أنت وإن ألحت على كفيك حالات الفقير
تصرف في الندى حيل المعالي فتسمع من قليل بالكثير
أحدث منك عن نبع غريب تفتح عن جنى زهر نضير

(١) ويروى هذا البيت :

* جذيمة أنت والزباء خانت *

وجذيمة : هو جذيمة بن الأبرش ملك العراق ، وهو لخم موصول النسب بالمعتمد ،
وقصير : هو قصير بن سعد اللخمى الذى يضرب به النمل فيقال : « لأمر ما جدع قصير أنه ! » .
ولجذيمة وقصير قصة مفصلة فى كتب الأمانال ، خلاصتها أن الزباء ملكة الجزيرة قتلت
جذيمة هذا ثارا لأبيها ، فجدع قصير أنه وذهب إليها فى دار ملكها يومها أن قومه جدعوا
أنفه لأن إليها ولاءه ، فصدقته الزباء ومنحته ثقتها ، فاحتال حتى أمكن قومه منها فقتلوا ثارا
لجذيمة ، فكان عمله هذا مثالا من أمثلة الوفاء للملكة المنكوب ، وإلى هذه الصورة من صور الوفاء
يشير ابن اللبانة فى هذا البيت . وابن اللبانة ينتسب إلى لخم كذلك !

وأعجبُ منك أنك في ظلامٍ وترفعُ للعفاة منارَ ثور
رؤيدك سوف توسعني سروراً إذا عاد ارتقاؤك للسريـر
وسوف تحلني رتبَ المعالي غداة تحلُّ في تلك القصور
تزيد على ابنِ مروانٍ عطاءً بها وأنيفَ ثمَّ على جرير^(١)
تأهبُ أن تعودَ إلى طلوع فليس الخسفُ ملتزمَ البدور
فراجعهُ المعتمدُ بهذه الأبيات :

ردَّ برى بغياً على وبراً وجفا فاستحقَّ لوماً وشكراً!
حاط نزرى إذ خاف تأكيدَ ضرى

فاستحقَّ الجفاء إذ حاط نزرا

فإذا ما طويتُ في البعضِ حمداً عاد لومي في البعضِ سراً وجهراً
يا أبا بكرٍ الغريبَ وفاءً لا عدمنك في المغربِ ذخراً
أى نفعٍ يُجدي احتياطُ شفيقٍ متُّ ضراً فكيف أَرهبُ ضراً؟
فأجابه ابن اللبابة رحمه الله :

أيها الماجدُ السميندُ عذراً صرْفِي البرِّ إنما كان برا
حاشَ لله أن أجيجَ كريماً يتشكى فقرا وكم سدَّ فقرا
لا أزيدُ الجفاء فيه شقوقاً غدرَ الدهرِ بي لئن رمتُ غدرا
ليت لي قُوَّةٌ أو أوى لركن فتري للوفاء منى سرا
أنتَ علّمتني السيادةَ حتّى ناهضتُ همّي الكواكبَ قدراً

(١) يعنى عبد الملك بن مروان ، وجريرا انشاعر .

ربحْتُ صَفْقَةً أُزِيلُ بُروداً عن أديمي بها وألبسُ فخراً
 وكفاني كلامُكَ الرُّطْبُ نَيْلاً كيف أُلْقِي دُرّاً وأطلبُ تبراً !
 لم تَمُتْ إنما المكارمُ ماتت لاسقى الله بعدكَ الأرضَ قطراً
 ومما قاله المعتمد من الشعر عند موته وأمر أن يُكتب على قبره :
 قَبْرُ الْغَرِيبِ سِقَاكَ الرَّائِحِ الْغَادِي حقاً ظفِرتُ بأشلاءِ ابنِ عبَّادٍ
 بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت
 بالخصب إن أجذبوا بالرُّىُّ للصَّادِي
 بالطاعنِ الضاربِ الرأى إذا اقتتلوا
 بالموتِ أحمرَ بالضَّرْغامةِ العادِي
 بالدهرِ في نِقَمٍ بالبحرِ في نِعَمٍ بالبدرِ في ظُلُمٍ بالصدرِ في النادِي
 نعم هو الحقُّ حاباني به قدَّرُ من السماءِ فوافاني لميعادِ
 ولم أكن قبل ذاك النَّعْشِ أعلمُهُ أن الجبالَ تهادِي فوقَ أعوادِ
 كفأك فارفُقُ بما استودعت من كَرَمِ
 رَوَاك كُلُّ قَطُوبٍ البرقِ رَعَادِ
 يَبْكِي أخاه الذي غِيَّبْتَ وابِلَه تحت الصفيحِ بدمعِ رائِحِ غادِي
 حتى يجودَكَ دمعُ الطَّلِّ منهمراً
 من أعينِ الزَّهرِ لم تبخلِ بإسعادِ
 ولا تَزَلْ صلواتِ اللهِ دائمةً على دفينِكَ لا تُحصَى بتعدادِ !
 وكان للمعتمد على الله هذا ولد يلقب بفخر الدولة ، رُشِّحه للملك من بعده .

وجعله وليَّ عهدِه ، ولقبه بالمؤيد بنصر الله ؛ فعاقته الفتنةُ عن مراده ،
وحالت الأقدار بينه وبين إصداره وإيراده ؛ فما برح بفخر الدولة هذا
تغيُّر الأيام بعد الفتنة ، إلى أن أسلم نفسه في السوق ، وتعلم من الصنائع
صنعة الصَّوَاغ ، فمر به محمد بن اللبانة المتقدم الذكر شاعرُ أبيه ، فقال
في ذلك :

أَذكى القلوبَ أَسَى ، أبكى العيون دماً
خطبُ وجدناك فيه يُشبه العَدَمَا
أفرادُ عقدِ المنيِّ منَّا قد انتشرتْ وعقدُ عُرْوَتنا الوثقى قد انفصما
شكأتنا فيك يا فخر الهدى عَظُمَتْ والرُّزْءُ يعظمُ فيمن قدره عَظُما
طُوِّقَتْ من نائبات الدهر مخنقةً ضاقت عليك ، وكم طوَّقَتنا نَعَمَا !
وعاد كونك في دُكَّانِ قارعة من بعدما كنت في قصرٍ حَكى إرَما
صرَفَتْ في آله الصَّوَاغِ أَمَلَةً لم تدبرِ إلا الندى والسيفَ والقَلَمَا
يدُ عهدتك للتَّقييلِ تبسُّطها فتستقلُّ الثُّريا أن تكون فما
يا صائغاً كانت العَلِيَّاءُ تُصاغُ له حلياً وكان عليه الحلَى منتظما
للنَّفخِ في الصورِ هَوْلٌ ما حكاه سوى

هولِ رأيناك فيه تنفُّخُ الفَحَمَا
وددت إذ نظرت عيني إليك به لو أن عيني تشكو قبل ذاك عَمَى
ما حطَّك الدهرُ لما حطَّ من شرف
ولا تحيف من أخلاقك الكَرَمَا

لُحْ فِي الْعُلَا كوكبا إن لم تلح قمرا
وقم بها ربوة إن لم تقم علما
واصبر فريتما أحمدت عاقبة من يلزم الصبر يحمد غب مالزما
والله لو أنصفتك الشهب لانكسفت
ولو وفى لك دمع المزن لانسجما
بكي حديثك حتى الدرحين غدا يحكيك رهطاً وألفاظاً ومبتسما
وروضة الحسن من أزهارها عريت
حزناً عليك لأن أشبهتها شيما
بعد النعيم ذوى الريحان حين رأى
ريحانك الغصن يذوى بعد ما نعيما
لم يرحم الدهر فضلا أنت حامله من ليس يرحم ذاك الفضل لأرحما
شقيقك الصبح إن أضحى بشارقة
وأنت في ظلمة فالصبح قد ظلما

فصل

رجع الحديث عن دولة المرابطين بالاندلس

وإنما أوردنا هذه النبذة اليسيرة من أخبار المعتمد على الله ، مع ما تعلق بها^(١) ، وإن كانت مُخرجة عن الغرض ؛ لنُدلَّ بها على ما قدَّمنا من ذكر

(١) أفاض المراكشي في الفصل السابق ماوسعته الإفاضة في الحديث عن ابن عباد منذ كان إلى أن طواه ريب الزمان ، وفاء بحق الشاعر الملك الذي لم يدفع عنه عز الملك نحس أهل الأدب ، فكانت آخرته ما كانت لأنه شاعر لا لأنه ملك !

وأورد المؤلف فيما أورد من أخبار الشاعر الذي لبس التاج فلم يرتفع به على الشعراء بقدر ما ارتفع بشعره على الملوك - أخبار شعراء دولته وسما نذوته ، فذكر ابن وهيون ، وابن زيدون ، وابن عمار ، وابن اللبابة والحصري ، ولكنه أغفل شاعرا من شعراء دولته يصفه ابن خاقان بأنه « شاعره المتصل به ، المتوصل إلى المنى بسببه » وهو أبو بكر بن عبد الصمد ، وقد ظل أبو بكر هذا وفيما للمعتمد إلى آخر لحظة من حياته ، حفيا بذكره بعد مماته ، فلما كان أول عيد بعد وفاة المعتمد ، وقد أبو بكر بن عبد الصمد إلى أغصات يحج إلى قبره ، كعهده به منذ كان في قصره ، وفي أسره . قال ابن خاقان: فطاف بقبره والتزمه ، وخر على ترابه ولثمه ، ثم انشد :

ملك المسلوک أسامعُ فأنادی أم قد عدتک عن السماع عوادى
لما خلّت منك القصور ولم تكن فيها كما قد كنت في الأعياد ...
... أقبلت في هذا الثرى لك خاضعا وتخذت قبرك موضع الانشاد !

قال صاحب القلائد :

« وهي قصيدة أطال انشادها ، وبنى بها المواجع وشادها ، فانحشر الناس اليه وأحفلوا ، ويكوا ليكائه وأعولوا ، وأقاموا أكثر نهارهم مطيفين به طواف الحجيج ، مديمين البكاء والحجيج ، ثم انصرفوا وقد نزعوا ماء عيونهم ، وأقرحوا ماقيهم بفيض شجونهم ، وهذه نهاية كل عيش ، وغاية كل ملك وجيش ... »
قلت : وقد حفلت كتب الأدب والتاريخ بأخبار المعتمد ودولته وشعره ومأساته ، نابضة نبض القلب الواجف ، متتابعة تتابع الدمع الواكف ، فما هي - فيما يصفها لواصل وبيروى الراوى - مأساة ملك ، ولكنها مأساة أمة !

فضله وغزارة أدبه وإيثاره لذلك ؛ وأيضاً فليتصل نسقُ الأخبار عن المملكة :
أعنى مملكة الأندلس إلى المرابطين أصحاب يوسف بن تاشفين ؛ ولوجه ثالث :
وهو أن ما آلت إليه حال المعتمد هذا من الخمول بعد النباهة ، والضَّعة بعد
الرفعة ، والقبض بعد البسط ، من جملة العبر التي أرثناها الأيام ، والمواعظ
التي تصغر الدنيا في عيون أولى الأفهام .

ثم إن يوسف بن تاشفين استوسق له أمر الأندلس بعد القبض على المعتصم ؛
إذ كان هو كبشٌ كتيبتها ، وعينَ أعيانها ، وواسطةَ نظمها ؛ فلم يزل
أصحاب يوسف بن تاشفين يطوون تلك الممالك مملكة مملكة ، إلى أن دانت
لهم الجزيرة بأكملها ، فأظهروا في أول إمرتهم من النكاية في العدو ،
والدفاع عن المسلمين ، وحماية الثغور . ما صدق بهم الظنون ، وأثلج الصدور
وأقر العيون ؛ فزاد حب أهل الأندلس لهم . واشتد خوف ملوك الروم منهم ؛
ويوسف بن تاشفين في ذلك كله يمدِّهم في كل ساعة بالجيوش بعد الجيوش ،
والخيل إثر الخيل . ويقول في كل مجلس من مجالسه : « إنما كان غرضنا
في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم . لما رأينا استيلاءهم
على أكثرها ، وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو وتواكلهم وتحاذلهم وإيثارهم
الراحة ؛ وإنما همة أحدهم كأس يشربها . وقينةٌ تُسمعه ، ولهو يقطع به
أيامه ؛ ولئن عشت لأعيدنَّ جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه
الفتنة إلى المسلمين ، ولأملأنها عليهم - يعنى الروم - خيلاً ورجالاً
لأعهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برخاء العيش ؛ إنما هم أحدهم فرس
يرُوضه ويستفريه ، أو سلاحٌ يستجيده ، أو صريخٌ يُلبى دعوته ... »

أمثال لهذا القول ؛ فيبلغ ذلك ملوك النصارى ، فيزداد فرقههم ، ويقوى
مما بأيدي المسلمين - بل مما بأيديهم - بأشدهم .

وحين ملك يوسف أمير المسلمين جزيرة الأندلس وأطاعته بأسرها ولم
يختلف عليه شيء منها ، عُدَّ من يومئذ في جملة الملوك ، واستحق اسم
السلطنة ، وتسمَّى هو وأصحابه بالمرابطين ؛ وصار هو وابنه معدودين في
أكابر الملوك ؛ لأن جزيرة الأندلس هي حاضرة المغرب الأقصى ، وأم قراه ،
ومعدن الفضائل منه ؛ فعامة الفضلاء من أهل كل شأن منسوبون إليها ،
ومعدودون منها ؛ فهي مطلع شمس العلوم وأقمارها ، ومركز الفضائل
وقطب مدارها ؛ أعدل الأقاليم هواءً ، وأصفها نجواً ، وأعذبها ماءً ، وأعطرها
نبثاً ، وأندأها ظلالاً ، وأطيبها بُكراً مستعذبة وآصالاً .

أرض يطير فؤادى من قرارته شوقاً لها ولمن فيها من الناس
قومٌ جنيت جنى ورْدٍ بذِكرهمُ فهل بِلِقْيائهمُ أجنى جنى آسٍ؟^(١)
فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوّله ، حتى
أشبهت حضرته حضرة بنى العباس في صدر دولتهم^(١) .

[أعيان الكتاب في دولة المرابطين]

واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه
في عصر من الأعصار ؛ فممن كتب للأمير المسلمين يوسف : كاتب المعتمد
على الله أبو بكر المعروف بابن القصيرة ، أحد رجال الفصاحة ، والحائز

(١) انظر التقديم .

قصب السبق في البلاغة ؛ كان على طريقة قدماء الكتاب ، من إيثار جزل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الأسجاع التي أحدثها متأخرو الكتاب ، اللهم إلا ما جاء في رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء ؛ رأيت له عن المعتمد رسائل تدل على ما وصفته به ، ليس على خاطري منها شيء^(١).

[وزارة ابن عبدون]

ثم كتب له ، أو لابنه ، بعد أبي بكر هذا - الوزير الأجل أبو محمد عبد المجيد بن عبدون . قد تقدم من نفعته ما أغنانا عن تكراره ههنا^(٢) ؛ وكان يكتب قبل من كتب له منهما ، للأمير سير بن أبي بكر بن تاشفين وهو الذي دخل على المعتمد على الله إشبيلية^(٣) ؛ فلم يزل يكتب له إلى أن اتصل بأمير المسلمين ، باستدعاء منه له .

* * *

فمن رسائله عنه إلى أمير المسلمين ، رسالة يخبر فيها بفتح مدينة شنترين^(٤) أعادها الله ؛ وكان سير هذا هو الذي تولى فتحها ؛ فكتب عنه أبو محمد كتاباً^(٥) .

(١) ذكره الفتح بن خاقان في القلائد وأورد طائفة من رسائله .

(٢) أنظر ص ١٢٨ وما بعدها .

(٣) أنظر ص ٢٠٢ .

(٤) مدينة بالاندلس في الشمال الشرقي من أشبونة ، على الشاطئ الأيمن من نهر تاجه .

(٥) تقتصر فيما يلي من الرسائل على تحقيق عباراتها وضبط كلماتها ، دون شرح أو تفسير ، إذ كان في معاجم اللغة ما يغني عن ذلك .

«أدام الله أمر أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبي الحسن على بن يوسف ابن تاشفين ، خافقاً بنصرة الدين أعلامه ، نافذة في السبعة الأقاليم أقالمه ، من داخل مدينة شنترين ، وقد فتحها الله تعالى بحسن سيرتك ، ويؤمن نقيبناك على المسلمين .

«والحمد لله رب العالمين ، حمداً يستغرق الألفاظ الشارحة معناه ، ويسبق الألحاظ الطامحة أدناه ، لا يرد وجهه تكوص ، ولا يحُدُّ كُنْهَه تخصيص ، ولا يحزِرُه بقبضٍ ولا يبسطُ مثالٌ ولا تخمين ، ولا تحضُرُه بخطٌّ ولا بَعْدُ شِمالٌ ولا يمين ، ولا يسعُه أمدٌ يحويه ، ولا يقطعُه أبدٌ يستوفيه ، ولا يجمعه عددٌ يُحصيه ، إذا سبقتُ هوايته ، لحقتُ تواليه .

«وعلى محمد عبده وأمين وحيه ، الصادع بأمره ونهيه : نظام الأئمة ، وإمام الأئمة ، سر آدم من بنيهِ ، وفخر العالم ومن فيه - صلاةٌ تامة نقضُها وتحية عامة نوذِها ، ترفضُ ارفضاض الزهر من كمامه ، وتنفضُ انفضااض المسك من ختامه ؛ فلقد صدع بتوحيده . وجمع على وعده ووعيده ، وأوضح الحقَّ وجلاله ، ونصح الخلق وهداه ، إلا من حقت عليه كلمة العذاب ، وسبقت له الشقوة في أم الكتاب .

«وأظهر العزيز عزَّت أسماؤه ، وجلَّت كبرياؤه - دينه على جميع الأديان ، على رَغْم من الصليبان ، ووقم من الأوثان ؛ وأنجز لنا تعالى وعده ، ونصرنا معه صلى الله عليه وسلم وبعده ، وجمع في هذه الجزيرة شملَ الإسلام بعد انصرامه وانبتاته ، وقطع غيلَ الإِشراك بعد انتصابه وثباته ،

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِأَيْدِينَا مِنْ صَيَاصِيهِمْ ، نَأْخُذُ
بِأَقْدَامِهِمْ وَنَوَاصِيهِمْ .

« وَكَانَتْ قَلْعَةُ شَنْتَرِينَ - أَدَامَ اللَّهُ أَمْرَ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ - مِنْ أَحْصَنِ الْمَعَاقِلِ
لِلْمُشْرِكِينَ ، وَأَثْبَتَ الْمَعَاقِلَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ؛ فَلَمْ نَزَلْ بِسَعِيكَ الَّذِي اقْتَفَيْنَاهُ ،
وَهَدَيْكَ الَّذِي اكْتَفَيْنَاهُ ، نَخْضِدُ شَوْكَتَهَا ، وَنَنْحَتُ أَثْلَتَهَا ، وَنَتَنَاوِلُهَا
عَلَّاءَ بَعْدَ نَهْلٍ ، وَنُطَاوِلُهَا عَجَلًا فِي مَهْلٍ ؛ نَخْرَفُ الْحَيْنَ بَعْدَ الْحَيْنِ سَرَاةً
رِجَالَهَا ، وَنَتَطَرَّفُ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ حُمَاةَ أَبْطَالِهَا ، وَنَخَوْضُ غِمَارَ كِفَاحِهِمْ ،
وَبِحَارَ صِفَاحِهِمْ . إِلَى بَسْطِ أَشْبَاحِهِمْ ، وَقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ ، وَنُهْدَى لِلْقَنَا
وَصُدُورِهَا رُغْمِ سَهْمٍ ، وَإِلَى لَظَى وَسَعِيرِهَا نَفُوسِهِمْ ، وَنَنْقُلُهُمْ مِنَ الشُّفَارِ
الْيَمَانِيَةِ ، إِلَى النَّارِ الْحَامِيَةِ ، وَنَرْفَعُ بِالْجِدِّ وَالتَّشْمِيرِ حِجَابَ كَيْدِهِمُ الْغَامِضِ ،
وَنُضْعِضُ بِاسْتِخَارَةِ الْقَدِيمِ الْقَدِيرِ هَضَابَ أَيْدِيهِمُ الْهَائِضِ . وَلَمَّا رَأَيْنَا هَذِهِ
الْقَلْعَةَ الشَّرِيفَةَ الْمُنَاسِبَ فِي الْقَلَاعِ ، الْمُنِيفَةَ الْمُنَاصِبَ عَلَى الْقَاعِ ، قَدْ
اسْتَشْرَى دَاوُودُهَا ، وَأَعْيَا دَوَاوُودُهَا ، اسْتَخَرْنَا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى صَمْدِهَا ، وَضَرَعْنَا
إِلَيْهِ فِي تَسْهِيلِ قَضْدِهَا ؛ وَسَأَلْنَاهُ أَلَّا يَكْلُنَا إِلَى نَفُوسِنَا ، وَإِنْ كَانَتْ فِي
فِي صَيَانَةِ دِيَانَتِهِ مَبْذُولَةً . وَعَلَى الْمَكْرُوهِ وَالْمَحْبُوبِ فِي ذَاتِهِ مَحْمُولَةً ؛
فَقَصَصْنَا إِلَيْهَا ، وَهَجَمْنَا هَجُومَ الرَّدَى عَلَيْهَا . فِي وَقْتِ انْسَدَّتْ فِيهِ
أَبْوَابُ السُّبُلِ ، وَأَعْيَتْ أَهْلُهَا بِحَوْلِ اللَّهِ وَجُوهُ الْحِيلِ ، وَاللَّهْرُ قَدْ كَشَّرَ عَنْ
أَنْيَابِهِ الْعُضْلَ ، وَقَامَ مِنَ الْوُحُولِ وَالسُّيُولِ عَلَى أَثْبَتِ رِجْلِ : فَنَزَلْنَا بِسَاحَةِ
الْقَوْمِ ، فَسَاءَ صِبَاحُهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ ؛ فَلَمْ نَزَلْ نُصَاوِلُهُمْ مِصَاوِلَةَ الْمُحْتَسِبِ
الْمُؤْتَجِرِ ، وَنُطَاوِلُهُمْ مِطَاوِلَةَ الْمُرْتَقِبِ لِأَمْرِ اللَّهِ الْمُنْتَظَرِ ؛ وَنَشْنُ الْغَارَاتِ ، عَلَى

جميع الجهات ؛ فترد جيوشنا عليهم خفافاً وتصدر إلينا ثقلاً ، فتملاً
صدور الأعداء أوجالاً ، وأيدي الأولياء أموالاً ؛ وأمرنا باقامة سوق سبيهم
وأموالهم ، على مرأى ومسمع من نسائهم ورجالهم ؛ فازدادت ربحهم بذلك
ركوداً ؛ ونارهم خموداً .

« ولما ضمهم لضيق ولا جِه الحصار ، وغشيتهم بتفريق أمواجه البوار ،
وأحاط بهم البلاء ، واستشاط عليهم بغضب الجبار القضاء ، ولم يكن
لليلة بأسائهم سحر يُتأمل ، ولا لوردِ ضررائهم صلير يُومل ، اختاروا الدنية
على المنية ، ورضوا بالاستسلام للعبودية ، وإسلام الأهل والثرية ، والسلامة
من مدارج الكفن ، وموالج الجن ، ولو بجريعة الذفن ؛ وكان القتل كما
قدمنا قد آتى على صيد أعيانهم ، وصناديد فرسانهم ، فلم تبق إلا شزيمة
قليلة ، وعصبة ذليلة ، لا تضر حياتهم موحداً ، ولا تسر نجاتهم ملحدًا ؛
نقلناهم من يمين المنون ، إلى شمال الهون ؛ ومن أليم الحصار ، إلى لثيم
الإسار ؛ وكانوا سألونا الإبقاء عليهم فأجبناهم ، بعد أن قدموا من الخضوع
صدقة بين يدي نجواهم ، ووهبنا أولادهم لأخراهم ، وجعلنا العفو عنهم
طريقاً لسواهم ، ممن يتقيل صنيعهم إذا نحن غداً بإذن الله حاصرناهم .

« وهذه القلعة التي انتهينا إلى قرارها ، واستولينا على أقطارها ، أرحب
المدن أمداً للعيون ، وأخصبها بلدًا في السنين ، لا يريمها الخصب ولا يتخطاها
ولا يرومها الجذب ولا يتعاطاها ؛ فروعها فوق الثريا شامخة ، وعروقها
تحت الثرى راسخة ، تُباهى بأزهارها نجوم السماء ، وتُناجي بأسرارها
أذن الجوزا ؛ مواقع القطار في سواها مغبرة مُربدة ، وهي زاهرة ترف

أندأوها ؛ ومطالع الأنوار في حشاها مَشْعِرَةٌ مسوِّدة ، وهي ناضرة تَبْ
أضوأوها ؛ وكانت في الزمن الغابر ، أُعِيَتْ على عظيم القياصر ، فنا
بأكثر من القطر عدداً ، وحاولها بأوفر من البحر مدداً ؛ فأبَتْ على طا
كل الإبا ، واستعصت على استطاعته أشد الاستعصا ، ومردت مُروداً ،
على الزبا . فأمكننا الله تعالى من ذروتها وأنزل رُكائبها لنا عن صهوتها

* * *

ومن رسائله الإخوانيات رسالة كتب بها إلى أبي عبد الله محمد
أبي الخصال يخطب مودته ، ويستدعي من إخوانه جدته :
« أنا مع عمادى الأعظم - أدام الله علوه - كغريب طواه الجَهْ
وآواه من تهامة وهُد ، وماله بريحها العقيم ولا بحرّها المقعد المقيم عَهْ
فرفضت به من سراياها المغرق وشراياها المُحْرِق في حمام^(١) ، فأش
من ذلك الجحيم وضرمه ، لولا تنفيس الرحيم عنه بكرمه ؛ فوأل
ربوة من رُباها ، وسأل جبال فاران عن مهب صباها : ليلتقط من أنف
بوساطة نجد ، برذاً يُهديه إلى حرّ الوجد ، فحيته ببليل ، من نسيمها العا
فأحيته بعد التعليل .

« وأنا ما قصدتُ فيما خطبت به إليك لآخذ عليك بفضل الابتدا ،
سلكتُ سبيل الاقتدا ، واتبعت دلائل الاهتدا ؛ وأردت أن أستنير بأض
وأستشير من سائلك ، نجوماً تهديني في غسق الظلام ، أو رُجوماً تُعديني

(١) فرفضت به من سراياها . . . الخ : كذا بالأصل ، ويرى دوزى أن صوابها « فرة
كما في ريعان الالباب » .

مَسْتَرِقِ سَمْعِ الْكَلَامِ ؛ فَإِنْ سَمَحَ عِمَادِي بِالْجَوَابِ وَرَجِعِهِ ، غَالِبَتْ - بِمَا
 حَصَلَ مِنْهُ لَدَى وَوَصَلَ إِلَى - الْحَمَامِ فِي سَجْعِهِ ، وَالْإِنْصَارِفِ حَسَنَانِهَا ،
 وَالْإِعْصَارِ فِي نَيْسَانِهَا ، وَطَيْئًا فِي وَلِيدِهَا وَحَبِيبِهَا ، وَسَعْدًا فِي خَالِدِهَا
 وَشَبِيبِهَا ؛ وَخَرَقَتْ - بِمَا أَعَارَ مِنْ مِرَاحٍ وَأَثَارٍ مِنْ ارْتِيَاكِ - جَيْبِ مُخَارِقِ
 طَرَبَا ، وَلَمْ أَدَعِ لِأَبِي الْعَتَاهِيَةِ فِي الْمَغْرِبِ وَخَفِيفِهِ الْمَطْرَبِ أَرْبَا ، وَطَوَيْتِ
 كَشْحًا عَنْ أَغَارِيدِ عَبِيدٍ ، وَأَضْرَبْتُ صَفْحًا عَنْ أَنْشِيدِ لَبِيدٍ ، وَطَالَبْتُ
 بُلْغَاءَ الْعَصْرِ ، بِالْمِثْلِ الْمَضْرُوبِ فِي جَمَلِ مِصْرٍ ، وَقُلْتُ هَذِهِ الْقَارَةُ فَرَامُوهَا
 وَأَنْصِفُوا ، وَهَذِهِ الْغَايَةُ فَرُومُوهَا أَوْ نَصِّفُوا ، وَإِنْ كَانَتْ تُؤَمُّهُ الْبَوَاهِرُ
 مَا أُنْحَلْتُ فِي دَرْجِي ، وَنَجُومُهُ الزَّوَاهِرُ مَا حَلَّتْ فِي بُرْجِي ؛ وَإِنْ كَفَّتِي مِنْ
 جَنَى ثَمَارِهِ لَصِفْرِ ، وَإِنْ طَرَفِي مِنْ سَنَا أَقْمَارِهَا لَقَفْرِ ، وَإِنِّي بَضْنُهُ عَلَى بَدْرَةٍ
 مِنْ بَحْرِهِ ، أَوْ نَفْثُهُ مِنْ سِحْرِهِ ، لَبِينِ ظَنِّيْنِ ، لَمْ أَحْصِلْ مِنْ تَحْقِيقِهِمَا
 عَلَى أَثَرٍ وَلَا عَيْنٍ : أَحَدُهُمَا قُلْتُ إِنَّهُ أَجْرَى اسْمِي عَلَى خَلْدِهِ ، فَلَمْ يَجِدْنِي
 فِي أُنْدَادِهِ وَلَا بَلَدِهِ ، فَقَالَ : وَمَا أَنَا وَفُلَانٌ ، وَهَلْ هُوَ إِلَّا مِنَ الْغَرْبِ ،
 وَإِنْ كَانَ بَزْعُمُهُ فِي الصَّمِيمِ مِنَ الْعُرْبِ ، وَهَلِ الْغَرْبُ فِي الْأَقْطَارِ ، إِلَّا كَاللَّحَقِ
 بَيْنَ الْأَسْطَارِ ؛ وَالْآخِرُ رُبَّمَا يَقُولُ ، مَا لَا تَقْبَلُهُ الْعُقُولُ : إِنِّي لَأَنْظُرُ مِنْ فُلَانٍ
 بِأَحَدٍ مِنْ نَظَرِ الزَّرْقَا ، إِلَى أَجَلٍّ مِنْ خَطَرِ الْعَنْقَا ؛ وَيَنْشُدُ قَوْلَ أَبِي الْعَلَاءِ
 ابْنِ سَلِيمَانَ ، شَاعِرِ مَعْرِةِ النُّعْمَانِ :

« أَرَى الْعَنْقَاءَ تَكْبِرُ أَنْ تُصَادَا »

« وَأَنَا أَقْسَمُ بِالرَّبِيعِ الْمُمَطَّرِ وَائْتِلَافِ أَوَانِهِ ، وَالْبَقِيعِ الْمُزْهَرِ وَاخْتِلَافِ
 أَلْوَانِهِ ، وَالشُّبَّابِ وَدَوْلَتِهِ ، وَالْمُضْرَابِ وَصَوْلَتِهِ ، وَالْمَثَانِي إِذَا تُسْقَتِ ،

والقناني وما سَقَتْ ، وإن أقسمت من بعضها بيمين ، لا أتلقي رايثها
بشمال ولا يمين - أن اسمي في البلغا والفهما ، كاسم العنقاء في الأسماء :
اسم ما وقع على مُسمًى ، ولقظ ما دلَّ على معنى ؛ فأين أقع مما تريد ،
وكتابي بين يدي حمدي أو عتابي بريد ، ينفضُّ تهائم ظنوني ، أو ينقضُّ
تئاتم جنوني ؛ وله الرأي العالي في الجواب ، على خطي كنت من ظني أو
صواب ، إن شاء الله عز وجل .

«ومن سلامي ، على عمادي الأعظم وإمامي ، أحفله وأحفده ، وأجزله
وأوقده ؛ والسلام الأتم الأعظم عليه ورحمة الله وبركاته .»

* * *

فراجعهُ الوزير أبو عبد الله برسالة لم يُكتب مثلها في بابها ، أبدع فيها
غاية الإبداع ، وإن كان فيها بعض تكلف ، تسمى هذه الرسالة «الحولية»
منعني من إيرادها في هذا المرسوم ما فيها من الطول .

ولأبي محمد عبد المجيد المذكور إحسانٌ قد اشتهر عندنا بتلك الأقطار
شهرة الأمثال ، وسار ذكره فيها سير الجنوب والشمال .

واتصلت حال أمير المسلمين يوسف - كما ذكرنا - في إيثار الغزو ،
وقمع ملوك الروم ، والحرص على ما يعود بالمصلحة على جزيرة الأندلس ،
إلى أن توفي في شهر سنة ٤٩٣^(١) .

(١) كذا في الأصل ، واكثر المؤرخين على أن وفاته كانت سنة ٥٠٠ .

ولاية أبى الحسن على بن يوسف بن تاشفين

وقام بأمره من بعده ابنه على بن يوسف بن تاشفين ، وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين ، وسمى أصحابه « المرابطين » فجرى على سنن أبيه في إظهار الجهاد ، وإخافة العدو ، وحماية البلاد ؛ وكان حسن السيرة ، جيد الطوية ، نزيه النفس ، بعيداً عن الظلم ؛ كان إلى أن يُعَدَّ في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يُعَدَّ في الملوك والمتغلبين ؛ واشتد إشاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ؛ فكان إذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يَعهَدُ إليه ألا يقطع أمراً ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ؛ فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس .

ولم يزل الفقهاء على ذلك ، وأمر المسلمين راجعة إليهم ، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم ، طول مدته ؛ فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا ، وانصرف وجوه الناس إليهم ، فكثرت لذلك أموالهم ، واتسعت مكاسبهم ؛ وفي ذلك يقول أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني ، من أهل مدينة جيان من جزيرة الأندلس^(١) :

أهل الرياء لبستموا ناموسكم كالذئب أدلج في الظلام العاتم.

(١) ذكره الفتح بن خاقان في القلائد والمطح .

فملكتمو الدنيا بمذهب مالك وقسمتمو الأموال بابن القاسم^(١)
وركبتمو شهب الدواب بأشهب وبأصبغ صبغت لكم في العالم
ولما عرض أبو جعفر هذا في هذه الأبيات بالقاضي أبي عبد الله محمد بن
حمدين قاضي قرطبة ، وهو كان المقصود بهذه الأبيات ؛ ثم هجاه بعد هذا
صريحاً بأبيات أولها :

أَدَجَّالُ هذا أَوَانُ الخروجِ ويا شمسُ لُوحِي من المغربِ
يريدُ ابنُ حمدينَ أن يَعْتَفِي وَجَدَوَاهُ أَنَايَ من الكوكبِ
إِذَا سُئِلَ العُرفَ حَكَ آسَتَهُ لِيُثَبَّتَ دَعْوَاهُ في تَغْلِبِ^(٢)
في أمثال لهذه الأبيات ، وكان القاضي أبو عبد الله بن حمدين ينتسب
إلى تغلب ابنة وائل .

* * *

ولم يكن يَقْرُب من أمير المسلمين وَيَحْظِي عنده إلا من عَلِم علم الفروع ،
أعنى فروع مذهب مالك ، فنَفَقَتْ في ذلك الزمان كُتُب المذهب وعُمل
بمقتضاها وتُبذ ما سواها ، وكثرَ ذلك حتى نُسِيَ النظر في كتاب الله وحديث
رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلم يكن أحدٌ من مشاهير أهل ذلك الزمان
يعتنى بهما كل الاعتناء ، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه
الخوض في شيء من علوم الكلام ؛ وقرّر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيحَ

(١) من مشاهير علماء المالكية .

(٢) يشير الى قول الشاعر :

والتَّغْلِبِيُّ إِذَا تَنَحَّجَ لِلْقِرَى حَكَ آسَتَهُ وَتَمَثَّلَ الْأَمْثَالَا !

علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه ، وأنه بدعة في الدين وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد ، في أشباه لهذه الأقوال ، حتى استحکم في نفسه بغض علم الكلام وأهله ، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه ، وتوعّد من وجد عنده شيء من كتبه ؛ ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي - رحمه الله - المغرب ، أمر أمير المسلمين بإحراقها ، وتقدم بالوعيد الشديد ، من سفك الدم واستئصال المال ، إلى من وجد عنده شيء منها ؛ واشتد الأمر في ذلك .

[أعيان الكتاب في عهد أبي الحسن]

ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك ؛ حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك كآبي القاسم ابن الجعد المعروف بالأحذب ، أحد رجال البلاغة ، وأبي بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة ، وأبي عبد الله بن أبي الخصال ، وأخيه أبي مروان ، وأبي محمد عبد المجيد بن عبدون المذكور آنفاً ؛ في جماعة . يكثر ذكرهم .

* * *

وكان من أنبهم عنده ، وأكبرهم مكانة لديه : أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال ، وحق له ذلك ؛ إذ هو آخر الكتّاب ، وأحد من انتهى إليه علم الآداب ، وله مع ذلك في علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب واليد الطولى .

فمما اختار له رحمه الله فصولٌ من رسالة كتب بها مُراجعاً لبعض إخوانه ،
عن رسالة وردت عليه منه يستدعى فيها منه شيئاً من كلامه ؛ وهذا الرجل
صاحب الرسالة هو أبو الحسن عليّ بن بسام صاحب كتاب الذخيرة :

«وصل من السيد المسترق ؛ والمالك المستحق - وصل الله لإنعامه لديه ،
كما قصّر الفضل عليه - كتابه البليغ ، واستدراجه المُرِيع ؛ فلولا أن يَصِلد
زَنْدُ اقتداحه ، ويرْقُد طرفُ افتتاحه ، وتنقبض يدُ انبساطه ، وتَغْبِنَ
صفقةُ اغتباطه - لَلَزِمْتُ معه مركزَ قدرى ، وُضِنْتُ سريرةَ صدرى ؛ لكنه
بنفثات سحره يُسمع الصَّم ، ويستنزل العُصم ، ويقتاد الصعبَ فيُصْحَبُ ،
ويَسْتَدِرُّ الصخور فتُحَلِّب .

«ولما فجأتني ابتداءؤه ، وقرع سمعى نداؤه ، فرغت إلى الفكر ، وخفّق
القلبُ بين الأمن والحذر ، فطاردتُ من الفقر أوابد قفر ، وشوارد عفر ،
تُغْبِرُ في وجه سائقها ، ولا يتوجه اللحاق لوجيهها ولاحقها ؛ فعلمت أنها
الإهابة والمهابة ، والإصابة والاسترابة ، حتى أياستنى الخواطر ، وأخلفتنى
المواطر ، إلا زبرجاً يُعقب جواداً ، وبهرجاً لا يحتمل انتقاداً ؛ وأننى
لمثلّى والقريحة مُرْجاة والبضاعة مُرْجاة - ببراعة الخطاب ، وبزاعة الكتاب ؛
ولولا دروس معالم البيان ، واستيلاء العفاء على هذا الشأن ، لما فاز لمثلّى فيه
قَدَح ، ولا تحصّل لى فى سوقه ربح : لكنه جوٌّ خال ، ومضمارٌ جُهَّال ؛
وهى حكمة الله فى الخلق ، وقسمته للرزق ؛ وأنا - أعزك الله - أربأُ بقدر
الذخيرة ، عن هذه النُتفِ الأخيرة ، وأرى أنها قد بلغت مداها ، واستوفت
حلاها ؛ وأنا أخشى القَدَح فى اختيارك ، والإخلال بمختارك ؛ وعلى ذلك

فوالله ما من عادق أن أثبت ما أكتب في رسم يُنقل ، ولا في وضع المراتب
عندنا مخاطب يُتَحَفَّرُ له ويُحتَقَل ؛ وإنما هو عَفْوُ فِكْر ، ويسيرُ ذكر .

«وعذراً - أعزك الله - فإني خططت ما خططته والنوم مُغازل ، والقُرُ
مُنازل ، والريح تلعب بالسراج ، وتصول عليه صولة الحجاج ، فطوراً
تُسدِّده سناناً ، وتارة تُحرِّكه لساناً ؛ وآونة تطويه حُبابة ، وأخرى تنشره
ذُؤابة ؛ وتُقيمه إبرة لهب ، وتعطفه برة ذهب ، أو حُمة عقرب ، وتُقوسه
حاجب فتاة ، ذات غمزات ، وتُسَلطه على سليطه ، وتُزيله عن خليطه ؛
وتخلعه نجماً ، وتمده رجماً : وتسِل روحه من ذباله ، وتُعيده إلى حاله ؛
وربما نصبتُه اذُنَّ جواد ، ومسخته حَدَقَ جراد : ومشقته حُرُوفاً برق ؛
يكف ودق ، ولثمتُ بِسَنَاهُ قنديله ، وألقتُ على أعطافه منديله ؛ فلاحظ
منه للعين ، ولا هداية في الطرس لليدين ؛ والليلُ زنجى الأديم ، تبرى
النجوم ، قد جَلَّلنا ساجه ، وأغرقتنا أمواجه ؛ فلا مجالَ لِلحِظ ،
ولا تعارف إلا بلفظ ؛ لو نظرتُ فيه الزرقاء لا كتحتل ، أو خُصِبت به
الشَّيْبَةُ لما نصلت ؛ والكَلْبُ قد صافح خيشومه ذنبه ، وأنكر البيت
وطنبه : والتوى التواء الحُباب ، واستدار استدارة الحُباب ، وجلده الجليد ،
وصعد أنفاسه الصَّعيد ؛ فجماه مُباح ، ولا هريز ولا ثباح ؛ والنار كالرَّحِيق ،
أو كالصديق ؛ كلاهما عنقاء مُغرب ، أو نجم مغرب ، استوى الفضل ،
ولك في الإغضاء الفضل ؛ والسلام .»

* * *

ولأبي عبد الله هذا ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء أهل الأندلس ،
قد جعلوه مثالا يحتذونه ، ونصبوه إماماً يقتفونه ؛ منعني من إيراد
ما أختار له من ذلك خوف الخروج إلى التطويل الممل والإكثار المخل .

فلم يزل أبو عبد الله هذا وأخوه كاتبين لأمير المسلمين ، إلى أن
آخر أمير المسلمين أبا مروان عن الكتابة ، لموجدة كانت منه عليه ؛
سببها أنه أمره وأخاه أبا عبد الله أن يكتبوا عنه إلى جند بلنسية حين
تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم ابن رذمير - لعنه الله - هزيمة قبيحة ، وقتل
منهم مقتله عظيمة ؛ فكتب أبو عبد الله رسالته المشهورة في ذلك ؛ وهي
رسالة كاد أهل الأندلس قاطبة أن يحفظوها ، أحسن فيها ما شاء ، منعني
من إيرادها ما فيها من الطول ؛ وكتب أبو مروان رسالة في ذلك الغرض ،
أفحش فيها على المرابطين وأغلظ لهم في القول أكثر من الحاجة ؛ فمن
فصولها قوله .

« أي بني للثيمة ، وأعيار الهزيمة ، إلام يزيّفكم الناقد ، ويردكم
الفارس الواحد ؟ فليت لكم بارتباط الخيول ضائناً لها حالب قاعد ؛ لقد
آن أن نوسعكم عقاباً ، وألا تلوثوا على وجه نقاباً^(١) ؛ وأن نعيدكم
إلى صحرائكم ، ونظهر الجزيرة من رحضائكم » .

في أمثال لهذا القول : فأحق ذلك أمير المسلمين وأخوه عن كتابته ،
وقال لأبي عبد الله أخيه : كنا في شك من بغض أبي مروان المرابطين ، والآن

(١) يعني الا يضعوا لنا على وجوههم ، واللثام شعار لتونة ، وبه يسمون « المثلثين » ،
كما يسمون « المرابطين » .

قد صح عندنا : فلما رأى ذلك أبو عبد الله استعفاه فأعفاه ، ورجع إلى قرطبة بعد ما مات أخوه أبو مروان بمرأش ؛ وأقام هو بقرطبة إلى أن استشهد في داره - رحمه الله - أولَ الفتنة الكائنة على المرابطين .

[اختلال أحوال المرابطين]

واختلت حالُ أمير المسلمين رحمه الله بعد الخمسائة^(١) اختلالاً شديداً ، فظهرت في بلاده مناكر كثيرة ؛ وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد ؛ وانتهوا في ذلك إلى التصريح ؛ فصار كلُّ منهم يصرح بأنَّه خير من عليٍّ أمير المسلمين وأحقُّ بالأمر منه ! واستولى النساءُ على الأحوال وأسندت إليهن الأمور وصارت كلُّ امرأة من أكابر المتونة ومسوفة مشتملةً على كل مفسدٍ وشرٍّ وقاطع سبيل وصاحب خمرٍ وماخور ؛ وأميرُ المسلمين في ذلك كله يتزيّد تغافله ، ويقوى ضعفه ؛ وقنع باسم إمرة المسلمين ، وبما يرفع إليه من الخراج ؛ وعكف على العبادة والتبتُّل ؛ فكان يقوم الليل ويصوم النهار ، مشتهراً عنه ذلك ؛ وأهمّل أمور الرعية غاية الإهمال ؛ فاختل لذلك عليه كثيرٌ من بلاد الأندلس ، وكادت تعود إلى حالها الأول ، لاسيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسُّوس .

(١) ذكرنا من قبل (انظر التعليق رقم ١ ص ٢٣٤) أن وفاة يوسف بن ناشفين وولاية ابنه أبي الحسن ، كانت سنة ٥٠٠ خلافا لما يذكره المراكشي ، وعلى هذا فلا بد من تحقيق هذا التاريخ كذلك .

القِسم الثَّاني
دَوْلَةُ الموحِّدين فِي المَغْرِبِ والأَنْدَلِيسِ

ذكر قيام محمد بن تومرت المتسمى بالمهدى

[وبلدٌ أمر الموحدين بالمغرب والأندلس]

ولما كانت سنة ٥١٥^(١) قام بسوس محمد بن عبدالله بن تومرت في صورةٍ أمرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر .
ومحمد هذا رجلٌ من أهلِ سُوس^(٢) ، مولده بها بضیعة منها تُعرف بإيجلي أن وارغن ، وهو من قبيلة تسمى هرغة ، من قوم يعرفون بإيسرغينن ؛ وهم الشرفاء بلسان المصامدة ؛ ولمحمد بن تومرت نسبةٌ متصلة بالحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب وُجدت بخطه^(٣) ؛ وكان قد رحل إلى المشرق في شهور سنة ٥٠١^(٤) في طلب العلم ، وانتهى إلى بغداد ، ولقي أبا بكر الشاشي فأخذ عليه شيئاً من أصول الفقه وأصول الدين ، وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار ونظرائه . من المحدثين ، وقيل إنه لقي أبا حامد الغزالي بالشام أيام تزدهه ؛ فالله أعلم^(٥) .
وحكى أنه ذكر للغزالي ما فعل أميرُ المسلمين بكتبه التي وصلت إلى

(١) ذكر ابن خلكان أن أول ظهوره وقيامه بالدعوة سنة ٥١٤ .

(٢) جبل السوس : غى أقصى المغرب .

(٣) هو - كما نقله ابن خلكان - محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن يسار بن العباس ابن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب

(٤) كان عمره في ذلك التاريخ ست عشرة سنة .

(٥) روى ابن خلكان أنه لقي الغزالي، والكنيا الهراسي ، والطروشى ، وغيرهم .

المغرب ، من إحراقها وإفسادها^(١) ، وابنُ تومرتَ حاضرٌ ذلك المجلس ؛ فقال الغزالي حين بلغه ذلك : « ليذهبنَّ عن قليل مُلكه ، وليُقتلنَّ ولده ، وما أحسب المتولى لذلك إلا حاضراً مجلسنا ! » .

وكان ابنُ تومرتَ يحدث نفسه بالقيام عليهم ؛ فقوى طمعه . وكرَّ راجعاً إلى الإسكندرية ، فأقام بها يختلف إلى مجلس أبي بكر الطَّزُطُوشِيَّ الفقيه ؛ وجرت له بها وقائعُ في معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أفضتْ إلى أن نفاه مُتولى الإسكندرية عن البلاد^(٢) ؛ فركب البحر ، فبلغني أنه استمر على عادته في السفينة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلى أن ألقاه أهلُ السفينة في البحر ؛ فأقام أكثر من نصف يوم يجرى في ماء السفينة لم يُصبه شيءٌ : فلما رأوا ذلك من أمره أنزلوا إليه من أخذه من البحر ، وعَظُم في صدورهم ؛ ولم يزالوا مُكرِّمين له إلى أن نزل من بلاد المغرب بجاية^(٣) . فأظهر بها تدريس العلم والوعظ ؛ واجتمع

(١) انظر ص ٢٣٧ من هذا الكتاب .

(٢) كان مروره بالإسكندرية في عهد الأمر بن المسنعي من خلفاء العبيديين . وقد حكى ابن خلكان أنه قبل مقدمه إلى الإسكندرية ، كان قد ناله بمكة شيء من المكروه ، نشدته في الإنكار على الناس لما يخالف الشرع ، فكان ذلك سبب خروجه من مكة إلى مصر ، ثم كان إبعاده عن الإسكندرية . . .

(٣) رواية ابن خلكان أنه نزل أولاً « المهديّة » . وكان وصوله إليها أيام ولاية الأمير يحيى بن المعز بن باديس الحميري الصنهاجي صاحب إفريقية لذلك العهد ، فنزل من المهديّة مسجد من مساجدها ، فاجتمع إليه جماعة من أهل المدينة ، وأقراهم كتاباً في علم أصول الدين ، وشرع في تغيير المنكر ، فرفع أمره إلى الأمير يحيى بن تميم ، فأحضره وجماعة من الفقهاء ، فرأى ما هو عليه من الخشوع والتقشف والعلم ، فسأله الدعاء ، فقال له ابن تومرت : « أصلحك الله لرعيّتك ونفع بها ذريّتك ! »

وأقام بعد ذلك بالمهديّة أياماً ، ثم ارتحل عنها إلى المنستير ، (على وزن عصيفير) فأقام بها مدة ، ثم انتقل إلى بجاية . . .

عليه الناس ، ومالت إليه القلوب ؛ فأمره صاحب بجاية بالخروج عنها حين خاف عاديته ؛ فخرج منها متوجهاً إلى المغرب ؛ فنزل بضیعة يقال لها ملالة ، على فرسخ من بجاية ؛ وبها لقيه عبد المؤمن بن علي ، وهو إذ ذاك متوجهٌ إلى المشرق في طلب العلم ؛ فلما رآه محمد بن تومرت ، عرفه بالعلامات التي كانت عنده ؛ وكان ابن تومرت هذا أَوحد عصره في عِلْم خطِّ الرَّمْل ، مع أنه وقع بالمشرق على ملاحم من عمل المنجّمين وجُفُورٍ من بعض خزائن خلفاء بني العباس ؛ أوصله إلى ذلك كلّ فرط اعتنائه بهذا الشأن وما كان يحدث به نفسه^(١) .

وبلغني من طرقٍ صِباح أنه لما نزل ملالة - الضیعة التي تقدم ذكرها -

وروى ابن خلكان في موضع آخر : أنه لما وصل المهدية ، نزل في مسجد مغلق ، وجلس معه في طاق مشرف على الطريق العام ، ينظر الى المارة ، فلا يرى منكراً من آلة الملاهي او اوانى الخمر الا نزل اليها وكسرها ، فتسامع الناس به في البلد ، فجاءوا اليه ... واقام في بجاية مدة وهو على حاله في الانكار ، فاخرج منها ...

(١) روى ابن خلكان ان محمد بن تومرت كان قد اطلع على كتاب يسمى الجفر من علوم اهل البيت ، وأنه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى ، يمكن يسمى السوس ، وهو من ذرية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعو الى الله ، ويكون مقامه ومدفنه بموضع من الغرب هجاء اسمه ت ي ن م ل ل ، ورأى فيه أيضاً أن استقامة ذلك الامر واستيلاء وتمكنه ، يكون على يد رجل من اصحابه هجاء اسمه ع ب د م و م ن ، ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة ، فوقع الله - سبحانه وتعالى - في نفسه انه القائم بأول الامر ، وان أوانه قد أزف ، فما كان ابن تومرت يمر بموضع الا ويسأل عنه ، ولا يرى أحداً الا أخذ اسمه وتفقّد حليته - وكانت حلية عبدالمؤمن معه - فبينما هو في الطريق رأى شاباً قد بلغ أشده ، على الصفة التي معه ، فقال له وقد تجاوزته : ما اسمك يا شاب ؟ فقال : عبد المؤمن ، فرجع اليه وقال له : الله اكبر ! انت بفينى . ونظر في حليته فوافقت ما عنده ...

والجفر في اللقّة : جلد يتخذ من الماعز ، وكانوا يكتبون عليه ، تزعم الشيعة أن الامام جعفراً الصادق قد كتب لهم في جفر من جلد الماعز كل ما يحتاجون اليه وكل ما هو كائن أو سيكون الى يوم القيامة ...

وحديث الجفور طويل في بعض كتب الشيعة ومن يعارضهم من اهل الجماعة .

تُسمع وهو يقول : ملالة ! ملالة ! يكررها عل لسانه يتأمل أحرفها ، وذلك لما كان يراه أن أمره من موضع في اسمه ميم ولامان^(١) ، فكان - كما ذكرنا - إذا كررها يقول : ليست هي !

وأقام هذه الضيعة أشهراً ، وبها مسجد يعرف به ، وهو باق إلى اليوم ، لا أدري أبني على عهده أو بعده .

... فاستدعى عبد المؤمن وخلا به ، وسأله عن اسمه واسم أبيه ونسبه ، فتسمى له وانتسب^(٢) ؛ وسأله عن مقصده فأخبره أنه راحل في طلب العلم إلى المشرق ؛ فقال له ابن تومرت : أو خيرٌ من ذلك ؟ قال : وما هو ؟ قال : شرف الدنيا والآخرة ؛ تصحبنى وتعيننى على ما أنا بصدده ، من إماتة المنكر وإحياء العلم وإخماد البدع . فأجابه عبد المؤمن إلى ما أراه .

وأقام ابن تومرت بملاة أشهراً ، ثم رحل عنها ، وصحبه من أهلها رجل اسمه عبد الواحد ، يعرفه المصامدة بعبد الواحد الشرقى^(٣) وهو أول من صحبه بعد عبد المؤمن ؛ وخرج متوجّهاً إلى المغرب .

(١) هو نينعل (بلام مشددة) كما سياتى ، وانظر التعليق السابق ص ٢٤٧ .

(٢) رواية ابن الأثير أن ابن تومرت سأله عن اسمه وقبيلته ، فأخبره أنه من قيس عيلان ، ثم من بنى سليم ، فقال ابن تومرت : هذا الذى بشر به النبى صلى الله عليه وسلم حين قال : « ان الله ينصر هذا الدين فى آخر الزمان برجل من قيس . فقيل : من أى قيس ؟ فقال : من بنى سليم » .

(٣) تظنه يعنى أبا عبد الله الونشريسى ، كما ذكر ابن الأثير ، أو أبا عبد الله التومرتى ، كما يسميه ابن كثير ، ويذكره ابن خلكان باسم عبد الله الونشريسى بلا كنية ، وأولئك جميعاً فيما نرى - شخص واحد ، اسمه عبد الواحد ، وكنيته أبو عبد الله ، ويتنسب الى « ونشريس » : بليدة بافريقية من أعمال بجاية بين باجة وقسطنطينية المغرب ، الى الشرق من جبل المصامدة ، فهو الشرقى ، والونشريسى ، والتومرتى ، من أجل ذلك جميعاً .

وقيل إنه ^(١) إنما لقي عبد المؤمن بموضع يعرف بفنزاراة من بلاد
متيجة ، وعبد المؤمن يعلم صبيان القرية المذكورة ؛ فسأله ابنُ تومرت
صُحبته والقراءة عليه وإعانتته ، بعد أن عرفه بالعلامات كما قد تقدم .
وبهذه القرية له حكايةٌ طريفة ؛ وذلك أنه ^(٢) زأى وهو بها في المنام
كأنه يأكل مع أمير المسلمين على بن يوسف في صحفة واحدة ؛ قال : ثم
زادَ أَكَلِي على أَكَلِهِ وأَحَسَسْتُ من نفسي شرها إلى الطعام ، ولم يزل ذلك بي
إلى أن اختلطت الصحفة من بين يديه وانفردت بها ! فلما انتبه قصَّ الرؤيا
على رجل كان يقرأ عليه ، اسمه عبد المنعم بن عشير ، يكنى أبا محمد ،
كان يقرأ عليه ؛ فلما أتى على آخرها ، قال ^(٣) : يا بني ، يا عبد المؤمن ،
هذه الرؤيا لا ينبغي أن تكون لك ؛ إنما هي لرجل ثائر ، يثور على أمير
المسلمين فيشاركه في بعض بلاده ثم يغلبه بعد ذلك عليها كلها وينفرد
بملكها !

واتفق له فيها أيضاً من العجائب التي تثبتُ في باب الكلام الموافقة
للقدر ، أن رجلاً من وجوه أصحاب الملك العزيز بن المنصور الصنهاجي
صاحب بجاية والقلعة ، وجد عليه الملكُ العزيز ، فاشتد خوفه ، فهرب
منه إلى هذه الضيعة التي كان فيها عبد المؤمن ، فكان معه بها يعلم الصبيان
وانتهت حال ذلك الرجل إلى غاية الإقلال ؛ ثم اتفق أن صاحبه رضى عنه ،

(١) يعني ابن تومرت .

(٢) يعني عبد المؤمن .

(٣) يعني ابن عشير .

فبلغه ذلك ، فسار إلى بجاية ، فدخل عليه ، فسأله : أين كنت في هذه الأيام ؟ فأخبره بقصته وكيف كان الصبيان يحيونه بالكسر ! فضحك وقال : الضيعة لك وما والاها ! وأمر له بمال ومركب وثياب ، فخرج الرجل إلى الضيعة في خيل ورجال معه ، وخرج إليه أهلها يتلقونه ؛ فأتى الصبيان عبد المؤمن وهو قاعد بفناء المسجد ، فقالوا له : أتعرف من هذا الذي اهتزت له هذه الأرض ؟ قال : لا ! قالوا : هو فلان صاحبك الذي كان يعلمنا معك ! فقال : إن كانت حالة فلان انتهت إلى هذا فلا بد أن أكون أنا غدا أمير المؤمنين ! فكان الأمر كما قال ، ووافقت كلمته القدر .

—
وخرج ابن تومرت كما ذكرنا متوجهاً إلى المغرب ، حتى أتى مدينة تلمسان ، فأقام بمسجد بظاهرها يعرف بالعباد ، جارياً على عادته ؛ وكان قد وضع له في النفوس هيبة وفي الصدور عظمة ، فلا يراه أحد إلا هابه ، وعظم أمره ؛ وكان شديد الصمت كثير الانقباض ؛ إذا انفصل عن مجلس العلم لا يكاد يتكلم بكلمة .

أخبرني بعض أشياخ تلمسان عن رجل من الصالحين كان معتكفاً معه بمسجد العباد ، أنه خرج عليهم ذات ليلة بعدما صلى العتمة ، فنظر إليهم وقال : أين فلان ؟ لرجل كان يصحبهم ؛ فأخبروه أنه مسجون . فقام من وقته ودعا برجل منهم يمشي بين يديه ، حتى أتى باب المدينة ، فدق على البواب دقاً عنيفاً واستفتح ؛ فأجابه البواب إلى الفتح بسرعة من غير تلكؤ ولا إبطاء ، ولو استفتح أمير البلد لتعذر ذلك عليه ؛ ودخل حتى أتى

معجن ، فابتدر إليه السَّجانون والحرس يتمسحون به ، ونادى : يا فلان !
سم صاحبهم ؛ فأجابه ؛ فقال : اخرج ! فخرج والسَّجانون ينظرون إليه
أنما أفرغَ عليهم الماءَ الحارَّ ، وخرج بصاحبه حتى أتى المسجد ؛ وكانت
هـ عادتَه في كل ما يريد ، لا يتعذر عليه مُراد ، ولا يمتنع عليه مطلوب ،
سُخِّرَتْ له الرعية ، وذُلَّتْ له الجبابرة .

ولم يزل مقيماً بتلمسان وكلُّ من بها يعظمه من أمير ومأمور ، إلى أن
ممل عنها بعد أن استمال وجوه أهلها وملك قلوبها ؛ فخرج قاصداً مدينة
س ؛ فلما وصل إليها أظهر ما كان يظهره ، وتحدث فيما كان يتحدث
هـ من العلم ؛ وكان جلُّ ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريق الأشعرية ؛
كان أهل المغرب - على ما ذكرنا (١) - ينافرون هذه العلوم ، ويُعادون
ن ظهرت عليه . شديداً أمرهم في ذلك ؛ فجمع والى المدينة الفقهاء
أحضره معهم ، فجرت له مناظرة كان له الشُّفوف فيها والظهور ، لأنه
جد جواً خالياً ، وألقى قوماً صيماً عن جميع العلوم النظرية خلا علم
فروع ؛ فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا على والى البلد بإخراجه ليلاً يفسد
قول العوام ؛ فأمره والى البلد بالخروج ؛ فخرج متوجّهاً إلى مراکش .

[ابن تومرت في حضرة ابن تاشفين]

كُتِبَ بخبره إلى أمير المسلمين على بن يوسف ؛ فلما دخلها حضر بين

(١) انظر ص ٢٣٦ - ٢٣٧

يديه ، وجمع له الفقهاء للمناظرة ^(١) ؛ فلم يكن فيهم من يعرف ما يقول ،
حاشا رجل من أهل الأندلس اسمه مالك بن وهيب كان قد شارك في جميع
العلوم ، إلا أنه كان لا يظهر إلا ما يتفق في ذلك الزمان ؛ وكانت لديه
فنون من العلم ، رأيت له كتاباً سماه «قراضة الذهب» في ذكر لثام العرب
ضمّنه لثام العرب في الجاهلية والإسلام ، وضمّ إلى ذلك ما يتعلق به من
الآداب ؛ فجاء الكتاب لانظير له في فنه ؛ رأيت في خزانة بني عبد
المؤمن .

ولمالك بن وهيب هذا تحقّق بكثير من أجزاء الفلسفة ؛ رأيت بخطه
كتاب الثمرة لبطليموس في الأحكام ، وكتاب المجسطي في علم الهيئة ،
وعليه حواش بتقييده أيام قراءته إياه على رجل من أهل قرطبة اسمه
حمد الذهبي .

ولما سمع مالك هذا كلام محمد بن تومرت ، استشعر حدة نفسه وذكاء

(١) رواه ابن خلكان أن ابن تومرت لما دخل مراکش - وملكها يومئذ أبو الحسن علي ابن
يوسف بن تاشفين - شرع في الإنكار على جاري عاداته ، حتى أنكر على ابنة الملك . . . قال :
وله في ذلك قصة يطول شرحها ، فبلغ خبره الملك ، وأنه يتحدث في تغيير الدولة ، فتحدث ابن
تاشفين مع مالك بن وهيب في أمره - وكان عالماً صالحاً - فقال ابن وهيب : نخاف من فتح
باب يمسر علينا سده ، والرأى أن تحضر هذا الشخص وأصحابه ، لنسمع كلامهم بحضور
جماعة من علماء البلد ، فأجابه الملك إلى ذلك . . .

ويذكر ابن الأثير ابنة الملك التي نقلنا الإشارة إليها عن ابن خلكان فيما سبق ، فيقول
إنها ابنة الملك يوسف بن تاشفين ، أخت أبي الحسن ، وتفصيل أمرها كما رواه ابن الأثير ، أن
ابن تومرت كان في طريقه بمراكش يوماً ، إذ رآها في موكبها ومعها من الجوّاري الحسان
عدة كثيرة ، وهن مسفرات ، وكانت هذه عادة الملثمين : يسفر نساؤهم وجوههن ويلبثن
الرجال ! فحين رأى ابن تومرت النساء كذلك أنكر عليهن وأمرهن بسنن وجوههن ، وضرب هو
وأصحابه دوابهن ، فسقطت أخت أمير المسلمين عن دابتها . . .

خاطره واتساع عبارته ؛ فأشار على أمير المسلمين بقتله ، وقال : هذا رجلٌ مُفسد لا تؤمنُ غائلته ولا يسمع كلامه أحدٌ إلا مال إليه ، وإن وقع هذا في بلاد المصامدة ثار علينا منه شرٌ كثير^(١) ! فتوقف أمير المسلمين في قتله ، وأبى ذلك عليه دينه^(٢) ؛ وكان رجلاً صالحاً مجاب الدعوة ، يُعدُّ في قوَّام الليل وصوَّام النهار ، إلا أنه كان ضعيفاً مستضعفاً ، ظهرت في آخر زمانه مناكر كثيرة وفواحش شنيعة ، من استيلاء النساء على الأحوال واستبدادهن بالأمور ؛ وكان كل شرير من لص أو قاطع طريق ينتسب إلى امرأة جعلها ملجأً له ووَزَرًا على ما تقدم ...

... فلما يئس مالكٌ مما أراده من قتل ابن تومرت ، أشار عليه بسجنه حتى يموت ؛ فقال أمير المسلمين : علام نأخذ رجلاً من المسلمين نسجنه ولم

(١) روى ابن خلكان طرفاً من الحوار الذي جرى بين ابن تومرت وفقهاء الحضرة ، نرى من الغالطة أن نُسبته بأبجاز :

قال الملك لعلماء بلده : سلوا هذا الرجل ما ينبغي منا ؟

فاجاب له قاضي المرية - واسمه محمد بن اسود - فقال : ما هذا الذي ينقل عنك من الاقوال

في حق ابنك العادل الرحيم ، المتقاضي الحق ، المؤثر طاعة الله تعالى على هواه ؟

قال ابن تومرت : اما ما نقل عنى فقد قلته ، ولي من ورائه افوال ، واما قولك انه يؤثر

طاعة الله تعالى على هواه وينقاد الى الحق ... فهل بلغك يا قاضي ان الخيرة تباع جهاراً ،

ونمشى الخباير بين المسلمين ، وتؤخذ اموال اليتامى ؟... وعدد من ذلك شيئا كثيراً .

فلما سمع الملك كلامه ذرفت عيناء واطرق حياء ، ففهم الحاضرون من فحوى كلامه انه طامع

في المملكة لعمريه ، ولما راوا سكوت الملك وانخداعه لكلامه لم يتكلم احد منهم ، فقال مالك بن

وعيب - وكان كثير الاجترار على الملك - : ايها الملك ، ان عندي لنصيحة ، ان قبلتها حمست

عافيتها ، وان تركتها لم تأمن غائاتها .

فقال الملك : ما هي ؟

قال : اني خائف عليك من هذا الرجل ، وارى انك تعتقله واصحابه وتنفق عليهم كل يوم

دينارا لتكفي شره ، وان لم تفعل ذلك لننتقم عليه خزائنك كلها ثم لا ينفعك ذلك ...

(٢) ويروى ابن الاثير ان الذي منع امير المسلمين من الاخذ برأى مالك بن وهيب ، رجل

من اكابر المسلمين يسمى بيان بن عثمان .

يتعيّن لنا عليه حق ؟ وهل السجن* إلا أخو القتل ؟ ولكن نأمره أن يخرج
عنا من البلد وليتوجه حيث شاء !
فخرج هو وأصحابه متوجهاً إلى سُوس^(١) ؛ فنزل بموضع منها يُعرَفُ
بتينمل^(٢) ..

[بدءُ دعوة الموحدين]

من هذا الموضع قامت دعوته ، وبه قبرُهُ ؛ ولما نزله اجتمع إليه وجوه
المصامدة ، فشرع في تدريس العلم والدعاء إلى الخير ، من غير أن يُظهر
إمرة ولا طلباً مُلْك . وألف لهم عقيدةً بلسانهم ؛ وكان أفصحَ أهل زمانه
في ذلك اللسان ؛ فلما فهموا معاني تلك العقيدة زاد تعظيمهم له ، وأُشْرِيت
قُلُوبُهُم محبته وأجسامهم طاعته .

فلما استوثق منهم دعاهم إلى القيام معه أولاً على صورة الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر لاغير ، ونهاهم عن سفك الدماء ولم يأذن لهم فيها ؛
وأقاموا على ذلك مدة ؛ وأمر رجالاً منهم ممن استصلح عقولهم بنصب الدعوة
واستمالة رؤساء القبائل ، وجعل يذكر المهدي ويشوق إليه ، وجمع الأحاديث
التي جاءت فيه من المصنّفات .

فلما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي ونسبه ونعته ، ادعى ذلك لنفسه ،

(١) يروي ابن خلكان وابن الأثير أنه خرج من مراکش الى أغمات ، وهناك لقي رجلاً من
أعرانه اسمه عبد الحق بن إبراهيم ، من فعهاء المصامدة ، فأشار عبد الحق ابن تومرت أن يلجأ
إلى تينمل ، لأنها أكثر حصانة ومنعة .

(٢) أنظر ص ٢٤٨ .

وقال أنا محمد بن عبد الله ... ورفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم^(١) ؛ وصرح بدعوى العصمة لنفسه ، وأنه المهديُّ المعصوم ، وروى في ذلك أحاديث كثيرة ، حتى استقر عندهم أنه المهدي ، وبسط يده فبايعوه على ذلك ، وقال : أبايكم على ما بايع عليه أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولَ الله .

ثم صنف لهم تصانيف في العلم ، منها كتاب سماه « أعز ما يطلب » ، وعقائد في أصول الدين ؛ وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل ، إلا في إثبات الصفات ، فانه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها : وكان يُبطن شيئا من التشيع ، غير أنه لم يظهر منه إلى العامة شيء .

[طبقات الموحدين]

وصنّف أصحابه طبقات ؛ فجعل منهم العشرة ، وهم المهاجرون الأولون الذين أسرعوا إلى إجابته ، وهم المسمون بالجماعة ؛ وجعل منهم الخمسين ، وهم الطبقة الثانية ؛ وهذه الطبقات لا تجمعها قبيلة واحدة ، بل هم من قبائل شتى ؛ وكان يسميهم المؤمنين^(٢) ، ويقول لهم : ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم ، وأنتم العصاة المغنيون بقوله عليه الصلاة

(١) انظر التعليق رقم ٣ ص ٢٤٥

(٢) من هذه التسمية اتخذ أميرهم لقب « أمير المؤمنين » ، ويسمون الموحدين أيضا ، لأنهم أول من تحدث في التوحيد وعلم الكلام بالمغرب ، وكان ذلك محرما على المغاربة في عهد المرابطين كما سبق ذكره .

والسلام : « لاتزال طائفةً بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله » . ؛ وأنتم الذين يفتح الله بكم فارسَ الروم ، ويقتل الدجال ؛ ومنكم الأمير الذي يُصَلِّي بعيسى بن مريم ، ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة ؛ هذا مع جزئيات كان يخبرهم بها وَقَعَ أكثرها^(١) وكان يقول : لو شئت أن أعد خلفاءكم خليفة خليفة ...

فزادت فتنة القوم به ، وأظهروا له شدة الطاعة .

وقد نظم هذا الذي وصفناه من قول ابن تومرت في تخليد هذا الأمر ، رَجُلٌ من أهل الجزائر ، مدينةٍ من أعمال بجاية^(٢) ، وقد على أمير

(١) اختلف مؤرخو المشاركة في الحكم على بعض ما جاء به ابن تومرت أو عزى إليه مما يسمونه بالخوارق ، ونسبه كثير منهم الى الدجل والشعبية ، وتعقبوا دعاوى انصاره وما ينسبون اليه من ذلك بالتفنيد والابطال ، محاولين رد كل شيء منه الى أسباب طبيعية زعموها تهويها لشأنه وشأن خوارقه ، ولزم قليل منهم جانب الصمت مكتفيا بسرد ما انتهى اليه من أنباءه ، ما له منها وما عليه ، من غير تعليق ولا رأى ، ولم يحاول أحد منهم - فيما نعلم - انصافه أو الدفاع عنه أو الإشادة بعمله .

ذلك - فيما نظن - لأن المغرب الاسلامي - ونعني به الأندلس وما يدانيها من بلاد العدو - لم يكن يعترف بشيء من الولاء للخليفة العباسي في بغداد ، ولم يدع له يوما على منبر من منابر المغرب ، لا في الأندلس ولا في الشاطئ الأفريقي ، عدا فترات قليلة متقطعة ، وأول دعاء دعى للخلافة العباسية على منابره - كما يقول صاحب المعجب - كان في أيام بنى تاشفين ، ثم انقطع على يد الموحدين - أصحاب ابن تومرت - الذين لقبوا أميرهم بـ « أمير المؤمنين » ، وهو لقب الخليفة في بغداد ، فما أحرى هذا أن يحمل مؤرخى المشاركة على النظر بإرتياب الى ابن تومرت وأصحابه ، وأن يعتبروهم طلائع ملك يخلعون في سبيله طاعة الخليفة ويخرجون عن الولاء له ، ومن ثمة كان رأى مؤرخيهم في شيخ الموحدين ...!

على أن الرأى مهما يختلف في شأن محمد بن تومرت ، فما لا شك فيه أنه رجل من أهل الإيمان والفتنة ، كان له رأى في سياسة الدولة الاسلامية يستند الى أساس من الدين ، فاتخذ أسبابه لتنفيذ رأيه والوصول الى هدفه ، وقد بلغ بإيمانه ، وفطنته ، وقوة عزمه ، كثيرا مما اراد .

(٢) كذلك كانت في ذلك التاريخ ، وهي الآن عاصمة الاقليم .

المؤمنين أبي يعقوب (١) وهو بتينمل ، فقام على قبر ابن تومرت بمحضر
من الموحدين وأنشد قصيدة أولها :

سلامٌ على قبرِ الإمامِ المجدِّ	سلالةٍ خيرِ العالمين محمدٍ
ومشبهه في خلقه ثم في اسمه	وفي اسم أبيه والقضاء المسدِّ
ومحي علوم الدين بعد مماتها	ومظهر أسرار الكتاب المسدِّ
أتتنا به البشرى بأن يملأ الدنيا	بقسطٍ وعدلٍ في الأنام مخلصٍ
ويفتح الأمصار شرقاً ومغرباً	ويملك عرباً من مغيرٍ ومنجدٍ
فمن وصفه : أقنَى واجلَى وأنه	علاماته خمسٌ تبين لمهتدي :
زمانٌ ، وإسمٌ ، والمكانُ ، ونسبةٌ	وفعلٌ له في عصمةٍ وتأييدٍ
ويلبثُ سبعاً أو فتسعا يعيشها	كذا جاء في نص من النقل مُسندٍ
فقد عاش تسعاً مثل قول نبينا	فذلكم المهديُّ بالله يهتدي
وتتبعه للنصر طائفةٌ الهدي	

فأكرم بهم إخوان ذى الصديق أحمد
هي الثلثة المذكور في الذكر أمرها وطائفةٌ المهديُّ بالحق تهتدي
ويقدمها المنصورُ والناصرُ الذي له النصرُ حزبٌ إذ يروح ويغتدي
هو المنتقى من قيس عيلان مفخراً
ومن مرة أهل الجلال الموطد (٢)

(١) هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

(٢) انظر نسب عبد المؤمن في التعليق رقم ٢ ص ٢٤٨ .

خليفة مهديّ الإله وسيّفه ومن قد غدا بالعلم والحلم مُرتدى
بهم يجمع الله الجبابرة الأولى

يصدّون عن حُكم من الحق مرشد
ويقطع أيام الجبابرة التي
أبادت من الإسلام كلّ مشيدٍ
فيغزّون أعرابَ الجزيرة عنوةً
ويغزّون الروم فتح غنيمةٍ
ويغزّون للدّجال يغزونه ضُحاً
ويقتله في باب لُدٍّ وتنجلي
شكوكُ أمالت قلباً من لم يوحدٍ
وينزلُ عيسى فيهم وأميرُهم
إمام فيدعوهم لمحرابٍ مسجِدٍ
يصلّي بهم ذاك الأمير صلاتهم
بتقديم عيسى المصطفى عن تعمدٍ
فيمسح بالكفين منه وجوههم
ويخبرهم حقاً بعزٍّ مجدّدٍ
وما إن يزال الأمر فيه وفيهم

إلى آخر الدهر الطويل المَرمِدِ
فأبلغ أمير المؤمنين تحيةً على النأي مني والوداد المؤكّدِ
عليه سلام الله ما ذرّ شارق

وما صدر الرُّاد عن ورْدٍ مورد

وقد قيل إن منشئ هذه القصيدة لم يحضر ذلك المشهد ولم ينشدها بنفسه
نعتة عن ذلك الكُبرة وبعدُ الشُّقة : وإنما أرسل بها فأُنشِدت على قبر
الإمام ؛ وكان عمله إياها وعبد المؤمن حيّ ؛ فالله أعلم ؛ وهي طويلة ،

هذا ما اخترت له منها ؛ ولم أوردتها في هذا الموضع لأنها من مختار الشعر ،
ولكن لموافقتها الفصل الذى قبلها .

ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر ، وفتنتهم به تشتد ،
وتعظيمهم له يتأكد : إلى أن بلغوا في ذلك إلى حدٍّ لو أمر أحدهم بقتل
أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء : وأعانهم على ذلك وهونته
عليهم ما في طباعهم من خفة سفك الدماء عليهم ، وهذا أمرٌ جُبِلت عليه
فطرهم واقتضاه ميل إقليهم .

حكى أبو عبيد البكرى الأندلسى ثم القرطبى في كتابه الموسوم
بـ « المسالك والممالك » عن رجال ، قال : أهديت إلى الإسكندر فرسٌ
ببعض بلاد الغرب لم تلد الخيل أسبق منها ، لم يكن فيها عيبٌ إلا أنها لم
يسمع لها صهيل قط . فلما حل الإسكندر في تطوافه بجبال دَرَن ، وهى
بلاد المصامدة ، وشربت تلك الفرس من مياهها ، صهلت صَهْلَةً اضطكت
منها الجبال ، فكتب الإسكندر إلى الحكيم يخبره بذلك ؛ فكتب إليه :
لأنها بلادٌ شرٌّ وقسوةٍ ، فعجِّل الخروج منها !
فهذه حال بلاد القوم ؛ وأما خفة سفك الدماء عليهم فقد شهدت أنا منه
أيام كَوْنى بسوس ما قَضِيت منه العجب .

[الحرب بين المرابطين والموحِّدين]

ولما كانت سنة ٥١٧ هـ جهز جيشاً عظيماً من المصامدة جلُّهم من أهل
تينملّ ، مع من انضاف إليهم من أهل سوس . وقال لهم : اقصدوا

هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين ، فادعواهم إلى إمامة المنكر ، وإحياء المعروف ، وإزالة البدع ، والإقرار بالإمام المهدي المعصوم ؛ فإن أجابوكم فهم إخوانكم لكم ما لهم وعليهم ما عليكم ، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم .

وأمر على الجيش عبد المؤمن بن علي ، وقال : أنتم المؤمنون ، وهذا أميركم . فاستحق عبد المؤمن من يومئذ اسم إمرة المؤمنين .

وخرجوا قاصدين مدينة مراکش^(١) ، فلقىهم المرابطون قريباً منها بموضع يدعى البحيرة ، بجيش ضخم من سراة لتونة ، أميرهم الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين ، فلما تراءى الجمعان أرسل إليهم المصامدة يدعونهم إلى ما أمرهم به ابن تومرت ، فردوا عليهم أسوأ رد ، وكتب عبد المؤمن إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بما عهد إليه محمد بن تومرت ؛ فرد عليه أمير المسلمين يحذره عاقبة مفارقة الجماعة ، ويذكّره الله في سفك الدماء وإثارة الفتنة ؛ فلم يردع ذلك عبد المؤمن ، بل راده طمعاً في المرابطين وحقّق عنده ضعفهم ؛ فالتقت الفئتان ، فانهزم المصامدة وقُتل منهم خلق كثير^(٢) ، ونجا عبد المؤمن في نفر من أصحابه ؛ فلما جاء الخبر لابن تومرت قال : أليس قد نجا عبد المؤمن ؟ قالوا : نعم . قال : لم يُفقد أحد ! .

ولما رجع القوم إلى ابن تومرت ، جعل يهون عليهم أمر الهزيمة ، ويُقرر

(١) كانت هذه المعركة - على ما ذكره أهل التاريخ - سنة ٥٢٤ هـ وقد سبقتها معارك أخرى لم يذكرها المراكشي .

(٢) فقد في هذه المعركة أبو عبد الله الوثعري .

عندهم أن قتلهم شهداء ، لأنهم ذابُّون عن دين الله ، مُظهرون للسُّنة ؛ فزادهم ذلك بصيرةً في أمرهم ، وحرصاً على لقاء عدوِّهم .

ومن حينئذ جعل المصامدة يشنون الغارات على نواحي مراكش ، ويقطعون عنها موادَّ المعاش وموصول المرافق ، ويقتلون ويسبُّون ، ولا يُبْقُونَ على أحد ممن قَدروا عليه ؛ وكثر الداخلون في طاعتهم والمنحاشون إليهم ؛ وابن تومرت في ذلك كلَّه يكثر التزهُد والتقلُّل ، ويظهر التشبُّه بالصالحين والتشدد في إقامة الحدود ، جارياً في ذلك على السُّنة الأولى .

أخبرني من رآه - ممن أثق إليه - يضرب الناس على الخمر بالأَكمام والنعال وعسب النخل ، متشبهاً في ذلك بالصحابه .

ولقد أخبرني بعض من شهدته وقد أتى برجل سكران ، فأمر بحده ، فقال رجلٌ من وجوه أصحابه يسمى يوسف بن سليمان : لو شدَّدنا عليه حتى يخبرنا من أين شربها لنَحْسم هذه العلةَ من أصلها ...! فأعرض عنه ؛ ثم أعاد عليه الحديث ، فأعرض عنه ، فلما كان في الثالثة قال له : أَرَأَيْتَ لو قال لنا : شربتها في دار يوسف بن سليمان ، ما نحن صانعون ؟ فاستحيا الرجل وسكت ، ثم كُشف عن الأمر ، فإذا عبيدُ ذلك الرجل سقَّوه ، فكان هذا من جملة ما زادهم به فتنةً وتعظيماً ، إلى أشياء كان يُخبر بها فتقع كما يُخبر .

ولم يزل كذلك وأحواله صالحة ، وأصحابه ظاهرون ، وأحوال المرابطين المذكورين تختلُّ ، وانتقاض دولتهم يتزايد ، إلى أن توفي ابن تومرت

المذكور في شهور سنة ٥٢٤ بعد أن أسس الأمّور وأحكم التدبير ورسم لهم ما هم فاعلوه .

[ذكر ولاية عبد المؤمن]

ثم قام بالأمر من بعده عبد المؤمن بن علي ، وبايعه المصامدة ، واتفقت على تقديمه الجماعة ؛ وكان الذين سعوا في تقديمه وهيئوا ذلك له ثلاثة ، وهم من أهل الجماعة ^(١) : عمر بن عبد الله الصنهاجي المعروف عندهم بعمر أزنّاج ، وعمر بن ومّزال - الذي كان اسمه قبل هذا فضّكة فسماه ابن تومرت عمر ، يعرفونه بعمر إينتي - وعبد الله بن سليمان من أهل تينمل ، من قبيلة يقال لها مسكّالة ؛ ووافقهم على ذلك سائر أهل الجماعة وأهل خمسين وباقي الموحدين .

[وصية ابن تومرت]

وذلك أن ابن تومرت قبل موته بأيام يسيرة استدعى هؤلاء المسمّين بالجماعة ، وأهل خمسين ؛ وهم - كما ذكرنا - من قبائل مفترقة لا يجمعهم إلا اسم المصامدة ؛ فلما حضروا بين يديه قام - وكان متكئاً - فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، ويذكر ما كانوا عليه من الثبات في دينهم ، والعزيمة في أمرهم ، وأن أحدهم كان لاتأخذه

(١) انظر طبقات الموحدين ، ص ٢٥٥ من هذا الكتاب .

في الله لومة لائم ، وذكر من حَدَّ عمر رضى الله عنه ابنه في الخمر ، وتصميمه على الحق ، في أشباه لهذه الفصول ، ثم قال :

«...فانقرضت هذه العصابة - نُضِر الله وجوهها ، وشكر لها سعيها ، وجزاها خيراً عن أمة نبيها - وخبطت الناس فتنة تركت الحليم حيران ، والعالم متجاهلاً مُداهناً ؛ فلم ينتفع العلماء بعلمهم ، بل قصدوا به الملوك ، واجتلبوا به الدنيا ، وأمالوا وجوه الناس إليهم ... »
في أشباه لهذا القول ، إلى هلم جرأ :

«ثم إن الله - سبحانه وله الحمد - منَّ عليكم أيتها الطائفة بأبيته ، وخصَّكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده ، وقبَّض لكم من أَلْمَنَّاكم ضللاً لاتهدون ، وَعُمياً لا تبصرون ، لا تعرفون معروفاً ، ولا تُنكرون منكراً ، قد فَشَتْ فيكم البدع ، واستهوتكم الأباطيل ، وزينَ لكم الشيطان أضاليلَ وتُرَّهاتٍ أَنْزَهُ لسانى عن النطق بها وأربأُ بلفظى عن ذكرها ؛ فهذاكم الله به بعد الضلالة ، وبَصَّرَكم بعد العمى ، وجمعكم بعد الفرقة ، وأعزَّكم بعد الذلَّة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين ؛ وسيُورثكم أرضهم وديارهم ؛ ذلك بما كسبته أيديهم وأضرته قلوبهم ، وما ربك بظلام للعبيد ؛ فجددوا لله سبحانه خالص نياتكم ، وأروه من الشكر قولاً وفعلاً ما يُزَكِّي به سعيكم ويتقبَّلُ أعمالكم وينشر أمركم ؛ واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء ، وكونوا يداً واحدة على عدوكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم وكثر أتباعكم وأظهر الله الحق على أيديكم ، وإلا تفعلوا شملكم الذل وعممكم الصغار واحتقرتكم العامة

فتخطفتكم الخاصة ؛ وعليكم في جميع أموركم بمزج الرافة بالغلظة ، واللين بالعنف ؛ واعلموا مع هذا أنه لا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا على الذى صلح عليه أمر أولها ، وقد اخترنا لكم رجلا منكم ، وجعلناه أميراً عليكم ؛ هذا بعد أن بَلَوْنَاهُ فِي جميع أحواله ، من ليله ونهاره ، ومدخله ومخرجه ؛ واختبرنا سريره وعلايته ، فرأيناهُ في ذلك كله ثَبَتاً في دينه ، متبصراً في أمره ، وإِنِّى لأرجو ألا يُخلف الظنُّ فيه ؛ وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن ؛ فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربه ، فإنَّ بَدَلٌ أو نكص على عقبه أو ارتاب في أمره ففى الموحدين - أعزهم الله - بركةٌ وخير كثير ، والأمرُ أمرُ الله يقلده من شاء من عباده .

فبايع القوم عبد المؤمن ، ودعا لهم ابن تومرت ، ومسح وجوههم وصدورهم واحداً واحداً ؛ فهذا سبب إمرة عبد المؤمن رحمه الله .
ثم توفى ابن تومرت بعد عهده بيسير ، واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن .

فصل

حياة عبد المؤمن وأعماله وعماله

وعبد المؤمن هذا ، هو عبد المؤمن بن علي بن علوي الكومي^(١) ، أمه حرة كومية أيضاً ، من قوم يقال لهم بنو مُجَبَّر ، مولده بضیعة من أعمال تلمسان تُعرف بتاجرا^(٢) ؛ وقيل إنه كان يقول إذا ذكر كومية^(٣) : لست منهم ، وإنما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان^(٤) ، ولكومية علينا حقُّ الولادة بينهم والمنشأ فيهم ، وهم الأَنخوال. وهكذا أدركت من أدركت من أولاده وأولاد أولاده ينتسبون لقيس عيلان بن مضر ، وبهذا استجاز الخطباء أن يقولوا إذا ذكروه بعد ابن تومرت : « قسيمه رضى الله عنه في النسب الكريم ».

كان مولده في آخر سنة ٤٨٧ في أيام يوسف بن تاشفين ؛ وكانت وفاته في شهر جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ ، ومدة ولايته من حين استوسق له الأمر بموت علي بن يوسف أمير المسلمين - في سنة ٣٧ على التحقيق - إحدى وعشرين سنة ، إلى أن تُوفى في التاريخ المذكور .

(١) الكومي : نسبة الى كومية ، أو كومة : قبيلة صغيرة نازلة بساحل البحر من أعمال تلمسان .

(٢) في ابن خلكان وغيره : تاجرة .

(٣) في الأصل : كمية ، ومماها ابن خلكان : كومة .

(٤) انظر التعليق رقم ٢ ص ٢٤٨ .

وكان أبيض ذا جسمٍ عَمَمٍ تعلوه حمرة ، شديدٌ سواد الشعر ، معتدل القامة ، وضئ الوجه ، جهوري الصوت ، فصيح الألفاظ ، جَزَل المنطق ؛ وكان محبباً إلى النفوس ؛ لا يراه أحدٌ إلا أحبه بديهة ؛ وبلغنى أن ابن تومرت كان يُنشد كلما رآه :

تَكمَلتُ فيكَ أخلاقٌ خُصِصَتْ بها فكلُّنا بك مسرورٌ ومغتبِطُ
فالسنُّ ضاحكةٌ ، والكفُّ مانحةٌ والصَّدْرُ مُنْشَرَحٌ ، والوجهُ مُنْبَسِطُ

اولاده:

كان له من الولد ستة عشر ذكراً ، وهم : محمد ، وهو أكبر ولده ووليُّ عهده ؛ وهو الذى خُلِعَ ؛ وعلى ، وعمر ، ويوسف ، وعثمان وسليمان ، ويحيى ، واسماعيل ، والحسن ، والحسين ، وعبد الله ، وعبد الرحمن ، وعيسى . وموسى ، وإبراهيم ، ويعقوب .

وزرائه:

وزر له فى أول الأمر أبو حفص عمر أزنّاج ، إلى أن استقر الأمر واستقلَّ عبد المؤمن ؛ فأجلى أبا حفص هذا عن الوزارة ورثاً بقدره عنها ، إذ كان عندهم فوق ذلك ؛ واستوزر أبا جعفر أحمد بن عطية ، فجمع بين الوزارة والكتابة ، فهو معدود فى الكتاب والوزراء ، فلم يزل عبد المؤمن بجمعهما له إلى أن افتتحوا بجاية ، فاستكتب عبد المؤمن من أهلها رجلاً من نُبهاء الكتاب يقال له أبو القاسم القالى - وسياق ذكره فى كتابه - واستمرت

وزارة أبي جعفر إلى أن قتله عبد المؤمن في شهور سنة ٥٣ واستصنى أمواله ،
ثم وزر له عبد السلام الكوي ، وكان يدعى المقرَّب ، لشدة تقريب
عبد المؤمن إياه ، فاستمرت وزارة عبد السلام هذا إلى أن أرسل إليه
عبد المؤمن من قتله خنقاً في شهور سنة ٥٥٧ ، ثم وزر له ابنه عمر إلى
أن توفي عبد المؤمن .

كتابه :

أبو جعفر أحمد بن عطية المذكور في الوزراء ، كان قبل اتصاله بعبد المؤمن ،
وفي الدولة اللّمتونية ^(١) يكتب لعلّ بن يوسف في آخر أيامه ، وكتب عن
ناشفين بن علي بن يوسف .

فلما انقرض أمرهم هرب وغير هيئته وتشبّه بالجنّد ، وكان
محسناً للرّمي ، وكان في الجنّد الذين خرجوا إلى سُوس لقتال ثائر قام هناك ؛
كان الأمير على هذا الجنّد أبو حفص عمر إينتي المتقدم الذكر في
أهل الجماعة ^(٢) فلما انهزم أصحاب ذلك الثائر وقُتل هو وانفضّت تلك
الجموع ، طلب أبو حفص من يكتب عنه صورة هذه الكائنة إلى
الموحدين الذين بمراكش ، فدُلّ على أبي جعفر هذا ونُبّه على مكانه ،
فاستدعاه ، وكتب عنه إلى الموحدين رسالة في شرح الحال ، أجاد في
أكثرها ما شاء ، منعني من رسمها في هذا الموضع ما فيها من الطول .

(١) يعنى دولة المرابطين .

(٢) انظر ص ٢٦٢ .

فلما بلغت الرسالة عبد المؤمن استحسناها واستدعى أبا جعفر هذا واستكتبه ، وزاده إلى الكتابة الوزارة ؛ لما رآه من شجاعة قلبه وحصافة عقله ؛ فلم يزل وزيره كما ذكرنا إلى أن قتله في التاريخ الذي ذكر .

وكان سبب قتله - فيما بلغني - أنه كانت عنده بنت أبي بكر بن يوسف ابن تاشفين ، التي تُعرف ببنت الصحراوية : وأخوها يحيى فارس المرابطين المشهور عندهم ، يُعرف أيضاً بيحيى ابن الصحراوية ^(١) ؛ فحظي يحيى هذا عند الموحدين ، وقودوه على من وُحِد من لتونة ، ولم يزل وجيهاً عندهم مُكرماً لديهم - وكان خليقاً بذلك - إلى أن نُقلت عنه إلى عبد المؤمن أشياء كان يفعلها وأقوال كان يقولها أحنَقَتْه عليه ، فتحدث عبد المؤمن ببعض ذلك في مجلسه ، وربما همَّ بالقبض على يحيى هذا ؛ فرأى الوزير أبو جعفر أن يجمع بين المصلحتين : من نصيح أميره ، وتحذير صهره ؛ فقال لامراته أخت يحيى المذكور : قولي لأخيك يتَحَفَّظ ، وإذا دعونه غداً فليَعْتَزَلْ ويُظْهِر المرض ، وإن قَدَّر على الهروب واللحاق بجزيرة مِيرْقَة فليُفْعَل ! فأخبرته أخته بذلك ، فتمارض وأظهر أن أُلْمَأ به ، فزاره أصحابه وسألوه عن علته ، فَأَسْرَأ إلى بعضهم - ممن كان يثق به - ما بلغه عن الوزير فخرج ذلك الرجل الذي أَسْرَأ إليه فنقل ذلك كله بجملته إلى رجل من ولد عبد المؤمن ، فكان هذا هو السبب الأكبر في قتل أبي جعفر المذكور ؛ وأمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بتقييد يحيى المذكور وسجنه ، فكان في سجنه إلى أن مات !

(١) هو يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين ، وكان له بلاء شديد في مقاومة الموحدين دفاعاً عن دولة بني تاشفين ، حارب في تلمسان ، وفي فاس ، ثم انتقاد حين لم يجد بداً من الانقياد كما انتقاد كثير من لتونة وانضوا تحت لواء الموحدين ، فقوده عبد المؤمن على من وُحِد من قومه .

ثم كتب له بعد أبي جعفر هذا : أبو القاسم عبد الرحمن القالى ، من أهل مدينة بجاية ، من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم ، وكتب له معه أبو محمد عيَّاش بن عبد الملك بن عيَّاش من أهل مدينة قُرطبة .

قصاته :

أبو محمد عبد الله بن جبل ، من أهل مدينة وهران من أعمال تلمسان ؛ ثم عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بالملقى ، لم يزل قاضياً له إلى أن توفى عبد المؤمن ، وصنّراً من خلافة أبي يعقوب .

[رجع الحديث إلى أخبار عبد المؤمن]

وكان عبد المؤمن مؤثراً لأهل العلم ، مُحباً لهم ، محسناً إليهم ، يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته ، ويُجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، ويُظهر التنويه بهم والاعظام لهم ؛ وقسم الطلبة طائفتين ، طلبة الموحدين ، وطلبة الحضرة ؛ هذا بعد أن تسمى المصامدة بالموحدين ، لتسمية ابن تومرت لهم بذلك لأجل خوضهم في علم الاعتقاد الذي لم يكن أحدٌ من أهل ذلك الزمان في تلك الجهة يخوض في شيء منه ^(١) .

وكان عبد المؤمن في نفسه سرى الهمة ، نزبه النفس ، شديد الملوكة كأنه كان ورثها كابراً عن كابر ^(٢) ، لا يرضى إلا بعمالي الأمور .

(١) انظر ص ٢٣٦ - ١٣٧ ، والتعليق رقم ٢ ص ٢٥٥ .

(٢) كان والد عبد المؤمن صانعاً في عمل الطين ، يعمل منه الأواني والجرار فيبيعها ، وذلك كل مرتزقه ، ثم كان من أمر ابنه عبد المؤمن ما كان !

أخبرني ^(١) الفقيه المتفني أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبي جعفر الوزير ، عن أبيه عن جده الوزير أبي جعفر ، قال : دخلتُ على عبد المؤمن وهو في بستان له قد أينعت ثماره ، وتفتحت أزهاره ، وتجاوبت على أغصانها أطياره ، وتكامل من كل جهة حسنه ؛ وهو قاعد في قبة مشرفة على البستان ، فسلمت وجلست ، وجعلت أنظر يمنة وشأمة ، متعجباً مما أرى من حسن ذلك البستان ، فقال لي : يا أبا جعفر ، أراك كثير النظر إلى هذا البستان ! قلت : يطيل الله بقاء أمير المؤمنين ، والله إن هذا لمنظرٌ حسن ! فقال : يا أبا جعفر ، المنظر الحسن هذا ؟ قلت : نعم ؛ فسكت عني ، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة ، أمر بعرض العسكر آخذى أسلحتهم ، وجلس في مكان مُطلٍّ ، وجعلت العسكر تمرُّ عليه قبيلة بعد قبيلة وكتيبة إثر كتيبة ، لا تمرُّ كتيبة إلا والتي بعدها أحسن منها ، جودة سلاح ، وفراة خيل ، وظهور قوة ؛ فلما رأى ذلك التفت إلى وقال : يا أبا جعفر ، هذا هو المنظر الحسن ، لا ثمارك وأشجارك ! ولم يزل عبد المؤمن - بعد وفاة ابن تومرت - يطوى الممالك مملكة مملكة ، ويدوخ البلاد ، إلى أن ذلت له البلاد ، وأطاعته العباد .

[نهاية المزابطين وآخر من ولي الأمر منهم]

وكان آخر ما استولى عليه من البلاد التي يملكها المرابطون ، مدينة مراکش ، دار ملك أمير المسلمين وثاصر الدين علي بن يوسف بن تاشفين ؛

(١) من هنا يبدأ عبد الواحد رواية التباريخ عن محدثيه روايه مباشرة، وكان من قبل ناقل آثار وناسخ كتب . انظر ما أثبتناه في التقديم عن مصادر عبد الواحد في كتاب المعجب .

وهذا بعد وفاة أمير المسلمين المذكور حَتَفَ أَنْفَهُ فِي شَهْرٍ سَنَةِ ٥٣٧ (١) ؛
وكان قد عهد في حياته إلى ابنه تاشفين ، فعاقته الفتنة عن تمام أمره ،
ولم يتفق له ما أمله من استقلال ابنه تاشفين المذكور بشيء من الأمور .

وخرج تاشفين بعد وفاة أبيه قاصداً تلمسان ، فلم يتفق له من أهلها
ما يريد ، فقصد مدينة وهران - وهي على ثلاث مراحل من تلمسان -
فحاصره الموحدون بها ؛ فلما اشتد عليه الحصار خرج راكباً فرساً شهباء ،
عليه سلاحه ، فاقتحم البحر حتى هلك (٢) ؛ ويقال إنهم أخرجوه من البحر
وصلبوه ثم أحرقوه ، قاله أعلم بصحة ذلك .

فكانت ولاية تاشفين هذا من يوم وفاة أبيه إلى أن قتل - كما ذكرنا -
بمدينة وهران ، ثلاثة أعوام إلا شهرين ؛ وكان قتله سنة ٥٤٠ (٣) ؛ وكان
طول هذه الولاية لا يستقر به قرار ولا تستقيم له حال ، تَنَبُّوْهُ بِالْبِلَادِ ،

(١) كان فتح الموحدين لمدينة مراکش في سنة ٥٤٢ ، وكان أميرها يومئذ ، اسحاق بن علي
ابن يوسف بن تاشفين ، وهو صبي ، وأول ما دان من البلاد لعبد المؤمن قبل مراکش : وهران ،
ثم تلمسان ، ثم فاس ، ثم طنجة ، ثم مكناسة ، ثم سلا ، ثم سبتة .

(٢) يروى في وصف مهلك تاشفين بن علي ، أنه لما تيقن أن دولتهم إلى زوال ، أتى مدينة
وهران - وهي على البحر - يريد أن يتخذها مقراً ، فان غلبه الموحدون على الأمر ركب البحر
منها إلى الأندلس حيث يأمل أن تكون له ثمة دولة ، كما قامت دولة بني أمية بالأندلس بعد
انقراض دولتهم بالشام ، وكان بظاهر وهران ربوة على البحر ، بأعلاها رباط يأوي إليه المتعبدون
فلما كانت ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ٥٣٩ - وهي ليلة يعظمها أهل المغرب - صعد
تاشفين إلى ذلك الرباط ليشارك أولئك المتعبدين في الاحتفال بتلك الليلة المعظمة ، وعلم الموحدون
- وكانوا غير بعيد - بأنفراد تاشفين في ذلك الرباط ، فقصدوه وأحاطوا به وأحرقوا بابه ،
فأيقن الذين فيه بالهلاك ، وأراد تاشفين أن يخلص من تلك الحبال ، فكانما خيل إليه أنه
مستطيع - حين يستمكن من ظهر فرسه - أن يثب وثبة فارس فوق النار فيتجاوزها وينجو .
فاعتلى صهوة فرسه وشهد لجأه ووثب ٠٠٠ ولكن الفرس ترامى نازياً من اندعر ولم يمسكه
اللجام ، فتردى من جرف هنالك إلى جهة البحر على حجارة في وعر ، فتهشم الفرس وهلك فارسه :
(٣) انظر التعليق السابق ، وفيه أن مهلك تاشفين بن علي كان في رمضان سنة ٥٣٩ .

وتتنكر له الرعية ؛ فلم تنزل هذه حاله إلى أن كان من أمره ما ذكر^(١) .
وبعد دخول عبد المؤمن - رحمه الله - مراکش ، طلب قبر أمير المسلمين ،
وبحث عنه عبد المؤمن أشدّ البحث ؛ فأخفاه الله وستره بعد وفاته كما ستره
في أيام حياته ؛ وتلك عادة الله الحُسنَى مع الصالحين المصلحين .

وانقطعت الدعوة بالمغرب لبني العباس بموت أمير المسلمين وابنه ، فلم
يُذكروا على منبر من منابرها إلى الآن ، خلا أعوام يسيرة بأفريقية ، كان
قد ملكها يحيى بن غانية الثائر من جزيرة مُرَّة على ما سيأتى بيانه .
وكانت مدة المرابطين - من حين نزولهم رحبة مراکش إلى أن انقرض
ملكهم جملةً واحدة بموت أمير المسلمين وابنه - نحواً من ست وسبعين
سنة .

[تغلب عبد المؤمن على بجاية وقلعة بني حماد]

ولما دان لعبد المؤمن جميعُ أقطار المغرب الأقصى مما كان يملكه المرابطون
- على ما قدّمنا - وأطاعه أهلها ، جمع جمعواً عظيمةً وخرج من مراکش
يقصد مملكة يحيى بن عبد العزيز بن المنصور بن المنتصر الصنهاجى^(٢) وكان :

(١) لما توفى تاشفين بن علي ، جعل المرابطون أمرهم من بعده لأخيه اسحاق بن علي ، وكان
صبيّاً ، وعليه دخل الموحدون مراکش في سنة ٥٤٢ بعد حصار استمر أحد عشر شهراً ، فقتلوه
صبراً ، فهو آخر ملوك المرابطين وبه انقرضت دولتهم .

(٢) يعنى مملكة بني حماد ، وأول ملوكهم حماد بن بلكين بن زيرى بن مناد الحميرى
الصنهاجى ، أخو المنصور صاحب افريقية ، وكان لبني مناد هؤلاء جاء قديم فى افريقية من قبل
أن تكون دولة العبيديين « الفاطميين » فى المهديّة ، واستعان بهم بنو عبيد حين استوسق لهم
الأمر فى تلك البلاد ، فلما هم المعز لدين الله العبيدى « الفاطمى » أن يتوجه إلى مصر حين
اتخذها قاعدة للملكة بعد انهيار الدولة الاخشيدية بها ، استخلف على افريقية بلكين بن زيرى ،
فكان له الحكم فى تلك البلاد الى أن مات فى سنة ٣٧٣ ، ولم تكن تبعيته للعبيديين فى القاهرة
الا تبعية اسمية .

يملك بجاية وأعمالها إلى موضع يعرف بسيوسيرات ، وهذا الموضع هو الحد فيما بينه وبين لتونة ؛ فقصده عبد المؤمن - كما ذكرنا - في شهور سنة ٥٤٠ ، فحاصر عبد المؤمن بجاية وضيق عليها أشد التضييق ، فلما رأى يحيى بن العزيز أن لا طاقة له بدفاع القوم ولا يدان بمنعهم ، هرب في البحر حتى أتى مدينة بونة ، وهي أول حد بلاد أفريقية ، ثم خرج منها حتى أتى قسنطينة المغرب ، فأرسل إليه عبد المؤمن - رحمه الله - بالجيش ، فاستنزل وأتى به عبد المؤمن ، هذا بعد أن عاهد عبد المؤمن أن يؤمن يحيى في نفسه وأهله .

ثم ولى من بعده امر البلاد النصور بن بلكين ، فقام بالأمر مقام أبيه وزاد عليه ، إلى أن توفي سنة ٣٨٦ .

وخلفه على عرش أفريقية ولده باديس ، وكان له - كما كان لأبيه وجده من قبل - تعيين الولاية والعمال في البلاد التي تخضع لحكمه ، فاقطع عمه حماد بن بلكين ، أشير ، فأنشأ بها حماد قلعة سنة ٣٨٦ وأقام بها ملكاً يتمتع بكثير من مظاهر الاستقلال ، ولكنه يقر بالولاية لابن أخيه بالقيروان والمهدية وتونس .

ومنذ الوقت انشئت فيه تلك القلعة صار بنو مناد فرقتين : بنو حماد بقلعتهم ، وبنو باديس بالقيروان والمهدية . وتوفي باديس سنة ٤٠٦ .

ثم خلف باديس على عرش أفريقية ولده المعز بن باديس ، وهو مؤسس دولتهم الحقيقية ، فقد أعلن انفصاله صريحاً عن العبيديين في القاهرة ، وخلع طاعتهم ، وقطع خطبة الخليفة العبيدي المستنصر بالله في القاهرة ، وخطب للإمام القائم بأمر الله العباسي صاحب عرش الخلافة في بغداد سنة ٤٣٥ ولما بعث إليه المستنصر يتهدهدهم يعباً به ، وقال لرسوله : قل له إن لنا ملك أفريقية قبل أن يكون للعبيديين ذكر !

ولما استقل المعز بن باديس بملك أفريقية ، بدأ استقلال بني حماد كذلك بما تحت أيديهم من البلاد ، ووقف أبناء العم بعضهم بازاء بعض متنافسين ، يريد كل فريق أن يوسع سلطانه ، فنشأت بينهما سلسلة من الحروب أضعفت الفريقين جميعاً وهيأت للفرنجة أن يستولوا على صقلية - وكانت حتى ذلك الوقت جزءاً من مملكة أفريقية - ثم ولى الفرنجة وجههم بعد ذلك نحو أفريقية نفسها ، فاستولوا على طرابلس وكثير من الأطراف الشرقية لمملكة بني باديس .

وتوالى على عرش أفريقية طائفة من ولد المعز بن باديس :

تميم بن المعز : من سنة ٤٥٤ إلى سنة ٥٠١ .

=

ودخل عبد المؤمن بجاية وملكها ، وملك قلعة بنى حماد ، وهى معقل
صنهاجة الأعظم وحرزهم الأمان ، فيها نشأ ملكهم ، ومنها انبعث أمرهم .
وكان يحيى هذا وأبوه العزيز وجداه المنصور والمنتصر ، وجدهم الأكبر

ويحيى بن تميم : من ٥٠١ الى ٥٠٩ وفى عهده وصل ابن تومرت الى المهدية قادما من
المشرق فى طريقه الى المغرب الأقصى كما ذكر . نظر التعليق رقم ٣ ص ٢٤٦ .
ثم على بن يحيى الى سنة ٥١٥ .

ثم أبو يحيى الحسن بن على ، وهو آخر ملوكهم ، وفى عهده استولى الفرنجة على طرابلس
عنوة سنة ٥٤١ ، ثم على المهدية حاضرة الدولة سنة ٥٤٣ ، وهى السنة التى انتهى فيها ملكهم .
وفر أبو يحيى هذا الى قلعة محرز بن زياد ، فأقام عنده حيناً ، ثم بدا له أن يفارقه الى مصر ملتجئاً
الى الحافظ العبيدى ، ولكن صاحب صقلية كان يتربص به فى البحر ، فعدل عن السفر الى
القاهرة وقصد الى ابن عمه يحيى بن العزيز - المذكور - ملك بجاية ووارث ملك بنى حماد ،
فسيره يحيى بأهله الى جزائر بنى مزغنة ، فأقام بها هو ومن معه من أهله ممنوعين من التصرف
كالمحجور عليهم فى أسر ابن عمهم ، فلم يزلوا كذلك حتى ملك عبد المؤمن بجاية وقضى على
مملكة بنى حماد ، كما انقضى من قبل ذلك ملك بنى عمهم خلفاء المعز بن باديس على يد صاحب
صقلية .

وانما ذكرنا هذا لتكشف عن أولية بنى حماد الصنهاجيين أصحاب بجاية وقلعة بنى حماد
وما والى ذلك من البلاد .

ثم نعود من حيث بدأنا الحديث عن حماد بن بلكين بن مناد ، فنقول ان رغبته فى الانفصال
عن صاحب عرش القيروان بدت منذ سنة ٣٩٠ ، وتوالت الحروب بين بنى الميم بسبب ذلك ،
وأعان على اشتداد الخلاف وتواتر أسبابه بين الدولتين الشقيقتين ، ما دبره العبيديون فى
القاهرة من كيد للأفارقة ، بسبب قطع المعز بن باديس خطبتهم وخلعه طاعتهم - كما قدمنا -
فدعا العبيديون قبائل من العرب : بنى زغبة ، وبنى رباح ، وبنى الأثيج ، وبنى عدى ، وبنى
سليم : بنى هلال بن عامر ، الى النزوح الى المغرب ، ليناوئوا الصنهاجيين من بنى المعز وبنى حماد
جميعاً ، فعانوا فى البلاد عيشاً شديداً ، وأعانوا بعضاً من أهلها على بعض ، فهم حيناً من أنصار
بنى المعز على بنى حماد ، وحيناً من أنصار بنى حماد على بنى المعز ، يتقاسمون الجبهتين ،
فبعضهم مع هؤلاء وبعضهم مع أولئك ، وتنشب الحرب بين أبناء العم ومع كل فريق منهما فريق
من العرب ، وكان الربح دائماً للعرب ، سواء أكانوا مع الفالبيين أم كانوا مع المغلوبين ، اذ كان
موقعهم فى كثير من تلك المعارك موقف المرتزقة ، لهم الأجر والفنيمة فى حالتى النصر والهزيمة
وتوالى ملك بنى حماد بعد وفاة حماد فى سنة ٤١٧ ، فملك بعده ولده « القائد » الى أن
توفى سنة ٤٤٦ ، وملك بعد القائد ابنه « محسن » ثم ملك بعد محسن ابن عمه « بلكين » ، ثم
الناصر بن علناد بن محمد بن حماد ، الى أن ملك يحيى بن العزيز المذكور ، فظل على عرش بجاية
حتى استولى عليها وعلى قلعة بنى حماد وسائر تلك النواحي ، أمير الموحدين عبد المؤمن بن على =

حماد - من شيعة بى عبيد^(١) وأتباعهم والقائمين بدعوتهم ؛ ومن بلادهم - أعنى صنهاجة - قامت دعوة بنى عبيد ؛ وهم الذين أظهروها ونشروها ونصروها^(٢) ؛ فلم يزل ملك بنى حماد هو لاء مستمرا ، ودولتهم قائمة ، وأمرهم نافذا ، لا ينازعهم أحد شيئا مما فى أيديهم ؛ إلى أن أخرجهم من ذلك كله وملكه بأسره وضمه إلى مملكته : أبو محمد عبد المؤمن بن على فى التاريخ الذى تقدم !

ولما ملك عبد المؤمن بجاية والقلعة وأعمالها ، رتب من الموحدين من يقوم بحماية تلك البلاد والدفاع عنها ؛ واستعمل عليها ابنه عبد الله ؛ وكررا راجعا إلى مراكش ومعه وفى جنده يحيى بن العزيز ملك صنهاجة وأعيان دولته ؛ فحين وصلوا إلى مراكش أمر لهم بالمنازل المتسعة والمراكب النبيلة والكسى الفاخرة والأموال الوفرة ؛ وخص يحيى من ذلك بأجزله ، وأسناه وأحفله ؛ ونال يحيى هذا عنده رتبة عالية وجاهاً ضخماً ، وأظهر عبد المؤمن عناية به لامتزيد عليها ...

بلغنى من طرق عدة أن يحيى بن العزيز كان فى مجلس عبد المؤمن يوماً ، فذكروا تعذر الصرف ؛ فقال يحيى : أما أنا فعلى من هذا كلفة شديدة ، وعبيدى فى كل يوم يشكون إلى ما يلقون من ذلك ، ويذكرون أن أكثر

= ويذكر ابن الأثير وابن كثير أن مسير عبد المؤمن نحو بجاية ومملكة بنى حماد ، كان فى سنة ٥٤٦ هـ ، وتمت له الغلبة عليها فى سنة ٥٤٧ هـ خلافا لما يذكره المراكشى .

(١) يعنى الفاطميين .

(٢) كذلك كانوا قبل أن يقطع المعز بن باديس الصنهاجى خطبة المستنصر العبيدى « الفاطمى » سنة ٤٣٥ هـ ويطلع طاعته . انظر التمليق رقم ٢ ص ٢٧٢ .

حوائجهم تتعذر لقمة الصرف - وذلك أن عادتهم في بلاد المغرب أنهم يضربون أنصاف الدراهم وأرباعها وأثمانها والخراب ، فيستريح الناس في هذا وتجرى هذه الصروف في أيديهم فتتسع بياعاتهم - فلما قام يحيى بن العزيز من ذلك المجلس ، أتبعه عبد المؤمن ثلاثة أكياس صروف كلها ، وقال لرسوله : قل له لا يتعذر عليك مطلوب ما دُمت بحضرتنا إن شاء الله عز وجل !

وأقام عبد المؤمن رحمه الله بمراكش ، مرتباً للأمور المختصة بالملكة ، من بناء دور ، واتخاذ قصور ، وإعداد سلاح ، واستئصال مُستعصٍ ، وتأمين سُبل ، وإحسانٍ إلى رعية ، وما هذا سبيله .

فصل

أحوال الأندلس بعد سقوط دولة المرابطين

فأما أحوال جزيرة الأندلس فإنه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحسن على بن يوسف ، اختلَّت أحوالها اختلالاً مُفرطاً ، أوجب ذلك تحاذُلُ المرابطين وتواكلهم ، وميلُهم إلى الدُّعة ، وإيثارهم الراحة ، وطاعتُهم النساء ؛ فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلُّوا في أعينهم واجترأ عليهم العدو ، واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم ؛ وكان أيضاً من أسباب ما ذكرناه من اختلالها ، قيامُ ابن تومرت بسوس ، واشتغالُ على بن يوسف به عن مراعاة أحوال الجزيرة .

ولما رأى أعيان بلاد تلك الجزيرة ما ذكرناه من ضعف أحوال المرابطين ، أخرجوا من كان عندهم من الولاة ، واستبدَّ كلُّ منهم بضبط بلده ؛ وكادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بني أمية ؛ فأما بلاد إفراغة فاستولى عليها ملك ارغن لعنه الله ^(١) ، ومَلَك مع ذلك سرقُسطة ^(٢) - أعادها الله للمسلمين - وكثيراً من أعمال تلك الجهات .

(١) هوريموند بيرنجه الرابع ، استولى في سنة ٥٤٣ على طرطوشة ، وملك معها جميع قلاعها ، وحصون لاردة وإفراغة .

(٢) كان استيلاء الأسبان على سرقُسطة سنة ٥١٢ - قبل الاستيلاء على إفراغة باحدى وثلاثين سنة - في عهد الاذفونش الأول ملك ارغون .

واتفق أمر أهل بلنسية ومرسية وجميع شرق الأندلس على تقديم رجل من أعيان الجند اسمه عبد الرحمن بن عياض ؛ وكان عبد الرحمن هذا من صلحاء أمة محمد وخيارهم ؛ بلغى عن غير واحد من أصحابه أنه كان معجبا بالدعوة ؛ ومن عجائب أمره أنه كان أرق الناس قلباً وأسرعهم دمعة ، فإذا ركب وأخذ سلاحه لا يقوم له أحد ولا يستطيع لقاءه بطل ؛ كان النصارى يعدونه وحده بمئة فارس ، إذا رأوا رايته قالوا : هذا ابن عياض ! هذه مئة فارس ! فحمى الله تلك الجهات ودفع عنها العدو ببركة هذا الرجل الصالح ؛ وانتشر له من الهيبة في صدور النصارى ما ردّهم عن البلاد . وأقام ابن عياض هذا بشرق الأندلس يحفظ تلك البلاد ويدود عنها إلى أن توفى ، رحمه الله وقصر وجهه وشكر له سعيه ؛ لا أتحقق تاريخ وفاته ^(١) .

وقام بأمر تلك الجهات بعده رجل اسمه محمد بن سعد ، المعروف عندهم بابن مردنيش ^(٢) .

كان محمد هذا خادماً لابن عياض ، يحمل له السلاح ويتصرف بين يديه في حوائجه ؛ فلما حضرته الوفاة اجتمع إليه الجند وأعيان البلاد

(١) مات من جراح أصابته في فتنة نشبت في مرسية ، سنة ٥٤١ .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن مردنيش ، ينتسب إلى جذام - من قبائل اليمن - ولكن أهل العلم ينكرون نسبه في العرب ، ويرجحون أنه من أصل إسباني ، وإن اسم جده الأعلى « مردنيش » محرف عن مرتينيس martinec أي ابن مارتين ، ويقولون إن والد جده « أحمد بن مردنيش » هو أول من أسلم من آبائه ، وكان ينزع به عرق إلى الأسبانية ، لأنه كان يتشبه بملوك النصارى في لباسه وسلاحه ، وكان أكثر جنده من مرتزقة الأسبان ، وكان لذلك متهما في دينه ، وكان على صلة بملوك النصارى ، يهاديهم بالتحف والألطف ، وربما استعان بهم على المسلمين في حروبه !

وكان بين ابن مردنيش هذا والأمير ابن عياض صهر هياً له السبيل إلى الإمارة من بعده في مرسية وشرق الأندلس .

فقالوا له : إلى من تُسندُ أمورنا وبمن تشير علينا ؟ وكان له ولد ، فأشاروا به عليه ؛ فقال : إنه لا يصلح ، لأني سمعت أنه يشرب الخمر ويغفل عن الصلاة ، فإن كان ولا بدَّ فقدموا عليكم هذا - وأشار إلى محمد بن سعد - فانه ظاهر النجدة كثير الغناء ، ولعل الله أن ينفع به المسلمين !
فاستمرت ولاية ابن سعد على البلاد إلى أن مات في شهر سنة ٥٦٨ (١)

* * *

وأما أهل المرية فأخرجوا من كان عندهم أيضاً من المرابطين ؛ واختلفوا فيمن يقدمونه على أنفسهم ؛ فندبوا إليها القائد أبا عبدالله بن ميمون ، ولم يكن منهم ، إنما هو من أهل مدينة دانية ؛ فأبى عليهم وقال : إنما أنا رجلٌ منكم ، ووظيفتي البحرُ وبه عُرُفتُ ؛ فكل عدوٌ جاءكم من جهة البحر فأنا لكم به ؛ فقدموا على أنفسهم من شتم غيري ! فقدموا على أنفسهم رجلاً منهم اسمه عبدالله بن محمد ، يُعرف بابن الريمي (٢) ؛ فلم يزل

(١) في الإحاطة : أنه مات وهو محصور بمرسية سنة ٥٦١ وفي نفح الطيب : ان وفاته كانت سنة ٥٦٦ .

(٢) يكنى أبا يحيى ، وكان أدبياً طريفاً طيب النفس ، وبنو الريمي سلالة من بني أمية ملوك الأندلس ، وينتسبون إلى ربيعة : قرية من أعمال قرطبة . وكان يتولى المرية قبله عامل من قبل الموحدين اسمه ابن مخلوف ، فخلع أهل المرية طاعة الموحدين وقتلوا عاملهم ذاك ، ولوا عليهم أبا يحيى ابن الريمي ، فلما دخل النصاري المرية وفعلوا بها ما فعلوا ، فر ابن الريمي إلى فاس ، وعاش بها ضائعاً خاملاً ، يسكن في غرفة مفردة ويعيش من نسخ الكتب ، وفي ذلك يقول :

أَمْسَيْتُ بَعْدَ الْمَمْلُوكِ فِي غُرْفَةٍ ضَيِّقَةٍ السَّاحِلِ وَالْمَدْخَلِ .
تَسْتَوْجِشُ الْأَرْزَاقُ مِنْ وَجْهِهَا فَمَا تَزَالُ الدَّهْرَ فِي مَعَزِلِ
النَّسَخِ بِالْقَوْتِ لَدَيْهَا وَلَا تَقْرَعُهَا كَفُّ أَخٍ مُفْضِلِ !

فبينما هو ذات ليلة في غرفته تلك ينسخ في ضوء السراج ، سمع قرعاً بالباب ، ففتحه ، فإذا شخص متنكر لا يعرفه وقد مد يده إليه بصرة فيها دنانير ، ويقول : خذها من كف أخ . . . وأنت المفضل ! يشير إلى أبياته تلك . فأخذها أبو يحيى وحسنت بها حاله ، وله غير هذا شعر جيد .

عليها إلى أن دخلها عليه النصارى من البر والبحر ؛ فقتلوا أهلها وسبوا نساءهم وبنيتهم وانتهبوا أموالهم في خبر يطول ذكره (١) .

* * *

وملك جِيَان وأعمالها إلى حصن شَقُورَة وما والى تلك الثغور ، رجلٌ اسمه عبد الله ، لا أعرف اسم أبيه ، هو معروف عندهم بابن هَمْشِك ؛ وربما ملك عبد الله (٢) هذا قرطبة أياماً يسيرة .
وأقامت على طاعة المرابطين أغرناطة وأشبيلية .

* * *

فهذه جملة أحوال الأندلس في آخر دعوة المرابطين ؛ وفي ضمن هذه الجملة جُزْئيات من أخبار الحصون والقلاع والمدن الصغار أضربت عن ذكرها خوفاً من الإطالة ، لأنها نكرةٌ والتعريف بها مُخرج إلى الطول .
وقام بمغرب الأندلس دُعاة فتن ورؤوس ضلالات ؛ فاستفزوا عقول الجهال ،

(١) روى المقرئ أن عدد من سبى من أبكار المرية في هذه الغارة بلغ ١٤ ألفاً !
(٢) كذا يسميه المراكشي : عبد الله ابن هَمْشِك ، وفي غيره : إبراهيم بن محمد بن مفرج بن هَمْشِك ، وهَمْشِك جده نصراني أسلم على يد بني هود بسرقة ، وقد اتصل ابن هَمْشِك بالأمير ابن عياض أمير شرق الأندلس ؛ فتهيأ له بهذه الصلة أن يتأمر على شقورة وقلاعها ، وغلظ أمره حتى ساوى ابن مردنيش ، وداخله حتى زوجه بنته ، ثم فسد ما بينهما بسبب هذا الصهر فتعاديا ، وكان جياراً عنيفاً شديد النكال عظيم الجراة ، وقد صفا ما بينه وبين الموحدين في آخره أمره ، فأقطعوه بمكناسة أملاكاً ذات خطر ، وأقام بها إلى أن مات .
ويروي ابن الأبار في « تحفة القادِم » شعراً لأبي بكر اليعمرى ، من أهل بدة يهجو به إبراهيم ابن هَمْشِك :

هَمْشِكُ ضُمٌّ من حرفين : من هَمْ ، ومن شَكْ
فعينُ الدين والدنيا لأمرته أَسَى تبكى !

واستألو القلوب العامة ؛ من جملتهم رجل اسمه أحمد بن قسيّ ؛ كان في أول أمره يدعى الولاية ، وكان صاحب حيل وربّ شعبة ، وكان مع هذا يتعاطى صنعة البيان وينتحل طريق البلاغة ؛ ثم ادعى الهداية ؛ بلغنى ذلك عنه من طرق صحاح ؛ ثم لم يستقم له شيءٌ مما أراد ، واختلف عليه أصحابه ؛ وكان قيامه بحصن مارتلة - وقد تقدّم اسم هذا الحصن في أخبار الدولة العبّادية ^(١) - فأسلمه - كما ذكرنا - أصحابه ، واختلفوا عليه ، ودسوا إليه من أخرجته من الحصن بحيلة حتى أخذه الموحدون قبضاً باليد ؛ فعبروا به إلى العدو ، فاتوا به عبد المؤمن رحمه الله ، فتمال له : بلغنى أنك ادعيت الهداية ! فكان من جوابه أن قال : أليس الفجر فجران ^(٢) كاذب وصادق ؛ فأنا كنت الفجر الكاذب ! فضحك عبد المؤمن وعفا عنه ؛ ولم يزل بحضرته إلى أن قتله بعض أصحابه الذين كانوا معه بالأندلس ؛ ولابن قسيّ هذا أخبار قبيحة ، مضمونها الجراءة على الله سبحانه ، والنهاون بأمر الولاية ؛ منعنى من ذكرها صرّف العناية إلى ما هو أهم منها .

[عبور الموحدين إلى الأنندلس]

ولما انتشرت دعوة المصامدة - كما ذكرنا - بالمغرب الأقصى ، تشوّف إليهم أعيانُ مغرب الأنندلس ؛ فجعلوا يفدون في كل يوم عليهم ، ويتنافسون في الهجرة إليهم ؛ فدخل في ملكهم كثيرٌ من جزيرة الأنندلس ، كالجزيرة

(١) انظر ص ٢٠٤

(٢) كذا قال ، غلطاً .

الخضرَاءُ ، ورندة ؛ ثم إشبيلية ، وقرطبة ، وأغرناطة ؛ وكان الذى فتح هذه البلاد الشيخُ أبو حفص عمر إبنُى المتقدم الذكر فى أهل الجماعة^(١) ؛ واجتمع على طاعتهم أهل مغرب الأندلس .

فلما رأى عبد المؤمن ذلك ، جمع جموعاً عظيمة ، وخرج يقصد جزيرة الأندلس ؛ فسار حتى مدينة سبتة ، فعبر البحر ، ونزل الجبل المعروف بجبل طارق ، وسماه هو جبل الفتح ؛ فأقام به شهراً ، وابتنى به قصوراً عظيمة ، وبنى هناك مدينة هى باقية إلى اليوم ؛ ووفد عليه فى هذا الموضع وجوه الأندلس للبيعة ، كأهل مالقة ، وأغرناطة ، ورندة ، وقرطبة ، وإشبيلية ، وما والى هذه البلاد وانضم إليها ؛ وكان له بهذا الجبل يوم عظيم اجتمع له وفى مجلسه من وجوه البلاد وروسائها وأعيانها وملوكها من العُدوة والأندلس ما لم يجتمع للملك قبله ، واستدعى الشعراء فى هذا اليوم ابتداءً ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك ، إنما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم .

[محمد بن حبوس الفاسى الشاعر]

وكان على بابيه منهم طائفة أكثرهم مجيدون ؛ فدخلوا ، فكان أول من أنشد : أبو عبد الله محمد بن حبوس من أهل مدينة فاس ؛ وكانت طريقته فى الشعر على نحو طريقة محمد بن هانى الأندلسى ، فى قصد الألفاظ الرائعة والقعاقع المهولة وإيثار التفعير ؛ إلا أن محمد بن هانى كان أجودَ

(٢) انظر ص ٢٦٢ .

منه طبعاً وأحلى مهيعاً ؛ فأنشد في ذلك اليوم قصيدة أجاد فيها ما أراد ،
[أولها] :

بلغ الزمانُ بهديكمُ ما أملاً وتعلمتُ أيامه أن تعدلا
وبحسبه أن كان شيئاً قابلاً وجد الهداية صورة فتشكلا
لم يبق على خاطري منها أكثر من هذين البيتين .

ولابن جُبوس هذا قصائد كثيرة ؛ وكان حِظياً عنده^(١) ، نال في أيامه
ثروة ، وكذلك في أيام ابنه أبي يعقوب ؛ وكان في دولة لمتونة^(٢) مقدماً
في الشعراء ، حتى نُقلت إليهم عنه حماقات ؛ فهرب إلى الأندلس ، ولم يزل
بها مستخفياً ينتقل من بلد إلى بلد ، حتى انتقلت الدولة المرابطية .

قرأ على ابنه عبد الله من خط أبيه هذه الحكاية ، قال :

دخلت مدينة شَلَب من بلاد الأندلس ، ولى يوم دخلتها ثلاثة أيام لم
أطعم فيها شيئاً ؛ فسألت عمن يُقصدُ إليه فيها ، فدلّني بعض أهلها على
رجل يُعرف بابن الملح ؛ فعمدت إلى بعض الوراقين فسألته سِجاعةً ودواة ،
فأعطانيهما ؛ فكتبت أبياتاً أمتدحه بها ، وقصدت داره ، فإذا هو في الدّهاليز
فسلّمت عليه ، فرحب بي وردّ على أحسن رد ، وتلقاني أحسن لقاء ، وقال :
أحسبك غريباً ! قلت : نعم ؛ فقال لي : من أى طبقات الناس أنت ؟ فأخبرته
أنى من أهل الأدب ، من الشعراء ؛ ثم أنشدته الأبيات التى قلت ؛ فوقع
منه أحسن موقع ؛ فأدخلنى إلى منزله ، وقدم إلى الطّعام ، وجعل يحدثنى ؛

(١) يعنى عبد المؤمن .

(٢) يعنى دولة المرابطين .

فما رأيتُ أحسنَ محاضرةً منه ؛ فلما آن الانصراف ، خرج ثم عاد ومعه عبدان يحملان صندوقاً حتى وضعه بين يديّ ؛ ففتحه فأخرج منه سبعمائة دينار مُرابطية ، فدفعها إليّ وقال : هذه لك ! ثم دفع إليّ صُرةً فيها أربعون مثقالاً ، وقال : هذه من عندي ! فتعجبت من كلامه وأشكَلَ عليّ جداً ، وسأَلته : من أين كانت هذه لي ؟ فقال لي : سأحدثك : إني أوقفتُ أرضاً من جملة ما لي للشعراء ، غلّتها في كل سنة مئة دينار ؛ ومنذ سبع سنين لم يأتني أحد ، لتوالي الفتن التي دَهَمَت البلاد ؛ فاجتمع هذا المال حتى سيقَ إليك ؛ وأما هذه فمى حرٌّ مالى ! يعنى الأربعين دينار ؛ فدخلتُ عليه جائعاً فقيراً وخرجت عنه شبعان غنياً ^(١) .

[الأصم المرواني الشاعر ، ابن الطليق]

وأنشده في ذلك اليوم رجل من ولد الشريف الطليق المرواني ^(٢) ، كان شريفاً من جهة أمه :

(١) انظر قصة ابن عمار في « شلب » هذه . . . والسوقى الذى ملا مخلاته شعيراً ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢) لما انتشرت دولة بنى مروان بالاندلس وتغلب ملوك الطوائف على ما بأيديهم من البلاد ، تفرق من بقي من بنى مروان في البلاد وانبتوا في الشعب وعاشوا كما يعيش سائر الناس بلا جاه ولا سلطان ، ولكن أوليتهم ظلت تحفظ لهم الهيبة في نفوس العامة والخاصة على السواء ، ولقبهم الناس بالشرفاء ، فكل من نسل من بنى مروان فهو عندهم « الشريف المرواني » ، وقد حفظت كتب الأدب والتاريخ أسماء طائفة من أعلام الشرفاء المروانيين ، منهم الشاعر ، والكاتب ، والفارس ، والزاهد ، والمستغل بتحصيل العلم والتأليف في أصوله وفروعه ، فمن هؤلاء هذا الشريف المرواني الذى يروى المراكشى مدحه لعبد المؤمن .

ويسمى المقرئ هذا الشاعر : الأصم المرواني ، ويقول انه أنشد هذه القصيدة في مدح عبد المؤمن يعارض بها بائية أبي تمام .

* السيف أصدق أنباء من الكتب *

وسيبورد المراكشى فيما بعد ، حديثاً عن الشريف المرواني الطليق جد الشاعر ، معللاً

ماللَعْدَا جَنَّةٌ أَوْقَى مِنَ الْهَرَبِ
 فقال عبد المؤمن رافعاً صوته : إلى أين ... إلى أين ؟ فقال الشاعر :

 وأين يذهب من في رأس شاهقة وقد رَمَتْه سبَاءُ الله بالشهب^(١)
 حدث عن الروم في أقطار أندلس والبحر قد ملأ العبرين بالعرب
 فلما أتم القصيدة قال عبد المؤمن : بمثل هذا تُمدح الخلفاء !
 فسمي نفسه خليفة كما ترى ...

وجد هذا الشاعر هو الشريف الطليق ، طليق النعمة ؛ وإنما سُمي بذلك
 لأنه كان محبوساً في مطبق أبي عامر محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور القائم

تسميته بالطليق ، طليق النعمة . وقد أورد المقرئ حديثاً يشبهه عن الشريف مروان بن عبد الرحمن
 ابن عبد الملك بن الناصر الأموي ، ويسميه « الطليق » أيضاً ، ثم يعلل هذه التسمية قائلاً :
 « أنه لما قبل أباه - وقد وجدته مع جارية له كان يهواها - سجنه المنصور بن أبي عامر مدة ، إلى
 أن رأى في منامه النبي صلى الله عليه وسلم يأمره بإطلاقه ، فاطلقه ، فمن أجل ذلك عرف
 بالطليق ... »
 ولسنا ندري أهذا الطليق الذي يسميه المقرئ هو الطليق الذي يعنيه المراكشي . اختلفت
 الرواة في سبب تسميته بالطليق ، أم هو طليق مرواني آخر من طلقاء المنصور بن أبي عامر ؟
 ثم أعجب لنصرف القدر ، فإن المنصور بن أبي عامر الذي يستعبد ويعتق ، ويسسجن
 ويطلق ، ويتصرف في حريات بني مروان ومعائشهم - لم يكن في أوليته إلا عاملاً من عمالهم
 وصنيعة من صنائعهم ، والملك لله يورثه من يشاء من عباده !
 وانظر خبر ابن عطف اليفرنى مع الشريف مرواني آخر ، هامش رقم ٢ ص ١٠٢ - ١٠٣ .
 (١) أورد المقرئ من هذه القصيدة قوله :

وطود طارق قد حلَّ الإمامُ به كالطَّورِ كان لموسى أيمَنَ الرتب
 لو يعرف الطَّودُ ما غشاه من كرم لم يبسط النور فيه الكفُّ للسحب
 ولو تيقَّن بأساً حلَّ ذِرْوَتُهُ لغار كالعين من خوفٍ ومن رَهَبٍ
 منه يُعاوَدُ هذا الفتحُ ثانيةً أضعافَ ما حدثوا في سالك الحقب
 ويلبس الدين غضاً ثوب عزته كأن أيام « بدرٍ » عنه لم تغبر .

بدعوة هشام المؤيد ، أقام في ذلك المحبس سنين ، فكتب يوماً قصة يذكر فيها ما آلت إليه حاله من ضيق الحبس وضنك العيش ، فرُفعت إلى ابن أبي عامر ؛ فأخذها في جملة رِقاع ودخل إلى داره ، فجاءت نعمة كانت هناك ، فجعل يُلقي إليها الرقاع ، فتبتلع شيئاً وتُلقي شيئاً ؛ فألقى إليها رقعة هذا الشريف في جملة الرقاع وهو لم يقرأها ، فأخذتها ثم دارت وألقتها في حجره ، فرمى بها إليها ثانية ، فدارت القصر كله ثم جاءت وألقتها في حجره ، فرمى بها إليها ثالثة ... وفعلت ذلك مراراً ؛ فتعجب من ذلك ، وقرأ الرقعة ، وأمر بإطلاقه ؛ فسُمي بذلك طليق النعمة !

* * *

وأنشد في ذلك اليوم رجلٌ من أهل إشبيلية يُعرف بابن سيّد ، ويلقب باللص :

غَمَضَ عن الشمس واستقصِر مَدَى زُحُلٍ

وانظر إلى الجبل الراسي على جَبَلٍ

أَنْنَى اسْتَقَرَّ بِهِ ، أَنْنَى اسْتَقَلَّ بِهِ أَنْنَى رَأَى شَخْصَهُ الْعَالَى فَلَمْ يَزُلْ

فقال له عبد المؤمن : لقد ثَقَلْتَنَا يَا رَجُلُ ! فَأَمْرُ بِهِ فَأَجْلِس .

وهذه القصيدة من خيار ما مَدَحَ به ؛ لولا أنه كَثُرَ صفوها بهذه الفاتحة .

[الرصافي الرفاء الشاعر]

وأنشده في ذلك اليوم الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن غالب البَلَنَسِي

المعروف بالرُّصافي ؛ كان مستوطناً مدينة مالقة (١)

(١) منسوب إلى رصافة بلنسية ، وكان شاعر عصره ، اقتصر على التعيش من صناعة احترفها

لو جثت نار الهدى من جانب الطور
من كل زهراء لم ترفع ذوابتها
فيضية القدح من نور النبوة أو
مازال يقضيها التقوى بموقدها
حتى أضاعت من الإيمان عن قبس
نور طوى الله زند الكون منه على
آية كآيات الشمس بين يدي
يادار دار أمير المؤمنين بسفح
ذات العمادين من عز ومملكة
ما كان بانيك بالواني الكرامة عن
مواطيء من نبي طالما واصلت
حيث استقلت به نعلاه بوركنا
وحيث قامت قناة الدين ترقل في
في كف منشمر البردين ذى ورع

قبست ما شئت من علم ومن نور
ليلاً لِسارٍ ولم تُشَبِّبْ لمقرور
نور الهداية تجلو ظلمة الزور
صَوَامُ هاجرة قوَامُ دنجور
قد كان تحت رماد الكفر مكفور
سقط إلى زمن المهدي مذخور
عزى على الملك القيسى مندور
الطود طود الهدى ، بورك في الدور
على الأساسين من قدس وتطهير
قصر على مجمع البحرين مقصور
فيها الخطأ بين تسبيح وتكبير
فطبيت كل موطوء ومعبور
لواء نصر على البرين منشور
على التقى وصفاء النفس مفطور

وهي رفاء الثياب ، ترفعا عن التكسب بشعره ، فامداحه لذلك قليلة ، وكانوا يسمونه « ابن رومى
الأندلس » توفي سنة ٥٧٢ هـ بمالقة .
ومن شعره في الترفع عن امتداح الملوك :

على أننى لا أرتضى الشعرَ خطئة
يقول أناس : لو رفعت قصيدة
ولو صيرت خُصراً مسارحى الغبرا
ومن دون هذا غيرة جاهلية
ألم يأتهم أنى وأدت بحكمها
لأدركت حتما في الزمان بها أمرا !
وإن هى لم تلزم فقد تلزم الحرا
بُنَيَاتِ صدرى قبل أن تبرح الصدرا

يلقاك في حال غيب من سريره
تسنم الفلك من سخط المزار وقد
فسرن يحملن أمر الله من ملك
يؤي له بسجود كل تحركة
لما تسابقن في بحر الزقاق به
أهز من موجه أثناء مسرور ؟
كانه سالك منه على وشل
من السيوف التي ذابت لسطوته
ذو المنشآت الجوارى في أجرتها
أعدى المياه وأنفاس الرياح لها
من كل عذراء حبلى في ترائبها
نجالها بين أيد من مجاذفها
وربما خاضت التيار طائرة
كأنما عبرت تختال عائمة
حتى رمت جبل الفتحين من كشب
لله ما جبل الفتحين من جبل
من شامخ الأنف في سخنائه طلّس
معبراً بذراه عن ذرى ملك
تسمي النجوم على إكليل مفرقه
وربما مسخته من ذوائبها

بعالم القدس مشهود ومحضور
نودين يا خير أفلاك العلا سيرى
بالله مستنصر في الله منصور
منها ، ويؤليه حمداً كل تصوير
تركن شطيه في شك وتحير
أم خاض من لجه أحشاء مذعور ؟
في الأرض من مهبج الأسياف مقطور
وقد رمى نار هيجها بتسكير
شكل الغدائر في سدل وتضفير
ما في سجايها من لين وتعطير
ردعان من عنبر ورد وكافور
يغرّقن في مثل ماء الورد من جور
بمثل أجنحة الفتخ الكواسير
في زاخر من يدى يمينه معصور
بساطع من سناه غير مبهور
معظم القدر في الأجيال مذكور
له من الغيم جيب غير مزور
مستمطر الكف والأكناف ممطور
في الجو حائمة مثل الدنانير
بكل فضل على قوديه مجرور

وَأَذَرِدِ مِنْ ثَنَائِهِ بِمَا أَخَذَتْ
مُخَنِّكَ حَلَبَ الْأَيَّامِ أَشْطَرَهَا
مُقَيِّدِ الْخَطُورِ جَوَّالِ الْخَوَاطِرِ فِي
قَدَوَاصِلِ الصَّمْتِ وَالْإِطْرَاقِ مُفْتَكِرًا
كَأَنَّهُ مُكَمِّدٌ مِمَّا تَعَبَّدُهُ
أَخْلَقَ بِهِ وَجِبَالُ الْأَرْضِ رَاجِفَةٌ
كَفَاهُ فَضْلًا أَنْ أَنْتَابَتْ مَوَاطِئُهُ
مُسْتَنْشِيًا بِهِمَا رِيحَ الشِّفَاعَةِ مِنْ
مَا أَنْفَكَ أَمَلٍ مِنْهُ بَيْنَ يَدَيْ
حَتَّى نَصَدَّى مِنَ الدُّنْيَا عَلَى رَمَقٍ
مُسْتَقْبِلَ الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مَرْتَقِبًا
لِبَارِقٍ مِنْ حُسَامٍ سَلَّهُ قَدَرٌ
إِذَا تَأَلَّقَ قَيْسِيًّا أَهَابَ بِهِ
مَلِكٌ أَلَى عِظْمًا فَوْقَ الزَّمَانِ فَمَا
مَاعَنَّ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا لَهُ أَرْبٌ
وَلَا رَمَى مِنْ أَمَانِيهِ إِلَى غَرَضٍ
حَتَّى كَانَ لَهُ فِي كُلِّ آوَنَةٍ

مِنْهُ مَقَاحِمُ أَعْوَادِ الدُّهَارِيرِ
وَسَاقِهَا سَوَاقَ حَادِي الْعِيرِ لِلْعِيرِ
عَجِيبِ أَمْرِيهِ مِنْ مَاضٍ وَمَنْظُورِ
بَادِي السُّكِينَةِ مُغْبِرِ الْأَسَارِيرِ
خَوْفُ الْوَعِيدَيْنِ مِنْ ذَلِكَ وَتَسْيِيرِ
أَنْ يَطْمِثَنَّ غَدًا مِنْ كُلِّ مُحْذُورِ
تَعْلَا مَلِيكَ كَرِيمِ السَّعْيِ مَشْكُورِ
ثَرَى إِمَامٍ بِأَقْصَى الْغَرْبِ مَقْبُورِ
يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَحْتُومِ وَمَقْدُورِ
يَسْتَنْجِزُ الْوَعْدَ قَبْلَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ
كَأَنَّهُ بَاهَتْ فِي جَوْاسِمِ (١)
بِالْغَرْبِ مِنْ أَفْقِ الْبَيْضِ الْمَشَاهِيرِ
إِلَى شَفَى مِنْ مُضَاعِ الدِّينِ مَوْتُورِ
يَمُرُّ فِيهِ بِشَيْءٍ غَيْرِ مُحَقُورِ
إِلَّا تَأْتَى لَهُ مِنْ غَيْرِ تَعْذِيرِ
إِلَّا هَدَى سَهْمَهُ نُجْحُ الْمَقَادِيرِ
سُلْطَانُ رِقٍّ عَلَى الدُّنْيَا وَتَسْخِيرِ

(١) كذا بالأصل ، ولم نكتبين وجهه ، أو صوابه .

مُمَيِّزُ الْجَيْشِ ، مُلْتَفَا مَوَاكِبِهِ مِنْ كُلِّ مَثْلُولٍ عَرْشِ الْمَلِكِ مَقْهُورٍ
مِنَ الْأُولَى خَضَعُوا قَسْرًا لَهُ وَعَنَوْا لِأَمْرِهِ بَيْنَ مَنْهَى وَمَأْمُورٍ
مِنْ بَعْدِ مَا عَانَدُوا أَمْرًا فَمَا تَرَكَوْا إِذْ أَمَكَنَ الْعَقُوْ مَيْسُورًا لِمَعْسُورٍ
بَقِيَّةُ الْحَرْبِ ، فَاتَوْهَا وَمَا بِهِمْ فِي الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ سِيْمَاءٌ لَتَقْصِيرِ
لَا يَنْكُرُ الْقَوْمُ مِمَّا فِي أَكْفِهِمْ بَيْضُ مَفَالِيلُ أَوْ سُغْرُ مَكَاسِيرِ
إِذَا صَدَعَتْ بِأَمْرِ اللَّهِ مَجْتَهِدًا ضَرَبْتَ وَحْدَكَ أَعْنَاقَ الْجَمَاهِيرِ
لَا يَذْهَبُ لَتَقْلِيلٍ أَخُو سَبَبٍ مِنَ الْأُمُورِ ، وَلَا يَرْكُنُ لَتَكْثِيرِ
فَالْبَحْرُ قَدْ عَادَ مِنْ ضَرْبِ الْعَصَايِبِ سَا وَالْأَرْضُ قَدْ غَرِقَتْ مِنْ فَوْزٍ تَنْوَرِ
وَلِنَّمَا هُوَ سَيْفُ اللَّهِ قَلْدُهُ أَقْوَى الْهُدَاةِ يَدًا فِي دَفْعِ مَحْذُورِ
فَإِنْ يَكُنْ يَبْدُ الْمَهْدَى قَائِمُهُ فَمَوْضِعُ الْحَدِّ مِنْهُ حَدُّ مَشْهُورِ
وَالشَّمْسُ إِنْ ذَكَرْتَ مُوسَى فَمَا نَسِيتُ فَتَاهُ يَوْشَعَ قَمَاعَ الْجَبَابِيرِ
وَكَانَ الرُّصَافِيُّ يَوْمَ أَنْشَدَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ لَمْ تَكْمُلْ لَهُ عَشْرُونَ سَنَةً (١) ؛
وَهُوَ مِنْ مُجِيدِي شِعْرَاءِ عَصْرِهِ ، لِاسِيْمَا فِي الْمَقَاطِيعِ ؛ كَالْخَمْسَةِ الْأَبْيَاتِ
فَمَا دُونَهَا ؛ وَقَدْ رُوِيَتْ شِعْرُهُ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ لُقْيَاهِ ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُورِدَ مِنْهُ
هَاهُنَا نَبْذَةً يَسِيرَةً تَدُلُّ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ بِهِ ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ يَصِفُ نَهْرَ
إِسْبِيلِيَّةِ الْأَعْظَمِ ، وَهُوَ نَهْرٌ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الدُّنْيَا (٢) :

(١) قلنا : وهذه القصيدة على ما في بعض أبياتها من ركائكة وسخف ولحن ، تدل على شاعرية مبكرة ، وخاصة الأبيات التي يصف فيها الجبل ، جبل طارق ، في وقفته ، وصنفته ، وشمسوخ انفسه .

(٢) هو نهر الوادي الكبير ، وانظر التعليق ص ١٧٢ .

ومُهدِلِ الشُّطِينِ تحَسَبُ أَنَّهُ مُتَسَايِلُ من دُرَّةَ لصفائه
فَاءَتْ عَلَيْهِ مع الهَجِيرَةِ سَرَحَةٌ صَدِئَتْ لَفَيْئَتِهَا صَفِيحَةٌ مائه
فَتَرَاهُ أَزْرَقَ في غُلَالَةِ سُمَرَةٍ كَالدَّارِعِ اسْتَلْقَى بِظِلِّ لَوَائِهِ

وله وقد اجتمع مع إخوان له في بعض العُشَايا في بستان رجلٍ يقال له
موسى بن رزق :

ما مِثْلُ مَوْضِعِكَ ابْنَ رِزْقٍ مَوْضِعُ

رَوْضُ يَرِقُ وَجَدُولُ يَتَدَفَّعُ
فَكَأَنَّمَا هُوَ من محاجرِ غَادَةِ فالحُسْنُ يَنْبُتُ في ثَرَاهُ وَيَنْبُعُ
وعشيةٍ لبستُ رداءَ سُحُوبِهَا والجوُّ بالغيمِ الدقيقِ مُقَنَّعُ
بَلَغْتُ بِنَا أَمَدَ السُّرُورِ تَأَلُّفًا والليلُ نحو فراقنا يَتَطَلَّعُ
فَابْلُلُ بِهَا رَمَقَ الغُبُوقِ فَقَدْ أَتَى مِنْ دُونِ قُرْصِ الشَّمْسِ مَا يُتَوَقَّعُ
سَقَطْتُ فَلَمْ يَمْلِكْ نَدِيمُكَ رَدَّهَا فَوَدِدْتُ يَا مُوسَى لو أَنَّكَ يُوسَعُ

وله يصف عشية أيضاً في موضع هذا الرجل المتقدم الذكر :

مَحَلُّ ابْنِ رِزْقٍ جَرٌّ فِيهِ ذُبُولُهُ مِنَ الْمَزْنِ سَاقٍ يُحَسِّنُ الْجَرَّ وَالسُّقْيَا
ذَكَرْتُ عَشِيًّا فِيكَ لَأُذِمَّ عَهْدُهُ وَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَمْتَحِ بِبِهْجَتِهِ لُقْيَا
وَلَمْ يَعْتَلِقْ بِي مِنْكَ عِنْدَ افْتِرَاقِنَا سِوَى عَبَقٍ مِنْ مَسْكَ قَيْئَتِكَ اللَّمِّيَا
وَكُنْتُ أَرَانِي فِي الْكَرَى وَكَأَنَّنِي أَنَاوَلُ كَالدَّيْنَارِ مِنْ ذَهَبِ الدُّنْيَا
فَلَمَّا انْطَوَى ذَاكَ الْأَصِيلُ وَحُسْنُهُ عَلَى سَاعَةٍ مِنْ أَنْسَنَا صَحَّتِ الرُّؤْيَا

وله يصف دولاباً :

وَذِي حَنِينٍ يَكَادُ شَوْقاً يَخْتَلِسُ الْأَنْفَسَ اخْتِلاساً
لَا غَدَاً لِلرِّيَاضِ جَاراً قَالَ لَهُ الْمَحَلُّ لَا مِسَاساً
يَبْتَسِمُ الرُّوضُ حِينَ يَبْكِي بِأَدْمَعٍ مَا رَأَيْنَ بَاساً
مَنْ كُلِّ جَفْنٍ يُسَلُّ سَيْفاً صَارَ لَهُ غَمْدُهُ رِثَاساً

وله وقد رأى صبيّاً يتباكى ويجعل من ريقه على عينيه ، يحكى بذلك

الدموع :

عَذِيرَى مِنْ جَذْلَانِ يُبْدِي كَأَبَةً وَأَضْلَعُهُ مِمَّا يُحَاوِلُهُ صِفْرُ
أُمَيْلِدُ مَيَّاسٌ إِذَا قَادَهُ الصَّبَا إِلَى مُلْحِ الْإِدْلَالِ أَيْدُهُ السَّحَرُ
يَبُلُّ مَائِي زَهْرَتِيهِ بِرَيْقِهِ

وَيَحْكِي الْبُكَاءَ عَمداً كَمَا ابْتَسَمَ الزَّهْرُ

وَيُوهَمُ أَنَّ الدَّمْعَ بَلٌّ جُفُونَهُ

وَهَلْ عُصِرَتْ يَوْماً مِنَ النَّرْجِسِ الْخَمَرُ ؟

وقال يصف نائماً قد تحجب العرق على خده :

وَمُتَهَفِّفٍ كَالْغُصْنِ إِلَّا أَنَّهُ سَلَبَ التَّثَنَّى النُّومَ عَنْ أَثْنَائِهِ
أَضْحَى يَنَامُ وَقَدْ تَحَبَّبَ خَدُّهُ عَرَقاً فَقَلَّتِ الْوَرْدُ رُشٌّ بِمَائِهِ

وللرصافي هذا افتنان في الآداب ؛ وكان رحمه الله عفيف الطَّعْمة نزية

النفس ، لا يحب أن يشتهر بالشعر مع إجادته في كثير منه .

[وصل الحديث عن عبد المؤمن بن علي]

وأقام عبد المؤمن بجبل الفتح مرتباً للأُمور ممهداً للمملكة ؛ وأعيانُ البلاد يَفْدُون عليه في كل يوم ، إلى أن تم له ما أراد من إصلاح ما استولى عليه من جزيرة الأندلس .

فولَّى مدينة إشبيلية وأعمالها ابنه يوسف ، وهو الذي وَلَّى الأُمور بعده على ما سيأتى بيانه ؛ وترك معه بها أشياخ الموحِّدين وذوى الرأى والتحصيل منهم مَنْ يرجع إليه في أُموره ، ويعوّل عليه فيما ينويه .
وولى قرطبة وأعمالها أبا حفص عمر إبنْتى .

وولى أغرناطة وأعمالها ابنه عثمان بن عبد المؤمن ، يكنى أبا سعيد ، وكان من نبهاء أولاده ونجبائهم وذوى الصرامة منهم ؛ وكان محباً في الآداب ، مؤثراً لأهلها ، يهتز للشعر ويُثيب عليه ، اجتمع له من وجوه الشعراء وأعيان الكتاب عصابةٌ ما علمتها اجتمعت لملك منهم بعده .
ثم كرّر عبد المؤمن راجعاً إلى مرّاكش ، بعد ما ملأ ما ملكه من أقطار جزيرة الأندلس خيلاً ورجالا من المصامدة والعرب وغيرهم من أصناف الجند .

[منازل العرب الهلالية في المغرب والأندلس]

وقد كان حين أراد العبور إلى جزيرة الأندلس ، استنفر أهل المغرب عامة ؛ فكان فيمن استنفره العربُ الذين كانوا ببلاد يحيى بن العزيز^(١)

(١) يعنى مملكة بنى حماد بافريقية ، وانظر التعليق رقم ٢ ص ٢٧٢ - ٢٧٥ .

وهم قبائل من هلال بن عامر ، خرجوا إلى البلاد حين خلّى بنو عبيد^(١) بينهم وبين الطريق إلى المغرب ؛ فعاثوا في القيروان عيثاً شديداً أوجب خرابها إلى اليوم ؛ ودوخوا مملكة بنى زيرى بن مناد^(٢) ، وهذا بعد موت المعز بن باديس ؛ فانتقل تميم إلى المهديّة^(٣) ، وسار هؤلاء العرب حتى نزلوا على المنصور بن المنتصر ؛ فصالحهم على أن يجعل لهم نصف غلّة البلاد ، من تمرّها وبُرّها وغير ذلك ؛ فأقاموا على ذلك باقى أيامه ، وأيام ابنه الملّقب بالعزّيز ، وأيام يحيى ؛ إلى أن ملك البلاد أبو محمد عبد المؤمن رحمه الله ، فأزال ذلك من أيديهم ، وصيرهم جنداً له ، وأقطع رؤسائهم بعض تلك البلاد^(٤) .

فكتب إليهم رسالة يستنفرهم إلى الغزو بجزيرة الأندلس ، وأمر أن تُكتب في آخرها أبياتٌ قالها - رحمه الله - في ذلك المعنى ، وهى :

أَقِيمُوا إِلَى الْعِلْيَاءِ هُوجَ الرَّوَاحِلِ وَقُودُوا إِلَى الْهَيْجَاءِ جُرْدَ الصَّوَاهِلِ
وَقُومُوا لِنَصْرِ الدِّينِ قَوْمَةَ ثَائِرٍ وَشُدُّوا عَلَى الْأَعْدَاءِ شِدَّةَ صَائِلِ
فَمَا الْعِزُّ إِلَّا ظَهْرُ أَجْرَدٍ سَابِحٍ يَفُوتُ الصَّبَا فِي شِدَّةِ الْمُتَوَاضِلِ

(١) يعنى العاطمين .

(٢) بنو حماد أصحاب بجاية ، وبنو باديس أصحاب القيروان والمهديّة : ينتسبون جميعاً إلى زيرى ابن مناد الصنهاجى الحميرى ، وقد فصلنا حديثهم فى التعليق رقم ٢ ص ٢٧٢ - ٢٧٥
(٣) يعنى تميم بن المعز بن باديس ، وقد أزعجه هؤلاء العرب عن مقر ملكه حتى اضطر إلى النزوح من القيروان - حاضرة ملكه - إلى المهديّة .

(٤) استمر هؤلاء العرب من بنى هلال بن عامر مصدر قلق فى شمال افريقية أكثر من قرن ، ولهم وقائع مذكورة نطّح بها كتب التاريخ ، ومن وقائعهم هذه استمد القصاص الشعبى الهامه فى « سيرة أبى زيد الهلال سلامة » التى ما تزال تلاوتها حتى اليوم مادة من مواد السمر المحبوبة فى المجالس الشعبية . وانظر التعليق رقم ٢ ص ٢٧٢ - ٢٧٥ .

وَأَبْيَضَ مَأْثُورٍ كَأَنَّ فِرْنْدَهُ عَلَى الْمَاءِ مَنْسُوجٌ* وَلَيْسَ بِسَائِلٍ
 بَنَى الْعَمُّ مِنْ عَلِيَّا هَلَالِ بْنِ عَامِرٍ وَمَا جَمَعَتْ مِنْ بَاسِلٍ وَابْنِ بَاسِلٍ
 تَعَالَوْا فَقَدْ شُدَّتْ إِلَى الْغَزْوِ نِيَّةٌ عَوَاقِبُهَا مَنْصُورَةٌ بِالْأَوَائِلِ
 هِيَ الْغَزْوَةُ الْغَرَاءُ وَالْمَوْعِدُ الَّذِي تَنْجَزُ مِنْ بَعْدِ الْمَدَى الْمَتَطَاوِلِ
 بِهَا تُفْتَحُ الدُّنْيَا ، بِهَا تُبْلَغُ النُّبَى بِهَا يُنْصَفُ التَّحْقِيقُ مِنْ كُلِّ بَاطِلٍ
 أَهْبْنَا بِكُمْ لِلْخَيْرِ وَاللَّهُ حُسْبُنَا وَحَسْبُكُمْ وَاللَّهُ أَعْدَلُ عَادِلٍ
 فَمَا هُمْنَا إِلَّا صِلَاحُ جَمِيعِكُمْ وَتَسْرِ يُحْكَمُ فِي ظِلِّ أَخْضَرَ هَاطِلٍ
 وَتَسْوِيْعُكُمْ نُعْمَى تَرَفٌ ظِلَالُهَا عَلَيْكُمْ بِخَيْرٍ عَاجِلٍ غَيْرِ آجِلٍ
 فَلَا تَتَوَانَوْا فَالْبِدَارُ غَنِيمَةٌ وَلِلْمُدْلِجِ السَّارَى صَفَاءُ الْمَنَاهِلِ

فاستجاب له منهم جمع ضخم . فلما أراد الانفصال عن الجزيرة رتبهم فيها ؛ فجعل بعضهم في نواحي قُرطبة ، وبعضهم في نواحي إشبيلية مما يلي مدينة شريش وأعمالها ؛ فهم بها باقون إلى وقتنا هذا - وهو سنة ٦٢١ - وقد انتشر من نسلهم بتلك المواضع خلقٌ كثير ؛ وزاد فيهم أبو يعقوب وأبويوسف حتى كثروا هنالك ؛ فبالجزيرة اليومَ من العرب من زُغبة ورياح وجُشم ابن بكر وغيرهم نحو من خمسة آلاف فارس سوى الرُّجَّالة ^(١) .

* * *

وكان عبورُ عبد المؤمن - رحمه الله - إلى الجزيرة ونزوله بجبل الفتح

(١) قلت : وبعض الأسبان اليوم من بنى هلال بن عامر ، يتصل نسبهم بأبي زيد الهلالي !

في سنة ٥٣٨ هـ ، ثم كرّ - كما ذكرنا - راجعاً إلى مراکش ؛ فأخبرني غير واحد ممن أَرْضَى نقله ، أنه لما نزل مدينة سَلَا - وهي مدينة على البحر الأعظم المحيط ، ينصبُّ إليها نهر عظيم^(١) يصب في البحر المذكور - عبر النهر . وضربت له خيمةً على الشاطئ . وجعلت العساكر تعبر قبيلةً بعد قبيلة ؛ فلما نظر إلى كثرة العدد وانتشار العالم خَرَّ ساجداً ، ثم رفع رأسه وقد بَلَ الدمع لحيته ؛ والتفت إلى مَنْ عنده وقال : « أعرف ثلاثة أشخاص وردوا هذه المدينة لأشياء لهم إلا رغيّف واحد ، فراموا عبور هذا النهر ، فأتوا صاحب القارب وبذلوا له الرغيّف على أن يعبروا ثلاثتهم فقال : لا آخذه إلا على اثنين خاصة ؛ فقال لهم أحدهم - وكان شاباً جلدًا - : خذ ثيابي معكما وأعبر أنا سباحةً ! فأخذ ثيابه معهما ، وصعدا في القارب ؛ فجعل الشاب يسبح ، فكلما أعيّا دنا من القارب ووضع يديه عليه ليستريح . فضربه صاحبه بالمجداف الذي معه حتى يؤلمه ؛ فما بلغ البرّ إلا بعد جهد شديد ! » .

فما شك السامعون للحكاية أنه العابر سباحةً ، وأن الاثنين المذكورين هما ابن تومرت وعبد الواحد الشرقي .

ثم سار حتى أتى مراکش . فنزلها ، وأخذ في البناء والغراسة وترتيب القصور ، غير مُخِلِّ بشيء مما تحتاج إليه المملكة من السياسة وتدبير الأمور وبسط العدل والتَّحَبُّب إلى الرعية وإخافة من تجب إخافته .

(١) هو نهر الرقاق الذي يفصل بين سلا ومدينة الرباط ، فهي منها اليوم كالضاحية .

وأخبرني السيد حقيقة والمآجد خلقاً وخليفة ، أبو زكريا يحيى ابن الإمام أمير المؤمنين أبي يعقوب ابن الإمام أمير المؤمنين أبي محمد عبد المؤمن ابن علي : أنه رأى على ظهر كتاب الحماسة بخط الخليفة عبد المؤمن هذين البيتين ، وقال لي رحمه الله : لا أدري هما له أو لغيره (١) :

وَحَكَّمُ السَّيْفَ لَا تَعْباً بِعَاقِبَةٍ وَخَلَّهَا سِيرَةً تَبْقَى عَلَى الْحَقَبِ
فَمَا تُنَالُ بِغَيْرِ السَّيْفِ مَنْزِلَةً وَلَا تُرَدُّ صُدُورُ الْخَيْلِ بِالْكَتَبِ

وقد كان عبد المؤمن حين فَصَلَ عن بجاية وولَّى عليها ابنه عبد الله -
حسباً تقدم (٢) - عَهْدَ إليه أَنْ يَشْنِ الْغَارَاتِ عَلَى نَوَاحِي أَفْرِيقِيَّةِ (٣)
وَأَنْ يُضَيِّقَ عَلَى تُونَسَ وَيَمْنَعَ عَنْهَا الْمَرَاقِقَ الَّتِي تَصِلُ إِلَيْهَا عَلَى طَرِيقَةٍ ؛
فَفَعَلَ ذَلِكَ .

[غزو الموحدين لأفريقية]

ثم إن عبد الله تجهز في جيش عظيم من المصامدة والعرب وغيرهم ، وسار حتى نزل على مدينة تونس . وهي حاضره أفريقية بعد القيروان . وكرسى مملكتها ، ومقر تدبيرها ، وإياها يستوطن والى أفريقية ، لم يزل هذا

(١) نحسبهما من شعر الأصم الرواني ، من قصيدته التي أولها :

* مَا لِلْعِدَا جُنَّةٌ أَوْقَى مِنَ الْهَرَبِ *

انظر ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٢) انظر ص ٢٧٥ .

(٣) كان ذلك بعد انتشار عقد دولة بني باديس ، وفرار آخر ملوكها أبي يحيى الحسن بن علي

انظر التمليق ٢ ص ٢٧٢ - ٢٧٥ .

معروفاً من أمرها إلى وقتنا هذا - وهو سنة ٦٢١ - فحاصرها عبد الله المذكور ، وأخذ في قطع أشجارها وتغوير مياهها ؛ وكان الذي يملكها في ذلك الوقت لوجار بن لوجار المعروف بابن الدوقة الرومي صاحب صقلية ، لعنه الله ! وكان عامله عليها رجلاً من المسلمين اسمه عبد الله ؛ يعرف بابن خراسان ^(١) ؛ لم يزل عاملاً عليها حتى أخرجه الموحدون في التاريخ الذي سيذكر ؛ فلما طال على ابن خراسان الحصار ، أجمع رأيه ورأى أهل البلد من الجند على الخروج لقتال المصامدة ؛ ففعلوا ذلك ، وخرجوا بخيل ضخمة ؛ فالتقوا هم وأصحاب عبد الله ^(٢) ؛ فانهزم أصحاب عبد الله ، وقتل منهم خلق كثير ؛ ورجع عبد الله ببقية أصحابه إلى بجاية ؛ فكتب إلى أبيه يخبره بذلك .

[فتح المهدي واسترجاعها من يد الصقليين]

فلما كان في آخر سنة ٥٥٣ أخذ عبد المؤمن في الحركة إلى أفريقية ؛ فجمع جموعاً عظيمة من المصامدة وغيرهم من جُند المغرب ؛ وسار حتى نزل على مدينة تونس ، فافتتحها عنوة ؛ وفصل عنها إلى مَهْدِيَّة بنى عُبيد ^(٣) وفيها الروم أصحاب ابن الدوقة ، وفيها معهم يحيى ^(٤) بن حسن بن تميم

(١) في ابن الأثير : أحمد بن خراسان .

(٢) يعنى عبد الله بن عبد المؤمن .

(٣) تسمى مهديّة بنى عبيد ، لأن بانيها هو المتسمى بالمهدي راس دولة العبيديين « الفاطميين » ، وكانت حاضرتهم قبل أن ينتقلوا الى القاهرة . الى القاهرة .

(٤) ذكرنا في التعليق ص ٢٧٤ ان ابا يحيى حسن بن على بن يحيى بن تميم بن المعز ، آخر

بن المعز بن باديس بن المنصور بن بلجيين بن زيري بن مناد الصنهاجي ،
ملوك القيروان .

فنزّل عبد المؤمن عليها فحاصرها أشد الحصار ، وهي من معاقل
المغرب المنيعه ؛ لأنّ بنيانها في غاية الإحكام والثّاقة ؛ بلغني أنّ عرّض حائط
سورها ممّشي ستة أفراس في صفٍّ واحد ، ولا طريق لها من البر إلا على
باب واحد ، والبحر في قبضة من في البلد : يدخل الشّيني كما هو بمقاتلته
إلى داخل دار الصناعة^(١) ، لا يقدر أحدٌ ممن في البر على منعه ؛ فبهذا قدر
الروم على الصبر على الحصار ؛ لأنّ النجدة كانت تأتيهم من صقلية في كل
وقت .

وأقام عبد المؤمن وأصحابه عليها سبعة أشهر إلا أياماً ؛ وأصابتهم

ملوك بني باديس ، لجأ إلى ابن عمه يحيى بن العزيز صاحب بجاية ، بعد انتهاء ملكه واستيلاء
صاحب صقلية على المهدية ، فالآن نذكر أنّ أبا يحيى هذا في أثناء مسيره إلى ابن عمه بجاية ،
لقيه بالطريق أمير من العرب اسمه حسن بن ثعلب ، فطلب أبا يحيى بمال كان له عنده ، فدفع
إليه أبو يحيى ولده يحيى رهينة ، ثم سار في طريقه ٠٠٠ فهل هو يحيى بن حسن الذي يعنيه
المراكشي هنا ويقول أنّه كان بالمهدية مع الروم حين قصد إليها عبد المؤمن غازياً ؟ تعني : هل
دفعه حسن بن ثعلب أمير العرب إلى خصوم أبيه في المهدية فظل بها معهم حتى جاء عبد المؤمن
لاستردادها من يد النصارى بعد اثني عشر عاماً من احتلالهم إياها ؟

إن صح هذا فهو إذن : يحيى بن حسن (بن علي) بن تميم بن المعز ٠٠٠ ٠٠٠ ابن بلكين .
ويلاحظ أنّ المراكشي يسميه ابن بلجين ، بالجيم لا بالكاف ، وأنما هي الجاف الفارسية ، تكتب
أحياناً كافاً وأحياناً جيماً .

ثم نقول : إنّ أبا يحيى حسن بن علي آخر ملوك أفريقية ، كان في جيش عبد المؤمن هذا
الذي سار لحصار المهدية واستردادها من يد الروم الصقليين ، فلما من الله عليهم بالفتح ، طل
أبو يحيى في المهدية ، وأقطعها بها عبد المؤمن رزقاً جزيلاً ، وأمر نائبه عليها أن يتخذ أبا يحيى
معيناً ومشيراً ٠٠٠

(١) هي التي نسميها الآن « الترسانة » بعد أن نقلها الفرنجة إلى لفتهم ثم عادت إلينا وعلى
راسها قبة !

عليها شدةٌ شديدةٌ من غلاء السعر ؛ بلغنى عن غير واحد أنهم اشتروا الباقلاء في العسكر ، سبع باقلات بدرهم مؤمّنى ، وهو نصف درهم النّصاب ؛ ثم افتتحها عبد المؤمن - رحمه الله - بعد أن آمن النصارى الذين بها على أنفسهم ؛ على أن يخرجوا له عن البلد ويلحقوا بصقلية بلدهم حيث مملكةٌ صاحبهم ؛ ففعلوا ذلك .

ودخل عبد المؤمن وأصحابه المهديّة فملكوها ؛ وبعث إلى قابس من افتتحها ، وفيها الروم ايضاً .

[امتداد مملكة الموحدين إلى الشرق]

ثم افتتح طرابلس المغرب ، وأرسل إلى بلاد الجريد ، وهى توزر ، وقفصة ، ونفطة ، والحامة ، وما والى هذه البلاد ؛ فافتتحت كلها . وأخرج الإفرنج منها وألحقهم ببلادهم كما تقدم ؛ فمحا الله به الكفر من أفريقية ، وقطع عنها طمع العدو ؛ فانتبه بها الدين بعد خموله ، وأضاء كوكب الإيمان بعد انطماسه وأقوله .

وتم لعبد المؤمن - رحمه الله - ملك أفريقية كلها منتظماً إلى مملكة المغرب فملك في حياته من طرابلس المغرب إلى سوس الأقصى من بلاد المصامدة ، وأكثر جزيرة الأندلس ؛ وهذه مملكة لم أعلمها انتظمت لأحد قبله منذ اختلت دولة بنى أمية إلى وقته .

[ألوان من شكر النعمة]

ثم كرّ عبدُ المؤمن راجعاً من أفريقية ، بعد ما استولى على بلادها ودان له أهلها ؛ فأخبرني بعض أشياخ الموحدين من ذوى التحصيل منهم والثقة أن عبد المؤمن مرّ في طريقه راجعاً من أفريقية ببجاية ؛ فدخل البلد متنزهاً فيه ، فمرّ بسوِّقة بناحية باب من أبوابها يدعى باب تاطنت ؛ فوقف ووقفت معه وجوه دولته ؛ فسأل عن بيع بها سمّاه باسمه ؛ فأخبره أهل السوِّقة بوفاته ، فقال : هل خلف عقيبا ؟ فقالوا : نعم ؛ فأمر بشراء جميع الدكاكين التي بتلك السوِّقة وأوقفها عليهم ، وأمر لهم بمال كثير ؛ ثم التفت إلى بعض خواصّه وقال له : أتيتُ إلى هذا البيّاع ولى وللإمام - يعنى ابن تومرت - ولجماعة من أصحابنا من الطلبة أيام لم نطعم فيها ، وما معى لإسكين اللّواة ؛ فأخذتُ منه خبزاً وإداماً ، ثم وضعت عنده السكن رهناً على ذلك ، فأبى قبولها وقال لى : إني توسمتُ فيك الخير ؛ فمتى أعوزك شئٌ فلهمّ الدكان فهو بين يديك وبحكمك ! فحقّه على أكثر من هذا .

* * *

ونظر في هذا اليوم الذى ركب فيه مخترقاً بجاية إلى يحيى بن العزيز^(١) يمشى بين يديه راجلاً وقد علاه الغبار ؛ فدمعت عيناه ، واستدعاه فقال له : أتذكر يوماً خرجتُ إلى بعض منتزهاتك ، فأذكر أنى جمعى وإياك هذا

(١) صاحب عرش بجاية قبل عبد المؤمن ، وكان يصحبه فى أثناء مسيره الى بجاية ، كما كان حسن بن على صاحب عرش المهديّة الأول يصحبه فى مسيره الى المهديّة !

الباب ، فوطئت دابَّتكَ عَقِي ، فلما نظرتُ إليك أُمِرتُ بعض عبيدك
فوكزني وكزةً كدت أقع منها لِفِيَّ ! فاستحيا يحيى وتغيَّر لونه وأطرق ،
وجعل يقول : الله الله يا مولاي ! وظنَّ أنه الشر ؛ فلما رأى ذلك منه قال
له : إنما ذكرتُ لك ذلك على طريق الاعتبار : ولتذكُر وتنظر كيف تَقَلُّبُ
الأيام بأهلها ! وأمر له بما زال به روعه .

* * *

ومرَّ في طريقه هذا ما بين البطحاء وتلمسان بموضع قد التفَّ فيه الدوح ،
فجاءت منه دَوْحَةٌ عظيمة في وسطها رَحْبة نقية ؛ فأمر أن يُضرب خبأؤه
هنالك ؛ وهو غيرُ منزل معروف ، فلما نزل ونزلت العساكر واستقر بهم
النزول ، قال لبعض خواصه : أتدرون لِمَ آثرتُ النزول بهذا المكان ؟ قالوا :
لا ؛ قال : ذلك لأنِّي بَيتُ بهذا الموضع في بعض الليالي جائعاً مقروراً ، وكانت
ليلةً ممطورة ؛ فما زال هذا الدوح وقائي حتى أصبحت ؛ فأردت النزول هنا على
هذه الحالة لأشكر الله سبحانه على الفرقِ ما بين المنزلتين والفصلِ ما بين
المبيتين ! ثم قام فتوضأ وصلى ركعتين شكراً لله عز وجل .
وجدتُ هذه الحكاية بخط رجل من ولدِ عبد المؤمن اسمه موسى
بن يوسف بن عبد المؤمن .

* * *

وبدا له في هذا الوجه أن يمر على القرية التي تُسمَّى تاجرا - وبها كان

مولده كما تقدم (١) - لزيارة قبر أمه وصلة من هناك من ذوى رحمه ؛ فلما أطل عليها والجيش قد انتشرت بين يديه وقد خفقت على رأسه أكثر من ثلاثمئة راية ما بين بنود وألوية ، وهزت أكثر من مئتي طبل - وطبولهم في نهاية الكبر وغاية الضخامة يخيل لسامعها إذا ضربت أن الأرض من تحته تهتز ويحس قلبه يكاد يتصدع من شدة دويها - فخرج أهل القرية للقاءه والتسليم عليه بالخلافة ؛ فقالت امرأة عجوز من عجائز القرية ، ممن كانت تصحب أمه : هكذا يعود الغريب إلى بلده ! تقول ذلك رافعة صوتها ...

* * *

ونازع عبد المؤمن الأمر قوم من قرابة ابن تومرت يعرفون بأيت ومغار - معناه بالعربية : بنو ابن الشيخ - وانتهوا في ذلك إلى أن أجمع رأيهم ورأى من وافقهم على سوء صنيعهم على أن يدخلوا على عبد المؤمن خبائه ليلا فيقتلوه ؛ وظنوا أن ذلك يخفى من أمرهم ، وأن عبد المؤمن إذا فقد ولم يعلم من قتله صار الأمر إليهم لأنهم أحق به ؛ إذ كانوا أهل الإمام وقرابته وأولى الناس به .

فأعلم بما أرادوه من ذلك رجل من أصحاب ابن تومرت ، من خيارهم ، اسمه اسماعيل بن يحيى الهزرجى ؛ فأتى عبد المؤمن فقال له : يا أمير المؤمنين ، لى إليك حاجة ! قال : وما هى يا أبا إبراهيم فجميع حوائجك عندنا مقضية ! قال : أن تخرج عن هذا الخباء وتدعنى أبيت فيه ! ولم يعلمه

(١) انظر ص ٢٦٥ .

بمراد القوم ؛ فظن عبد المؤمن أنه إنما يستوْهبه الخبَاء لأنه أعجبه ، فخرج عنه وتركه له ؛ فبات فيه اسماعيل المذكور ؛ فدخل عليه أولئك القوم فتولَّوه بالحديد حتى برَد .

فلما أصبحوا ورأوا أنهم لم يُصيبوا عبد المؤمن فروا بأنفسهم حتى أتوا مراکش وراموا القيام بها ؛ فاتوا البوابين الذين على القصور فطلبوا منهم المفاتيح ، فأبوا عليهم ؛ فضربوا عنقَ أحدهم وفرّ باقيهم ؛ وكادوا يغلّبون على تلك القصور ...

ثم إن الناس اجتمعوا عليهم ، من الجند وخاصة العبيد فقاتلوهم قتالا شديداً من لدُنْ طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ؛ ثم إن العبيد غلبوهم على أمرهم ؛ ولم يزل الناس يتكاثرون عليهم إلى أن أخذوا قبضاً باليد ، فقيّدوا وجعلوا في السجن إلى أن وصل أبو محمد عبد المؤمن - رحمه الله - إلى مراکش ؛ فقتلهم صبراً ، وقتل معهم جماعة من أعيان هرغة ، بلغه أنهم قادحون في مُلكه متربّصون به .

ولما أصبح أبو إبراهيم إسماعيل المتقدم الذكر في الخبَاء مقتولا على الحال التي ذكرنا ، أعظم ذلك عبدُ المؤمن ووجد عليه وجداً مفرطاً أخرجه عن حد التماسك إلى حيز الجزع ، فأمر بغسله وتكفينه ، وصلى عليه بنفسه ، ودُفن .

ولم يترك إسماعيل هذا من الولد سوى ولد واحد ذكر ، اسمه يحيى . نال يحيى هذا في أيام أبي [يوسف] يعقوب جاهاً متسعاً ورتبة عالية ، وكذلك في أيام أبي عبد الله [محمد] ؛ كانت أكثر أمورهم ترجع إليه ؛ لم يزل

كذلك إلى أن مات في شهور سنة ٦٠٢ وترك بنتاً واحدة تزوجها أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن . اسمها فاطمة ، لاعقب له منها ؛ طال عمرها ، تركتها بالحياة حين فصلتُ عن مراکش في شهور سنة ٦١١^(١) .

* * *

ولإسماعيل هذا مع ابن تومرت خبر يَقْرُبُ مما قدّمنا في النصّح والتحذير تَلَطَّفَ فيه لإسماعيل غاية التلطف ؛ وذلك أن ابن تومرت حين خرج من مراکش على الحال التي تقدمت من إخراج أمير المسلمين إياه عنها^(٢) ، سار حتى نزل الضيعة التي فيها أبو إبراهيم ؛ فدخل المسجد ، فاجتمع أهل الضيعة على باب المسجد ينظرون إلى ابن تومرت ويقول بعضهم لبعض همساً : هذا الذي نفاه أمير المسلمين عن بلاده لإفساده عقول الناس . ونحو هذا القول ؛ وهموا بقتله تقريباً بذلك إلى أمير المسلمين ؛ فلما رأى ذلك أبو إبراهيم من أمرهم ، تقدم إلى ابن تومرت فسأله عن إعراب هذه الآية : « إن الملائمة يأتون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين » ففهم ابن تومرت ما أراد ، وخرج عن تلك الضيعة ، وعرف لأبي إبراهيم نصحه ؛ ثم لحق به أبو إبراهيم هذا بعد ما اشتهر أمره بتينمل ؛ فهو معدود في أهل الجماعة .

* * *

(١) انظر التقديم ص ٧ .

(٢) انظر ص ٢٥٤ .

ولما قتل عبد المؤمن أولئك القوم الذين قدمنا ذكرهم صبراً ، هابه المصامدة وسائر أهل دولته ، وعظم أمره في صدورهم .
وأقام عبد المؤمن بمراكش بقية سنة ٥٥ وسنة ٦ وسنة ٧ وفي أول سنة ٥٨ خرج أمره إلى الناس كافة بالغزو إلى بلاد الروم من جزيرة الأندلس ؛ وكتب عنه الكتب إلى سائر الجهات يستنفر الناس ويحضهم على الجهاد ويرغبهم فيه ؛ فاجتمعت له جموع عظيمة ؛ وخرج يقصد جزيرة الأندلس مظهرًا للغزو والاحتساب ، ويتمم أيضاً مع ذلك ما بقى عليه من مملكته مما بيد محمد بن سعد المتقدم الذكر ^(١) ؛ فسار بالجيوش حتى نزل مدينة سلا ؛ فأقام بها ينتظر تكامل العساكر ؛ فاعتلّ علته التي مات منها رحمه الله .

[وفاة عبد المؤمن وعهده لولده]

وكانت وفاته كما تقدم في السابع والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة أعنى سنة ٥٨ .

وكان قد عهد في حياته إلى أكبر أولاده محمد ، وبإيعه الناس ، وكتب ببيعته إلى البلاد ؛ فأبى تمام هذا الأمر لمحمد هذا ما كان عليه من أمور لا تصلح معها الخلافة ، من إدمان شرب الخمر ، واختلال الرأي ، وكثرة الطيش ، وجبن النفس ؛ ويقال إنه مع هذا كان به ضربٌ من الجذام ، فالله أعلم .

(١) محمد بن سعد بن مردنيش ، ملك شرق الأندلس . انظر ص ٢٧٨ .

ولما مات عبد المؤمن ، اضطرب أمر محمد هذا واختُلف عليه اختلافاً
كثيراً ؛ فكانت ولايته إلى أن خلع خمساً وأربعين يوماً ، واتفقوا على
خلعه في شعبان من هذه السنة ؛ وكان الذي سعى في خلعه - مع ما قدمنا
من استحقاقه لذلك - أخواه يوسف وعمر .

ذكر ولاية أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وما يتعلق بها

ولما تم خلع محمد في التاريخ المذكور ، بعد اتفاق من وجوه الدولة على ذلك ، دار الأمر بين اثنين من ولد عبد المؤمن : يوسف ، وعمر ؛ وهما من نبهاء أولاده ونجبائهم وذوى الرأى والغناء منهم ، فأبأها عمر منهما وتأخر عنها مختاراً ؛ وبائع لأخيه أبي يعقوب ، وسلم له الأمر ؛ حمّله على ذلك فرط عقله وإيثار دينه وحُب المصلحة للمسلمين ، لأنّه كان يعلم من نفسه أشياء لا يصلح معها لتدبير المملكة وضبط أمور الرعية ؛ فبايع الناس أبا يعقوب ، واتفقت عليه الكلمة ؛ فلم يختلف عليه أحد من الناس من اخوته ولا غيرهم ؛ وذلك كله بحسن سعى أبي حفص عمر بن عبد المؤمن وشدة تلطفه وجودة رأيه ؛ فاستوثق لأبي يعقوب هذا أمره ، وتمت بيعته في التاريخ المذكور ؛ وكان الساعى فيها والقائم بها ومديرها إلى أن تمت - كما ذكرنا - أخوه لأبيه وأمه ، أبو حفص المتقدم الذكر .

وأبو يعقوب هذا هو يوسف بن عبد المؤمن بن علي ؛ أمّه وأُم أخيه أبي حفص ، امرأة حرة اسمها زينب ابنة موسى الضرير ؛ كان [موسى هذا] من [شيوخ] أهل تينمل وأعيانهم ، [من ضيعة يقال لها : أنسا] ؛ وكان عبد المؤمن يستخلفه على مراکش إذا خرج عنها ، وكانت مصاهرته إياه أيام كان عبد المؤمن بتينمل ، برأى ابن تومرت ؛ وخلف موسى هذا من الولد

الذكور ثلاثة : إبراهيم ، وعلياً ، ومحمداً ؛ وبنات .

صفة أبي يعقوب

كان أبيض تعلوه حمرة ، شديد سواد الشعر ، مستدير الوجه ، أفوه ، أعين ، إلى الطول ما هو ؛ في صوته جهازة ، رقيق حواشي اللسان ، حلو الألفاظ ، حسن الحديث ، طيب المجالسة ، أعرف الناس كيف تكلمت العرب ، وأحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام ؛ صرف عنايته إلى ذلك أيام كونه بإشبيلية والياً عليها في حياة أبيه ؛ ولقى بها رجلاً من أهل علم اللغة والنحو والقرآن ؛ منهم الأستاذ اللغوي المتقن أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك المعروف عندهم بابن ملكون ؛ فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع في كثير منه .

أخبرني من لقيته من ولده ، كآبي زكريا ، وأبي عبد الله ، وأبي إبراهيم إسحاق ، وغيرهم ممن لقيته وشافهته منهم ، أنه كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن ، وأسرعهم نفوذاً خاطر في غامض مسائل النحو ، وأحفظهم للغة العربية .

وكان شديد الملوكية ، بعيد الهمّة ، سخيّاً جواداً ، استغنى الناس في أيامه وكثرت في أيديهم الأموال ؛ هذا مع إثارة للعلم شديد ، وتعطش إليه مفرط ؛ صبح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين - الشك مني إما البخاري أو مسلم ، وأغلب ظني أنه البخاري - حفظه في حياة أبيه بعد تعلم القرآن ؛ هذا مع ذكر جمل من الفقه : وكان له مشاركة في علم الأدب ،

واتساعٌ في حفظ اللغة ، وتبحرٌ في علم النحو حسبما تقدم ؛ ثم طمح به شرفُ نفسه وعلوُّ همته إلى تعلُّم الفلسفة ، فجمع كثيراً من أجزاءها ، وبدأ من ذلك بعلم الطب ، فاستظهر من الكتاب المعروف بالملكي أكثره ، مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ؛ ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرفُ من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها ؛ فاجتمع له منها قريبٌ مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموى .

أخبرني أبو محمد عبد الملك الشذوني^(١) ، أحد المتحققين بعلمى الطب وأحكام النجوم ، قال : كنت في شببتي أستعير كتب هذه الصناعة - يعنى صنعة الأحكام - من رجل كان عندنا بمدينة إشبيلية ، اسمه يوسف ، يُكنى أبا الحجاج ، يعرف بالمراني (بتخفيف الراء) ، كانت عنده منها جملة كبيرة وقعت إلى أبيه في أيام الفتنة بالأندلس ؛ فكان يُعيرني إياها في غرائر : أحمل غرارة وأجىء بغرارة ؛ من كثرتها عنده ؛ فأخبرني في بعض الأيام أنه عديم تلك الكتب بجملتها : فسألته عن السبب الموجب لذلك ، فأسرَّ إلى أن خبرها أنهى إلى أمير المؤمنين ، فأرسل إلى دارى وأنا في الديوان لا علم عندي بذلك ؛ وكان الذى أرسل كافور الخصى مع جماعة من العبيد الخاصة ، وأمره ألا يرُوعَ أحداً من أهل الدار ، وألا يأخذ سوى الكتب ؛ وتوَعَّده والذين معه أشدَّ الوعيد إن نقص أهل البيت إبرةً فما فوقها ؛ فأخبرت بذلك وأنا في الديوان ؛ فظننته يريد استصفاء أموالى ؛

(١) نسبة الى شذونة : بلد من اعمال اشبيلية .

فركبتُ وما معي عقلٌ ، حتى أتيتُ منزلي ؛ فاذا الخصى كافور الحاجب واقفٌ على الباب والكتبُ تخرج إليه ؛ فلما رآني وتبينَ دُعري قال لي : لا بأس عليك ! وأخبرني أن أمير المؤمنين يسلمُ عليّ ، وأنه ذكرني بخير ! ولم يزل يبسطني حتى زال ما في نفسي ؛ ثم قال لي : سلْ أهل بيتك هل راعهم أحدٌ أو نقصهم شيءٌ من متاعهم ؟ فسألتهم ، فقالوا : لم يرُعنا أحدٌ ولم ينقصنا شيءٌ : جاء أبو المسك حتى استأذن علينا ثلاثَ مرات ، فأخيلنا له الطريق ، ودخل هو بنفسه إلى خزانة الكتب فأمر بإخراجها . فلما سمعتُ هذا القول منهم زال ما كان في نفسي من الرُّوع .

وولَّوه بعد أخذهم لهذه الكتب منه ولايةً ضخمةً ما كان يُحدث بها نفسه .

ولم يزل ^(١) يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ، ويبعث عن العلماء ، وخاصةً أهل علم النظر ، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك قبله من ملك المغرب

[أبو بكر بن طفيل]

وكان ممن صاحبه من العلماء المتفنيين ، أبو بكر محمد بن طفيل ، أحد فلاسفة المسلمين ؛ كان متحققاً بجميع أجزاء الفلسفة ؛ قرأ على جماعة من المتحققين بعلم الفلسفة ، منهم أبو بكر بن الصائغ المعروف عندنا بابن باجة

(١) يعني الأمير أبا يعقوب .

وغيره ؛ ورأيت لأبي بكر^(١) هذا تصانيفَ في أنواع الفلسفة من الطبيعيات
والإلهيات وغير ذلك ؛

فمن رسائله الطبيعيات رسالة سماها رسالة «حَيَّ بن يقظان» غرضه
فيها بيان مبدلِ النوع الإنساني على مذهبهم ؛ وهى رسالة لطيفة الجرم كبيرة
الفائدة فى ذلك الفن .

ومن تصانيفه الإلهيات رسالة فى النفس رأيتها بخطه رحمه الله ؛ وكان
قد صرف عنايته فى آخر عمره إلى العلم الإلهيّ ونبذ ما سواه ؛ وكان حريصاً
على الجمع بين الحكمة والشرعة ، معظماً لأمر النبوءات ظاهراً وباطناً ؛
هذا مع اتساع فى العلوم الإسلامية .

وبلغنى أنه كان يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة ، من الأطباء
والمهندسين والكتاب والشعراء والرّماة والأجناد ، إلى غير هؤلاء من الطوائف
وكان يقول : لو نفّق عليهم علمُ الموسيقى لأنفقته عندهم !
وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به والحبُّ له ؛ بلغنى أنه
كان يقيم فى القصر عنده أياماً ليلاً ونهاراً لا يظهر .

وكان أبو بكر هذا أحدَ حسنات الدهر فى ذاته وأدواته ؛ أنشدنى ابنه
بجى بمدينة مراکش سنة ٦٠٣ من شعر أبيه رحمه الله :

أَلَمْتُ وقد نام المُشِيحُ وهوَّما وأسرت إلى وادى العقيق من الحمى
وجرّت على تُرْبِ المحصَّبِ ذيلُها فما زال ذاك التُّرْبُ نهْباً مقسماً

(١) يعنى ابن طفيل .

تَنَاوَلَهُ أَيْدَى التُّجَّارِ لَطِيمَةً وَيَحْمِلُهُ الدَّارِيُّ أَيَّانَ يَمَمًا
وَلَمَّا رَأَتْ أَنْ لَا ظَلَامَ يُجْنِئُهَا وَأَنَّ سُرَاهَا فِيهِ لَنْ يُمُتَكِّتَمَا
نَفَسَتْ عَذَابَ الرِّيطِ عَنْ حُرٍّ وَجْهَهَا
فَأَبَدَتْ مُجِيًّا يُدْهِشُ الْمُتَوَسِّمًا
فَكَانَ تَجَلِّيَهَا حِجَابَ جَمَالِهَا
كَشَمَسِ الضَّحَى يَغْشَى بِهَا الطَّرْفَ كُلَّمَا...
وَلَمَّا التَّقِينَا بَعْدَ طَوْلِ تَهَاجُرٍ وَقَدْ كَادَ حَبْلُ الْوُدِّ أَنْ يَتَصَرَّمَا
جَلَّتْ عَنْ ثَنَائِيهَا وَأَوْمَضَ بَارِقٌ فَلَمْ أَدْرِ مَنْ شَقَّ الدَّجَنَةَ مِنْهُمَا
وَسَاعَدَنِي جَفْنُ الْغَمَامِ عَلَى الْبُكَاءِ فَلَمْ أَدْرِ دَمْعًا أَيْنَا كَانَ أَشْجَمَا
فَقَالَتْ وَقَدَرَقَ الْحَدِيثُ وَأَبْصُرْتُ قَرَائِنَ أَحْوَالٍ أَدْعَنَ الْمُكْتَمَا :
نَشَدْتُكَ لَا يَذْهَبُ بِكَ الشَّوْقُ مَذْهَبًا
يُهَوُّنُ صَعْبًا أَوْ يُرَخِّصُ مَائِثَمَا
فَأَمْسَكْتُ لَا مُسْتَغْنِيًّا عَنْ نَوَالِهَا وَلَكِنْ رَأَيْتُ الصَّبْرَ أَوْفَى وَأَكْرَمَا
وَمِنْ شَعْرِهِ فِي الزَّهْدِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مَا قَرَأَ عَلَى ابْنِهِ مِنْ خَطِّهِ فِي التَّارِيخِ
المذكور :

يَا بَاكِيًا فُرْقَةً الْأَحْبَابِ عَنْ شَحَطِ
هَلَّا بِكِيتٍ فِرَاقَ الرُّوحِ لِلْبَدَنِ
نُورٌ تَرَدَّدَ فِي طِينٍ إِلَى أَجَلٍ فَانْحَازَ عُلُوقًا وَخَلَّى الطِّينَ لِلْكَفَنِ
يَا شَدَّ مَا افْتَرَقَا مِنْ بَعْدِ مَا اعْتَلَقَا أَظُنُّهَا هُدْنَةً كَانَتْ عَلَى دَخَنِ

إن لم يكن في رضى الله اجتماعهما فيآلها صفة تمت على غبن
وأنشدنى بعض أصحابنا من الكتاب له رحمه الله :

ماكل من شمم نال رائحة للناس في ذا تباين عجب
قوم لهم فكرة تجول بهم بين المعاني ، أولئك النجب
وفرقة في القشور قد وقفوا وليس يذرون لب ما طلبوا
لا غاية تنجلي لناظرهم منه ولا ينقضى لهم أرب
لا يتعدى أمرؤ جيلته قد قسمت في الطبيعة الرتب

ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه ^(١) العلماء من جميع الأقطار وينبئهم
عليهم ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ؛ وهو الذى نبئهم على أبى الوليد
محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ؛ فمن حينئذ عرفوه ونبئ قدره عندهم .

[أبو الوليد بن رشد]

أخبرنى تلميذه الفقيه الأستاذ أبو بكر بُندود بن يحيى القرطبي قال :
سمعت الحكيم أبا الوليد يقول غير مرة : لما دخلت على أمير المؤمنين
أبى يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما ؛ فأخذ
أبو بكر يُثنى على ويذكر بيتى وسلفى ، ويضم بفضلهم إلى ذلك أشياء
لا يبلغها قدرى ؛ فكان أول ما فاتحنى به أمير المؤمنين بعد أن سألتنى عن
اسمى واسم أبى ونسبى أن قال لى : ما رأيهم فى السماء - يعنى الفلاسفة -

(١) يعنى الى أبى يعقوب .

أقدمية هي أم حادثة ؟ فأدركني الحياء والخوف ؛ فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة ؛ ولم أكن أدري ما قرّر معه ابن طفيل ؛ ففهم أمير المؤمنين من الرّوع والحياء ؛ فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلّم على المسألة التي سألتني عنها ، ويذكر ما قاله أرسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم ؛ فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنّها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرّغين له ؛ ولم يزل يبسطني حتى تكلمت ، فعرف ما عندي من ذلك ؛ فلما انصرفت أمر لي بمال وخلعة سنّية ومركب .

وأخبرني تلميذه المتقدم الذكر عنه قال : « استبدعني أبو بكر بن طفيل يوما فقال لي : سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكّى من قلق عبارة أرسطوطاليس - أو عبارة المترجمين عنه - ويذكر غموض أغراضه ، ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرّب أغراضها بعد أن يفهمها فهما جيدا لقرب مأخذها على الناس : فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل ، إني لأرجو أن تنفي به ؛ لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة ؛ وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلّمه من كبر سنّي واشتغالي بالخدمة وصرف عنائي إلى ما هو أهمّ عندي منه . قال أبو الوليد : فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصّته من كتب أرسطوطاليس . »

وقد رأيت أنا لأبي الوليد هذا تلخيص كتب الحكيم في جزء واحد في نحو من مائة وخمسين ورقة ، ترجمه « بكتاب الجوامع » لخص فيه كتاب الحكيم المعروف بسمع الكيان ، وكتاب السماء والعالم ، ورسالة الكون

والفساد ، وكتاب الآثار العلوية ، وكتاب الحس والمحسوس ؛ ثم لخصها بعد ذلك وشرح أغراضها في كتاب مبسوط في أربعة أجزاء .

[رجع الحديث عن الأمير أبي يعقوب]

وفي الجملة ، لم يكن في بني عبد المؤمن فيمن تقدم منهم وتأخر ملكٌ بالحقيقة غير أبي يعقوب هذا .

وزراؤه :

وزر له أخوه عمرُ أياماً يسيرة ثم ارتفع قدره عن الوزارة إذ رآها دونه .

ثم وزر له أبو العلاء إدريس بن إبراهيم بن جامع ، إلى أن قبض عليه واستُصفي أمواله في شهور سنة ٥٧٧ .

ووزر له بعده ابنه أبو يوسف وليَّ عهده إلى أن مات سنة ٥٨٠ .

فكانت ولايته من حين بُيع له إلى أن استشهد - رحمة الله عليه - ببلاد الروم ، اثنتين وعشرين سنة إلا أشهراً^(١) .

كتابه :

أبو محمد عيَّاش بن عبد الملك بن عيَّاش كاتب أبيه ، وأبو القاسم

(١) سبأني تفصيل ذلك من ٢٢٢ - ٢٢٥ .

المعروف بالقالى^(١) ، وأبو الفضل جعفر بن أحمد المعروف بابن محشوة من أهل مدينة بجاية ، كان يخدم أبا القاسم القالى إلى أن مات فكتب مكانه .

هؤلاء كتبة الإنشاء خاصة ، وكتاب الجيش : أبو الحسين الهوزنى الاشبلى ، وأبو عبد الرحمن الطوسى .

حاجبه :

كافور مولاه الخصى ، كان يُدعى كافور بغرة .

أولاده :

كان له من الولد ثمانية عشر ذكراً ، وهم : عمر ، ويعقوب - وهو ولى عهده - ، وأبو بكر وعبدالله ، وأحمد ، ويحيى ...

كان يحيى هذا . رحمه الله ، لى صديقاً ، ومن جهته تلقى أكثر أخبارهم ؛ لم أر فى الملوك ولا فى السوقة مثله رحمة الله عليه ؛ وما استجرت لفظ الصداقة مع أن الواجب لفظ الخدمة إلا لما كان ، رحمه الله ، يكتب إلى : أخى ، وصديقى ، فى بعض الأوقات ، وولّى فى بعضها ؛ اجتمعت عندى بخطه رقاع كثيرة ، خلعت على فيها فضله ، وحلافى بما لم أكن أستحقه^(٢) .

(١) انظر ص ٢٦٦ و ٢٦٩ .

(٢) انظر التقديم ص ١١ .

وموسى ، وإبراهيم ، وإدريس ، وعبد العزيز ، وطلحة ، وإسحاق ،
ومحمد ، وعبد الواحد ، وعثمان ، وعبد الحق ، وعبد الرحمن ، وإسماعيل .
وبنات .

قصائمه :

أبو محمد الملقى المتقدم الذكر ^(١) : ثم عزله وولى بعده عيسى بن
عمران التازى ، من أهل رباط تازا من أعمال مدينة فاس ، من قبيلة يقال
لها تسول من البربر يرجعون إلى زنانة .

كان عيسى هذا من فضلاء أهل المغرب ونبھائهم ، وكان خطيباً مصقفاً
وبليغاً لسنناً وشاعراً مقلقاً مشاركاً فى كثير من العلوم ؛ ونال فى أيام
أبى يعقوب حظوة ومكانة ؛ كان يتكلم عن الوفود ويخطب فى النوازل فيأتى
بكل عجيبة ؛ وكان مع هذا ذا مروءة تامة وتعصب لمن ينقطع إليه مفرط ؛
أخبرنى ابنه أبو عمران - قاضى الجماعة فى وقتنا هذا - قال : سمعت أبى
يقول وقد لامه بعض من يلوذ به فى التنويه بأقوام ليست لهم سوابق
ولا أقدار ، رفعهم من الحضيض جاهه ، ونبھهم بعد الخمول اعتناؤه :
« ليس العجب ممن يأتى إليه رجل نبيه القدر يرفعه ، إنما العجب ممن يُحىي
الميت ويُنبئ الخامل ويرفع الوضع ؛ فأما النبى القدر فنباؤه تكفيه » .

وبلغ من إفراطه فى التعصب أن قال يوماً : « ليس بحماية أن تحمى
صاحبك وهو مُحَقِّق ؛ فإن الحق أظهر وأقوى من أن يُحمى ؛ إنما الحماية
أن تحميه وهو مُبْطَل ! » فى أشباه لهذه الأخبار .

(١) هو عبد الله بن عبد الرحمن . انظر ص ٢٦٦ .

وكان له أولاد ما منهم إلا من ولي القضاء ؛ وهم عليّ ، وكان علي هذا رجلاً صالحاً ، ولي في حياة أبيه قضاء مدينة بجاية ، ثم عُزل عنها وولى مدينة تلمسان ؛ وهو عندنا من المشهورين بالتصميم والتبطل في دينه ، وممن لا تأخذه هودة في الحق .

ومن أولاده طلحة ، ولي قضاء تلمسان ؛ ويوسف ، تركته قاضياً بمدينة فاس ، بلغتني وفاته وأنا بمكة في سنة ٦٢٠ ؛ وأبو عمران موسى ، قاضي الجماعة في وقتنا هذا ، وسيأتي ذكره في موضعه إن شاء الله عز وجل .

ثم ولي بعد أبي موسى هذا ^(١) رجلٌ اسمه حجاج بن ابراهيم التُّجِيبِي ، من أهل مدينة أغمات من أعمال مدينة مراكش ؛ كان حجاجٌ هذا رجلاً صالحاً يُعَدُّ في الزُّهاد المتبطلين ، وكان له تبحُّرٌ في الفقه ومعرفةٌ بأصوله وبصُرِّ بعلم الحديث ، هذا مع نزاهة نفس وطهارة عرض وتصميمٍ في الحق ؛ أفرط في ذلك حتى ثَقُلَتْ على كثير من وجوه الدولة وطائفة ونالوا منه عند أبي يعقوب ؛ فما زاده ذلك إلا حُباً وتقريباً ، إلى أن مات - رحمه الله - في حياة أبي يعقوب ؛ بلغ من رقة قلبه وسرعة دَمَعته أنه دخل يوماً على أمير المؤمنين أبي يعقوب وقد بَلََّ لحيته ورداءه بدموعه ؛ فلما مَثَلَ بين يديه زاد في البكاء ، فسأله أمير المؤمنين عما أبكاه ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، سألتك بالله ، ألا أعفيتني ؟ قال : عَزَمْتُ عليك لتُخبرنني أولاً بسبب بكائك ! قال : بينا أنا قاعد في مجلس الحكم إذ أتيتُ بشيخ سكران كنت

(١) يعني عيسى بن عمران التازي .

قد حَدَّثْتُهُ مراراً ، فكان من كلامي أَن قلتُ له : يا شيخ ، كيف تُحَسِّرُ ؟
ففتح يديه وقال : هكذا . . . (١) فوالله ما ملكْتُ دمعتي حين عرفتُ ما عَنَى
بقوله ؛ إِنَّمَا عَرَّضَ لِي بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الْقَاضِيَ يُحَسِّرُ
مُطَوَّقَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ ؛ فَإِذَا أَنْ يَحُلَّهْ عَدْلُهُ أَوْ يَهْوَى بِهِ جَوْرُهُ ! » هذا معنى
الحديث ؛ فَاسْأَلْكَ بِاللَّهِ ، أَلَا أَغْفِيْتَنِي ؟ فوعده بذلك ؛ فقال : عسى أَن
يكون في مقامي هذا ! فقال له : لا أَفعل حتى أَجد عَوْضاً منك ! فخرج من
عنده فما لبث إِلا أَياماً يسيرة حتى مات ، رحمة الله عليه !
ثم ولي بعده القضاء أَبُو جعفر أَحمد بن مَضَاء ، من أَهل مدينة قُرطبة ؛
فلم يزل أَبُو جعفر هذا قاضياً إِلى أَن مات أمير المؤمنين أَبُو يعقوب ،
وصدرًا من خلافة أَبِي يوسف المنصور رحمه الله .

(١) يشير الى أنه جعل يديه منفلوتين الى عنقه .

فصل

دخول بنى مردنيش في طاعة الموحدين

ولما استوثق لأبي يعقوب هذا الأمر لم يزل مقيماً بمراكش إلى أن كانت سنة ٥٦٧ ، فبدأ له أن يعبر إلى جزيرة الأندلس ، مُظهراً قصد غزو الروم ، ومُبطِناً لإتمام تملك الجزيرة والتغلب على ما في يد محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش منها ؛ وكان يملك منها ابنُ سعد المذكور من أول أعمال مُرسية إلى آخر ما يملكه المسلمون اليوم من شرقها - وقد تقدم تلخيص التعريف بمملكته إياها ومن أين اتصلت إليه^(١) - فجمع أمير المؤمنين أبو يعقوب جموعاً عظيمة من قبائل الموحدين وغيرهم من أصناف الجند ، وسار حتى نزل مدينة سبتة ، فبنى لها منزلاً هو باق هناك إلى اليوم ؛ فأقام بها إلى أن تكاملت جموعه ، ولحق به من كان تأخر عنه من العساكر ثم عبر البحر وقصد مدينة إشبيلية ، فنزلها ، وجَهَّز العساكر إلى محمد بن سعد .

(١) انظر ص ٢٧٧ - ٢٧٩ .

ولم تكن الوقعة المذكورة هنا هي أولى الوقائع بين ابن مردنيش والموحدين ، فقد سبقتها وقائع أخرى كان النصر فيها لابن مردنيش ملك شرق الأندلس ، وحليفه وصهره إبراهيم بن همشك ، وقد تم لهما في بعض تلك الوقائع الاستيلاء على غرناطة من يد واليها الموحد أبي سعيد سنة ٥٥٦ .

ثم اتصلت المعارك بين الموحدين وابن مردنيش ولم يزل النصر والقلبة حتى نشب الخلاف بينه وبين صهره إبراهيم بن همشك ، بسبب ابنته التي كانت زوجاً لابن مردنيش ثم انفصلت عنه ، فحل به البوار من يومئذ .

وكان أخو أبي يعقوب ، عثمان بن عبد المؤمن ، والياً على مدينة أغرناطة ؛ فكتب إليه أن يقصد بالعساكر إلى مدينة مرسية ، دار مملكة محمد بن سعد ؛ فخرج عثمان بالعساكر حتى نزل قريباً منها بموضع يُدعى الجلاب ، وخرج إليه محمد بن سعد في جموع عظيمة أكثرها من الإفرنج ؛ لأن ابن سعد كان مستعيناً بهم في حروبه قد اتخذهم أجناداً له وأنصاراً ؛ وذلك حين أحس باختلاف وجوه القواد عليه وتنكّر أكثر الرعية له ، فقتل من أولئك القواد الذين اتهمهم جماعة بأنواع من القتل ؛ بلغنى أن منهم من بنى عليه في حائط وتركه حتى مات جوعاً وعطشاً ، إلى غير هذا من ضروب القتل ؛ واستدعى النصارى ، كما ذكرنا ، فجعلهم أجناداً له ، وأقطعهم ما كان أولئك القواد يملكونه ، وأخرج كثيراً من أهل مرسية وأسكن النصارى دورهم ...

فزحف^(١) كما ذكرنا بجيشه ، ومعظمهم من الإفرنج ؛ فالتقى هو والموحدون بالموضع المعروف بالجلاب ، على أربعة أميال من مرسية ؛ فانهزم أصحاب محمد بن سعد انهزاماً قبيحاً ، وقتل من أعيان الروم جملة ، ودخل محمد بن سعد مدينة مرسية مستعداً للحصار ؛ فضايقه الموحدون ، وما زالوا محاصرين له إلى أن مات وهو في الحصار حتف أنفه ؛ وسُتِرت وفاته إلى أن ورد أخوه يوسف بن سعد ، الملقب بالرئيس ، من بلنسية ؛ وكان والياً عليها من جهة أخيه محمد ؛ فاجتمع رأيهم ورأى أكابر ولد محمد بن سعد - بعد أن اتهموا وأنجدوا وأخذوا في كل وجه من وجوه

(١) يعنى ابن مردنيش .

الحِيل - على أن يُلقوا أيديهم في يد أمير المؤمنين أبي يعقوب ويُسلموا إليه البلاد ، ففعلوا ذلك ؛ وقيل إن أبا عبدالله محمد بن سعد حين حضرته الوفاة جمع بنيه ؛ وكان له من الولد على علمى ثمانية ذكور ، وهم : هلال - يكنى أبا القمر ، وهو أكبر ولده وإليه أوصى - وغانم ، والزبير ، وعزيز ، ونصير ، وبدر ، وأرقم ، وعسكر ، وأصاغرُ لا علم لي بأسمائهم وبناتُ تزوج إحداهن أمير المؤمنين أبو يعقوب وتزوج الأخرى أمير المؤمنين أبو يوسف يعقوب بن يوسف ؛ فكان فيما أوصاهم به أن قال : « يا بني ، إني أرى أمر هؤلاء القوم قد انتشر ، وأتباعهم قد كثروا ودخلت البلاد في طاعتهم ؛ وإني أظن أنه لا طاقة لكم بمقاومتهم : فسلموا إليهم الأمر اختياراً منكم ، تحظوا بذلك عندهم قبل أن ينزل بكم منازل بغيركم ؛ وقد سمعتم ما فعلوا بالبلاد التي دخلوها غنوة ! » ففعلوا ما أمرهم به ؛ فالله أعلم أي الأمرين كان .

* * *

وخرج أمير المؤمنين أبو يعقوب من إشبيلية قاصداً بلاد الأذفنش - لعنه الله - فنزل على مدينة له عظيمة تسمى وَيْذَة ، وذلك أنه بلغه أن أعيان دولة الأذفنش ووجوه أجناده في تلك المدينة ، فأقام محاصراً له أشهراً إلى أن اشتد عليهم الحصار وأرادوا تسليم البلد ؛ أخبرني جماعة يكثر عددهم ممن أدركت من شيوخ أهل الأمر ، أن أهل هذه المدينة لما برح بهم العطش أرسلوا إلى أمير المؤمنين يطلبون الأمان على أنفسهم ، على

أن يخرجوا له عن المدينة ؛ فأبى ذلك عليهم ، وأطعمه فيهم ما نُقل إليه من شدة عطشهم وكثرة من يموت منهم ؛ فلما يئسوا مما عنده سُمع لهم في بعض الليالي لَغَطٌ عظيم وجلبةُ أصوات ؛ وذلك أنهم أخرجوا أناجيلهم ، واجتمع قَسِيْسُوهم ورُهْبَانهم يَدْعُونَ ويومِّن باقيهم ، فجاء مطر عظيم كَأَفْوَاه القِرْب ملاً ما كان عندهم من الصهاريج ، وشربوا وارتووا وتَقَوَّوا على المسلمين فانصرف عنهم أمير المؤمنين راجعاً إلى إشبيلية ، بعد أن هَادَنَ الأَدَفْنَشَ - لعنه الله - مدة سبع سنين .

ولم يزل أمير المؤمنين مقيماً بالأندلس بقية سنة سبع ، وثمان ، وتسع إلى أن رجع إلى مراکش في آخر سنة ٥٦٩ وقد مَلَكَ الجزيرة بأسرها ، ودانت له بعجلتها ، ولم يخرج عن طاعته شيء منها .

[الخارجون على طاعة الموحدين بالمغرب]

وفي سنة ٧١ خرج إلى سوس لحسم خلاف وقع هنالك بين بعض القبائل الذين بَدَرَن ، فتمَّ له ما أراد من إخماد الفتنة وجَمْع الكلمة وإطفاء النائرة وحَسْم الخلاف .

* * *

وفي صدر سنة ٧٣ رام بعض القبيلة المسماة بغمارة مفارقة الجماعة ونَزَعَ اليد من الطاعة ؛ وكان رأسهم في ذلك الذي إليه يرجعون وعميدهم الذي عليه يعولون ، رجلٌ اسمه سَبْع بن حَيَّان ؛ ووافقه على ذلك أخ له يسمَّى

مَرَزْدَغ ؛ فَدَعَوْا إِلَى الْفِتْنَةِ ، وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمَا خَلْقٌ كَثِيرٌ .

وَالْقَبِيلَةُ الْمَذْكُورَةُ لَا يَكَادُ يَحْصُرُهَا عَدَدٌ وَلَا يَحْدُهَا حَزْرٌ لِكَثَرَتِهَا ؛ مَسَافَةُ
بِلَادِهَا طَوِيلًا وَعَرْضًا نَحْوُ مِنْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَحَلَةً ؛ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ أَمِيرُ
الْمُؤْمِنِينَ أَبُو يَعْقُوبَ بِنَفْسِهِ ؛ فَأَسْلَمَتَهُمَا جَمُوعُهُمَا ، وَتَفَرَّقَ عَنْهُمَا مَنْ كَانَ
اجْتَمَعَ عَلَيْهِمَا ، وَأَخَذَا قَبْضَ الْيَدِ ؛ فَقَتَلَا صَبْرًا وَصُلْبًا ؛ ثُمَّ رَجَعَ أَمِيرُ
الْمُؤْمِنِينَ أَبُو يَعْقُوبَ إِلَى مَرَكَشَ .

* * *

وَفِي أَوَّلِ سَنَةِ ٧٥ خَرَجَ أَبُو يَعْقُوبَ مِنْ مَرَكَشَ قَاصِدًا بِلَادَ أَفْرِيْقِيَّةٍ ؛
فَقَصَدَ مِنْهَا مَدِينَةَ قَفْصَةَ ؛ وَكَانَ قَدْ قَامَ بِهَا رَجُلٌ اسْمُهُ عَلِيٌّ ، يُعْرَفُ بِابْنِ
الرَّئِدِ ، وَتَلَقَّبَ بِالنَّاصِرِ لِدِينِ النَّبِيِّ ؛ فَحَاصِرَهُ أَبُو يَعْقُوبَ وَالْمُوَحِّدُونَ إِلَى أَنْ
اسْتَنْزَلُوهُ ، وَقَطَعُوا دَابِرَ الْخِلَافِ وَحَسَمُوا مَوَادَّهُ ، وَرَجَعُوا إِلَى مَرَكَشَ .

[صُلْحُ مَلِكِ صِقْلِيَّةِ]

وَفِي هَذِهِ السَّفَرَةِ صَالِحَهُ مَلِكُ صِقْلِيَّةٍ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ بِالْإِتَاوَةِ ، بَعْدَ أَنْ خَافَهُ
خَوْفًا شَدِيدًا ؛ فَقَبِلَ مِنْهُ مَا وَجَّهَ بِهِ إِلَيْهِ ، وَهَادَنَهُ عَلَى أَنْ يَحْمِلَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ
سَنَةٍ مَالًا اتَّفَقَا عَلَيْهِ ^(١) ؛ وَبَلَغَنِي أَنَّهُ اتَّصَلَتْ إِلَيْهِ مِنْهُ ذَخَائِرٌ لَمْ يَكُنْ

(١) صِقْلِيَّةٌ : جَزِيرَةٌ عَظِيمَةٌ بِبَحْرِ الرُّومِ ، تَتَّبِعُ الْيَوْمَ إِيطَالِيَا ، وَقَدْ فَتَحَهَا الْعَرَبُ سَنَةَ ٢١٢
عَلَى يَدِ أَسَدِ بْنِ الْفَرَاتِ ، وَمَلَكَهَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْأَغْلَبِ ، وَظَلَّتْ تَحْتَ حُكْمِ الْأَغْلَابَةِ زَمَانًا ، ثُمَّ حَكَمَهَا
الْعَبِيدِيُّونَ ، ثُمَّ الْكَلْبِيُّونَ ، بَنُو الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ الْكَلْبِيِّ ، ثُمَّ كَانَ اسْتِيلَاءُ الْفَرَنْجَةِ النُّورْمَانِيِّينَ
عَلَيْهَا سَنَةَ ٤٦٤ •

وَلَا اسْتَوْلَى عَلَيْهَا الْفَرَنْجَةُ النُّورْمَانِيُّونَ فِي التَّارِيخِ الْمَذْكُورِ جَعَلُوهَا دَارَ مَلِكِهِمْ وَاتَّخَذُوهَا

عندَ مَلِكٍ مِثْلُهَا ؛ مما اشتهر منها حجرٌ ياقوت يسمى الحافر - جعلوه فيما
كَلَّلُوا بِهِ المصحف ، لا قيمة له^(١) ، على قدر استدارة حافر الفرس ،
هو في المصحف إلى اليوم - مع أحجار نفيسة .

[المصحف العُماني في المغرب]

وهذا المصحف الذي ذكرناه ، وقع إليهم من نسخ عُثْمَانَ - رضى الله
عنه - من خزائن بنى أمية ، يحملونه بين أيديهم أنى توجهوا ، على ناقة
حمراء عليها من الحلى النفيس وثياب الديباج الفاخرة ما يعدل أموالاً
طائلة ، وقد جعلوا تحته بردعة من الديباج الأخضر يجعلونه عليها ،
وعن يمينه ويساره عَصِيَان^(٢) عليهما لواءان أخضران ، وموضع الأُسنة
منهما ذهبٌ شبهُ تُفَاحَتَيْنِ ؛ وخلف الناقة بغلٌ محلّى أيضاً ، عليه مصحف
آخر يقال إنه بخط ابن تومرت دون مصحف عُثْمَانَ فى الجِرم ، محلّى بفضة
مموّهة بالذهب ؛ هذا كله بين يدي الخليفة منهم .

* * *

ورجع أمير المؤمنين أبو يعقوب إلى مراکش من أفريقية ، بعد أن لم يبق

قاعدة بحرية للاغارة على سواحل بلاد المسلمين فى افريقية ، فملكوا طرابلس المغرب والمهدية
وغيرهما من حواضر المسلمين ، وأغاروا على الاسكندرية يؤازرون الصليبيين فى حملتهم على
مصر سنة ٥٧٠ لهجـد صلاح الدين الأيوبي ، ولكنهم ارتدوا عنها مهزومين .

وقد نشبت عدة معارك بين الموحدين وجيوش صقلية ، كان النصر فيها للموحدين - وانظر
فتح المهدية على يد الموحدين ص ٢٩٨ - ٣٠٠ .

(١) يعنى : فوق كل قيمة .

(٢) كذا بالأصل ، والصواب : عصوان .

بجميع المغرب مختلف عليهم ولا معاند لهم ، ودانت له جزيرة الأندلس بأسرها - كما ذكرنا - وكثرت في أيامه الأموال واتسع الخراج .

[حسن معاملة الموحدين لمن يغلبونهم من الملوك]

وكان كما ذكرنا - سخياً جواداً : بلغنى أنه أعطى هلال بن محمد بن سعد المتقدم الذكر^(١) ، صاحب شرقى الأندلس ، اثني عشر ألف دينار في يوم واحد^(٢) ؛ ولهلال هذا معه أخبار عجيبة ، من تقريبه إياه وإحسانه إليه وحبه له ؛ أخبرني بعض ولد هلال هذا أنه سمع أباه يقول : رأيت في المنام في بعض الليالي كأن أمير المؤمنين أبا يعقوب ناولني مفتاحاً ، فلما أصبحت إذا رسوله يستحثني ، فركبت وأتيت القصر ، فدخلت عليه وسلمت ، فاستدنانني حتى مسّت ثيابي ثيابه ، ثم أخرج إلى من تحت برؤسِه مفتاحاً على النحو الذي رأيت في المنام ، وقال : خذ إليك هذا المفتاح ؛ فتهيئت أن أسأل عن شأن المفتاح ؛ فقال لي ابتداءً : يا أبا القمر إن عامل مرسية أرسل إلينا في جملة ما أرسل صندوقاً وجده - زعم - في بعض خزائنكم ، لا يدري ما فيه ؛ وهذا مفتاحه ، ونحن لا ندري ما فيه ! فقلت : هلاً أمر أمير المؤمنين أن يُفتح بين يديه ! فقال : لو أردنا أن يُفتح بين أيدينا

(١) ابن مردنيش .

(٢) انظر ما كان من شأن عبد المؤمن مع يحيى بن العزيز آخر ملوك بنى حماد (ص ٢٧٥) وما كان من شأنه كذلك مع حسن بن يحيى آخر ملوك أفريقية (التعليق رقم ٤ ص ٢٩٨) ، وذلك بعد أن آلت إليه بلادها وصارا رعية من رعيته وتابعين من أتباعه !
ثم انظر - الى ذلك - ما فعل يوسف بن تاشفين بالعمد بن عباد وسائر من غلبهم على بلادهم من ملوك الطوائف بالأندلس !

لم نُسَلِّمَ إليك المفتاح ! وأمر فحمل الصندوق إلى ففتحته ، فإذا فيه حلى
وذخائر من ذخائر أبي ما يساوى أكثر من أربعين ألف دينار .

* * *

ولما تجهز أمير المؤمنين إلى غزو الروم ، أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث
في الجهاد تُملَى على الموحدين ليدرسوها - وهكذا جرت عادتهم إلى اليوم -
فجمع العلماء ذلك وجاءوا به إليه ؛ فكان يمليه على الناس بنفسه ؛ فكان
كل واحد من الموحدين والسادة يعجى بلوح يكتب فيه الإملاء ؛ فجاء هلال
هذا المذكور يوماً ولا لوح معه ؛ فأخرج القوم ألواحهم ؛ فقال له الوزير :
أين لوحك يا أبا القمر ؟ فخجل وافتتح يعتذر ؛ فأخرج له أمير المؤمنين
من تحت برئسه لوحاً وناولته إياه ، وقال هذا لوحه ! فلما كان من الغد
جاء ومعه لوح غير الذى دفعه له أمير المؤمنين ؛ فلما نظر إليه قال له : أين
لوحك بالأمس يا أبا القمر ؟ فقال : خبأته وأوصيت إذا مت أن يجعل
بين جلدي وكفني ! وأتبع ذلك بكاء حتى أبكى بعض من كان في المجلس ؛
فقال أمير المؤمنين : هذا المحب الصادق ! وأمر له بخيل وأموال وخلق ،
ولبنيه بمثل ذلك .

[اتساع الدولة وزيادة الخراج]

وكان الذى يُسهل عليه بذل الأموال - مع ما جُبِلَ عليه - من ذلك - سعة
الخراج وكثرة الوجوه التى يتحصّل منها الأموال .

كان يرتفع إليه خراج أفريقية ، وجملته في كل سنة وقرُ مئة وخمسين بغلا ، هذا من أفريقية وحدها ، خلا بجاية وأعمالها ، وتلمسان وأعمالها والمغرب - وحدُ عمل المغرب عندهم الذي يطلقون عليه هذا الاسم ، من مدينة تُدعى رباط تازا إلى مدينة تُدعى مكناسة الزيتون ؛ طول هذه المسافة وعرضها نحو من سبعة مراحل ، وهي أخصبُ رقعة على الأرض فيما علمت ، وأكثرُها أنهاراً مطردة وأشجاراً ملتفة وزروعاً وأعشاباً - ومدينة سَلَا وأعمالها ، وسَبْتَة وأعمالها - وأعمالُ سَبْتَة هذه في غاية السعة والفضخامة ؛ لأن بلاد غُمارة كُلُّها ترجع إليها ، وهي كما ذكرنا طولاً وعرضاً نحو من اثنتي عشرة مرحلة - وجزيرة الأندلس قاطبة ؛ أولُ ذلك آخرُ بلاد المسلمين مما يتاخم أرض الروم ، وآخره أيضاً مما يتاخم أرض الروم من أعمال شَلْب ؛ ومسافة ذلك طولاً وعرضاً نحو من أربع وعشرين مرحلة .

هذا كُلُّه لا ينازعه إياه أحد ولا يمتنع عليه منه درهم ، مضافاً إلى مراکش وأعمالها ، وأعمالُ مراکش أيضاً في نهاية من السَّعة ؛ لأن بالقرب منها قبائل ضخمة وبلاداً كثيرة ؛ فلم يرتفع للملك من الملوك - أعنى ملوك المغرب - قبل أبي يعقوب هذا وبعده ما ارتفع إليه من الأموال .

وقد بلغني من جهة رجل من أصحابنا كان يتولى بيوت الأموال قال لي : « وجدت خرائط كثيرة مما كان يرتفع إلى أمير المؤمنين أبي يعقوب بختمها . » قال لي هذا القول في غرة سنة ٦١١ .

وفي أيام أبي يعقوب ورد علينا المغرب أولُ من وردَها من الغز^(١) ؛

(١) الغز : طائفة من مماليك الترك المصريين ، وسيرد ذكرهم ثانية فيما يلي من الكتاب .

وذلك في آخر سنة ٧٤ ، وما زالوا يكثرون عندنا إلى آخر أيام أبي يوسف .
ولم تنزل أيام أبي يعقوب هذا أعياداً وأعراساً ومواسم ؛ كثرة خصبٍ
وانتشار أمنٍ ودُرُور أرزاقٍ واتساع معاش ؛ لم ير أهل المغرب أياماً قطُّ
مثلاً ؛ واستمر هذا صَدْرًا من إمارة أبي يوسف .

[محاولة أبي يعقوب فتح شنترين ، ووفاته]

ولما كانت سنة ٧٩ تجهز أبو يعقوب للغزو ، واستنفر أهل السهول
والجبال من المصامدة والعرب وغيرهم ، وخرج بجيوشه قاصداً جزيرة
الأندلس ؛ فعبر البحر بعساكره كما ذكرنا ، وقصد مدينة إشبيلية على
عادته ؛ إذ هي منزله ومنزل الأمراء من بنيهِ بالأندلس أيام كَوْنهم بها ؛ فأقام
بها ريثما أصلح الناس شئونهم وأخذوا أهبتهم ؛ ثم خرج يقصد مدينة
شَنْتَرين^(١) ، أعادها الله للمسلمين .

وهذه المدينة - أعنى شنترين - بمغرب الأندلس ؛ وهي من أمنع المدائن -
وقد تقدم ذكرها^(٢) في أخبار الدولة اللمتونية - يملكها وجهاتها مع
بلاد كثيرة هنالك ملكٌ من ملوك النصراني يُعرف بابن الريق ، لعنه الله .
فخرج أمير المؤمنين كما ذكرنا في جيوشه حتى نزل عليها فضايقها

(١) شنترين : مدينة كبيرة بالأندلس ، على الشاطئ الأيمن من نهر تاجو ، وهي مفتاح واديه ،
موقعها إلى الشمال الشرقي من أشبونة ، وبينهما ثمانون ميلاً ، وقد ظلت شنترين في يد العرب
منذ الفتح إلى أن ملكها ألفونس السادس ملك قشتالة سنة ١١٤٣ هـ ثم كانت هذه المحاولة
لاستردادها ، وقد قام بعبء الدفاع عنها في هذه المحاولة ، الدون شانجو Don Sancho
(٢) انظر ص ٢٢٨ وما بعدها -

وأخذ في قطع ثمارها وإفساد زروعها وشن الغارات على نواحيها.

وكان ابن الريق - لعنه الله - حين سمع بحركة أبي يعقوب إليه وصح عنه أنه يقصده ، نظر في أمره فلم ير له طاقةً بدفاعه ولا نهضةً لمقاومته ؛ فلم يكن له همٌ إلا أن جمع وجوه دولته وأعيان جنده وذوى الغناء من قواده وسائر أتباعه ، ودخل بهم مدينة شنترين واثقاً بحصانتها وشدة منعتها ؛ هذا بعد أن ملأها أقواتاً وسلاحاً وجميع ما يحتاج إليه ، وجلل أسوارها مقاتلة معهم الدرق والقسي والحراب إلى غير ذلك مما يحتاج إليه .

فنزل عليها أبو يعقوب فألقاها كما ذكرنا : قد استعد أهلها بكل ما يظنونونه نافعاً لهم ودافعاً عنهم ؛ وهذه المدينة على نهر عظيم من أنهار الأندلس المشهورة ، يسمى تاجو ؛ فبالغ أبو يعقوب - كما ذكرنا - في التضيق عليها وانتساف معاشها وقطع المواد والمدد عنها : فما زاد ذلك أهلها إلا صرامة وشدة وجلداً ؛ فخاف المسلمون هجوم البرد - وكان في آخر فصل الخريف - وخافوا أن يعظم النهر فلا يستطيعوا عبوره وينقطع عنهم المدد ؛ فأشاروا على أمير المؤمنين بالرجوع إلى إشبيلية فاذا كان وجه الزمان عادوا إليها أو بعث من يتسلمها ؛ وصوروا له أنها في يده لا يمنعه منها ما نع ؛ فقبل ذلك منهم ووافقهم عليه ، وقال : نحن راحلون غداً إن شاء الله . ولم ينتشر هذا القول كل الانتشار ، لأنه كان قاله في مجلس الخاصة .

فكان أول من قوض خبائه وأظهر الأخذ في أهبة الرحيل أبو الحسن على

ابن عبد الله بن عبد الرحمن المعروف عندهم بالملقى - وقد تقدم ذكر أبيه^(١) في قضاة عبد المؤمن - وكان أبو الحسن هذا خطيبهم ومعتبراً عندهم ، يُدعى خطيب الخلافة ؛ وكان له حظٌ جيد من الفقه ومعرفة الحديث وقسمٌ وافر من قرض الشعر وصناعة الكتابة ؛ فلما رآه الناس قوَّض خبائه قوَّضوا أخبيتهم ثقة به ، لمكانه من الدولة ومعرفته بأخبارها ؛ فعبر في تلك العشية أكثرُ العسكرِ النهر يريدون التقدم خشية الزحام وحرصاً على أخذ جيد المواضع واختيار المنازل ؛ ولم يبق إلا من كان بقرب خباء أمير المؤمنين .

وبات الناس يعبرون الليل كله وأمير المؤمنين لا علم له بذلك ؛ فلما رأى الروم عبور العساكر وبلغهم من جهة عيونهم الذين بالعسكر ما عزم عليه أبو يعقوب والمسلمون من الرحيل ، ورأوا انفضاض الأجناد وافتراق أكثر الجموع ، خرجوا منتهزين للفرصة التي أمكنتهم ، في خيلٍ كثيفة ؛ فحملوا على من يليهم من الناس ، فانهزموا أمامهم ، حتى بلغوا الخباء الذي فيه أمير المؤمنين أبو يعقوب ؛ فقتل على باب الخباء من أعيان الجند خلقٌ كثير ، أكثرهم من أعيان الأندلس ؛ وخلص إلى أبي يعقوب فطعن تحت سُرته طعنةً مات منها بعد أيام يسيرة ...

وتدارك الناس فانهزم الروم راجعين إلى بلادهم بعد أن قضوا ما قضوا ، وعُبر بأمر المؤمنين النهر جريحاً فجعل في محفة وسير به .

(١) انظر ص ٢٦٩ .

[عاقبة أبي الحسن الملقى الخطيب]

وسأل أمير المؤمنين : مَنْ كان السبب في حركة الناس على هذا الوجه المؤدى إلى هذا الاختلال ؟ فأخبر بما فعله أبو الحسن الملقى ؛ فقال يتوعدده : سيجنى ثمرتها إن شاء الله ! فلما بلغه ذلك هرب حتى دخل مدينة شنترين فاراً بنفسه على ملك الروم ابن الريق ؛ فأحسن نُزُلَه وأكرم مثواه وأجرى عليه رزقاً واسعاً ؛ ولم يزل عنده مُكرماً إلى أن بدا له من سوء رأيه أن يكتب كتاباً إلى الموحدين يستعطفهم ويسأل مَنْ عَرَفَه من أعيانهم الشفاعة له ؛ وأدرج في ضمن ذلك فصلاً يذكر فيه ضعف المدينة وأنهم لو كانوا أقاموا عليها ليلة أُخْرِجُوا ، ويدلُّهم على بعض عوراتها مما كان خفى عنهم ؛ وقال للملك الروم ابن الريق : إني أحب أن أكتب كتاباً إلى عيالي وأولادي وأخبرهم بسلامتي وأعلمهم إكرام الملك إياي وإحسانه إليّ وما أنا فيه من العافية ، حتى تطمئن نفوسهم ؛ وأريد أن توجه مع الذي يحمله مَنْ يخفّره إلى أول بلاد المسلمين ؛ فأذن له في ذلك وأجابه إليه : فكتب الكتاب .

وكان العليج الموكل به - الذي يقوم عليه ويأتيه بكل ما يحتاج إليه - يعرف لسان العرب - إلا أنه لم يكن يتكلم به - ويقرأ الخط العربي ؛ فقام أبو الحسن المذكور لبعض حوائجه وترك الكتاب منشوراً ، ولم يخطر له أن العليج يعرف شيئاً من لسان العرب ولا يقرأ الخط العربي ؛ فلمح العليج الكتاب لمحة ، ووقف على الفصل المذكور وفهم مقصوده ؛ فمضى حتى دخل على الملك وأخبره الخبر ...

وختم أبو الحسن الكتاب ودفعه إلى بعض عبيده ؛ فلما خرج العبد

بالكتاب وفصل عن المدينة بنحوٍ من مرحلة ، أمر بالقبض عليه هناك وأخذ الكتابُ منه ؛ فلما أتى بالكتاب فتحه وجَمَعَ المسلمين الذين بالمدينة وألقى إليهم الكتاب وأمرهم بقراءة ذلك الفصل المذكور ؛ واستحضر أبا الحسن ، وقال لترجمانه : قل له : ما حَمَلَكَ على ما صنعت مع إكراى لك وبرى بك ؟ فكان من جوابه أن قال : إن برّك بى وإكرامك إياى لا يمنعانى من النصّح لأهل دينى والدلالة لهم على ما فيه مصلحتهم ! فشاور ابنُ الرقيق - لعنه الله - قسيسيه فى أمره ؛ فأشاروا عليه بإحراقه . فأحرقوه .

[وفاة الأمير أبى يعقوب]

وأما ما كان من أمر أمير المؤمنين أبى يعقوب فإنهم لما عبروا به النهر كما ذكرنا أثقله الجُرْحُ واشتد عليه ؛ فما ساروا به إلا ليلتين أو ثلاثاً حتى مات رحمه الله ؛ فأخبرنى من كان معهم فى تلك السّفرة أنه سُمع النداء فيما بين العشائين فى العسكر كله : الصلاةُ على الجنازة ، جنازة رجل ! فصلّى الناس قاطبة على الجنازة لا يعرفون على من صلّوا ؛ ولم يعلم بذلك إلا خواص أهل الدولة ، وساروا به حتى بلغوا إشبيلية فنزلوها ، فصبرّوه وبعثوا به فى تابوتٍ مع كافور الحاجب مولاه المتقدم الذكر^(١) إلى تينمل ؛ فدفن هناك مع أبيه عبد المؤمن وابن تومرت .

وكانت وفاته يوم السبت قبيل غروب الشمس لسبع خلون من رجب الفرد سنة ٥٨٠ .

(١) انظر ص ٣١٧ .

أخبرني ابنه أبو زكريا يحيى - رحمة الله عليه - أنه كان قبل موته
بأشهر يسيرة كثيراً ما يردد هذا البيت :
طوى الجديدان ما قد كنت أنشره
وأنكرتني ذوات الأعين النجل !

ذكر ولاية أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن

هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي كما ذكرنا ، يكنى أبا يوسف أمه أم ولد رومية اسمها ساحر ؛ بُويع له في حياة أبيه بأمره بذلك^(١) ؛ وكانت سنه يوم صار إليه الأمر اثنتين وثلاثين سنة ؛ فكانت مدة ولايته منذ وفاه أبيه إلى أن توفي في شهر صفر الكائن في سنة ٥٩٥ ، ست عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً ، وتوفي وله من العمر ثمان وأربعون سنة وقد وخطه الشيب .

صفته

كان صافي السمرة جداً إلى الطول ما هو ، جميل الوجه ، أعين أفوه أقي ، شديد الكحل ، مستدير اللحية ، ضخم الأعضاء ، جهوري الصوت جزل الألفاظ ، أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثاً وأكثرهم إصابة بالظن ؛ كان لا يكاد يظن شيئاً إلا وقع كما ظن ، مجرباً للأمور ، عارفاً بأصول الشر والخير وفروعهما ؛ ولي الوزارة أيام أبيه فبحث عن الأمور بحثاً شافياً ، وطالع أحوال العمال والولاة والقضاة وسائر من ترجع إليه الأمور

(١) دوى ابن الأثير وغيره أن أباه مات من غير وصية بالملك لأحد من أولاده ، فانفق رأى فواد الموحدين وأولاد عبد المؤمن على تملك يعقوب .

مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور فدبرها بحسب ذلك فجرت أموره على قريب من الاستقامة والسداد حسبما يقتضيه الزمان والإقليم .

أولاده :

كان له من الولد : محمد - وليُّ عهده ، وسيأتي ذكر مولده ووفاته - وإبراهيم ، وعبد الله ، وعبد العزيز ، وأبو بكر ، وزكريا ، وإدريس ، وعيسى ، وموسى ، وصالح ، وعثمان ، ويونس ، وسعد ، ومساعد ، والحسن ، والحسين ؛ هؤلاء أولاده المخلفون بعده ؛ ومات له في حياته عدة من الولد ، وله بنات فيهن كثرة .

وزرأؤه

أبو حفص عمر بن أبي زيد الهنتاني إلى أن مات .
ثم وزر له بعده [أبو يحيى] أبو بكر بن عبد الله بن أبي حفص عمر إينتى المتقدم الذكر ، واستمرت وزارة أبي يحيى هذا إلى أن استشهد - رحمه الله - ببلاد الروم على ما سيأتى بيانه إن شاء الله ؛ فاضطرب أمر الوزارة قليلا ...

ثم وقع اختيارهم على أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص المتقدم الذكر ؛ وأبو عبد الله هذا هو الملقب عندهم بالفيل ، هو ابن عم الوزير الشهيد المذكور آنفاً ؛ فوزر أبو عبد الله هذا أياماً يسيرة ، ثم ترك الوزارة مختاراً وهرب إلى بعض نواحي إشبيلية فخلع ثيابه ولبس عباءة

وتزهد ؛ فأرسلوا إليه من رده وأعفوه من الوزارة .

ثم وُزِّر له أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يُوْجَّان الهنتاني ؛ فلم يزل عبد الرحمن هذا وزيراً إلى أن مات أبو يوسف ، وصدرًا من إمارة ابنه أبي عبد الله ، ثم عزل عن الوزارة .

حجابه :

عنبر الخصى موله ؛ ثم ربحان الخصى موله أيضاً ، إلى أن مات وحجب ابنه أبا عبد الله ، فلم يزل حاجباً إلى أن مات ربحان المذكور .

كتابه :

أبو الفضل جعفر المعروف بابن مَحْشُوءَ ؛ كان من كتاب أبيه - حسباً تقدم^(١) ؛ جمع أبو الفضل هذا إلى براعة الكتابة سعة الرواية وغزارة الحفظ وذكاء النفس ؛ لم يزل كاتباً له إلى أن توفي ، أعنى أبا الفضل .

فكتب له بعده أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عيَّاش من أهل بُرْشَانَة من أعمال المِريّة من بلاد الأندلس ؛ لم يزل أبو عبد الله هذا كاتباً له ولابنه محمد ولابن ابنه يوسف ؛ تركته حياً حين ارتحلت عن البلاد سنة ٦١٤ ، ثم اتصلت بي وفاته في شهور سنة ٦١٩ وأنا يومئذ بالبلاد المصرية .

هذان الكاتبان اللذان ذكرناهما ، كاتباً الإنشاء خاصة .

(١) انظر ص ٣١٧ .

وكتاب الجيش : رجلٌ يعرف بالكُباشي ، ذهب عنى اسمه ؛ وقد كان يكتب قبله أبو الحسن بن مُعْنٍ ؛ استمرت كتابة الكُباشي هذا ديوانَ الجيش إلى أن مات أمير المؤمنين أبو يوسف .

ولم يكتب لهم منذ قام أمرهم - أعنى من كتبة الإنشاء - مَنْ عرف طريقَتهم وصبَّ في قلوبهم وجرى على مهْيِهم وأصاب ما في أنفسهم كَأبي عبد الله بن عياش هذا ؛ فإن القوم لهم طريقة تخالف طريقة الكتاب ؛ ثم جرى الكتاب بعده على أسلوبه وسلوكوا مسلكه لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة .

قضااته

أبو جعفر أحمد بن مضاء المتقدم الذكر^(١) إلى أن مات ؛ وولى بعده أبو عبد الله محمد بن مروان من أهل مدينة وهران ؛ ثم عزله وولَّى بعده أبا القاسم أحمد بن محمد ، رجلاً من ولد بَقِيٍّ بن مخلد الفقيه المحدث الذي يَروى عن أحمد بن حنبل ؛ وقد تقدم ذكرُ بَقِيٍّ هذا وطرفٌ من أخباره في صدر الدولة الأموية في أخبار الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية الداخل بالأندلس^(٢) .

لم يزل أبو القاسم هذا قاضياً إلى أن توفى أمير المؤمنين أبو يوسف ، وشيئاً من أيام ابنه محمد .

(٢) انظر ص ٤٩ وما بعدها .

(١) انظر ص ٣٢٠ .

تلخيص التعريف بخبر بيعته

ولما مات أبو يعقوب - كما ذكرنا - على مراحل من مدينة شنترين ،
سُتِرت وفاته إلى أن بلغوا إشبيلية ، وهم في كل يوم يُصبحون يمشون بين
يدى الدابة التي عليها المحفّة مشاة على أرجلهم كما جرت العادة ؛ ثم
يركبون والمحفّة مسدول عليها ستر أخضر ؛ إلى أن بلغوا إشبيلية كما
ذكرنا ؛ فخرج الإذن من أمير المؤمنين أبي يعقوب - زعموا - بتجديد
البيعة لابنه أبي يوسف^(١) ؛ فبايعه المصامدة والناس عامة من جميع
الأصناف .

وكان الذي سعى في بيعته وقام بها ورغب فيها وتولى كِبَر أمرها ، ابنُ
عمه أبو زيد عبد الرحمن بن عمر بن عبد المؤمن ؛ فتم له الأمر وبايعه
الناس ، يحسبون ذلك بإذن أبيه ؛ فلما فرغ مما أراد من ذلك وتهيأ له
أعلن وفاة أبيه عند خواص الدولة ؛ ولم تجر عاداتهم بإعلان موت خلفائهم
عند العامة إلى هَلُم .

وكان له من إخوته وعمومته منافسون لا يروونه أهلاً للإمارة لما كانوا
يعرفون من سوء صباه ؛ فلقي منهم شدة - على ما سيأتى بيانه - وكانت
هذه البيعة العامة - كما ذكرنا - في سنة ٥٨٠ .

ولما استوسق أمره - على ما تقدم - عبر البحر بعساكره وسار حتى نزل
مدينة سلا ، وبها تمت بيعته واستجاب له من كان تلكاً عليه من أعمامه

(١) انظر التعليق ٢ ص ٣٣٦ .

من ولد عبد المؤمن ، بعد ما ملأ أيديهم أموالا وأقطعهم الأقطاع الواسعة .

[بنيان مدينة الرباط]

ثم شرع في بنيان المدينة العظمى^(١) التي على ساحل البحر والنهر من العدو التي تلى مراکش : وكان أبو يعقوب - رحمه الله - هو الذي اختطها ورسم حدودها وابتدأ في بنيانها ، فعاقه الموت المحتوم عن إتمامها ؛ فشرع أبو يوسف - كما ذكرنا - في بنيانها إلى أن أتم سورها ؛ وبني فيها مسجداً عظيماً كبير المساحة واسع الفناء جداً ، لا أعلم في مساجد المغرب أكبر منه ؛ وعمل له مأذنة في نهاية العلو ، على هيئة منار الإسكندرية ، يُصعدُ فيه بغير درَج ، تصعد الدواب بالطين والآجر والجص وجميع ما يُحتاج إليه إلى أعلاها ؛ ولم يتم هذا المسجد إلى اليوم ؛ لأن العمل ارتفع عنه بموت أبي يوسف ؛ ولم يعمل فيه محمد ولا يوسف شيئاً ؛ وأما المدينة فتمت في حياة أبي يوسف وكملت أسوارها وأبوابها وعمر كثير منها ؛ وهي مدينة كبيرة جداً تجيء في طولها نحواً من فرسخ ، وهي قليلة العرض .

ثم خرج بعد أن رتب أشغال هذه المدينة وجعل عليها من أمناء المصامدة من ينظر في أمر نفقاتها وما يصلحها ؛ فلم يزل العمل فيها وفي مسجدها المذكور طول مدة ولايته إلى سنة ٥٩٤ ، وسار هو حتى نزل مراکش .

(١) هي مدينة رباط الفتح .

[طمع بنى غانية فى التغلب على إفريقية]

وفى هذه السنة - أعنى سنة ٨٠ - خرج الميرقيون بنو ابن غانية من جزيرة مِيرْقَة قاصدين مدينة بجاية ، فملكوها وأخرجوا من بها من الموحدين ؛ وذلك لست خلون من شعبان من السنة المذكورة ؛ وهذا أول اختلال وقع فى دولة المصامدة ، لم يزل أثره باقياً إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ .

[التعريف ببني غانية ودارمُلكهم]

وتلخيص خبر هؤلاء القوم - أعنى بنى غانية - أن أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، وجه إلى الأندلس برجلين ؛ اسم أحدهما يحيى ، والآخر محمد^(١) ، ابني عليّ ، من قبيلة مسوفة يعرفان بابني غانية ، وهى أمهما .

[يحيى بن غانية]

فأما يحيى منهما . وهو الأكبر ، فكان حسنة من حسنات الدهر ، اجتمع له من المناقب ما افترق فى كثير من الناس ؛ فمنها أنه كان رجلاً صالحاً شديد الخوف لله - عز وجل - والتعظيم له والاحترام للصالحين ؛ هذا مع علوّ قدم فى الفقه واتساع رواية للحديث ؛ وكان مع هذا شجاعاً فارساً ، إذا ركب عُدَّ وحده بخمسمئة فارس ؛ وكان عليّ بن يوسف يُعِدُّه للعطائم ويستدفع به المهمات ، وأصلح الله على يديه كثيراً من جزيرة الأندلس ودفع

(١) يسميه ابن خلكان : حمود بفتح الحاء وبعدها ميم مشددة مضمومة .

به عن المسلمين غير مرة مكاره قد كانت نزلت بهم ؛ كان أمير المسلمين ولاء مدينة بلنسية ، ثم عرله عنها وولاه قرطبة ؛ فلم يزل بها والياً إلى أن مات - رحمة الله عليه - أول الفتنة الكائنة على المرابطين . لا أعلم له عقباً .

[محمد بن غانية]

وكان أخوه محمد والياً من قبله على بعض أعمال قرطبة ، فلما مات اضطرب أمر محمد هذا وبقي يجول في بلاد الأندلس والفتنة تتزايد ودعوة المصامدة تنتشر ؛ فلما اشتد خوف محمد هذا أتى مدينة دانية فعبّر منها إلى جزيرة مِيرْقَة في حشمه وأهل بيته ، فملكها والجزيرتين اللتين حولها : مُرْقَة ، ويابسة^(١) ؛ ويقال إن أمير المسلمين على بن يوسف نفاه إليها على طريق السجن بها ؛ فالله أعلم .

وهذه الجزيرة - أعنى مِيرْقَة - أخصب الجزر أرضاً ، وأعدلها هواءً ، وأصفهاً جواً ، طولها وعرضها نحو من ثلاثين فرسخاً ، اتفق أهلها على أنهم لم يروا فيها شيئاً من الهوام المؤذية قط منذ عمرت ، من ذئب أو سبع أو حية أو عقرب ، إلى غير ذلك مما يُخشى ضرره ؛ ويجاورها بالقرب منها جزيرتان تقربان منها في الخصب ، تسمى إحداهما مُرْقَة ، والأخرى يابسة ، وقد تقدم ذكرهما .

(١) انظر التعليق رقم ٢ ص ٢١٢ .

... فاستقل محمد بمملكة هذه الجزر ، وضَبَطَها لنفسه ، وأقام فيها جاريّاً على أمر لتونة الأول : يدعو لبني العباس ؛ وكان له من الولد : عبدُ الله وإسحاق ، والزبير ، وطلحة ؛ وبنات .
فعهد في حياته إلى أكبر ولده ، عبد الله ؛ فنفس ذلك عليه أخوه إسحاق ودخل عليه في جماعة من الجند وعبيدٍ له فقتله - قيل في حياة أبيه ، وقيل بعد وفاته .

[إسحاق بن محمد]

وتُوفي عبد الله المذكور واستقل أبو إبراهيم^(١) بالملك استقلالاً حسناً ، وحسنت حاله ، وكثر الداخلون عليه بجزيرة مِرقَة من قُلِّ لتونة وبقاياهم فكان يُحسن إليهم ويصلُّهم حسب طاقته .
وأقبل على الغزو وصَرََفَ عنايته إليه فلم يكن له همٌّ غيره ؛ فكان له في كل سنة سَفَرَتان إلى بلاد الروم ، يَغْنَمُ ويسبِي وينكِي في العدو أشدَّ نكاية إلى أن امتلأت أيدي أصحابه أموالاً ؛ فقوى بذلك أمره ، وتشبَّه بالملوك ؛ لم يزل وهذه حاله إلى أن توفى في سنة ٧٩ ، في أولها وفي آخر أيام أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

وكان يرسل الموحدين ويهاديهم ويختصُّهم من كل ما يسبِي ويغْنَمُ بنفسه وجيِّده ؛ يشغلهم بذلك عنه ، مع احتقارهم لأمر تلك الجزيرة وقلة التفاتهم إليها ؛ فلما كان في شهور سنة ٥٧٨هـ والوا إليه الكتب يدعونه

(١) يعنى اسحاق بن محمد بن غانية .

إلى الدخول في طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ويتوعدونه على ترك ذلك ؛ فوعدهم ذلك واستشار وجوه أصحابه فاختلفوا عليه ؛ فمن مُشير عليه بالامتناع بمكانه ، وحاض له على الدخول فيما دعوه إليه : فلما رأى اختلافهم أرجأ الأمر إلى أن ينظر ...

وخرج إلى بلاد الروم غازياً ، فاستشهد - رحمه الله - هناك ؛ وقيل إنه طعن طعنة في حلقه لم يمت منها مكانه وإنما جيء به حياً حتى أدخل قصره فمات فيه ، والله أعلم ^(١) .

وكان له من الولد : علي - وهو أكبر ولده والقائم بأمره من بعده - [وعبدالله] ويحيى ، وأبو بكر ، وسير ، وتاشفين ، ومحمد ، والمنصور ، وإبراهيم ؛ توفي إبراهيم هذا بدمشق حين كان نازلاً بها على السلطان الملك العادل .

[علي بن اسحاق]

ولما توفي أبو إبراهيم إسحاق بن محمد المذكور ، قام بالأمر من بعده ابنه علي بعهد أبيه إليه ، وخرج بأسطول مُبرقة إلى العدو ، وقصد مدينة بجاية حين راسله جماعة من أعيانها - علي ما يقال - يدعونه إلى أن يملكوه ولولا ذلك لم يجسر على الخروج ؛ ومما جرّاه أيضاً كونُ الموحدين بالأندلس ، وسماعه خبر موت أبي يعقوب ، واشتغالهم ببيعة أبي يوسف ؛ وظن أن الأمر سيضطرب وأن الخلاف سينشأ ؛ فكان هذا أيضاً مما أعانه على الخروج ؛ ولولا هذه الأسباب التي ذكرنا لم يجسر على الخروج ...

(١) ذكر ابن خلكان أن وفاته كانت في سنة ٥٨٠ .

فقصده ساحل بجاية فنزل به ، فقاتله أهلها قتالا غير كثير ، ثم دخلها ؛
وكان دخوله إياها - كما ذكرنا - يوم الاثنين لست خلون من شعبان من
السنة المذكورة .

[استطراد انتقاض العرب بأفريقية على الموحدين]

وكان فيها إذ دخلها ، أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن ؛ لم يكن والياً
عليها وإنما كان الوالى عليها أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن ، وكان
أبو موسى ماراً بها حين رجع من أفريقية ، وكان والياً عليها هو وأخوه
الحسن من قبل أخيهما أبي يعقوب ، فظهر من العرب إفساد ببعض نواحي
أفريقية^(١) ، فخرج أبو موسى هذا وأخوه أبو علي بجيش من المصامدة
ومن انضاف إليهم من العرب وسائر الجند ، فالتقوا هم وأولئك العرب
المفسدون ؛ فانهزم جند أفريقية عنهما وأخذتهما العرب أسيرين ، فأقاما
عندهم .

وانتهى الخبر إلى أبي يعقوب ، فأرسل إلى أولئك العرب ؛ فطلبوا مالا
أشتطوا فيه غاية الاشتطاط ؛ ثم إن الأمر تقرر بينهم وبين الموحدين على
سنة وثلاثين ألف مثقال ، فلما أُخبر بذلك أبو يعقوب استكثر المال وقال:
هذه أيضاً مَضْرَّةٌ أخرى ؛ إن أعطيناهم مثل هذا المال تقوّوا به على
ما يريدونه من الفساد ! ثم اتفق رأيهم على أن يضربوا لهم دنانير من

(١) انظر التعليق ص ٢٧٢ - ٢٧٥ والتعليق رقم ٤ ص ٢٩٤ عن شأن العرب في أفريقية منذ
خلق المعز بن باديس طاعة العبيدين .

من الصفر ممّوهة ، ففعلوا ذلك وأرسلوا بها إليهم ؛ فأطلقوا أبا علي وأبا موسى ومن كان معهما من خدمهما وحاشيتهما .
فهذا ما أوجب كون أبي موسى ببجاية ، فخرج من أسر العرب إلى أسر الميرقيين ! .

[رجع الحديث عن بنى غانية في بجاية]

فدخل علي بن اسحاق - كما ذكرنا - بجاية في اليوم المورخ ، وأقام بها سبعة أيام صلى فيها الجمعة فخطب ودعالبني العباس^(١) ، ثم للإمام أبي العباس أحمد الناصر منهم ، وكان خطيبه الفقيه الإمام المحدث المتقن أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الإشبيلي - مؤلف كتاب الأحكام وغيره من التأليف - فأحرق ذلك عليه أبا يوسف يعقوب أمير المؤمنين ، ورام سفك دمه ، فعصمه الله منه وتوفاه حتف أنفه وفوق فراشه !

وخرج علي بن إسحاق من بجاية بعد أن أسس أموره فيها ، وسار حتى نزل على قلعة بنى حماد ، فملكها وملك جميع تلك النواحي ؛ فأنتهى ذلك إلى أمير المؤمنين يعقوب ، فخرج بالموحدين قاصداً مدينة بجاية ، فلما سمع على بقدمه خرج له عنها وقصد بلاد الجريد^(٢) .

(١) انظر ص ٢٧٢ و ٣٤٤ .

(٢) يروي ابن الأنير نبا استيلاء ابن غانية المرابطى على بجاية وما يليها من البلاد ثم خروجها من يده ، فيقول : انه سار الى بجاية من جزيرة ميورقة فى أسطول مكون من عشرين قطعة ، فارسى فى ساحل بجاية ، وأزوره على ذلك جماعة من بقايا دولة بنى حماد ، فدخلها بلا =

[استرجاع بجاية من يد الميورقيين]

ونزل أمير المؤمنين بالقرب من بجاية ، فتلقاها أهلها ، فلقبهم منشرح الصدر ظاهر البشر ، وقال لهم من القول ما بسط به نفوسهم ورد إليهم نافر أنسبهم ، وقد كانوا يظنون غير ذلك ، فخرجوا من عنده متعجبين مما رأوا منه وسمعوا ...

واستعمل على بجاية من أعيان الموحدون رجلا اسمه محمد بن أبي سعيد الجنفيسي ؛ ثم سار حتى نزل مدينة تونس ، فجهز جيشاً عظيماً أمر عليهم رجلا من ولد عمر بن عبد المؤمن اسمه يعقوب ، وذلك لما كانوا يرونه في ملحمة كانت عندهم من أنهم سيُهزَمون مع رجل اسمه يعقوب ، بموضع يعرف بوطا عمره^(١) ؛ فسار يعقوب هذا بالجيش المذكور وأقام هو في تونس ؛ فكانت الهزيمة على يعقوب بن عمر كما ذكر ؛ وذلك أن الموحدون التقوا هم وأصحاب على بن غانية ، فانهزم الموحدون انهزاماً

كبير عناء ، وكان إلى بجاية الموحدى قد سار عنها قبل ذلك بأيام إلى مراكش ، إذ لم يكن في وهمه أن يجترأ أحد على قصد بلده ، فلمسأبلفه التبا عاد ومعه ثلاثمئة فارس من الموحدون ، وجمع من العرب والقبائل في تلك البلاد نحو ألف فارس ، ولكنه لم يلبث أن انهزم لانحياز من معه من المقاتلة إلى ابن غانية ، وقصد أمير بجاية إلى مراكش وترك ابن غانية يزحف على ما يليه من البلاد ، فدانت له جميعها بالطاعة إلا قسنطينة ، فحصرها ، ولم يزل محاصراً لها حتى جاء جيش الموحدون في صفر سنة ٥٨١ إلى بجاية في البر والبحر ، وكان بها - فيما يصف ابن الأثير - يحيى وعبد الله أخوا على بن اسحاق ، فخرجوا منها هاربين ولحقا بأخيها ، فرحل عن قسنطينة إلى أفريقية ، شرقاً .

(١) كذا يروى المراكشي ، والقصد غير واضح : هل ولوا يعقوب هذا لينهزموا تصديقا لما جاء في الملحمة ، أو ولوه تحدياً لما جاء في الملحمة فلم ينفعهم التحدي ؟

قبيحاً ، واتبعتهم العرب والبربر يقتلونهم في كل وجه^(١) ؛ وهلك أكثرهم عطشاً ، ورجع بقبيتهم إلى تونس حيث أمير المؤمنين ؛ فلم شعثهم ، وجبر ما وهى من أحوالهم ، وخرج هو بنفسه حتى لقي على بن غانية بموضع يعرف بالحامة ، حامة دُقْيُوس ؛ فما وقف أصحابُ عليٍّ إلا يسيراً حتى انكشفوا عنه ، وأبلى هو عذراً فأثخن جراحاً ، وخرج فاراً بنفسه فمات في خيمة لعجوز أعرابية^(٢) .

وكان حين خرج من مُبرقة خرج معه من إخوته : عبد الله ، ويحيى ، وأبو بكر وسير ؛ فبقى هؤلاء المذكورون بعد موت أخيهم على من كان معهم من أصحابهم ؛ ثم رأوا أن يقدموا عليهم يحيى لما رأوا من شهامته وشجاعة نفسه ؛ فقدّموه ، ثم لحقوا بالصحراء فكانوا بها مع العرب الكائنين هناك إلى أن رجع أمير المؤمنين من هذا الوجه .

[استرجاع قفصة]

وفي هذه السّفرة انتقضت عليهم أيضاً مدينة قفصة ، ونزع أهلها أيديهم من طاعتهم ودعّوا للمُيرقيين^(٣) ؛ فنزل عليها أمير المؤمنين أبو

(١) كان العرب يؤازرون بنى غانية في هذه المعارك بينهم وبين الموحدين ، كما كان يؤازرهم الغز من المماليك المصريين ، وسيرد ذكر هؤلاء الغز في بعض ما يلي من الكتاب .

(٢) رواية ابن خلكان : « فمات على ولا أعلم تاريخ وفاته ، ولكنه كان حياً في سنة ٥٩١هـ . وقد ذكر ابن الأثير أن علي بن إسحق كان حياً إلى ما بعد عودة أبي يعقوب من الأندلس في

رحلته التي يذكرها المراكشي بعد . انظر ص ٣٥٦ .

(٣) انتقضت قفصة على الموحدين مرتين : أولاً في سنة ٥٧٦ وكان واليها يومئذ من قبل الموحدين « علي بن المعز بن المعتز » قد رأى غلبة الغز المصريين على طائفة من بلاد إفريقية وانقياد العرب لهم ، فحدث له طمع في الاستقلال ببلده . . ولكنه لم يلبث أن غلب على أمره ، فرجع إلى =

يوسف فحاصرها أشدَّ الحصار ؛ ثم دخلها عَنوة فقتل أهلها قتلاً ذريعاً ؛
بلغنى أنه قتل أكثرهم ذبحاً ؛ وأمر بأسوارها فهُدَّت .

[إبراهيم الزويلي الكاتب]

وفى ذلك يقول رجل من أصحابنا من الكتَّاب ، اسمه إبراهيم ،
يُعرف عندنا بالزويلي ، [كنيته أبو إسحاق] ، فى قصيدة طويلة له يمدح
بها أمير المؤمنين أبا يوسف ويذكر شأن قفصة ورثيهم إياها بحجارة
المتجنيق :

سائلٌ بقفصة هل كان الشقى لها^(١)

بَعْلًا وكانت له حَمَّالة الحطبِ

تَبَّكْتُ يدا كافرٍ بالله أَلَهَبَهَا فكان كالكافر الأشقى أبى لهب

الموحدين معندنا تاليا ، فقبل أبو يوسف ذلك منه وسيره الى بلاد المغرب مكرما عزيزا ، واقطعه
ولاية كبيرة ، على عادة الموحدون فى ير اللاتحين اليهم من اصحاب العروش الهاوية !

وأما الانتفاضه الأخرى - وهى التى يقصدها المؤلف - فكانت سنة ٥٨٢ ، وهى السنة التى
ملك فيها على بن اسحاق مدينة بجاية ، وذلك أن عرب بنى هلال ومن انضموا اليهم من الغز
المصريين وعلى رأسهم شرف الدين قراقوش : وبوزابة مملوك تقي الدين الأيوبي - اجتمعوا على خلع
طاعة الموحدون والانضمام الى على بن اسحاق الميوقى ؛ ولقبوه أمير المسلمين - وهو لقب خلفاء
المرابطين الذين ينتمى اليهم - فدخلها على بن اسحاق ، ودعا فيها للعباسيين ، فلما بلغ النبا
أبا يوسف أمير الموحدون سير اليهم جيشا فوافاهم بقفصة فى سنة ٥٨٣ ...

وكانت الدائرة على المرابطين، وأصرف الموحدون فى القتل حتى كادوا يبيدون أهل المدينة،
بعد أن قطعوا أشجارها وخرّبوا ما حولها وأحالوها انتفاضا ...

وقد استأمن الغز بعد هذه الوقعة الى أبى يوسف ، فاجابهم الى ما طلبوا وسسيرهم الى
التفود لما رأى من شجاعتهم ونكايتهم فى العدو ...

(١) يعنى ابن غانية .

وفيهما يقول :

لَمَّا زَنْتَ وَهِيَ تَحْتَ الْأَمْرِ مُخَصَّنَةٌ

حَصَبْتُهَا أَتْبَاعَ الشَّرْعِ بِالْحَصَبِ

أنشدني - رحمه الله - هذه القصيدة بلفظه من أولها إلى آخرها : فلما انتهى إلى هذا البيت « لما زنت ... » غلبني الضحك لما سبق إلى خاطري من سوء معناه^(١) ؛ فسترت وجهي ، فقال لي : ما لك ؟ فلم أملك أن قهقهت ! فتغير لي ؛ فلما خفت غضبه أخبرته بما سبق إلى خاطري ، فسبني وقال لي : أنت والله شيطان سيء القريحة ، غالب على طباعك اللها .. واستمر في إنشاده حتى أتم القصيدة .

وأبو إسحاق الزويلي هذا من شيوخ الكتاب وظرفاء الشعراء ، جمعني وإياه مجالس عند السيد الأجل أبي زكريا يحيى بن يوسف بن عبد المؤمن ، شاهدت فيها من ظرفه وغزارة بديته ما قضيت منه العجب .

[رجع الحديث عن بني غانية]

ولما فرغ أبو يوسف من أمر أفريقية كرّر راجعاً إلى المغرب . ولم يزل يحيى بن غانية قائماً بما كان يقوم به أخوه من تدبير الأمور ؛ ورجع منهم عبد الله خاصة إلى جزيرة مبرقة ، فألفاها قد انتقضت عليهم ودعى فيها للموحدين ؛ فعل ذلك أخوهم أبو عبد الله محمد بن إسحاق ؛

(١) في هامش المخطوط : الذي سبق الى خاطره : ان « الامر » في اصطلاحهم الخليفة .

فلما قدم عبد الله قام معه عُلُجٌ من غُلُوجِ أبيه يُسمَّى نجاحا .
كان نجاحٌ هذا لم ينقض عهداً ولا نزع يداً من طاعة ؛ وكان متحصناً في
قلعة ومعه جماعة على رأيه من الموالي والجنود .

فلما قدم عبد الله - كما ذكرنا - تلقَّوه ، وانضاف إليهم خلقٌ من
بوادى الجزيرة من الفلاحين ورُعاة الغنم ؛ فنهد بهم عبد الله إلى المدينة ،
فلم يدفعه عنها أحد ولا امتنع عليه من أهلها ممتنع ؛ ففتحوا له
الأبواب ، ودخلها بمن معه ؛ وأخرج أخاه محمداً ونفاه إلى الأندلس ؛ فحظى
محمد هذا عند المصامدة حظوة عظيمة ، وولَّوه مدينة دانية فلم يزل والياً
عليها حتى مات .

واستقر عبد الله بميرقة فضبط أمرها وجرى في الغزو وإخافة العدو
على سنن أبيه ؛ فلم يزل كذلك إلى أن دخلها عليه الموحِّدون في سنة
٥٩٩ على ما سيأتى بيانه إن شاء الله .

ولم يزل أمر يحيى بأفريقية يثبته تارة ويخمل أخرى ؛ وله أخبارٌ يطول
شرحها ويخرج عن الغرض بسطها .

[اختلاف بنى عبد المؤمن]

وحين كان أمير المؤمنين أبو يوسف غائباً في هذا الوجه الذى ذكرنا ،
طمع في الأمر أخوه أبو حفص عمرُ المتلقَّب بالرشيد ، وعمُّه [أبو الربيع]
سليمان بن عبد المؤمن ، وكان أحدهما بشرق الأندلس بمدينة مُرسية ،
والآخر بتادلا من بلاد صنهاجة .

فأما أبو الربيع سليمان فسوّلت له نفسه وزين له سوء رأيه أن يجمع على نفسه قبائل صنهاجة ليقوموا بدعوته ، وصرح بذلك ودعا أشياخهم فألقى إليهم ما أراد ؛ فلم يتفق له من ذلك أكثر من أن تشعّث عليه البلاد وانتشرت عنه هذه الأشنوعة القبيحة ، وبلغ الخبر أمير المؤمنين...

وأما عمر فكان قد بدأ من ذلك بتنقّص أمير المؤمنين أبي يوسف على رمّوس الأَشهاد ، تعريضاً مرة وتصريحاً تارة ، وإلقاء ذلك إلى خواصّه ليلقوه إلى وجوه الأندلس ؛ وانتهى أن قتل قاضي مرسية وخطيبها المعروف بابن أبي جمرة ، وقيل إنه وكّزه برئاس السيف في صدره وكثرة مات منها بعد أيام ...

فاستحثّت هذه الأخبارُ أمير المؤمنين وأزعجته ، فعجّل من بجاية إلى فاس سبع عشرة مرحلة ؛ وهذا نهاية ما يكون من سرعة السير لمثله ؛ فلما سمع بقدومه أبو الربيع سليمان وعمر المذكوران ، خرجا يلتقيانه ؛ فعبر عمر البحر ، وجاء سليمان بمن معه من تادلا للقاءه أيضاً ...

فأما عمر فلقيه بالقرب من مدينة مكناسة ، فلما رآه نزل عن دابته على العادة ليسلم عليه ، فلما قرب منه لم تدّر بينهما كلمتان حتى أمر بالقبض عليه وتقييده ، وحُمِل بعد التقييد إلى مدينة سَلا ...

ولقيه سليمان عمّه ، ففعل به مثل ذلك ؛ وسار حتى نزل مدينة سلا ، وفَصَلَ عنها بعد أن وكل بهما من يقوم عليهما ، وأثقلهما بالحديد .

وسار حتى بلغ مرا كش ، فكتب إلى القائم عليهما بقتلهما وتكفينهما

والصلاة عليهما ودفنهما ؛ فقتلهما صبراً ودفنهما وكتب يُعلمه بذلك ؛
فبلغني أنه قال له : بنيتُ قبريهما بالكندان والرخام ؛ وجعل يذكر حسنهما ،
فكتب إليه : مالنا ولدفن الجبابرة ، إنما هما رجلان من المسلمين ،
فادفنهما كيف يُدفنُ عامة المسلمين .

وبعد قتله هذين الرجلين هابه بقيةُ القرابة وأشربت قلوبُهم خوفه ،
بعد أن كانوا متهاونين بأمره محتقرين له لأشياء كانت تظهر منه في
صباه تُوجب ذلك ؛ وكان قتله هذين الرجلين في سنة ٥٨٣ ، وأظهر بعد
ذلك زهداً وتقشُفاً وخشونةً ملبس ومأكل .

وانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيتٌ وقامت
لهم سوق ، وعظمت مكانتهم منه ومن الناس ؛ ولم يزل يستدعى الصالحين
من البلاد ويكتب إليهم يسألهم الدعاء ويصل من يقبل صلته منهم
بالصلوات الجزيلة .

[دعوة أبي يوسف إلى الأخذ بالكتاب والسنة]

وفي أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء ، وأمر بإحراق كتب
المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم
والقرآن ، ففعل ذلك ، فأحرق منها جملة في سائر البلاد ، كمدونة سُخْنُون
وكتاب ابن يونس ، ونوادير ابن أبي زيد ومختصره ، وكتاب التهذيب
للبراذعي ، وواضحة ابن حبيب ، وما جائس هذه الكتب ونحوها...
لقد شهدتُ منها وأنا يومئذ بمدينة فاس ، يؤتى منها بالأحمال فتوضع

ويطلق فيها النار ؛ وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأى والخوض في شيء منه ، وتوعّد على ذلك بالعقوبة الشديدة ؛ وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة : (الصحيحين والترمذي ، والموطأ ، وسنن أبي داود ، وسنن النسائي ، وسنن البزار ، ومسند ابن أبي شيبة ، وسنن الدار قطني ، وسنن البيهقي) في الصلاة وما يتعلق بها ، على نحو الأحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة ؛ فأجابوه إلى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعه ؛ فكان يُمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه ؛ وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب وحفظه الناس من العوام والخاصة ؛ فكان يجعل لمن حفظه الجعل السنّي من الكسّ والأموال .

وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة ، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ؛ وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده ، إلا أنهما لم يُظهراه وأظهره يعقوب هذا .

يشهد لذلك عندي ما أخبرني غير واحد ممن لقي الحافظ أبا بكر بن الجدد ، أنه أخبرهم قال : لما دخلتُ على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس ، فقال لي : يا أبا بكر ، أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله ؛ رأييت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا : فأى هذه الأقوال هو الحق وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك ؛ فقال لي وقطع كلامي : يا أبا بكر

ليس إلا هذا ؛ وأشار إلى المصحف ؛ أو هذا : وأشار إلى كتاب سُئِنَ
أبي داود ، وكان عن يمينه ؛ أو السيف !

فظهر في أيام يعقوب هذا ما خفى في أيام أبيه وجده ؛ ونال عنده
طلبة العلم - أعنى علم الحديث - ما لم ينالوا في أيام أبيه وجده ؛ وانتهى
أمره معهم إلى أن قال يوماً بحضرة كافة الموحدين يُسمعهم وقد بلغه
حَسَدُهُم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه إليهم وخطوته بهم دونهم..
يا معشر الموحدين ، أنتم قبائل ؛ فمن نابه منكم أمرٌ فزِعَ إلى قبيلته ؛
وهؤلاء - يعنى الطلبة - لا تبيل لهم إلا أنا ، فمهما نابه أمر فأننا
ملجؤهم وإلى فزَعُهم وإلى ينتسبون !

فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم وبالع الموحدون في برهم وإكرامهم .

[استرجاع مدينة شلب]

ولما كان في سنة ٥٨٥ ، قصد بطرؤ بن الرِّيق ^(١) - لعنه الله - مدينة
شلب ، من جزيرة الأندلس ؛ فنزل عليها بعساكره ، وأعانته من البحر
الإفرنج بالبُطُس والشواني : وكان قد وجه إليهم يستدعيهم إلى أن يعينوه ،
على أن يجعل لهم سبى البلد وله هو المدينة خاصة ؛ ففعلوا ذلك ونزلوا
عليها من البر والبحر ؛ فملكوها وسبوا أهلها ؛ وملك ابنُ الرِّيق - لعنه
الله - البلد .

وتجهز أميرُ المؤمنين في جيوش عظيمة وسار حتى عبر البحر ؛ ولم يكن له

(١) هو بيدرو بن الفونس هنريكيكز ملك البرتغال .

همُ إلا مدينة شلب المذكورة ، فنزل عليها : فلم تُطق الرومُ دفاعه وخرجوا عنها وعما كانوا قد ملكوه من أعمالها ؛ ولم يكفه ذلك حتى أخذ حصناً من حصونهم عظيماً يقال له طُرُش ؛ ورجع إلى مراکش .

[طامعٌ آخر من بني عبد المؤمن]

وبعد رجوعه مرض مرضاً شديداً خيف عليه منه ؛ وكان قد ولّى أخاه أبا يحيى ، الأندلس ، فجعل يتلکأ في خروجه ويبطئُ تربُّصاً به وطمعاً في وفاته ؛ وكلما أفاق هو سأل : هل عبر أبو يحيى أم لا ؟ فلما بلغ أبا يحيى استحاثه إياه ، أسرع إلى العبور وهو لا يشك أن أول ما يرد عليه خبر وفاته ؛ فاستمال أشياخ الجزيرة ودعاهم إلى نفسه ، وقال : ما تركتُ أمير المؤمنين إلا هامة اليومِ أو غد ، وليس لها غيرى !

فجعل أشياخ الجزيرة يُحيل بعضهم على بعض ، وأهلُ بلد على أهل بلد ؛ حتى بلغ مُرسية : وكتبوا بذلك مساطيرَ خوفاً على أنفسهم .

وأفاق أمير المؤمنين من مرضه ، وأشار عليه الأطباء بالسفر ، فخرج قاصداً مدينة فاس ، يُحمَل في مَحْفَةٍ على بغلين ؛ وبلغه أمرُ أبي يحيى المذكور ، وجاءته كتبُ أهل الأندلس والمساطرُ التي كتبوها .

ولما سمع أبو يحيى بحركته ، جاء معذراً إليه حتى عبر البحر ، فلقيه بمدينة سَلَا ؛ فلما وقعت عينه عليه قال لمن عنده : هذا الشقيُّ قد جاء ! وأمر به فقيّد ، ووجه إلى أشياخ الأندلس فحضروا وأدّوا شهاداتهم ؛ وأمر به فأحضر وقال : إنما أقتلك بقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا بويع

خليفتان بأرض فاقتلوا الآخر منهما ! وأمر به فُضِرت عنقه ؛ تولى قتله أخوه لأبيه عبد الرحمن بن يوسف ؛ وذلك بمحض من الناس ، وأمر به فكفن ودفن ؛ وأقبل على القرابة فنال منهم بلسانه وأخذ منهم أخذاً شديداً ، وأمر بإخراجهم على أسوأ حال ، حفاة عراة الرءوس ؛ فخرجوا وكل واحد منهم لا يشك أنه مقتول !

ولم يزل أمر القرابة من يومئذ في خمول وهلم ، وقد كانوا قبل ذلك لافرق بين أحدهم وبين الخليفة سوى نفوذ العلامة ؛ فكان جملة من قتل يعقوب : أخويه وعمه !

[وقعة الأرك]

ولما كان في سنة ٩٠ انتقض ما بينه وبين الأذفنش - لعنه الله - من العهد ^(١) ؛ فخرجت خيل الأذفنش تدوس البلاد وتجوس خلالها إلى أن كثر عيئها بالأندلس .

وتجهز أمير المؤمنين وأخذ في العبور ، فعبر البحر في جمادى الآخرة من سنة ٥٩١ بجموع عظيمة ، ونزل مدينة إشبيلية ، فلم يقيم بها إلا يسيراً ريثما اعترض الجنود قسم الأموال ، وخرج يقصد بلاد الروم .

وسمع الأذفنش - لعنه الله - بقصده ، فتجهز هو أيضاً في جموع ضخمة ؛ والتقوا بموضع يُعرف بفحص الحديد : وكان الأذفنش قد جمع جموعاً

(١) هو الفونس الثامن ملك قشتالة .

لم يجتمع له مثلها قَطُّ ^(١) ؛ فلما تراءى الجمعان اشتد خوف الموحدين وساءت ظنونهم لما رأوا من كثرة عدوهم ؛ وأمير المؤمنين في ذلك كله لامستد له إلا الدعاء والاستعانة بكل من يظنّ عنده خيراً من الصالحين .

فلما كان يوم الأربعاء وهو الثالث من شعبان ^(٢) من هذه السنة المذكورة ، التقى المسلمون وعدوهم ؛ فأنزل الله على الموحدين نصره ، وأفرج عليهم صبره ، ومنحهم أكثاف الروم ؛ وكانت الدائرة على الأذفنش - لعنه الله - وأصحابه ؛ ولم ينج إلا هو في نحو من ثلاثين من وجوه قواده ؛ واستشهد من المسلمين جماعة من أعيان الموحدين وغيرهم ، منهم الوزير أبو يحيى أبو بكر بن عبد الله ابن الشيخ أبي حفص المتقدم الذكر في وزراء أبي يوسف ^(٣) .

وخرج أمير المؤمنين بنفسه حتى أتى قلعة رباح وقد انجلى عنها أهلها ، فدخلها وأمر بكنيسستها فغيرت مسجداً فصلى فيها المسلمون ؛ واستولى على ما حول طليطلة من الحصون ؛ ثم رجع إلى مدينة إشبيلية منصوراً مفتوحاً عليه .

وكانت هذه الهزيمة أختاً لهزيمة الزلاقة المتقدم ذكرها في مدة يوسف ابن تاشفين أمير المرابطين ^(٤) .

(١) يحكى صاحب بغية اللتمس : أن عسكرا الأذفنش كان ينيف على خمسة وعشرين ألف فارس ومئة ألف راجل ، وكان معه جماعات من تجار اليهود قد وصلوا لاشتراء أسرى المسلمين !

(٢) رواية ابن خلكان وغيره : أن الوقعة كانت يوم الخميس التاسع من شعبان .

(٣) انظر ص ٣٣٧ .

(٤) انظر ص ١٩٣ .

وأقام أمير المؤمنين بإشبيلية بقية سنة ٥٩١ ، وقصد بلاد الروم في السنة الثانية ، فنزل على مدينة طليطلة بعساكره ؛ فقطع أشجارها ، وانتسف معاشها ، وغور مياهها ، وأنكى في الروم أشد نكايه .
ثم عاد في السنة الثالثة أيضاً وتوغل بلاد الروم ، ووصل إلى مواضع لم يصل إليها ملك من ملوك المسلمين قط ؛ ورجع إلى مدينة إشبيلية ، فأرسل الأذفنش إليه - لعنه الله - يسأله المهادنة ، فهادنه إلى عشرينين^(١) فعبّر البحر بعد أن أصلح الجزيرة ورتّب فيها من يقوم بحمايتها ، وقصد مدينة مراکش ، وذلك في سنة ٥٩٤ .

[عزم أبي يوسف على قصد مصر]

فبلغني عن غير واحد أنه صرّح للموحّدين بالرحلة إلى المشرق ، وجعل يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع ، ويقول : نحن إن شاء الله مُطهروها^(٢) : ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات - رحمه الله - في صدر سنة ٥٩٥ - كما ذكر - ودفن بتينمل مع آبائه^(٣) .

(١) كان أبو يوسف - فيما يروى أهل التاريخ - موشكا أن يغلب الأذفوش على طليطلة دار ملكه ويعيدها إلى الاسلام ، وإنما حمّله على قبول الهدنة ما بلغه من حركة ابن غانية في إفريقية مع قراقوش الأيوبي

(٢) كان ملك مصر في ذلك التاريخ هو العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبي ، وقد مات في المحرم سنة ٥٩٥ وخلفه على العرش أخوه الأفضل علي بن صلاح الدين . وكانت وفاة أبي يوسف أمير الموحّدين بين صفر وجمادى الأولى من تلك السنة ، على اختلاف بين المؤرخين .
وانظر ص ٣٣٦ من هذا الكتاب .

(٣) يروى ابن خلكان نبأ غريباً عن آخره أمير الموحّدين أبي يوسف ، فيقول ان الروايات اختلفت في امره بعد عودته إلى مراکش من الأندلس ، فمن الناس من يقول انه ترك ماكان فيه =

[شىء من سيرته]

وكان في جميع أيامه وسيره مؤثراً للعدل ، متحريراً له بحسب طاقته وما يقتضيه إقليمه والأمة التي هو فيها .

كان في أول أمره أراد الجرى على سُنن الخلفاء الأول ؛ فمن ذلك أنه كان يتولى الإمامة بنفسه في الصلوات الخمس ؛ لم يزل على ذلك مستمراً أشهرًا ، إلى أن أبطأ يوماً عن صلاة العصر إبطاءً كاد وقتها يفوت ، وقعد الناس ينتظرونه ؛ فخرج عليهم فصلّى ثم أوسعهم لوماً وتأنيباً ، وقال : ما أرى صلاتكم إلا لنا ، وإلا فما منَعكم عن أن تقدّموا رجلاً منكم فيصلي بكم ؟ أليس قد قدّم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن ابن عوف حين دخل وقت الصلاة وهو غائب ؟ أما لكم بهم أسوة وهم الأئمة المتبعون والهداة المهتدون ؟ فكان ذلك سبباً لقطعه الإمامة .

* * *

وتجرد وساح في الأرض حتى انتهى إلى بلاد المشرق وهو مستخف لا يسرف ، ومات خاملاً ، ومنهم من يقول أنه توفي ٥٥٠ على اختلاف في تاريخ وفاته ، قال ابن خلكان : « ثم حكى لي جمع كثير بدمشق في شهر شوال سنة ٦٨٠ أن بالقرب من المجلد ، من أعمال البقاع ، قرية يقال لها حمارة وإلى جانبها مشهد يعرف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب ، وكل أهل تلك النواحي متفقون على ذلك وليس عندهم فيه خلاف ٥٥٠ »

ويعلق المقرئ صاحب نفح الطيب على هذه الرواية فيقول :

« ٥٥٠ وما يقال من أنه ساح في الأرض وتخل عن الملك ووصل إلى الشام ودفن بالبقاع ، لا أصل له ٥٥٠ ومن صرح ببطلان هذا القول : الشريف الغرناطي في شرح مقصورة حازم ، وقال إن ذلك من هذيان العامة لولوعهم بالسلطان المذكور ! »

قلت : وحدثنى زميل من المشتغلين بالتعليم في دمشق - لا أذكر اسمه - وأهله من البقاع أن بالقرب من موطن أهله في البقاع ضريحاً - لم يزل - يتبرك به العامة هناك ويسمونّه ضريح ملك المغرب .

وكان يقعد للناس عامة ، لا يُخجّب عنه أحدٌ من صغير ولا كبير ؛ حتى
اختصم إليه رجلان في نصف درهم ، فقضى بينهما وأمر الوزير أبا يحيى
صاحب الشرطة أن يضربهما ضرباً خفيفاً تأديباً لهما ، وقال لهما : أما كان
في البلد حُكام قد تُصبوا لمثل هذا ؟ فكان هذا أيضاً مما حمّله على القعود
في أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لا يتفّذها غيره .

* * *

ولما ولّى أبا القاسم بن بقى المتقدم الذكر^(١) كان فيما اشترط عليه
أن يكون قعوده بحيث يسمع حكمه في جميع القضايا ؛ فكان يقعد في
موضع بينه وبين أمير المؤمنين ستر من ألواح .

* * *

وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر
مرتين ؛ يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم .

* * *

وكان إذا وفد عليه أهل بلد فأول ما يسألهم عن عمالهم وقضاتهم
وولاتهم ؛ فإذا أثنوا خيراً قال : اعلموا أنكم مسئولون عن هذه الشهادة
يوم القيامة فلا يقولنّ أمرؤ متكم إلا حقاً ؛ وربما تلا في بعض المجالس

(١) انظر ص ٣٢٩ .

«يا أيها الذين آمنوا كونوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ» .

* * *

ولما خرج إلى الغزوة الثانية سنة ٩٢ - وهي الغزوة التي كانت بعد الواقعة الكبرى التي أذل الله فيها الأذفنش وجموعه وأعز الإسلام وأنصاره ، كتب قبل خروجه إلى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين والمنتمين إلى الخير وحملهم إليه ؛ فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم كلما سار بين يديه ، فإذا نظر إليهم قال لمن عنده : هؤلاء الجند لا هؤلاء ! ويشير إلى العسكر ؛ فكان في ذلك شبيهاً بما حكى عن قتيبة بن مسلم والى خراسان حين لقي الترك وكان في جيشه أبو عبد الله محمد بن واسع ؛ فجعل يكثّر السؤال عنه ، فأخبر أنه في ناحية من الجيش متكئاً على سِيَةِ قَوْسِهِ رافعاً إصبعه إلى السماء يُنْضِضُ بِهَا ؛ فقال قُتَيْبَةُ : لِأَصْبُعِهِ تِلْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عَشْرَةِ آلَافِ سَيْفٍ !

ولما رجع أمير المؤمنين أبو يوسف من وجهه هذا ، أمر لهؤلاء القوم بأموال عظيمة ، فقبل منهم من رأى القبول ورَدَّ من رأى الرد ؛ فتساوى عنده - رضى الله عنه - الفريقان ، وقال : لكلّ مذهب ، ولم يزد هؤلاء رُدُّهم ولا نقص أولئك قبولهم .

* * *

وكان كثير الصدقة ؛ بلغنى أنه تصدَّق قبل خروجه إلى هذه الغزوة - أعنى

التي كانت فيها الوقعة الكبرى - بأربعين ألف دينار ، خرج منها للعامة نحو من نصفها ، والباقي في القرابة . أدركتهم وقد قسموا مدينة مراکش أربعاً وجعلوا في كل رُبع أمانة معهم أموالٌ يتحرون بها المساتير وأرباب البيوتات .

وكان كلما دخلت السنة يأمر أن يكتب له الأيتام المنقطعون فيُجمعون إلى موضع قريب من قصره ، فيُختنون ويأمر لكل صبي منهم بمشقال وثوب ورغيف ورُمانة ، وربما زاد على المشقال درهمين جديدين . هذا كله شهدته لا أنقله عن أحد من الناس .

* * *

وبنى بمدينة مراکش بيمارستاناً ما أظن أن في الدنيا مثله ؛ وذلك أنه تَخَيَّرَ ساحةً فسيحة بأعدل موضع في البلد ، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه ؛ فاتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكّمة ما زاد على الاقتراح ؛ وأمر أن يُغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات ، وأجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت ، زيادةً على أربع برك في وسطه ، إحداها رخام أبيض ؛ ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكُتّان والحريّر والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت ، وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام وما يُنفَقُ عليه خاصة ، خارجاً عما جلب إليه من الأدوية وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال ؛ وأعدّ فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم ، من جهاز الصيف والشتاء ؛ فإذا نَقَعَ المريض فإن كان فقيراً

أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل ، وإن كان غنياً دُفع إليه ماله وترك وسببه ؛ ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء ، بل كل من مريض بمراكش من غريب حُمل إليه وعُولج إلى أن يستريح أو يموت .
وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله ، يعودُ المرضى ويسأل عن أهل بيت أهل بيت ، يقول : كيف حالكم ؟ وكيف القومة عليكم ؟ إلى غير ذلك من السؤال ، ثم يخرج ؛ لم يزل مستمراً على هذا إلى أن مات رحمه الله .

[ممالك الغز المصريون في المغرب]

وفي أول ولايته - إما سنة ٨٣ أو ٨٢ - ورد علينا البلاد الغز من مصر (١)

(١) الغز : جنس من الترك ، بلادهم في أقصى المشرق على تخوم الصين ، وقد عرفهم العرب في أيام الفتوح الأولى ، دخلوا بلاد المسلمين أسارى ومماليك ، فلم يلبث كثير منهم أن ملكوا حرياتهم وبرزوا في الحياتين المدنية والعسكرية جميعاً ، فصار منهم قواد ووزراء وولاة ، ثم قوى سلطانهم حتى صار الخلفاء في قبضة أيديهم وسياسة الدولة وفق إرادتهم .
ومن الغز كان أحمد بن طولون صاحب عرش مصر في القرن الثالث .
على أن الأسارى والمماليك في الدولة الإسلامية لم يكونوا جميعاً من الغز ، بل لم تكن الأكثرية منهم ، فقد كان منهم الترك والعجم والكرد والأرمن والروم والشركس والصقالبة وأجناس شتى ، ولكن كتاب العربية في مختلف أقطارها لم يكونوا يفرقون بين جنس وجنس حين يتحدثون عن المماليك أو من يمت إلى المملوكية بصلة ، فهم بنسبهم إلى ما يشاءون من الأجناس لا يعينهم من تلك النسبة إلا الإشارة إلى سابقتهم في الرق والمملوكية ، ومن هذا كانت تسمية هؤلاء بالغز حيناً ، وبالترك حيناً آخر ، وبالمماليك في أحيان كثيرة . ومن العسير في أغلب الحالات نسبة مملوك أو طائفة من المماليك إلى جنس معين ، ذلك لأن تجارة الرقيق بعد انتهاء عهد الفتح قد حملت طائفة من ذوى النفوس الغليظة على احترام النخاسة ، فكانوا يخطفون الأطفال ، بنين وبنات ، من حجور أمهاتهم ويسلكون بهم المفاوز والمحيطات إلى حيث يبيعونهم في أسواق الرقيق بعد أن يقطعوا كل صلة لهم بأمضيتهم ، ومن ثمة يخفى جنسهم الحقيقي إلا على ذوى الحلق والفراسة .
وهؤلاء الغز الذين يشير إليهم المراكشي ، كان لهم شأن في تاريخ أفريقية أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع ، وكان وصولهم حوالي سنة ٥٦٨ ، وعلى عرش مصر وقتئذ =

وكان فيمن ورد علينا مملوك يُسمى قراقش^(١) ، ذكروا أنه كان مملوكاً لتقي الدين بن أخى الملك الناصر ؛ ورجل يسمى شعبان ، ذكروا أنه من أمراء الغز ؛ ومن أجناد المصريين رجلٌ يعرف بالقاضى عماد الدين ، فى آخرين ؛ فأحسن نزلهم ، وبالغ فى تكريمهم ، وجعل لهم مزية ظاهرة على الموحدين ؛ وذلك أن الموحدين يأخذون الجامكية ثلاث مرات فى كل سنة ، فى كل أربعة أشهر مرة ؛ وجامكية الغز مستمرة فى كل شهر لا تختل ، وقال : أفرق بين هؤلاء وبين الموحدين أن هؤلاء غرباء لاشئ لهم فى البلاد يرجعون إليه سوى هذه الجامكية ، والموحدون لهم الأقطاع والأموال المتأصلة . هذا مع أنه أقطع أعيانهم أقطاعاً كأقطاع الموحدين أو أوسع : أقطع رجلاً منهم فيما أعرف ، من أهل إربل ، يُعرف بأحمد الحاجب ، مواضع ليس لأحد من قرابته مثلها : وأقطع شعبان المذكور بالأندلس قرى

= الملك الناصر صلاح الدين ، وكانت الحروب الصليبية ناشبة فى الشرق والغرب ، فشمة صليبيون يغيرون على الشام ومصر ، قد تجمعوا من أقطار شتى ، وصليبيون فى صقلية يحاولون أن يغلبوا العرب على سواحل أفريقية ، وصليبيون من الأسباني والفرنجة يضيقون الخناق على العرب فى الأندلس وما يساقبها من الجزر فى بحر الروم .

قال أهل التاريخ : وفى بعض هذه الحملات أحس صلاح الدين الأيوبي صاحب عرش مصر والشام بحاجة الى معونة المسلمين فى الشرق والمغرب على رد عادىة الصليبيين عن بلاده ، فأرسل الرسل والكتيب الى أمراء المسلمين هنا وهناك ، وكان فيمن أرسل اليهم صاحب عرش المغرب والأندلس من أمراء الموحدين ، وسماه فيما كتب أمير المسلمين ٠٠٠ ، قالوا : ففضب ملك مراکش اذ لم يسعه صلاح الدين « أمير المؤمنين » ولم يستمع لندائه ٠٠٠

وخلال ذلك ظهر الماليك المصريون فى ذلك التاريخ بأرض أفريقية ، وأميرهم شرف الدين قراقوش مملوك تقي الدين عمر ابن أخى صلاح الدين ٠٠٠ فحالفوا عرب بنى هلال ، وأغاروا على الأطراف الشرقية لملكة الموحدين ، ففتحوا كثيراً من المعاقل واستولوا على كثير من البلاد ، وقد تقدمت الإشارة الى بعض ما كان بينهم وبين جيش الموحدين فى قصة . انظر الهامش رقم ٢ ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .

(١) هو غير بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين .

كثيرة تغلُّ في كل سنة نحواً من تسعة آلاف دينار ، هذا خارجاً عن
جامكيتهم الكثيرة التي ليس لأحد من الأجناد غيرهم مثلها .

[شعبان الغزى المصرى]

ولم يردِ المغربَ من هذه الطائفة - أعنى الغز - ألفتُ حساً ولا أزكى
نفساً ولا أحسنُ محاضرة ولا أطيّبُ عشرة من شعبان هذا المذكور ؛ ما لقيته
إلا استنشدنى أو أنشدنى .

أنشدته يوماً لشاعرٍ من أصحابنا من أهل إشبيلية :

وقائل : فيمَ لمَ تهَجَّعْ ؟ فقلت له :

كيف الهُجوعُ لطرفٍ نافر الوَسَنِ

لم تذرِ أن الكرى المنوعَ عن بصري

هى السَّنَاتُ التى فى مُقْلَتَى حسن ا

فضحك وقال : لقد حَوَّم هذا الشاعر وما وردَ ، ورفرفَ فما طار ،
وأراد غايةً فوقَ دونها ؛ والله من آثار هذا المعنى بأوجز لفظ وأسهل مأخذ
وأيسر كلفة حيث يقول :

أَعِيدُوا صَبَاحِي فهو عند الكواعبِ

ورُدُّوا رُقَادِي فهو لحظُ الجَبَائِبِ

قلت : هو أبو الطيب . قال لى : نعم ، هو الطيب أبو الطيب .

وأنشدته يوماً - وقد جرى ذكر التجنيس اللفظى ، فأنشد هو منه
وأكثر - :

إذا صال ذو وُدٍّ بوَدٍّ صديقه فيأبها الخِلُّ المصاحبُ لي صُلُّ بي
فِيَّ مثلُ الماءِ ليناً لصاحبي وناهيك للأعداءِ من رجلٍ صُلُبٍ !
فاستحسنهما وكتبهما عنده ، وقال لي رحمه الله : لك على بهذين البيتين
حق ؛ فما وافقني شيءٌ من الشعر في هذا المعنى ولا في غيره ولا وقع مني
موقعهما .

وفي الجملة كان له شغف بالآداب شديد ، وكان يقَرِّض شيئاً من الشعر ،
وربما نَدَرَتْ له الأبياتُ الجيدة ؛ سألته أن يكتب لي شيئاً من شعره أو
يُنشِذهني فآبَى عليَّ " كلَّ الإباءِ وحلف لا يفعل ...

[أبو يوسف وعقيدة العامة في ابن تومرت]

وخرج أمير المؤمنين أبو يوسف إلى تينمل للزيارة ومعه هؤلاء الغزُّ ،
المذكورون ، ففعدوا تحت شجرة خروب مقابلةً للمسجد ؛ وقد كان ابن
تومرت قال لأصحابه فيما قال لهم ووعدهم به : ليُبصرنَّ منكم من طالت
حياته أمراءُ أهلِ مصرٍ مستظِلِّين بهذه الشجرةِ قاعدين تحتها . فلما جلس
الغزُّ على الصفة المتقدمة تحتها كان ذلك اليومُ في تينمل يوماً عظيماً ؛
اتصل التكبير من كل جهة ، وجاء النساءُ يُؤلِّون ويضربن بالدُّفوف ويقلن
بلسانهم : صَدَقَ مولانا المهدي ! نشهد أنه الامام حقاً !

فأخبرني من رأى أمير المؤمنين أبا يوسف حين رأى ذلك يتبسم استخفافاً
لعقولهن ؛ لأنه لا يرى شيئاً من هذا كله ، وكان لا يرى رأيهم في ابن
تومرت ؛ فالله أعلم .

أخبرني الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري ونحن بحجر الكعبة قال : قال لي أمير المؤمنين أبو يوسف : يا أبا العباس أشهد لي بين يدي الله عز وجل أنني لا أقول بالعصمة - يعني عصمة ابن تومرت - قال : وقال لي يوماً وقد استأذنته في فعل شيء يفتقر إلى وجود الإمام : يا أبا العباس ، أين الإمام ؟ أين الإمام ؟

أخبرني شيخ من لقيته من أهل مدينة جيان من جزيرة الأندلس ، يسمى أبا بكر بن هاني ، مشهور البيت هناك ؛ لقيته وقد علفت سنه فرويت عنه ، قال لي : لما رجع أمير المؤمنين من غزوة الأرك - وهي التي أوقع فيها بالأدفنش وأصحابه ^(١) - خرجنا نلتقاه ؛ فقدمني أهل البلد لتكليمه ، فرفعت إليه ، فسألني عن أحوال البلد وأحوال قضائه وولاته وعُماله - على ما جرت عادته - فلما فرغت من جوابه سألني كيف حالي في نفسي ؛ فتشكرت له ودعوت بطول بقاءه ؛ ثم قال لي : ما قرأت من العلم ؟ قلت : قرأت تواليف الإمام ؛ - أعني ابن تومرت - فنظر إلي نظرة المغضب وقال : ما هكذا يقول الطالب ! إنما حُكِمَ أن تقول : قرأت كتاب الله ، وقرأت شيئاً من السنة ؛ ثم بعد هذا قل ماشئت. في أضراب لهذه الحكايات لو أوردناها لطال بها هذا التلخيص .

[اهتمامه بالتشديد والبناء]

وكان عند رجوعه من السفرة التي استنقذ فيها مدينة شلب من أيدي

(١) انظر ص ٣٥٨ .

الروم على ما تقدم^(١) ، أمر أن يُبنى له على النهر الأعظم ، نهر إشبيلية ، حصن ؛ وأن تُبنى له في ذلك الحصن قصور وقباب ، جارياً في ذلك على عادته من حب البناء وإيثار التشييد - فانه كان مهتماً بالبناء ، وفي طول أيامه لم يخلُ من قصر يستجده أو مدينة يعمرها ؛ زاد في مدينة مراکش في أيامه زيادة كثيرة يطول تفصيلها - فتمت له هذه القصور المذكورة على ما أراد وفوقه ؛ وسمى ذلك الحصن « حصن الفرج » .

[على بن حزمون الشاعر]

ولما رجع من غزوته العظمى - المتقدم ذكرها - في سنة ٥٩١ هـ ، جلس للوفود في قبة من تلك القباب مشرفة على النهر الأعظم ، وأذن فدخلوا عليه على طبقاتهم ومراتبهم ؛ وأنشده الشعراء ؛ فممن أنشده في ذلك اليوم صديق لي من أهل مرسية اسمه علي بن حزمون ، أنشده قصيدة في عروض يسمى الحَبَبُ^(٢) كان يقترحه على الشعراء ، ف وقعت القصيدة من أمير المؤمنين ومن الحاضرين موقع استحسان ، أولها :

حَيْثُكَ مُعْطَرَةٌ النَّفْسِ نَفْحَاتُ الْفَتْحِ بِأَنْدَلُسِ
فَذَرِ الْكُفَّارَ وَمَا تُمِهِمْ إِنَّ الْإِسْلَامَ لَفِي عُرْسِ
أَيُّهَا الْحَقُّ وَنَاصِرُهُ طَهَّرْتَ الْأَرْضَ مِنَ الدَّنَسِ
وَمَلَأْتَ قُلُوبَ النَّاسِ هُدًى فَدَنَا التَّوْفِيقُ لِلتَّمَسِ

(١) انظر ص ٣٥٦ وما بعدها .

(٢) تفعيلاته : « فعلن فعلن فعلن » مرتين .

ورفعت منارَ الدين على	عُمِدِ شَمٍّ وعلى أُسُس
وَصَدَعَتْ رِذَاءَ الْكُفْرِ كَمَا	صَدَعَ الدِّيُجُورَ سَنَا قَبَسِ
لَا قِيَتَ جَمُوعُهُمْ فَعَدَّوْا	فِرْصاً فِي قَبْضَةِ مُفْتَرِسِ
جَاءُوكَ تَضْيِيقُ الْأَرْضِ بِهِمْ	عَدْدًا لَمْ يُخْصَ وَلَمْ يُقَسِّ
خَرَجُوا بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ	سَ لِيَخْتَلِسُوا مَعَ مُخْتَلِسِ
وَمَضَيْتَ لِأَمْرِ اللَّهِ عَلَى	ثَقَةٍ بِاللَّهِ وَلَمْ تَخْسِرْ
فَأَنَّاخَ الْمَوْتُ كَلَاكِلَهُ	بِطُبَاكَ عَلَى بَشَرِهِ رَجِسِ
وَتَسَاوَى الْقَاعُ بِهِمْ	الرُّبُضُ مَعَ الْحَرْبِ الضَّرِسِ (١)
سُقِيَتْ بِنَجِيْعِهِمْ أَكْمُ	وَطِثُوا مِنْهُمْ عَلَى دَهْسِ
فَأَلْثَمَكَ حَزْبُ الْكُفْرِ أَلَا	إِنَّ الْكُفَّارَ لَفِي نَكْسِ
أَذْوَى الصُّلْبَانِ وَرَاءَ كَمْبِ	خَيْلِ الْمَلِكِ الْخَبِيرِ النَّدْسِ
لَوْ أَنَّ الْبَحْرَ تَنَاوَلَهُ	جُرْعًا وَطِثْتَهُ عَلَى يَبَسِ
وَلَوْ أَنَّ الصُّمَّ تُرَاجِمُهَا	أَضَحَتْ كُحْلُ الْمُقَلِّ النَّعْسِ
مَلَأَ التَّوْحِيدُ أَعْنَتَهَا	وَأَغَارَ بِهَا رُوحُ الْقُدْسِ
نَهَضَتْ فَمَضَتْ فَقَضَتْ أَمَلًا	أَنَسَى عَتَبَ الدُّنْيَا فَنَسِيَ
جَاسَتْ جَنَابَاتِ الْكُفْرِ فَلَمْ	تَتْرِكْ لَهُمْ مَا لَمْ تَجُسْ
لَمْ يَبْقَ بِهَا مَثْوَى رَجُلٍ	إِلَّا وَعَلَيْهِ شَذَى فَرَسِ

(١) عجز البيت في الأصل : « المرفض مع الحبب الضريس » .

لحقوا بقرون الشم فلا سُقيًا لطلولهمو الدرس
إن كان نجا أذفنتشهمو فإلى عيش نكيد تعس
نظر الملك الأعلى فرأى ملكاً ما بين قناً وقيسى
كالصبح توشح رونقه كالطور بنور الله كيسى
فمضى لم يلو على أحد ورمى بالذرع وبالترس
لصايل الهند بمفرقه لا يسمع صلصلة الجرس
سهر الموتور وأرقه تذكار المنصل والمرس
وبكاء عقائل هاتفة كالورق ينخن مع الغلس
برزت وكان ذوائبها أذنب رومجة شمس
ترنو كظباء الرمل على وجل لصراعمة شرس
قد كنن لها أنس فعدت تحت الرايات بلا أنس
إن الأيام قد ازدهرت كالروض يروق لمقتريس
وتناسقت الآمال لنا كالشجر تنظم في لعس
وتلأل نور الحق على السائر المهدية فاقتبس
أجزيرة أندلس اعتصمى بإمام الأمة واحترسى
أرعاك حراسته ملك جبريل له أحد الحرس
حكمت أسياfk سيدنا في كل مصر الكفر ميسى
ومضت في الروم مضاربها وكذلك تفعل في الفرس

لَا يُخْلَفُ رَبُّكَ مَوْعِدَهُ دَوَّخُ أَقْطَارَهُمْ وَدُسْ!

أوردتها على تواليها وإن كان فيها طول ، لغرابية عَرُوضها وجودة أكثر أبياتها ؛ أنشدنيها مُنشئها المذكور من لفظه ، ثم أعدتها عليه بلفظي آخر مرة لقيته بمدينة مرسية في سنة ٦١٤ .

ولعلّ بن حزمون هذا قدم في الآداب ، واتساع في أنواع الشعر ، ركب طريقة أبي عبد الله ابن حجاج البغدادي ^(١) - سامحه الله وغفر له - فأراني فيها عليه ؛ وذلك أنه لم يدع موشحة تجرى على ألسنة الناس بتلك البلاد إلا عمل في عَرُوضها ورويتها موشحة على الطريقة المذكورة ؛ وله مع هذا في الهجاء يد لا تُطاوَل ، غير أنه يُفحش في كثير منه ؛ فمن أحسن ما أحفظ له من ذلك وأسلمه من الفحش والإقذاع ، أبيات ركب فيها طريقة الحُطَيْثَة : ابتداء يهجو نفسه ، ثم استطرد يهجو رجلا من أعيان قواد الأندلس يقال له محمد بن عيسى ، مشهور النجدة عندهم .
والأبيات :

تَأَمَّلْتُ فِي الْمِرَاةِ وَجْهِي فَخِلَّتُهُ

كَوْجِهِ عَجُوزٍ قَدْ أَشَارَتْ إِلَى اللَّاهُوتِ

كَأَنَّ عَلَى الْأَزْزَارِ مِنِّْي عَوْرَةً

تُنَادِي الْوَرَى : غَضُّوا وَلَا تَنْظُرُوا نَحْوِي

(١) هو أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن الحجاج ، من شعراء المئة الرابعة ، ذكره الثعالبي في اليتيمة ، وكان هازلا ماجنا ، وهو وابن سكرة الهاشمي متعاصران وفي السخف متشابهان ، فكان يقال : ان زمانا جاد وابن سكرة وابن الحجاج لسخي جدا ...

فلو كنتُ مما تُنبت الأرضُ لم أكن

من الرائق الباهي ولا الطيب الحلو

وأفبحُ من مرآى بطنى فإنه يُقرقرُ مثل الرعدِ قرقر في الجو

وإلا كقلبٍ بين جنبي محمدٍ سليل ابن عيسى حين فرو لم يلو

يودُ بأن لو كان في بطن أمه جنيناً ولم يسمع حديثاً عن الغزو

ثقل ولكن عقله مثل ريشة تطيرُ بها الأرواحُ في مهمه دوى

تميلُ بشدقيه إلى الأرض لحيه تظنُ بها ماء يُفرغُ من دلو

وقد حدثوا عنه بكل نقيصه ولكن مثلى لا يروى ولا يروى

وله في هذا المعنى أحسنُ من هذا كثيراً إلا أنه أقذع فيه ؛ فلذلك لم

أودعه هذه الأوراق لأني لا أستجيز أن يُنقل مثلُ هذا عني .

ونال ابنُ حزمون هذا عند قضاة المغرب وعُماله وولاته جاهاً وتروة ؛

كل ذلك خوفاً من لسانه وحذراً من هجائه ؛ ولا أعلم في جميع بلاد المغرب

بلداً إلا وأهاجى هذا الرجل تُحفظ فيه وتُدرس ؛ أسأل الله له المسامحة

ولجميع إخواننا من المسلمين .

[محمد بن عبد ربه الكاتب حفيد صاحب العقد]

وأمر أمير المؤمنين بعرض الجند في هذا اليوم^(١) في السلاح التام ؛ فلما

انتشروا بين يديه وأعجبه ما رأى من حسن هيأتهم ، قام فصلى ركعتين

(١) يعنى يوم عودته من وقعة الارك سنة ٤٩١ .

شكراً لله عز وجل ، واتفق أثر فراغه من ذلك الركوع أن جاءت بسحابة
فأمطرت مطراً جوداً حتى ابتلّ الناس ، فقال في ذلك صديق لي من
الكتاب اسمه محمد بن عبد ربه^(١) ، أصله من الجزيرة الخضراء ، كان
يكتب لأبي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن ، وكان مختصاً به :

بَادَى الْكَرَامَةِ بِلِ بَادَى الْكَرَامَاتِ قَدْ شَفَعَ اللَّهُ آيَاتِ بَآيَاتِ
يَالَيْتَ شَعْرَى مَا شَيْءٌ دَعَوْتُ بِهِ قَبْلَ السَّلَامِ وَمِنْ بَعْدِ التَّحِيَّاتِ
شَيْءٌ تَأَثَّرَ عَنْهُ الْجَوُّ فَاتَّصَلَتْ مِنَ السَّحَابِ رَايَاتُ بَرَايَاتِ
مِنْ كُلِّ وَطْفَاءٍ لَفَاءِ الرِّبَابِ هَمَّتْ

ماءٌ نَقِيًّا عَلَى زَغْفٍ نَقِيَّاتِ
قُلْ كَيْفَ لَا يَفْتَحُ اللَّهُ الْبِلَادَ وَقَدْ تَفْتَحَتْ لَكَ أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ

فاشتهر من يومئذ أبو عبد الله هذا^(٢) وعُرف مكانه وثبته قدره ؛ وله
إحسانٌ كثيرٌ وقَدَّمُ راسخة في صناعتي النظم والنثر ، مع تحقُّقِ بشيء من
أجزاء الفلسفة من علوم التعاليم وعلم المنطق ؛ أنشدني - رحمه الله - من
شعره :

قِفْ بِالْقِيَابِ وَأَيْنَ ذَاكَ الْمَوْقِفُ وَاسْأَلْهُمْ بِمَأْمِهِمْ أَنْ يَعْطِفُوا
وَأَنْشُدْ فَوَادَكَ إِنْ عَرَفْتَ مَكَانَهُ بَيْنَ الْقِيَابِ وَمَا إِخَالُكَ تَعْرِفُ
عِنْدَ الَّتِي رَمَتْ الْجِمَارَ غُدِيَّةً وَبَنَانُهَا بَدَمَ الْقُلُوبِ مُطَرَّفُ

(١) ذكره المقرئ مرتين في نفع الطيب ، فيمن لهم رحلة الى المشرق .

(٢) يعني محمد بن عبد ربه المذكور ، كنيته أبو عبد الله .

نفسى الفداء لها وإن لم تُبْقَى نفساً تُذَكِّرُنِي بها وتُعرفُ .
وهى قصيدة طويلة لم يُبقَ تَقَادُّمُ العهد [منها] على خاطرى سوى
ما أوردته .

وأنشدته - رحمه الله - يوماً ونحن فى قبة على شاطئ نهر وقد أخذ
المطر فى الانسكاب ، بيتين أحفظهما لشاعر قديم :

حاكت يمينُ الرياح مُحْكَمَةً فى نَهَرٍ واضحٍ الأساريرِ
فكلما ضَعُفَتْ به حَلَقاً قام لها القطرُ بالمساميرِ

فاستحسنهما وقال لى : ذكّرتنى هذا المعنى ؛ وأنشدنى فيه لنفسه أبياتاً
ما سمعت بمثلاً ؛ هذا على إكثار الناس فى هذا المعنى وتواردِهِم عليه حتى
صار أخلَقَ من الليل والنهار من كثرة تكراره على الأسماع فلا يَتَخَلَّصُ منه
إلا من لَطُفَ حُسْه وجاد طبعه وحسن ميّزه ؛ والأبيات :

بين الرياضِ وبين الجوّ مُعْتَرِكُ

بيضٌ من البرقِ أو سُمرٌ من السمرِ

إن أوترت قوسها كف السماء رَمَتْ

نبلاً من الماء فى زَعْفٍ من الغلرِ

لأجل ذاك إذا هبَّتْ طلائعُها تدرّع النهرُ واهتزّت قناتُ الشجرِ

فانظر - حفظك الله - إلى حسن توطئته لهذا المعنى وقوة تخلّصه إلى هذا
التشبيه بأحسن لفظ وأسهله على السمع والنطق .

. واستأذنتُ عليه يوماً وهو في مجلس له^(١) ؛ فلم ير - رحمه الله -
أن يحجبني ؛ فاسترفع ما كان لديه وأذن لي ؛ فدخلت ؛ فتلقاني أحسن
لقاء ، وأخذ يحدثني ؛ وفهمت أنه مُستحي خجلٌ إذ عَرَفَ أني تَفَطَّنْتُ
لبعض الأمر ، فأنشدته رافعاً عنه كلفة الخجل لبعض الشعراء :

أَدْرِهَا فما التحريمُ فيها لِذَاتِهَا ولكنْ لَأَسْبَابِ تَضَمَّنَهَا السُّكْرُ
إِذَا لم يكنْ سُكْرٌ يَزِلُّ به الفتي فسيانِ ماءٌ في الزجاجةِ أو خمر !

فطرب - نضر الله وجهه - وعاوده أنسه وانبسط ، ثم سكت عنى ساعةً
واستدعى الدواة وكتب بديهاً في قريب من المعنى الذي أنشدته فيه :

ما ضرت الخمرُ - لولا الشرعُ - يَشْرِبُهَا
قومٌ حديثُهُمْ هَمْسُ التَّسَابِيحِ
لَيَسُوا بُرْعَشٍ إِذَا أَدَّوْا فَرُوضَهُمْ

عِنْدَ الْقِيَامِ وَلَا مِيلٍ مَرَّاجِيحِ
بَيْتٌ كَبِيتَ وَفِيهِ شَادِنٌ سَدِنٌ مَرْجُ الْكُؤُوسِ بِهِ وَقَدْ الْمَصَابِيحِ

وأنشدني بعد هذا لنفسه ، في هذا المجلس ، من قديم شعره ، مقطوعةً
سينيةً لم أسمع بأحسن منها ؛ لم يبق على خاطري منها سوى آخر
بيت فيها ، وهو :

ولكنْ قوماً لا يَغِيبُ نهارُهُمْ إِذَا غَرَبَتْ شَمْسُ يُدِيرُونَهَا شَمْسًا

(١) يعنى مجلس شراب .

وله - رحمه الله - رحلة إلى مصر لقي فيها ابنَ سناء الملك^(١) وأخذ عنه من شعره ، وهو أولُ من سمعتُ يذكره عندنا ويروى شعره .

ولأبي عبد الله هذا اتساعٌ في صناعة الشعر ، إلا أنه نَحَلَ كثيراً من شعره السيدَ الأجلَّ أبا الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن أيام كتابته له ، ولم يدع بعد ذلك في شيء مما نَحَله إياه من شعره ولا ذَكَرَ أنه له ؛ فكان أكثر شعره يُنشد لأبي الربيع وترويه الرواة له ؛ عرفتُ ذلك بعد مفارقتة إياه ، لأني فقدت شعر السيد أبي الربيع واختلف على كلامه ، ورأيت بخطه أشعاراً نازلةً عن رتبة الشعر جداً ، فعلمتُ أن ذلك الأول ليس من نسجه !

وأخبرني ابن عبد ربه هذا قال : دخلت على السيد أبي الربيع وهو في قبةٍ له وقد دخلت عليه الشمس من كوى صغارٍ في أعلاها ، فلما رأيت ذلك المنظر أعجبتني وقلت بديهاً :

لما رآته الشمس يفعلُ فعلها في العالمين مُقاسماً ومُساهماً
خافت توالى الجود يُنفدُ ماله نثرت عليه دنائراً ودراهما !
فحذف الياء من « دنائير » ، وهذا جائز ، كما قال الأول :

* تفضلُ به أمناً وفيه العصافر *

(١) هو القاضي السعيد هبة الله بن جعفر ، من شعراء مصر في المئة السادسة ، كان معاصراً للقاضي الفاضل ، توفي بالقاهرة سنة ٦٥٨ .

[أبو جعفر الحميري المودب]

ومما يتعلق بأخبار أبي يوسف - رحمه الله - ما أخبرني شيخى وأستاذى
أبو جعفر أحمد بن محمد بن يحيى الحميرى - رحمه الله - أيام قراءتى عليه
بقرطبة سنة ٦٠٦ ، وذلك ، أننا بلغنا عليه فى الحماسة إلى مقطوعة
ابن زِيَابَةَ التَّيْمِيَّ (١) التى أولها :

يا لَهْفَ زِيَابَةَ للحارثِ الصباحِ فالغانمِ فالآيبِ
فلما انتهينا منها إلى قوله :

والله لو لاقيتُه خالياً لآبَ سَيْفَانَا مع الغالبِ !
قال لنا (٢) : أحدثكم بأعجب ما اتفق لى فى هذا البيت ؛ وذلك أن
أمير المؤمنين أبا يوسف - رحمه الله - لما فصل عن قرطبة متوجهاً إلى لقاء
الأدْفُنش - لعنه الله - قال لى ولدى عصام بعد انفصاله بليلة أو ليلتين :
يا أبتِ ، رأيت البارحة أمير المؤمنين داخلا قرطبة وقد رجع من السفر وهو
متقلد بسيفين ! فقلت : يا بُنى ، لئن صدقت رؤياك هذه ليهزم الأدفنش
لعنه الله ! وخطر لى هذا البيت :

والله لو لاقيتُه خالياً لآبَ سَيْفَانَا مع الغالبِ
فصدقت الرؤيا والتعبير .

(١) هو مسلمة بن ذهل التيمى ، وزياية : أمه ، وبها يعرف ، والحارث المذكور فى البيت
هو الحارث بن همام الشيبانى ، وأنشد ابن زياية هذه المقطوعة يناقض بها الحارث المذكور فى
شعر قائم ، انظر ديوان الحماسة لأبى تمام .

(٢) يعنى أبا جعفر الحميرى .

وأبو جعفر هذا المذكور ، آخر من انتهى إليه علم الآداب بالأندلس ؛
لزمته نحواً من سنتين ، فما رأيت أروى لشعرٍ قديم ولا حديث ، ولا أذكرَ
بحكاية تتعلق بأدبٍ أو مثلٍ سائرٍ أو بيتٍ نادرٍ أو سَجعةٍ مستحسنَةٍ منه ،
رضى الله عنه وجزاه عنا خيراً .

أدرك جِلَّةً من مشايخ الأندلس فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب
وأعانه على ذلك طولُ عمره وصدقُ محبته وإفراطُ شغفه بالعلم ؛ قال لي
ولده عصام ، وقد رأيتُ عنده نسخة من شعر أبي الطيب قُرئتُ علىَّ أو
أكثرها فالفيتها شديدة الصحة فقلت له : لقد كتبتها من أصل صحيح
وتحرَّرتُ في نقلها . فقال لي : ما يمكن أن يكون في الدنيا أصلٌ أصحُّ
من الأصل الذي كتبتُ منه ! فقلت له : أين وجدته ؟ قال : هو موجود
الآن بين أيدينا وعندنا ! وكنا في المسجد في زاوية ، فقلت له : أين هو ؟
فقال لي : عن يمينك ! فعلمت أنه يريد الشيخ ، فقلت : ما على يميني إلا
الأستاذ ! فقال لي : هو أصلي ، وبإملائه كتبتُ ؛ كان يُملئ عليَّ من حفظه !
فجعلت أتعجب ، فسمع الأستاذ حديثنا ؛ فالتفت إلينا وقال : فيم أنما ؟
فأخبره ولده الخبر ، فلما رأى تعجبي قال : بعيداً أن تُفلقوا ! يعجب
أحدكم من حفظ ديوان المتنبي ! والله لقد أد ركتُ أقواماً لا يَعُدُّونَ مَنْ
حفظ كتاب سيبويه حافظاً ولا يروونه مجتهداً !

توفي أبو جعفر هذا في شهر صفر من سنة ٦١٠ وقد كملت له ست
وتسعون سنة ؛ لم يبق في الأندلس أعلى روايةً منه في كل ما يُروى ، ولم
أر قبله ولا بعده - مع اتساع علمه وشدّة تمييزه وحُسن اختياره ومعرفته

بعلل هذه الصناعة - أكثر انصافاً منه ولا أسرع رجوعاً إلى الحق ؛ كنت أنشده من شعري على ركاكته وكثرة تكلفه وبُعده من الجودة أبياتاً لا أعدها شيئاً ؛ يحملني على إنشادها إياه فرطُ استدعائه ذلك مني ؛ فيلهج بهاويشتد استحسانه لها ، وربما درسها فحفظها .

أنشدته يوماً - وقد استدعى مني ذلك على عادته - بيتين ارتجلتهما في شاب كان يقرأ معنا شديد العفة - رحمه الله - مع حسن رائع وظرف ناصع ، كان اسمه «فتحاً» وهما :

يَا مَنْ لَهُ عَنْ كِنَاسٍ مِنَ الْمُتِيمِ قَلْبُهُ
مَا أَنْتَ كَأَسَمِكَ فَتَحٌ وَإِنَّمَا أَنْتَ قَلْبُهُ

فطرب والتفت إلى ابنه وقال له : هذا والله الشعرُ لا ما تُصدِّعني به طولَ نهارك ؛ إن كنت تقول مثل هذا وإلا فاشكت ! فلما كان من الغد قال لي رحمه الله : أعلمتَ ما صَنَعَ عصامُ أمس ؟ قلت : لا ؛ قال : كان كما قالوا في المثل : «سَكَتَ أَلْفًا...» ؛ لم يزل أمس يُعمل فكرته ، فبعد الجهد الشديد أَخَذَ معني بيتيك فسلبه رُوحه وأعده رونقه ومسحه جملةً فقال :

سَبَى فَوَادَى خَشَفُ فَقُوَى الْيَوْمَ ضَعْفُ
سَمَوُهُ فَتَحاً مَجَازاً وَفِي الْحَقِيقَةِ حَتَفُ !

مازاد فيه أكثرَ من المجاز والحقيقة ؛ فقلت أنا : هذا والله أحسنُ من [شعري ! فتغير لي وقال : يا بُني ، دع عنك هذه العادة ؛ فإن أسوأ ما تَخْلُقُ

به الإنسان الملق وتزيينُ الباطل ، سيما إذا أضاف إلى ذلك الحلف الكاذب ؛
والله إنك لتعلم أن هذا ليس بشيء ، وإلا فقد اختل ميزك وساء اختيارك ؛
وما أظن هذا هكذا .

وسمعته - من شدة إنصافه رحمه الله - يستحسن بيتين هجاء بهما
صاحبنا على بن خروف رحمه الله^(١) ؛ وذلك أن الأستاذ رحمه الله وعفا
عنه - كان يُلقَّب بالوزغي^(٢) ، وكان عنده شاب يُقرأ عليه يلقب
بالغرُنوق - وهو اسم عندهم للكركي ، والفصيح فيه غرنيق^(٣) - فكان
بعض الطلبة يتهمون الأستاذ بالميل إلى ذلك الشاب ؛ وذلك خلق قد أعاده
الله منه ونزَّهه بفضله عنه ؛ فقال ابن خروف في ذلك ، سامحه الله :

أَحَقًّا سَامٌ أَبْرَصٌ مَا سَمِعْنَا بِأَنَّكَ قَدْ تَعَشَّقْتَ ابْنَ مَاءٍ
وَكَيْفَ وَأَنْتَ فِي الْحَيْطَانِ تَمْشِي وَذَاكَ يَطِيرُ فِي جَوْ السَّمَاءِ !
فأبعده الأستاذ - رحمه الله - وأنهى خبره إلى القاضي أبي الوليد بن رشد ،
فأوجعه ضرباً ؛ وامتنع الأستاذ من قراءته عليه ؛ فحرمه الله بهذين البيتين فوائد
علمه ، وأبعده عن مريع جنابه ، وولاه الأستاذ خطته ، وألقى حبله على
غاربه ؛ فلم يفلح ابن خروف بعدها ولا حصل على شيء من العلم ؛ وإنما كان
يعتمد فيما يأتي به على طبعه خاصة .

وقد امتد بنا عنان القول إلى ما لا حجة لنا بأكثره ؛ رغبة في تنشيط
الطالب وإيثاراً للأحماض ؛ ولنرجع الآن إلى ما قطعنا :

(١) نظنه يعني أبا الحسن بن خروف القرطبي الشاعر .

(٢) لعل صوابه : يلقب بالوزغة .

(٣) كذا يقول المؤلف ، وإنما هما فصيحان كلاهما .

[اليهود في عهد أبي يوسف]

وفي آخر أيام أبي يوسف أمر أن يُميّز اليهود الذين بالمغرب^(١) بلباس يختصون به دون غيرهم ؛ وذلك ثياباً كُحلية وأكمام مفرطة السَّعة تصل إلى قريب من أقدامهم ، وبدلاً من العمائم كلوتاتٌ على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ إلى تحت آذانهم ؛ فشاع هذا الزّي في جميع يهود المغرب ؛ ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدرًا من أيام ابنه أبي عبد الله ، إلى أن غيَّره أبو عبد الله المذكور ، بعد أن توسلوا إليه بكل وسيلة ، واستشفعوا بكل من يظنون أن شفاعته تنفعهم ؛ فأمرهم أبو عبد الله بلبس ثيابٍ صُفْر وعمائم صُفْر ؛ فهم على هذا الزّي إلى وقتنا هذا - وهو سنة ٦٢١ - وإنما حمل أبا يوسف على ما صنعه من إفرادهم بهذا الزّي وتمييزه إياهم به شكّه في إسلامهم ؛ وكان يقول : لو صحَّ عندي إسلامهم لتركهم يختلطون بالمسلمين في أنكِحتهم وسائر أمورهم ، ولو صحَّ عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فَيْئًا للمسلمين ؛ ولكني متردد في أمرهم . ولم تنعقد عندنا ذمة لليهودي ولا نصراني - منذ قام أمر المصامدة - ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة ؛ إنما اليهود عندنا يُظهرون الإسلام ويصلُّون في المساجد ويُقرِّئون أولادهم القرآن ؛ جارين على ملّتنا وسنتنا ، والله أعلم بما تُكنُّ صدورهم وتحويه بيوتهم .

(١) وكانوا يظهرون الاسلام .

[محنة أبي الوليد بن رشد]

وفي أيامه نالت أبا الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد - المقدم الذكر ^(١) - محنة شديدة ؛ وكان لها سببان جلي وخفي ؛ فأما سببها الخفي وهو أكبر أسبابها ، فإن الحكيم أبا الوليد - رحمه الله - أخذ في شرح كتاب الحيوان لأرسطاطاليس صاحب كتاب المنطق ، فهدّبه وبسط أغراضه وزاد فيه ما رآه لائقاً به ، فقال في هذا الكتاب عند ذكره الزرافة وكيف تتولد وبأى أرض تنشأ : « وقد رأيتها عند ملك البربر ... » جاريّاً في ذلك على طريقة العلماء في الإخبار عن ملوك الأمم وأسماء الأقاليم غير ملتفت إلى ما يتعاطاه خدمة الملوك ومتحيلو الكتاب من الإطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق ؛ فكان هذا مما أحنقهم عليه غير أنهم لم يظهروا ذلك ؛ وفي الجملة فإنها كانت من أبي الوليد غفلة ؛ فقد قال القائل : « رحم الله من عرّف زمانه فمانه ، وميّز مكانه فكانه ! »

وما أحسن ما قال الأول :

وأنزلي طولُ النوى دارَ غُربةٍ إذا شئتُ لاقيتُ الذي لا أشاكلة
فحامقته حتى يُقال سجيةٌ ولو كان ذا عقلٍ لكنتُ أعاقله
واستمر الأمر على ذلك إلى أن استحکم ما في النفوس ؛ ثم إن قوماً ممن يناوئه من أهل قرطبة ويدّعي معه الكفاءة في البيت وشرف السلف ، سَعُوا به عند أبي يوسف ؛ ووجدوا إلى ذلك طريقاً ، بأن أخذوا بعض تلك

(١) انظر ص ٣١٤ .

التلاخيص التي كان يكتبها ، فوجدوا فيها بخطه حاكياً عن بعض قدماء الفلاسفة بعد كلام تقدم : « فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة ... » ، وأُقفوا أبا يوسف على هذه الكلمة ؛ فاستدعاه بعد أن جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة وهم بمدينة قرطبة ، فلما حضر أبو الوليد - رحمه الله - قال له بعد أن نبذ إليه الأوراق : أخطأك هذا ؟ فأنكر ! فقال أمير المؤمنين : لعن الله كاتبَ هذا الخط ! وأمر الحاضرين بلعنه .

ثم أمر بإخراجه على حال سيئة وإبعاده وإبعاد من يتكلم في شيء من هذه العلوم ؛ وكتب عنه الكتب إلى البلاد بالتقدم إلى الناس في ترك هذه العلوم جملةً واحدة ، وبإحراق كتب الفلسفة كلها ، إلا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل به من علم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار وأخذ سميت القبيلة ؛ فانتشرت هذه الكتب في سائر البلاد وعُمل بمقتضاها . ثم لما رجع^(١) إلى مراکش ، نزع عن ذلك كله وجنح إلى تعلم الفلسفة ، وأرسل يستدعي أبا الوليد من الأندلس إلى مراکش للإحسان إليه والعفو عنه ؛ فحضر أبو الوليد - رحمه الله - إلى مراکش ، فمرض بها مرضه الذي مات منه ، رحمه الله ؛ وكانت وفاته بها في آخر سنة ٥٩٤ وقد ناهز الثمانين . رحمه الله .

* * *

ثم توفي أمير المؤمنين أبو يوسف بعد هذا التاريخ ببسيرة ، وكانت وفاته - كما ذكرنا - في غرة صفر الكائن في سنة ٥٩٥^(٢) .

(١) يعني أبا يوسف .

(٢) انظر ص ٣٣٦ .

ذكر ولاية أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف أمير المؤمنين

أبو عبد الله هذا هو محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ ، أمه أمّ ولد اسمها زهر ، رومية ؛ بويغ له بعهد أبيه إليه في سنة ٥٩٥ بعد وفاة أبيه ؛ وقد كان أبوه أمر ببيعته في سنة ٨٦ وسنه إذ ذاك عشر سنين إلا أشهراً ؛ وكان مولده في آخر سنة ٥٧٦ ، ولم يزل مرشحاً للخلافة معروفاً بها إلى أن مات أبوه واستقل بالأمر في التاريخ المذكور ، وسنه يوم بويغ له البيعة الكبرى العامة ، سبع عشرة سنة وأشهر ؛ وكانت وفاته لعشر خلون من شعبان سنة ٦١٠ ؛ فكانت مدة ولايته ست عشرة سنة إلا أشهراً .

صفاته

أبيض ، أشقر شعر اللحية ، أشهل العينين ، أسيل الخدين ، حسن القامة ، كثير الإطراق ، شديد الصمت بعيد الغور - كان أكبر أسباب صمته لثغاً كان بلسانه - حليماً ، شجاعاً ، عفيفاً عن الدماء ، قليل الخوض فيما لايعنيه جداً . إلا أنه كان يُبخل أولاده .

أولاده

كان قليل الولد جداً ، لا أعلم له من الولد سوى يوسف ولي عهده ، ويحيى واسحاق ؛ توفي يحيى في حياته بإشبيلية سنة ٦٠٨ ، وبلغني عن جماعة

من الحشم. أنه كان رشح يحيى هذا لولاية العهد ، وله بنات..

وزراؤه:

أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان ، وزير أبيه ^(١) .
ثم عزله بعد مدة يسيرة وولى بعده أخاه إبراهيم ابن أمير المؤمنين
أبي يوسف ...

[صلة المؤلف بإبراهيم بن أبي يوسف]

... وهو خير ولده وأجدرهم بالأمر لو كانت الأمور جارية على إشارالحق
واطراح الهوى ؛ لأعلم فيهم أنجب منه ^(٢) ؛ كان لي - رحمه الله - معجبا
وبى خفيا ؛ وصلت إلى منه أموال وخلع جمّة غير مرة ، لم أعرفه أيام وزارته ،
لأنى كنت إذ ذاك حديث السن جدا كما ناهزت الاحتلام ؛ وإنما كانت معرفتي
إياه حين ولّوه إشبيلية في سنة ٦٠٥ من جهة رجل من أصحابنا من الكتاب
اسمه محمد بن الفضل - جازاه الله عنى خيرا - هو الذى أوصلنى إليه ؛
أنشدته أول يوم لقيته قصيدة مدحته بها ، أولها :

لكم على هذا الورى التقديمُ وعليهم التفويض والتسليمُ
الله أعلاكم وأعلى أمره بكمو وأنفُ الحاسدين رَغِيمُ
أحييتمو المنصورَ ^(٣) فهو كأنه لم تفتقدُه معالمُ وعلومُ

(١) انظر ص ٣٢٨ .

(٢) انظر التقديم ص ١٠ .

(٣) يعنى أمير الموحدين ابا يوسف ، وكان لقبه المنصور .

ومحابرٌ ومنابرٌ ومحاربٌ وحِمَى يُحاطُ وأَرْمَلٌ وبِتِمٌ

إلى أن أقول فيها في ذكر ولايته إشبيلية :

فكأنما حِمَصٌ^(١) جَمَلاً سَارَةً وَكَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمُ

وأرى طُلَيْطَلَةً كَهَاجَرَ إِثْرَهَا سِيزُفُهَا الأَدْفُنْش وهو ذَمِيمٌ

أقول فيها :

يَذُرُ الصَّلِيبَ صَغِيرَهُ وَكَبِيرَهُ فِيهَا جُذَاذًا وَالْعُلُوجُ جُثُومٌ

وَيُحَرِّقُ الأَعْدَاءَ فِيهَا أَضْرَمَتْ وَيَجُوبُ نارَ الحَرْبِ وَهِيَ جَحِيمٌ

لم يبق على خاطري منها لتقدم عهدا وقلة اعتنائى بها سوى هذه
الآبيات التى أوردتها ؛ فاستحسنها - رحمه الله - وبالع في الثناء عليها ،
تفضلاً منه وسودداً ، وجزياً على سنن الأجواد ؛ هذا مع ركاكتها وقلة
انطباعها وظهور تكلّفها .

ثم علت حالى عنده بعد ذلك - نضر الله وجهه - إلى أن كان يقول لى
في أكثر الأوقات : والله إني لأشتاقك إذا غبت عنى أشدّ الشوق وأصدقه^(٢)
ثم لم تنزل حالى معه على هذا إلى أن فارقت - رحمة الله عليه - وهو وال
على إشبيلية ولايته الثانية .

وكان توديعى إياه - قدّس الله روحه - آخر يوم من ذى الحجة سنة ٦١٣^(٣)
ثم اتصلت بى وفاته وأنا بصعيد مصر^(٤) سنة ٦١٧ .

(١) انظر التعليق ص ١٧٢ .

(٢) انظر التقديم ص ٧ .

(٣) انظر التقديم ص ٧ .

(٤) انظر التقديم ص ٧ ، ١٣ .

لم أر في العلماء بعلم الأثر المتفرغين لذلك أثقل منه للأثر ؛ كان يذهب
مذهب أبيه في الظاهرية .

* * *

... ثم عزله أبو عبد الله وولى بعده أبا عبد الله محمد بن علي بن أبي
عمران الضرير جد يوسف بن عبد المؤمن لأمه ^(١) ؛ وكناه أبا يحيى ؛
فكان أبو عبد الله الوزير هذا من أحسن الوزراء سيرة وسريرة ، وكان
يحضه على فعل الخير بجهده ، ونشر العدل حسب طاقته ، والإحسان إلى
الرعية والأجناد ؛ رأى الناس في أيام وزارته من الخصب وسعة الأرزاق
وكثرة العطاء مثل الذي رأوا في أيام أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن
أو قريباً منه .

ثم عزله وولى بعده أبا سعيد عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع ...

[أولية الوزير أبي سعيد بن جامع]

... كان إبراهيم بن جامع جد هذا الوزير من جملة أصحاب ابن
تومرت ، صحبه من مراكش ؛ وكان أصله من الأندلس ؛ آباؤه من أهل
مدينة طليطلة ، ونشأ هو - أعني إبراهيم - بساحل مدينة شريش على البحر
الأعظم ، بضبعة تسمى روطه ، وبها مسجد مشهور بالفضل يزوره أهل
الأندلس قاطبة في كل سنة ؛ ثم انتقل إبراهيم هذا إلى العدوة ، وكان

(١) انظر ص ٣٠٨ .

يحاول صنعة النحاس ؛ فتعرف بابن تومرت . فكان من أصحابه ، فهو
معدود فيهم ؛ ووُلد له أولادٌ نالوا في الدولة حظوة وجاهاً متسعاً ؛ فمن
أولاده أبو العلاء إدريس وزير أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وقد
تقدم ذكره^(١) .

وأبو هذا الوزير المتقدم الذكر ، اسمه عبد الله ، كان يتولى في إمارة
أبي يعقوب مدينة سبتة وجهاتها ، وزيادة على ذلك ولاية الأسطول في جميع
بلادهم ؛ فلم يزل كذلك إلى أن مات - أظن أمير المؤمنين أبي يعقوب
قتله - وترك من الولد : يوسف ، والحسين ، وعثمان الوزير هذا المذكور ،
ويحيى ؛ وبنات .

فاستمرت وزارة أبي سعيد هذا إلى أن توفي أمير المؤمنين أبو عبد الله ؛
ووزر بعده لابنه أبي يعقوب إلى حين ارتحلت من البلاد - وهو سنة ٦١٤ -^(٢)
ثم اتصل بي في شهور سنة ٦١٧ أن أبا يعقوب عزله وولى من سيأتي ذكره
بعد هذا إن شاء الله عز وجل .

حجابه :

ريحان الخصى ويدعى ريحان بينك ، حَجَبَه ريحان هذا إلى أن مات .
ثم حجبه بعده مبشّر الخصى . يدعى مبشّر ولدي ؛ فلم يزل مبشّر هذا
حاجباً له إلى أن توفي أمير المؤمنين أبو عبد الله ، رحمه الله .

(١) انظر ص ٣١٦ .

(٢) انظر التقديم ص ٧ .

كتابه :

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش المتقدم الذكر في كتاب أبيه (١) .

وأبو الحسن علي بن عياش بن عبد الملك بن عياش المتقدم ذكر أبيه في كتاب عبد المؤمن وأبي يعقوب (٢) .

وأبو عبد الله محمد بن يَحْلُفْتَنُ بن أحمد الفازازي ؛ ذكره الله فيمن عنده ، وقرب مطالعتي تلك الغرة الميمونة ، وسماعي تلك الألفاظ الحلوة ، واستمتاعي بتلك الشائل الشريفة ؛ فما أشد شوقي إلى تقبيل يديه (٣) !

هؤلاء كتبة الإنشاء . وكتاب الجيش : أبو الحجاج يوسف المُراني (بتخفيف الراء وضم الميم) من أهل مدينة شريش من جزيرة الأندلس . ثم بعده أبو جعفر أحمد بن منيع إلى وقتنا هذا ، وهو سنة ٦٢١ .

قصاته :

أبو القاسم أحمد [بن محمد] بن بَقِيٍّ قاضي أبيه (٤) .

ثم عزله وولى أبا عبد الله محمد بن مروان الذي كان أبوه قد عزله (٤) فلم يزل قاضياً إلى أن مات .

(١) انظر ص ٣٣٨ .

(٢) انظر ص ٣٦٩ و ص ٣١٦ .

(٣) انظر التقديم .

(٤) انظر ص ٣٣٩ .

وولي بعده رجلا من أهل مدينة فاس ، اسمه محمد بن عبد الله بن طاهر [كنيته أبو عبد الله] ، يدعى أنه من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب ؛ كان قبل اتصاله بهم ينتحل طريقة الوعظ ويتصوّف ، لم يزل هذا دأبه ولا برح معروفاً به ؛ وكان له مع هذا حظ جيد من معرفة أصول الفقه وأصول الدين وشيء من الخلاف ؛ اتصل بأمير المؤمنين أبي يوسف شهور سنة ٥٨٧ ، فحظي عنده وكانت له منه منزلة ؛ سمعت أبا عبد الله الحسيني هذا يقول وأنا عنده في بيته : جملة ما وصل إلي من أمير المؤمنين أبي يوسف منذ عرفته إلى أن مات ، تسعة عشر ألف دينار ، خارجاً عن الخلع والمراكب والأقطاع^(١) .

لم يزل أبو عبد الله هذا قاضياً إلى أن مات بالأندلس في شهر سنة ٦٠٨ ، وكانت ولايته في شهر سنة ٦٠١ .

ثم ولي بعده أبا عمران موسى بن عيسى بن عمران ؛ كان أبوه من قضاة أبي يعقوب^(٢) ؛ فاستمرت ولاية أبي عمران هذا إلى هذا الوقت - وهو سنة ٦٢١ - لم يبلغني عزله ولا وفاته .

وأبو عمران هذا لي صديق ، لم أر صديقاً لم تغيّره الولاية غيره ، ولم يزل يعاملني بما كان يعاملني به قبل ذلك ، لم ينقصني شيئاً من برّه ؛ ما لقيته قط في مركبه إلا سلّم عليّ مبتدئاً وجدّ لي برّاً ؛ جزاه الله عن أفضل الجزاء ، وعمّ بذلك سائر إخواني !

(١) انظر التقديم ص ١٠ .

(٢) انظر ص ٣١٨ .

[أعمال أبي عبد الله بن أبي يوسف]

ولما تمت بيعة أبي عبد الله العامة كما ذكرنا ...

وكان الذى تولاهما وقام بأمرها من القرابة : أبو زيد عبد الرحمن ابن عمر بن عبد المؤمن ، وهو الذى قام ببيعة أبيه^(١) ؛ ومن الموحدين : أبو زيد عبد الرحمن بن موسى وزير أبيه^(٢) وأبو محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص ؛ وهو الذى ولاه محمد بعد هذا أمر أفريقية .

... كان أول شيء شرع فيه تجهيز الجيوش إلى أفريقية ؛ وذلك أن يحيى بن إسحاق بن غانية المتقدم الذكر^(٣) ، كان استولى على أكثر بلادها أيام اشتغل الموحدون عنه بغزو الروم ؛ فأول جيش جهّز [أبو عبد الله] من الموحدين ، الجيش الذى استعمل عليه السيد أبا الحسن على بن عمر ابن عبد المؤمن ؛ لم أرسلهم جيشاً أضخم منه ولا أكثر منه سلاحاً ولا أحسن عُدّة ؛ وكان فيه من أعيان الموحدين وأشياخهم جملةً وافرة ؛ فسار أبو الحسن هذا بجيشه المذكور حتى التقى هو والميُورقيون فيما بين بجاية وقسنطينة وبالقرب من قسنطينة ؛ فانهزم الموحدون أصحاب أبي الحسن المذكور ، ورجع أبو الحسن إلى بجاية على حالة سيئة .

وجّهز بعد هذا الجيش جيشاً على مثاله وأمر عليهم من الموحدين أبا زيد عبد الرحمن بن موسى الوزير ؛ فسار بالجيش حتى بلغ قسنطينة المغرب .

(١) انظر ص ٣٤٠ .

(٢) انظر ص ٣٣٨ .

(٣) انظر ص ٣٤٢ وما بعدها .

[دخول الموحدين جزيرة ميورقة]

ثم استعمل أمير المؤمنين أبو عبد الله على أفريقية وأعمالها السيد الاجلّ أبازيد عبد الرحمن بن عبد المؤمن ، وخرج هو في سنة ٥٩٧ هـ إلى تينملّ لزيارة قبر أبيه أبي يوسف وزيارة ضريح آبائه وابن تومرت ؛ ثم رجع إلى مراکش ، وأقام إلى أول سنة ٦٠٩ ، فتجهز بجيوش ضخمة حتى أتى مدينة فاس ونزل بها ، وأشاع أنه يقصد أفريقية - هذا بعد أن بلغه أن الميرقي استولى على مدينة تونس وقبض على الوالي عليها عبد الرحمن - فأقام بفاس ثلاثة أشهر وأياماً ، وبدا له أن يبعث بعثاً إلى جزيرة مبرقة . ليستأصل شأفة بني غانية ويقطع دابرهم ؛ فعمر الأسطول والطرائد فيها الخيل والرجال ؛ واستعمل على الأسطول عمه أبا العلاء إدريس بن يوسف ابن عبد المؤمن ، وعلى الجيش أبا سعيد عثمان بن أبي حفص من أشياع الموحدين ؛ فقصده الجزيرة هذان الرجلان ففتحها عنوة وقتلا عبد الله بن إسحاق بن غانية الأمير عليها (١) ؛ وكان الذي قتله رجلاً من الأكراد يقال له عمر المقدّم ؛ وذلك أنه حين نازله القوم خرج على باب من أبواب المدينة سكران ، فكبت به فرسه هذا ، فضربه هذا المذكور بسيفه حتى مات . وقيل إنه قتله بسيف نفسه .

وكان دخولهما مبرقة وقتلهما أميرها المذكور في شهر ذي الحجة من سنة ٥٩٩ هـ ، فانتهبأ أمواله ، وسببأ حرمة . ودخلا بهم مدينة مراکش على الجمال في هيئة الأسارى ، فأما النساء فدُخلَ بهن ليلاً فجُعِلن في بعض الخانات

(١) انظر ص ٣٥١ .

إلى أن نفذ الأمر بالمنّ عليهن وإطلاقهن وتزويج من تحتاج إلى التزويج منهن وتجهيزها بمال ؛ وأما الرجال فلم يزالوا في الحبس إلى أن منّ عليهم بعد أن ضمنهم أكابرهم واتخذوا أجناداً فهم كذلك إلى اليوم .
وبلغنى أن المتولين لفتحها انتهبوا منها أموالاً عظيمة وذخائر نفيسة .
ثم رجع أمير المؤمنين أبو عبد الله إلى مراکش ، وبها اتصل به خبر فتح مِرقَة ؛ وكان رجوعه إلى مراکش في ذى القعدة من السنة المذكورة .

[عبد الرحمن الجزوليّ الثائر]

وقد كان قبل هذا في سنة ٩٧ ، قام بسوس رجلٌ من جزولة اسمه عبد الرحمن ^(١) ، يعرف عندهم بما معناه بلسانهم « ابن الجزيرة » فدعا إلى نفسه ؛ واجتمع إليه خلق كثير ؛ واشتد خوف الموحدين منه ، فلم يزالوا يجهزون إليه العساكر بعد العساكر ، وفي كل ذلك يهزمهم ؛ إلى أن بعثوا بعثاً من الموحدين والغزّ وأصناف الجند ، بعد أن تقدموا إلى المصامدة والمجاورين للبلاد التي كان فيها ؛ وقالوا : إنما يقوى هذا الرجل بتغافلكم عنه ومُسامحتكم إياه ، ولو شتم لم يبق بالبلاد يوماً واحداً ! فتحركوا عند ذلك وأظهروا الحميّة ، والتّقوا هُم وأصحاب عبد الرحمن المذكور - وكان يدعى أبا قَصْبَة - فأسلمته جموعه ، وقتل وسير برأسه إلى مراکش ؛ فكتب إلى بعض إخواني ، وهو إذ ذاك صبي صغير كان مع أبيه بسوس - وكان أبوه من العمال من أهل جزيرة الأندلس من ناحية بلنسية - يخبرني

(١) يدعى أبا قصبَة .

بهذا الفتح قبل وصوله إلى من جهة كتاب الموحدين المتولين له ، ^(١) رسالة أولها :

« كُتِبَ من منزل سوس وقد تبلَّج فجرُ الفتح فأسفر ، وقال فريق الضلال وشيعته أين المقر ؟ وقد ألقى النصرُ جِرائه ، وأعزَّ الله حربَه المويَّدَ وأعوانه ؛ وشرَّح الحالَ على غاية الإيجاز ، لأجل الاستعجال في إنهاء هذه البشائر والانحياز ، أن الناكثين النابذين للعروة الوثقى ، المتمسكين بالسبب الأشقى ، حاصَرهم الموحدون - أنجدهم الله - أشدَّ الحصار ، وقطعوا عنهم موادَّ المعاش وزرافات الأنصار ؛ ولسانُ التأييد يتلو علينا بالعشي والإشراق : ما ينظرُ هؤلاء إلا صيحةً واحدةً مالها من فَوَاقٍ ؛ ولحين ما أخذَ الموحدون - أنجدهم الله - في حسم دائعهم الغضال ، وجردوا لهم من عزَماتهم الصادقة ما هو أمضى من النصال ، طاحوا مُجدلين بالحضيض ، وملاً جثمانهم الفضاء العريض ، وخيَّبَ الله ظنونهم الكاذبة وآمالهم ، وصيرهم إلى أمهم الهاوية فكانت أولى بهم ؛ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخطَ الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ؛ وأمكن الله من رأس ضلالهم المدعوُّ بأبي قصبَة ، فقهره الحزبُ المنصور وغلبه ، وحزَّ الحسامُ منه قُنةً ورقبة... » .

* * *

إنما أوردت هذه الرسالة هاهنا لغرابة شأن من وردت على منه ؛ وذلك أنه كان حين كتب بها إلى لم يحتلم بعد !

(١) انظر التقديم ص ١١ .

[فتح جزيرة منركة]

ومع اتصال هذا الفتح بهم ، اتصل معه فتحُ جزيرة مُنركة ؛ كان فيها من أصحاب ابن غانية رجلٌ اسمه الزُّبير بن نجاح ؛ دخلوها عليه فقتلوه ووجَّهوا برأسه إلى مراكش ، فهو معلقٌ بها مع رأس أبي قصبه المذكور .

[محاربة يحيى بن غانية بأفريقية]

ولما كانت سنة ٦٠١ ، تجهز أمير المؤمنين أبو عبد الله في جيوش عظيمة وقصد بلاد أفريقية ، وقد كان الميرق يحيى بن غانية قد استولى عليها ، خلا قسنطينة وبجاية ، هيأله ذلك غفلةً الموحدين عنه ، واشتغالُ أمير المؤمنين أبي يوسف بغزو الروم بالأندلس على ما قدمناه^(١) .

فسار أبو عبد الله حتى نزل بلاد أفريقية ؛ فما استعصى عليه بلد من بلادها خلا المهديّة ، مهديّة بنى عُبيد ؛ فإنه أقام عليها أربعة أشهر قبل أن دخلها ؛ أوجب ذلك ما قدمنا من شدة منعتها^(٢) .

وكان يحيى بن غانية قد ولي فيها ابن عمه لَحًا ، أبا الحسن عليّ بن عبد الله بن محمد بن غانية .

فلما طال عليه الحصار سلّم البلدَ وخرجَ بنفسه يقصد ابنَ عمه ؛ ثم بدا له أن يرجع إلى الموحدين ، فأرسل إليهم فتلقَّوه أحسن لقاءً ، ووصلوه من الصلات النفيسة بما لا قيمة له^(٣) ولا يصل بمثله إلا الخلفاء ؛ وبعد

(١) انظر ص ٣٥٦ وما بعدها .

(٢) انظر ص ٢٩٨ .

(٣) انظر التعليق رقم ١ ص ٣٢٦ .

هذا نزع إليهم أخو يحيى بن غانية ، سيرُ بن إسحاق بن محمد ؛ فأكرموا نُزُلُه وأقطعوه الأقطاع الواسعة بعد أن ملأوا يديه أموالاً^(١) .

ولم يزل أبو عبد الله أمير المؤمنين مقبلاً بأفريقية يُصلح ما أفسده ابن غانية ، إلى أن تم له ما أراد من ذلك .

وبلغنى أن جملة ما أنفق في هذه السفرة مئة وعشرون حملاً ذهباً .

ثم رجع إلى مراکش دار الملك ، بعد أن ترك بأفريقية من الموحدين وأصناف الجند من يقوم بحمايتها ويذود عنها من راميها ، واستعمل عليها من أشياخ الموحدين أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر إينتى^(٢) ، فأقام بمراكش^(٣) .

[انتفاض الهدنة بين الموحدين والفرنجة]

وكان رجوعه إليها في شهور سنة ٦٠٤ . فأقام بها - كما ذكر - إلى أول سنة ٦٠٧ . فانتقض ما بينه وبين الأذنفش - لعنه الله - من المهادنة . وبدأ له أن يقصد بلاد الروم للغزو ؛ فخرج بالجيش حتى عبر البحر ؛ وكان عبوره في شهر ذى القعدة من سنة ٧ المذكورة ، فسار حتى نزل إشبيلية على عادة من سلف قبله . فأقام بها بقية السنة المذكورة .

(١) انظر : حسن معاملة الموحدين لمن يغلبونهم من الملوك ، ص ٣٢٧ .

(٢) انظر ص ٣٩٣ .

(٣) يعنى أبا عبد الله .

[فتح شلبتره]

وتحرك في أول سنة ٨ فقصده بلاد الروم ؛ فنزل على قلعة عظيمة لهم في غاية المنعة تُدعى شَلْبَتْرَه^(١) - معناه بلسان العرب : الأرض البيضاء ، إلا أن فيه تقدماً وتأخيراً كما جرت العادة في لسان العجم - ففتحها بعد حصار وتضييق عليها شديد ؛ وكان أبوه قد نزل عليها قبل ذلك فحاصرها أياماً يسيرة ثم تركها شفقة على المسلمين وخوفاً عليهم ؛ فراع فتح هذه القلعة الروم ، وخامرهم الرعب ؛ وخرج الأدفنش - لعنه الله - إلى قاصية بلاد الروم مستنفرًا من أجابه من عظماء الروم وفرسانهم وذوى النجدة منهم ؛ فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن السام^(٢) حتى بلغ نفيـرُه إلى القسطنطينية ، وجاء معه صاحب بلاد أرغُن المعروف بالبرشونى^(٣) لعنه الله !

(١) Salvatierra وقد ذكرت في بعض المراجع العربية باسم سربطرة ، وشربطرة .

(٢) كذا بالأصل . وما يذكر في تاريخ هذه الفترة أن الفونس الثالث ملك قشتالة حين راعه تقدم الموحدين صوب بلاده ، وخشى أن تنال الأسبانيين على يد الناصر محمد ، هزيمة مثل هزيمة الأرك التي نالهم منذ بضع عشرة سنة على يدى أبيه المنصور يعقوب ، أوفد رسولا إلى البابا في رومية يستصرخه وبسالة أن يرسل أخصيه في الأمم الصليبية التي كانت في ذلك مولية وجهها شطر المشرق ، لكي تنظم حملة صليبية ضد المسلمين في الأندلس ، ولم يكتف ملك قشتالة باستصراخ البابا ، فأرسل مطران طايطة وعددا كبيرا من رجال الدين إلى فرنسا والبلاد الواقعة في شرقيها ، يبنون دعاية لحرب صليبية جديدة في اسبانيا . . .

وقد استجاب البابا ، كما استجاب الرعايا المسيحيون بين جبال البرانس وشواطئ البحر الأسود لهذا الصربخ ، فاجتمع على أرض الجزيرة جيوش من شتى بلاد أوروبا المسيحية ، ومن الجزر البريطانية ، فكان اجتماعها تمهيدا لوقعة العقاب التي يورد المؤلف خبرها فيما بعد ، والتي كانت هزيمة المسلمين فيها سببا إلى كل ما توالى بعدها من التكتبات على مسلمى الأندلس ؛ (٣) هو بيدرو الثاني ملك أرجون ، وقد عقد في تلك الفترة حلفا مع ألفونس الثالث ملك قشتالة .

[أشهر الإمارات الإسبانية في ذلك العهد]

وذلك أن جزيرة الأندلس يملك جهاتها الأربع أربعة ملوك من الروم :
إحدى الجهات تسمى أرغون - وهي التي ذكرنا - وهي شرق الجزيرة
مما يقابل الجنوب منها .

والجهة الأخرى - وهي المملكة الكبرى - بلاد تسمى بلاد قشتال ،
يملكها الأدفنش لعنه الله ؛ وحد هذه الجهة فيما بين الجنوب والشمال ،
أميل إلى الجنوب قليلا .

والجهة الأخرى تسمى ليون ، فهو أول الحد الشمالى المغربى ،
يملكها رجل يدعى بالبيوج^(١) ؛ ومعنى هذا الاسم بالعربية : الكثير
اللعب !

والجهة الأخرى في الشمال مما يلي البحر الأعظم ، بحر أقيانس^(٢) ،
يملكها رجل يعرف بابن الريق ، وقد تقدم ذكره في مواضع من هذا
الكتاب^(٣) .

والجزيرة بأسرها ، أغنى جزيرة الأندلس ، تسمى في قديم الدهر عند
الروم جزيرة إسبانية .

* * *

(١) ملك ليون في تلك الفترة هو العونس لناسع .

(٢) يعنى مملكة البرتغال .

(٣) انظر ص ٣٣٠ ، و ص ٣٥٦ ، ويعنى المؤرخون العرب بابن الريق ، أو ابن الريك : ملك
البرتغال العونس هنريكيث ، وهم يطلقون هذه التسمية على كل من ملكها من ولده ، وقد كان ملك
البرتغال في ذلك العهد ، شانجه الأول هنريكيث المذكور ، ويقلب على الظن أن كلمة « ابن الريق »
هذه هي تحريف كلمة « هنريكيث » مع شيء من الترخيم .

وبعد رجوع أمير المؤمنين أبي عبد الله من هذا الفتح المتقدم الذكر إلى إشبيلية ، استنفر الناس من أقاصى البلاد ، فاجتمعت له جموع كثيفة ، وخرج من إشبيلية في أول سنة ٦٠٩ ، فسار حتى نزل مدينة جيّان ؛ فأقام بها ينظر في أمره ويعيئ عساكره ، وخرج الأذفنش - لعنه الله - من مدينة طابطة في جموع ضخمة ، حتى نزل على قلعة رباح - وهى كانت للمسلمين ، افتتحها المنصور أبو يوسف في الوقعة الكبرى^(١) - فسلمها إليه المسلمون الذين بها بعد أن أمنتهم على أنفسهم ؛ فرجع عن الأذفنش - لعنه الله - بهذا السبب من الروم جموع كثيرة ، حين منهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة ، وقالوا : إنما جئنا لتفتتح بنا البلاد وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين ؛ ما لنا فى صحبتك من حاجة على هذا الوجه !

[وقعة العقاب وهزيمة المسلمين]

وخرج أمير المؤمنين من مدينة جيّان ، فالتقى هو والأذفنش بموضع يعرف بالعقاب ، بالقرب من حصن يدعى حصن سالم ؛ فعبأ الأذفنش جيوشه ورتب أصحابه ، ودّمهم المسلمين وهم على غير أهبة ؛ فانهزموا ، وقُتل من الموحدين خلق كثير^(٢) .

(١) يعنى وقعة الأرك ، انظر ص ٢٥٨ .

(٢) بلغ عدد القتلى من المسلمين فى هذه المعركة مئات الآلاف ، يقول الكثير ان عددهم بلغ خمسمئة ألف ، والقتل انهم مئة ألف ، ولم يجر على مسلمى الأندلس فى تاريخهم الطويل مثل ما جرى عليهم فى هذه الوقعة المشنومة التى كانت نذيرا بنهاب ملكهم وانقراض عقبهم فى تلك الجبلاد بعد ذلك التاريخ !

وأكبر أسباب هذه الهزيمة اختلاف قلوب الموحدين ؛ وذلك أنهم كانوا على عهد أبي يوسف يعقوب يأخذون العطاء في كل أربعة أشهر ، لا يخل ذلك من أمرهم ؛ فأببطاً في مدة أبي عبد الله هذا عنهم العطاء ، وخصوصاً في هذه السفرة ، فنسبوا ذلك إلى الوزراء ؛ وخرجوا وهم كارهون ؛ فبلغني عن جماعة منهم أنهم لم يسلّوا سيفاً ولا شرعوا رمحاً ولا أخذوا في شيء من أهبة القتال ؛ بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم قاصدين لذلك وثبت أبو عبد الله هذا في ذلك اليوم ثباتاً لم يرَ لملك قبله ، ولولا ثباته هذا لاستوصلت تلك الجموع كلها قتلاً وأسراً !

ثم رجع من هذا الوجه إلى إشبيلية ، وأقام بها إلى شهر رمضان من هذه السنة ، ثم عبر البحر قاصداً مدينة مراکش ... وكانت هذه الهزيمة الكبرى على المسلمين ، يوم الاثنين منتصف صفر الكائن في سنة ٦٠٩ .

وفصل الأذفنش - لعنه الله - عن هذا الموضع بعد أن امتلأت يده وأيدي أصحابه أموالاً وأمتعة من متاع المسلمين ؛ فقصد مدينتي بياسة وأبذة ؛ فأما بياسة فوجدتها أو أكثرها خالية ^(١) ، فحرق أذورها وخرّب مسجدها الأعظم ؛ ونزل على أبذة وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كثير من المنهزمة وأهل بياسة وأهل البلد نفسه ؛ فأقام عليها ثلاثة عشر يوماً ، ثم دخلها عنوة فقتل وسبى وغنم ؛ وفصل هو وأصحابه من السبي

(١) لم يكن في بياسة سوى طائفة من المرضى والضعفاء قد لجئوا إلى مسجد المدينة ينتظرون مصيرهم ، فاجهز عليهم النصصاري وخرّبوا المسجد !

من النساء والصبيان بما ملثوا به بلاد الروم قاطبة ؛ فكانت هذه أشدَّ على المسلمين من الهزيمة !

[وفاة الناصر محمد]

ولم يزل أمير المؤمنين أبو عبد الله مقيماً بمراكش بقية سنة ٩ وأشهرًا من سنة ١٠ إلى أن توفى في شهر شعبان كما قدمنا ؛ واختلف علينا في سبب وفاته^(١) ؛ فأصحُّ ما بلغني أنه أصابته سكتة من ورم في دماغه ؛ وذلك يوم الجمعة لخمس خلون من شعبان ؛ فأقام ساكنًا لا يتكلم يوم السبت والأحد والاثنين والثلاثاء ؛ وأشار عليه الأطباء بالفصد فأبى ذلك ؛ وتوفى يوم الأربعاء لعشر خلون من شهر شعبان من سنة ٦١٠ ، ودفن يوم الخميس ؛ صلى عليه خاصة الحشم !

(١) يروى ابن خلكان عن بعض المغاربة أن الناصر أوصى عبيده المشتغلين بحراسة بستانه في مراكش أن كل من ظهر لهم بالليل فهو مباح الدم لهم ، ثم أراد أن يختبر قدر أمره فتنكر وجعل يمشى في البستان ليلا ، فعندما راوه جعلوه غرضا لرماحهم ، فجعل يقول : أنا الخليفة ! أنا الخليفة ! فما تحققوه حتى هلك .

ذكر ولاية أبي يعقوب يوسف بن محمد

هو يوسف بن محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي^(١) ، أمه أم ولد رومية اسمها قمر ، تُلَقَّبَ حكيمة ؛ كانت ولادته في صدرشوال من سنة ٥٩٤ ؛ قبل وفاة جده أبي يوسف بأربعة أشهر .
بُوع له وسنه يومئذ ست عشرة سنة ، لا أعلم له ولداً لحدائنه ؛ ثم اتصل بي في شهور سنة ٦٢١ أن يوسف هذا تُوفِّي في أحد الشهرين من شوال أو ذى القعدة سنة ٢٠ ، فكانت مدة ولايته من يوم بُوع له - وذلك لأحد عشر يوماً خلت من شعبان من سنة ٦١٠ - إلى أن توفي كما ذكر في في التاريخ المذكور ، عشرة أعوام وشهرين .

صفته

كان صافي السمرة ، مستدير الوجه ، شديد الكحل ، يشبّهونه بجده أبي يوسف في أكثر خلقه وخلقه .

وزرائه:

أبو سعيد - المتقدم الذكر -^(٢) وزير أبيه ؛ استمرت وزارته إلى آخر سنة ٦١٥ .

(١) لقبه المبتنصر بالله .

(٢) هو أبو سعيد عثمان بن جامع ، انظر ص ٣٨٩ .

ثم عزله وولى بعده رجلا اسمه زكريا بن يحيى بن أبى إبراهيم إسماعيل
الهرجى صاحب ابن تومرت والمقتول فى حياة عبد المؤمن كما تقدم^(١)
أم هذا الوزير هى بنت أبى يوسف المنصور ؛ فهو وزيره إلى أن توفى
كما ذكر .

حجابه :

مبشر الخصى حاجب أبيه^(٢).

ثم حجبه بعده فارح الخصى ؛ يكنى أبا السرور ؛ فلم يزل حاجباً له إلى
أن توفى كما قيل .

قضاته :

أبو عمران موسى بن عيسى بن عمران قاضى أبيه^(٣) ؛ لم يزل
أبو عمران هذا قاضياً له إلى أن توفى كما قيل .

كتابه :

أبو عبد الله بن عياش كاتب أبيه وجده^(٤) .
وأبو الحسن بن عياش .

(١) انظر ص ٣٠٣ - ٣٠٥ .

(٢) انظر ص ٣٩٠ .

(٣) انظر ص ٣٩٢ .

(٤) انظر ص ٣٣٨ و ٣٩١ .

ثم اتصلت بي وفاة هذين الكاتبين وأنا بالديار المصرية في شهور سنة ٦١٩ ، وأنهم استعادوا أبا عبد الله محمد بن يَحْلُفَتَنَ الفازازي المتقدم الذكر في كتاب أمير المؤمنين أبي عبد الله ^(١) ؛ وكان قاضياً بمدينة مرسية من شرق الأندلس ، وبها فارقتُه ؛ فأعادوه إلى الكتابة كما كان .

واستكتبوا معه أبا جعفر أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عياش . أبوه هو كاتبهم المشهور بكتابتهم ، وقد تقدم ذكره في كتاب ثلاثة أمراء منهم ^(٢) .

وكاتب الجيش أحمد بن منيع ؛ لم يتغير .

بيعته :

بويح لأبي يعقوب هذا يوم دفن أبيه ، لا أدري أبعد أبيه إليه أم لا ؛ لأنني أعلم أن أباه كان كثير الانحراف عنه في آخر أيامه ؛ لما كان يسمع من سوء أخباره .

والذين قاموا ببيعته من القرابة : أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن ، عمُّ جدِّه الذي دخل عليه الميرقيون ^(٣) بجاية ، وهو آخر من بقى من ولد عبد المؤمن لصلبه ، لم تبلغني وفاته إلى وقتنا هذا .

وأبو زكريا يحيى بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن .

(١) انظر ص ٣٩١ .

(٢) هو أبو عبد الله المذكور قبل بضعة أسطر ، كتب له ، ولأبيه ، ولجده .

(٣) انظر ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .

كانا قائمين على رأسه يأذنان للناس .

ومن الموحدين : أبو محمد عبد العزيز بن عمر بن أبي زيد الهنتاني - كان أبوه أولَ وزير وزر لأبي يوسف ، وقد ذُكر^(١) .

وأبو علي عمر بن موسى بن عبد الواحد الشريقي^(٢) .

وأبو مروان عبد الملك بن يوسف بن سليمان ، من أهل تينمل .

وبويع البيعة الخاصة يوم الخميس ، ويوم الجمعة بايعه أشياخ الموحدين والقراية ، وفي يوم السبت أذن للناس عامة .

شهدتُ ذلك اليوم^(٣) وأبو عبد الله بن عياش الكاتب قائمٌ يقول للناس : «تبايعون أمير المؤمنين ابن أمراء المؤمنين على ما بايع عليه أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولَ الله ، من السمع والطاعة في المنشط والمكروه واليسر والعسر والنصح له ولولائه ولعامة المسلمين ؛ هذا ماله عليكم ولكم عليه : ألا يُجَمَّرَ بَعُوْثُكُمْ ، وألا يدخر عنكم شيئاً مما نفعكم مصلحته ، وأن يعجل لكم عطاءكم ، وألا يحتجب دونكم ؛ أعانكم الله على الوفاء وأعانه على ما قُلْدَ من أموركم .» .

يعيد هذا القول لكل طائفة ، إلى أن انقضت البيعة .

ثم اتصلت وفادة أعيان البلاد ورؤسائها ووجوه القبائل عليه للبيعة إلى أن تم له الأمر .

(١) انظر ص ٣٣٧ .

(٢) انظر ص ٢٤٨ .

(٣) انظر التقديم ص ١٣ .

[فاطمى من سلالة ملوك القاهرة يثور بمراكش]

ولأربعة أشهر من ولايته قُبض على رجل كان قد ثار عليهم يدعى أنه
[من بنى عبيد ويقول إنه ولد العاضد لصلبه^(١)] ، اسمه عبد الرحمن .

كان قد ورد البلاد فى حياة أبى يوسف أيام كونه بإشبيلية ورام
الاجتماع به فلم يأذن له ؛ وأقام بالبلاد مطرَحاً إلى أن حبسه أمير المؤمنين
أبو عبد الله فى شهر سنة ٥٩٦ ، فلم يزل فى الحبس إلى أن كانت سنة
٦٠١ وتحرك أمير المؤمنين إلى أفريقية ؛ شفع له فيه أبو زكريا يحيى
بن أبى إبراهيم الهزرجى ، فأطلقه له بعد أن ضمن عنه أنه لا يتحرك فى
أمر يكرهونه ؛ فلم يُقم هذا العبيدى بمراكش إلا أياماً يسيرة بعد خروج
أمير المؤمنين أبى عبد الله ، ثم خرج وقصد بلاد صنهاجة ، فالتفت
عليه منهم جماعة وانتشر له فيهم تعظيم ؛ لأن هذا الرجل كان كثير
الإطراق والصمت ، حسن الهيئة ؛ لقيته مرتين فلم أر فى أكثر من
شهادته من المشبهين بالصالحين مثله فى الآداب الظاهرة ، من هدوء النفس
وسكون الأطراف ووزن الكلام وترتيب الألفاظ ووضع الأشياء مواضعها ،

(١) العاضد : آخر ملوك العبيديين فى القاهرة ، غلبه بنو أيوب على عرش مصر ، ولكنهم
لم يعزلوه ، بل صابروه حتى مات حتف أنفه سنة ٥٦٧ ، فاستقل من يومئذ صلاح الدين
الأيوبى بملك البلاد وانتهى عهد العبيديين .

وقد مات العاضد شاباً فى الحادية والعشرين ، وليس يعرف له ولد من صلبه ، وقد حكى
بعض المؤرخين أنه منع أن يتصل بنسائه وجواريه لينقطع بموته نسب بنى عبيد فلا يطالب
بعرش البلاد أحد منهم ، ولكن ذلك لم يمنع ظهور أذعياء يزعمون أنهم من صلبه ليجعلوا ذلك
سبباً إلى الملك ، وقد ظهر دعى من هؤلاء فى القاهرة بعد سنين من موت العاضد ، ولكن دعواه
لم تجد تأييداً .

مع الرياضة المفرطة . ثم قصد مدينة سجلماسة في حياة أمير المؤمنين أبي عبد الله بجيش عظيم ، فخرج إليه مُتَوَلِّيًا السيد أبو الربيع سليمان بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن ؛ فهزمه العبيدُ المذكور وأعادَه إلى سجلماسة أسوأ عَوْد ؛ ولم يزل ينتقل في قبائل البربر من موضع إلى موضع ، وفي ذلك كُلُّه لا يستقيم له أمر ولا تثبت عليه جماعة ؛ أوجِبَ ذلك كونه غريبَ البلد واللسان ، لا عشيرة له ولا أصل بالبلاد يرجع إليه ؛ إلى أن قبض عليه بظاهر مدينة فاس ؛ لم يبلغني تفصيلُ قضية القبض عليه ؛ وكتب إلى أمير المؤمنين متولّي فاس أبو إبراهيم إسحاق بن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، يُعلمه بالقبض عليه وبكونه عنده في سجنه ؛ فكتب إليه يأمره بقتله وصَلْبِه ، فضرب عنقه وصلب جسده ووجَّه برأسه إلى مراکش ؛ فهو معلق هناك مع عدة رؤوس من الثوار والمتغلبين .

[عود إلى الحديث عن أبي يعقوب الثاني]

ولم يغيّر أبو يعقوب هذا على الناس شيئاً من سير آبائه ، ولا أحدث أمراً يتميز به عن كان قبله ؛ خلا أنّي رأيت كل من يعرفه من خواص الدولة قد ملئ قلبه منه رعباً ؛ لما يعلمون من شهامته وشدة تيقُّظه .

لقيته وجلستُ بين يديه خالياً به ^(١) ، وذلك في غرة سنة ٦١١ ؛ فرأيت - من حدة نفسه وتيقُّظ قلبه وسؤاله عن جزئياتٍ لا يعرفها أكثرُ

(١) انظر التقديم ص ٦ و ٩ .

السوق فكيف الملوك - ما قضيتُ منه العجب ؛ وإلى وقتنا هذا لم يظهر منه شيء مما يُتوقع .

[نائران آخراڻ على أبى يعقوب الثانى]

وثار فى أيام يوسف هذا - بعد قتل العبيدى - رجلاڻ : أحدهما ببلاد جزولة من سُوس ، كان يُدعى بالفاطمى ؛ قُتل وجيء برأسه إلى مراكش فى شهور سنة ٦١٢ وأنا يومئذ بجزيرة الأندلس ؛ لم يبلغنى تفصيلُ أمره لبعدى عن الحضرة ، غير أنى رأيتهم أعظموا الفرح بأخذه وقتله .

والآخر من صُنهاجة ، قتل فى سنة ٦١٨ بعد أن أثر آثارا قبيحة فيما بلغنى وهزم بعوثا عدة واستفسد خلقا كثيرا .

بلغنى هذا كله وأنا بالبلاد المصرية فى التاريخ المتقدم^(١) .

وكان الذى تولى قتلَ هذا الرجل والإراحة منه وحسَم الخلاف الواقع بسببه . السيد الأجلُّ أبَا محمد عبد العزيز ابن أمير المؤمنين أبى يعقوب ابن عبد المؤمن بن على ، وهو يومئذ والٍ على مدينة سجلماسة وأعمالها .

[وفاة أبى يعقوب الثانى]

ثم اتصل بى فى هذه السنة - وهى سنة ٦٢١ - أن أبَا يعقوب أمير المؤمنين توفى فى أحد الشهرين من شوال أو ذى القعدة من سنة ٦٢٠ ولم

(١) انظر التقديم ص ٧ .

يبلغنى كيفية وفاته^(١) ؛ فاضطرب الأمر واشرباً الناس للخلاف .

[ولاية أبى محمد عبد العزيز بن أبى يعقوب الأول]

ثم ذكر لى أن عامتهم ومعظمهم اجتمعوا على تقديم السيد الأجل أبى محمد عبد العزيز^(٢) ابن أمير المؤمنين أبى يعقوب يوسف ابن أمير المؤمنين أبى محمد عبد المؤمن بن على ، رحمهما الله ونصر وجوههما وجزاهما خيراً عن صلاحهما وإصلاحهما !

وأبو محمد عبد العزيز هذا من أصاغر أولاد أبى يعقوب ؛ أمه حرة اسمها مريم ، صنهاجية من أهل قلعة بنى حماد ، تزوجها أمير المؤمنين أبى يعقوب فى حياة أبيه ؛ وكانت سُبَيْتِ هى وأُمُّها ملكة فيمن سُبُوا من أهل القلعة ؛ فَأَعْتَقَهُمَا أبو محمد عبد المؤمن ، وزوج مريمَ هذه لابنه أبى يعقوب ، فولدت له ثمانية من الولد ؛ أربعة ذكور ، وأربع بنات ؛ فالذكور هم : إبراهيم ، وموسى ، وإدريس ، وعبد العزيز هذا المذكور ، وهو أصغرهم ؛ توفى موسى بظاهر مدينة تاهرت ؛ قتله العرب أصحاب الميرق فى شهور سنة ٦٠٥ ؛ وتوفى إبراهيم منهم بإشبيلية وأنا بها فى شهور

(١) كان أبو يعقوب هذا - فيما يروى - شاباً كثير اللهو ، وكان من هواه أن يرعى الأبقار ويحاول رياضتها ، فبينما هو ذات يوم يحاول أن يروض بعض أبقاره هجمت عليه بقرة شمس وضربتة بقرنها فأصابته قلبه ، وكذلك كانت ميته ، فى الثالث عشر من ذى الحجة سنة ٦٢٠ على ما يحكى روض القرطاس .

(٢) فى غيره : أن الذى ولى عرش الموحدين بعد أبى يعقوب ، هو عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ، لا عبد العزيز . وكان من أولاد يوسف : عبد الواحد ، وعبد العزيز . انظر ص ٣١٨ .

سنة ٦١٢ ؛ وتوفي أبو العلاء إدريس منهم بأفريقية كما سيأتي ؛ والبنات هن : زينب ، ورقية ، وعائشة ، وعليه .

لم يتول أبو محمد عبد العزيز هذا شيئاً من أمرهم في حياة أبيه ، ولا في حياة أخيه أبي يوسف ؛ فلما ولي أبو عبد الله الأمر^(١) ولاء مدينة مالقة وأعمالها من جزيرة الأندلس^(٢) ؛ وذلك في شهر سنة ٥٩٨ ؛ ثم عزله عنها في شهر سنة ٦٠٣ ولاء أمر قبيلة هسكورة ، وهي ولاية ضخمة ؛ فلم يزل والياً عليها إلى أن عزله ولاء أمر سجلماسة ، فلم يزل والياً عليها بقية مدته ومدة ابنه أبي يعقوب ، إلى أن قتل هذا الثائر المتقدم الذكر^(٣) في ولاية أبي يعقوب ابن أبي عبد الله ؛ فعزله أبو يعقوب عن سجلماسة ولاء مدينة إشبيلية حين عزل عنها أخاه أبا العلاء ولاء أمر أفريقية ؛ فلم يزل أبو العلاء إدريس والياً بأفريقية إلى أن مات بها في رمضان من سنة ٦٢٠ على ما بلغني ، رحمة الله عليه .

فهذه جملة أخبار هذا الرجل ، أبي محمد عبد العزيز المذكور بالولاية

(١) يعني الناصر محمد بن أبي يوسف .

(٢) وردت العبارة الآتية في هامش المخطوطة مع إشارة إلى أن موضعها من صواب الكتاب بعد عبارة « ولاء مدينة مالقة وأعمالها من جزيرة الأندلس » ، وهذه هي العبارة :

« وبها عرفته وصاحبته ، على طريقه من التصوف »

وقد لاحظ دوزي أن المراكشي كان ما يزال في أفريقية حوالى سنة ٥٩٨ ، وأنه عبر إلى الأندلس في سنة ٦٠٣ ، وهي السنة التي يروى أن أبا عبد الله ولاء فيها أمر هسكورة ، وبناء على هذه الملاحظة يعتقد دوزي أن مقابلة المراكشي له كانت في سجلماسة من أفريقية لا في جزيرة الأندلس .

(٣) انظر ص ٤١٠ .

لأمرهم كما قالوا ؛ ولئن كان ما قالوا حقاً وتم هذا الأمر له ^(١) ، ليملأها خيراً وعدلاً ، ولتزكو الأرض وتخرج بركاتها ، ولترسلن السماء مدرارها ؛ بيمن نقيبته وحسن سيرته وحميد سريره ؛ هذا إذا ساعده الدهر وقيض الله له أعواناً صالحين ؛ فإنه - ما علمت - صوام قوام ، مجتهد في دينه ، شديد البصيرة في أمره ، قوى العزيمة ، شديد الشكيمة ، لاتأخذه في الحق لومة لائم ؛ أرطب الناس لساناً بذكر الله ، وأتلاهم لكتاب الله ؛ شهدته والولاية قد اكتشفته ، وأمور الرعية قد استغرقت أوقاته ، وهو في كل ذلك لا يخل بشيء من أوراده ، ولا يترك وظيفة من الوظائف التي رتبها على نفسه ، من أخذ العلم وقراءة القرآن ، وأذكار رتبها على أوقات الليل والنهار ؛ شهدت هذا كله منه بنفسى ، لا أنقله عن أحد ولا أستند فيه إلى رواية ؛ هذا مع دماثة خلقه ولين جانب وخفض جناح لأصحابه ولمن علم فيه خيراً من المسلمين أو ظنّه مُضافاً إلى سخاء نفس وطلاقة وجه .

صفته

أبيض تعلوه صفرة ، جميل الوجه جداً ، معتدل القامة ، متناسب الأعضاء ؛

وله من الولد - على علمى - ثلاثة : محمد ، وهو أكبرهم ؛ وعبد الرحمن ؛ وأحمد ؛ وبنات .

(١) يبدو من عبارة المراكشى أنه لم يكن على يقين بأن عبد العزيز قد ولى عرش المغرب بعد أبى يعقوب الثانى ، وفى شكه هذا ترجيح لما رواه غيره من أن صاحب العرش بعد أبى يعقوب هو عبد اللوح بن يوسف لا أخوه عبد العزيز .

هذا تلخيص التعريف بأخبار دولة المصامدة من أول قيام أمرهم - وهو سنة ٥١٥ - إلى وقتنا هذا - وهو سنة ٦٢١ - فذلك مئة سنة وست سنين ، على الإجمال لا على التفصيل .

وإنما أوردنا من ذلك ما تدعو الحاجة إليه ، وتُجشم الضرورة من غنى بالأخبار إلى معرفته ، من غير تعرض إلى ما لا حاجة بنا إليه ، من ذكر أولاد عبد المؤمن ، وأولاد أولاده ، وأولاد أولاد أولاده ، وتفاصيل أخبارهم في ولايتهم وعزلهم وأمهاتهم وكنابهم وحُجَابهم ووزرائهم ؛ إذ لو تتبعنا ذلك لخرج هذا المجموع عن حد التلخيص وَلَحِقَ بالكتب المبسوطة ؛ هذا على أننا لو كُفينا ضرورات المعاش وأعفينا من كد الزمان لأوردنا من ذلك ما أحاط به العلم وبلغته الرواية وحصلته المشاهدة .

* * *

ولم أثبت في هذه الأوراق المحتوية على دولة المصامدة وغيرها إلا ما حققته نقلا من كتاب ، أو سماعا من ثقة عدل ، أو مشاهدةً بنفسى ؛ هذا بعد أن تحرَّيتُ الصدق وتوخيت الإنصاف في ذلك كله ، وجهَدْتُ ألا أنقص أحدا ذرة ماله ، ولا أزيده خردلة مما لا يستحقه ؛ وبالله أستعين ، وإياه أسأل ، وإليه أضرع في إلهام الصواب والسداد في القول والعمل ، فهو حسبي ونعم الوكيل^(١)

(١) الى هنا ينتهى حديث المراكشى عن دولة الموحدين فى المغرب والأندلس ، لو أن الزمن تأخر به سنين قليلة لشهد خاتمة هذه الدولة ووصف لنا آخر أحداثها وكيف انتهى أمرها ، على أننا لا نبعد عن الحق كثيرا إذا زعمنا أن عبد العزيز - أو عبد الواحد - ابن يوسف بن

... ..

عبد المؤمن كان هو آخر أمراء الموحدين ، بل لعل الأقرب الى الحق أن نقول أن آخرهم هو أبو عبد الله محمد بن أبي يوسف الذي ولي العرش من سنة ٥٩٥ الى سنة ٦١٠ ، والذي كانت هزيمته الساحقة في وقعة العقاب أذاناً بانتهاء دولة الموحدين ، فقد كان ولده أبو يعقوب الثاني صبيًا ليس له أهلية ولا كفاية ، ولم يكن له - خلال السنوات العشر التي قضاها على العرش - أمر ولا نهى في شئون البلاد ، ثم لم يخلص بعده عرش الموحدين لواحد من بني عبد المؤمن وأذنت الدولة بالزوال ، واذن فإن من حقنا أن نقول أن عبد الواحد المراكشي قد انتهى في كتابه مع نهاية دولة الموحدين ، على أننا مع ذلك كنا نتمنى لو أن كتابه قد وصف لنا اللحظات الأخيرة التي كانت فيها دولة بني عبد المؤمن تلفظ آخر أنفاسها ، فيما بين سنتي ٦٢١ و٦٦٨ ، وأننا نحاول في هذا التعليق أن نستدرك هذا النقص الذي لم يتهيا لعبد الواحد أن يتمه ، بوصف الأحداث التي جرت خلال تلك السنين والتي انتهت بها الدولة ، فنقول :

ولاية ابن أبي يعقوب بن عبد المؤمن

لم يكد عبد الواحد - أو عبد العزيز - ابن أبي يعقوب يجلس على عرش المغرب بعد موت أبي يعقوب الثاني سنة ٦٢٠ ، حتى تفرق أمر بني عبد المؤمن واضطربت مطاعمهم حول العرش الموحدى ؛ فقام بالأندلس أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور ، أمير شرق الأندلس وأعلن نفسه أميراً على مرسية ، وتلقب بالعادل ؛ ثم أخذ يهيئ أسبابه للوثوب على مراكش ليستخلص العرش لنفسه ؛ وتم له ما أراد ؛ إذ ثار المغاربة على عبد الواحد - أو عبد العزيز - ابن أبي يعقوب ، فخلعوه وقتلوه ، بعد بضعة أشهر من ولايته !

... ..

ولاية العادل بن المنصور

ولكن عرش المغرب والأندلس لم يخلص للعادل بن المنصور ، كما لم يخلص من قبله لعمه ابن أبي يعقوب ؛ فقد ثار عليه المغاربة في مراكش كما انتقض عليه أمراء الموحدين في الأندلس ، وانتهى الأمر بقتله في سنة ٦٢٤ .

ولاية المأمون بن المنصور

وكان أبو العلاء إدريس بن المنصور ، أمير إشبيلية وأخو العادل ، هو مدبر تلك الفتنة ، طمعاً في العرش ؛ فلم يكد يعلم بمقتل العادل حتى ادعى الخلافة في إشبيلية وتسمى بالمأمون ؛ وبايعه أهل الأندلس .

المعتصم بن الناصر

ولكن المغاربة في مراكش لم يرتضوه خليفة ، وبايعوا شاباً من ولد أخيه الناصر محمد بن يعقوب ، اسمه أبو زكريا يحيى ، ولقبوه بالمعتصم ؛ فسار المعتصم هذا إلى الأندلس على رأس قوة من الجند لإخضاع عمه المأمون ؛ فالتقى في معركة دامية بشذونة ؛ فانهزم المعتصم وفرّ ناجياً بنفسه في طائفة قليلة من جنده .

وأتيحت الفرصة للمأمون ليجتاز المضيق إلى المغرب ويتسكن عرش

.....

مراكش ؛ ولكن المارك لم تفتقر بينه وبين المعتصم بن الناصر ، ولم يخلص له عرش البلاد ، حتى مات في ذى الحجة سنة ٦٢٩ .

خروج الأندلس عن طاعة الموحدين

وحين كانت المارك الطاحنة دائرة في المغرب بين المأمون وابن أخيه المعتصم ، كان النصارى يستولون على بلاد المسلمين في الأندلس حصناً بعد حصن ومدينة بعد مدينة !

وفي تلك الأثناء قام أمير من سلالة بني هود الجذاميين أصحاب سرقسطة السابقين (انظر ص ٤٨-٥٠) اسمه أبو عبد الله محمد بن يوسف ، فاستولى على مرسية وأعلن نفسه أميراً عليها ، وتلقب باسم المتوكل على الله ، وخطب للعباسيين خلفاء بغداد ، واتخذ السواد شعاراً : ثم لم يلبث أن دانت له جيان ، وقرطبة ، وماردة ، وبطليوس ، ثم فقد الموحدون غرناطة ، وبذلك خرجت الأندلس جملة من طاعة الموحدين ، عدا إشبيلية والجزيرة الخضراء .

ولاية الرشيد بن المأمون

وظن المعتصم بن الناصر أن عرش المغرب قد خلص له بعد موت المأمون ؛ ولكن أمانيه لم تلبث أن خابت ؛ إذ بايع أصحاب المأمون ولده الصبي أبا محمد عبد الواحد ، ولقبوه بالرشيد .

... ..
= واستمرت المعارك ناشبة بين المعتصم وابن عمه الرشيد ، حتى مات المعتصم
في رمضان سنة ٦٣٣ .
ثم مات الرشيد غريقاً في جمادى الآخرة سنة ٦٤٠ .

ولاية المعتضد بن المأمون

وولى العرش بعد الرشيد ، أخوه السعيد أبو الحسن على بن المأمون -
وتلقب بالمعتضد ؛ وفى عهده استشرى بنو زيّان أصحاب تلمسان ، وبنو مَرّين
ملوك المغرب فيما بعد ، إلى استخلاص عرش مراکش ...
وقد قُتل المعتضد هذا فى صفر سنة ٦٤٦ فى موقعة نشبت بينه وبين يحيى
ابن زيّان أمير تلمسان .

ولاية المرتضى أبى حفص بن إسحاق

ثم تولى بعد المعتضد ، أميرٌ من أحفاد أبى يعقوب يوسف ، اسمه
أبو حفص عمر بن أبى إبراهيم إسحاق ، وتلقب بالمرتضى ...

أبو دبوس الوائق

... ولكن العرش لم يخلص للمرتضى ؛ فقد خرج عليه أمير من أمراء
الموحدين اسمه أبو العلاء إدريس ، ويعرف بأبى دبوس ؛ وتلقب بالوائق ،

... ..

=وتحالف مع بني مَرِين ليعينوه على استخلاص العرش من يد المرتضى ، وسلم إليهم مدينة مراكش ثمناً لمعاونتهم ؛ ففر المرتضى ناجياً بنفسه ، ولكنه لم يستطع أن يفلت من أجله ؛ فمات قتيلاً سنة ٦٦٥ .

تغلب بني مَرِين

ولبت الواثق أميراً بعد المرتضى ثلاث سنين ، ثم أدركه أجله في معركة دارت بينه وبين بني مَرِين حلفائه السابقين ، في المحرم سنة ٦٦٨ ؛ وبموته انتهى حكم الموحدين في مراكش والأندلس ؛ ليبدأ تاريخ دولة بني مَرِين الذين غلبوا الموحدين على أمرهم في مراكش ، ودولة بني الأحمر أصحاب غرناطة الذين غلبوا المتوكل بن هود على ما بيده من شرق الأندلس !

(انتهى ما أضفناه الى حديث المؤلف عن دولة الموحدين) •

جامع سير المصامدة وأخبارهم وقبائلهم^(١) وأحوالهم في ظعنهم واقامتهم

قد قدمنا أن أول من صحب المهدي محمد بن تومرت ، عشرة أنفس ؛
وهم المسمون بالجماعة^(٢) .

أولهم عبد الواحد الشرقى على الصحيح .

ثم عبد المؤمن بن علي أمير المؤمنين^(٣) .

ثم عمر بن عبد الله الصنهاجي المعروف عندهم بعمر أزناج .

ثم فضكة بن ومزال ، سماه ابن تومرت : عمر ، وكناه أبا حفص ؛
انتشر من ظهر عمر هذا بشرٌ كثير ، وكان له عدّة من الولد ، منهم :
إبراهيم ، وإسماعيل ، ومحمد - أمُّ محمد هذا ابنة عبد المؤمن . ويحيى ،
وعيسى ، وموسى ، ويونس ، وعبد الحق ، وعثمان ، وأحمد ، وعبد الواحد ؛
كان عبد الواحد هذا يتولى أمر أفريقية ، ولاه أمرها أمير المؤمنين أبو عبد الله
سنة ٦٠٣^(٤) فلم يزل والياً عليها إلى أن مات بها يوم الخميس وهو أول
يوم من شهر محرم سنة ٦١٨ .

(١) من هنا نعود الى الكتاب في نصه الاصيل .

(٢) انظر ص ٢٥٥ .

(٣) انظر ص ٢٤٨ ، وهناك يقرر المراكشي - خلافا لما يذكر هنا - أن عبد الواحد أول من
صحبه بعد عبد المؤمن

(٤) انظر ص ٣٩٣ و ٣٩٨ .

وكان ابن تومرت يُسمَّى فَضْكَةَ هذا : المبارك ، ويقول : لا يزالون بخير ما بقى فيهم هذا الرجل أو أحدٌ من ولده ! فكان الأمر كما قال ، وانتفعوا به وبأولاده وأولاد أولاده ، وهو المشهور بعمر إينتى ، وقد تقدم ذكره فى مواضع من هذا الكتاب ؛ ولم يبق فى وقتنا هذا من ولده لصلبه سوى رجلٍ واحد اسمه عثمان ، فارقتُه بمدينة مرسية ، وبها ودَّعته حين ارتحلتُ إلى هذه البلاد ؛ وقد ولَّوه مدينة جِيَّان وأعمالها ؛ هذا آخر عهدى به ؛ ثم اتصل بى بديار مصر أنهم ولَّوه بلنسية ثم عزلوه عنها ، فلا أدرى أهو بالأندلس اليوم أو بمراكش ؟ وهو معدود عندى من جملة إخوانى ، رضى الله عنه وعنَّا وعن جميع المسلمين .

ثم يوسف بن سليمان .

وأخوه عبد الله بن سليمان .

وهما من أهل تينمل ، من قبيلة تدعى مَسْكَالَةَ حسبما تقدم^(١)

ثم أبو عمران موسى بن على الضرير ، صهر عبد المؤمن ، كان ضرير البصر ؛ كان عبد المؤمن يستخلفه على مراكش إذا سافر عنها^(٢)

ثم أبو إبراهيم اسماعيل الهزرجى ، وهو الذى أسلم نفسه للقتل وقَدى عبد المؤمن بذلك على ما تقدم^(٣) .

ثم رجل من أهل تينمل ، يعرف عندهم بابن بيجيت ، أنا شاك فى اسمه .

(١) انظر ص ٢٦٢ .

(٢) انظر ص ٣٠٨ .

(٣) انظر ص ٣٠٣ .

ثم أيوب الجديوي ، وهو الذي تولى قسمة الأقطاع بين الموحدين في أول الأمر .

فهؤلاء العشرة المسمون بالجماعة .

وبعض الناس يُعَدُّ فيهم أبا محمد وأسنار ، وهو رجل دَبَّاعٌ أسودٌ من أهل مدينة أغمات ، صاحب أبا عبد الله بن تومرت حين مرَّ بها ؛ فاختصه أبو عبد الله بن تومرت لخدمته لما رأى من شدَّته في دينه وكمَّانه لما يرى ويسمع ؛ فكان يتولى وضوءه وسواكه والإذن عليه للناس وحجابته والخروج بين يديه ؛ فلم يزل على ذلك إلى أن توفى ابنُ تومرت ، فكان يتولى خدمة ضريحه وضريح عبد المؤمن حين دفن هناك . توفى وأسنار هذا في صدر دولة يعقوب بعد أن علتُ سنه ؛ وكان من العباد المجتهدين والزُّهاد المتبتلين ؛ لم يكتسب شيئاً ولا خلَّف ديناراً ولا درهماً ، مع أنه لو شاء لكان أكثرَ الناس مالاً ، لمكانه من عبد المؤمن ومن المصامدة ، لما كانوا يعلمون من قُربه من صاحبهم وثنائه عليه في أكثر الأوقات .

وانضاف إلى هؤلاء القوم المسمَّين بالجماعة خلقٌ من قبائلهم فعُدُّوا فيهم ونسبوا إليهم .

وأول من يعترض في العرض العام ، ولدُ عمر بن عبد الله الصنهاجي ، ثم فرُّس عبد المؤمن أو من كان من ولده يتولى الأمر ، ثم سائرُ أهل الجماعة على طبقاتهم من سَبَقٍ وإبطاء ، ثم أهل خمسين ، وهم خلقٌ كثير .

ذكر قبائل الموحدين

وقبائل الموحدين الذين يجمعهم هذا الاسم ويعمهم - وهم الجند والأعوان والأنصار ومن سواهم من سائر البربر والمصامدة رعية لهم وتحت أمرهم ، سَبْعُ قبائل :

أولهم قبيلة ابن تومرت ، وهي قبيلة تُسمى هرغة ، وهي قليلة العدد بالنسبة إلى قبائل الموحدين .

ثم قبيلة عبد المؤمن ، تُسمى كُومية ، وهي قبيلة كثيرة العدد جَمَّةُ الشعوب ، لم يكن لها في قديم الدهر ولا في حديثه ذِكر في رئاسةٍ ولا حَظٌّ من نياحةٍ ، إنما كانوا أصحابَ فلاحه ورُعاة غنم وأصحابَ أسواق يبيعون فيها اللبن والحطب وسوى ذلك من سقط المتاع ؛ فتبارك المعزُّ المذل المعطى المانع ؛ فأصبح القوم اليوم وليس فوقهم أحد ببلاد المغرب ولا تُطاوَل أيديهم يَدُ بكون عبد المؤمن منهم ؛ هذا على أنه - كما قدمناه - ينتسب إلى غيرهم ^(١) .

ثم أهل تينمل ، وهم قبائل شتى يجمعها اسمُ هذا الموضع . ثم هَنَاتَاتَة ، وهي أيضاً قبيلة ضخمة جداً ، وفي بعضها رئاسة وشرف في الدهر القديم .

ثم جِنْفَيْسَة ، وهي قبيلة عزيزة منيعة ، ولغتها أجودُّ اللغات وأفصحها في ذلك اللسان .

(١) انظر ص ٢٦٥ .

ثم جَدَمِيَّوَه ، وليست كلها - بل بعضها - رعية :

ثم من استجاب للموحدين من قبائل صُنْهَاجَة .

ثم بعض قبائل هَسْكَوْرَة ...

فهذه جملة قبائل الموحدين المستحقين لهذا الاسم عندهم ، والذين يأخذون العطاء وتجمعهم الجيوش وينفرون في البعوث ؛ وغير هؤلاء القبائل من المصامدة رعية .

[حدّ بلاد المصامدة]

وإذ قد جرى ذكرهم - أعني المصامدة - على هذا النسق ، فلنذكر لك الآن - حفظك الله وأصلحك وأصلح بك - القبائل التي يجمعها هذا الاسم ، أعني المصامدة ، وحدّ بلادهم ؛ لتعرفهم ممن سواهم من البربر .

فحدّ بلادهم النهر الأعظم الذي يصب من جبال صُنْهَاجَة وينتهي إلى البحر الأعظم ، بحر أقيانس ، يدعى هذا النهر أمّ ربيع ، عليه قبيلتان ، إحداهما تسمى هَسْكَوْرَة ، وأخرى صُنْهَاجَة ؛ وهما من المصامدة ؛ وآخر بلادهم الصحراء التي تسكنها قبائل لَمْتُوْنَة ومسوفة وسَرْطَة ؛ وهؤلاء ليسوا مصامدة ؛ وقد كانت المملكة في هذه القبائل أيام المرابطين كما تقدّم فهذا حدّ بلاد المصامدة عَرَضاً .

وحدّها طولاً من الجبل المعروف بِدَرَنْ^(١) إلى البحر الأعظم المسمى

(١) جبال اطلّس .

أقيانس ؛ وقبائلها الذين ينطلق عليهم هذا الاسم : هسكورة ، وصنهاجة ، ودكالة ، وحاحة ، ورجراجة ، وجزولة ، ولمطة ، وجنفيسة ، وهنتانة ، وهرغة ، وقبائل أهل تينمل ؛ وحول مراکش قبائل منهم أيضاً ، وهم : هزمير ، وهيلانة ، وهزرجة ؛ يدعؤونهم الموحدون بالقبائل (١).

فهؤلاء الذين يجمعهم اسم المصامدة ، ثم يجمع الكل جنس البربر ، من طرابلس المغرب إلى أقصى سوس وما وراء ذلك ممن ذكرنا ، من لتونة ومسوفة وسرطة ؛ وآخر بلادهم أول حد بلاد السودان .

وللمصامدة بعد هذا جند من سائر أصناف الناس ، كالعرب ، والغز ، والأندلس ، والروم . وقبائل من المرابطين ، وغيرهم .

[أصناف الموحيدين]

ثم من ذكرنا من الموحيدين صنفان :

فالصنف الأول يدعون الجموع ، وهم المرتزقة الذين يكونون بمراكش لا يبرحونها .

والصنف الآخر يدعون العموم ، وهم الكائنون ببلادهم لا يحضرون إلى مراکش إلا في النفير الأعظم .

وعدد المرتزقة الذين بمراكش من قبائل الموحيدين وسائر من ذكرنا من الأجناد - على ما صحّ عندي تلخيصه - عشرة آلاف نفس ؛ هؤلاء الذين

(١) كذا بالأصل ، والفصيح : يدعوهـم الموحدون ٠٠٠ الخ .

بمراكش خارجاً عما في سائر البلاد من الموحدين وأصناف الجند .
وإذا كان العَرَضُ العامَ فأول من يعترض ذريةُ أبي حفص عمر الصنهاجى
على طبقاتهم فى أسنانهم ، ثم بعدهم فرَسُ الخليفة من بنى عبد المؤمن ، ثم
أهل الجماعة على ترتيب طبقاتهم ، ثم أهل خمسين ، ثم القبائل .
وأولهم عَرَضاً هرغةُ قبيلةُ ابن تومرت ، ثم بعدهم أهل تينملّ ، ثم كومية
ثم الموحدون بعد هذا على طبقاتهم فى سرعة الهجرة وبُطْئها .

(صفة أحوالهم فى السفر والحضر)

وقد جرت عادتهم بالكُتُبِ إلى البلاد واستجلاب العلماء إلى حضرته من
أهل كلِّ فن ، وخاصة أهل علم النظر . وسُمُّوهم طلبَةَ الحَضَرِ ، فهم يكثرُونَ
فى بعض الأوقات ويقولُونَ ؛ وصنف آخر من عُنى بالعلم من المصامدة يسمُونَ
طلبَةَ الموحدين .

ولابد فى كل مجلسٍ عام أو خاص يجلسه الخليفة منهم من حضور
هؤلاء الطلبة الأسيّاخ منهم ؛ فأول ما يفتتح به الخليفةُ مجلسه مسألة
من العلم يُلقِيها بنفسه أو تُلقَى بإذنه ؛ كان عبد المؤمن ويوسف ويعقوب
يُلقُونَ المسائلَ بأنفسهم .

ولا ينفصلون من مجلس من مجالسهم إلا على الدعاء : يدعو الخليفة
ويؤمن الوزير جهراً يُسمع من بُعد من الناس .

ثم إذا سافروا لا يزال القرآن يُقرأ بين أيديهم بالغدو والعشي رُكبناً .

وإذا نزلوا فأولُ شيء يصنعونه في أول النهار بعد صلاتهم الفجر أن يخرج من ينادى : « الاستعانة بالله والتوكلُ عليه ! » هذه عندهم للركوب ؛ فحينئذ يركب الناس ، ويخرج الخليفة من خيمته راكباً وأعيانُ القراية وأشياخُ الموحدين بين يديه مُشاة خطواتٍ كبيرة ؛ ثم يأمرهم بالركوب ؛ فإذا ركبوا وقف وبسط يديه ودعا ، فإذا فرغ الدعاء افتتح القراءة طلباً الموحدين خلفه ؛ فيقرءون حزباً من القرآن في نهاية الترتيل وهم سائرون سيراً رفيقاً ، ثم شيئاً من الحديث ، ثم يقرءون تواليف ابن تومرت في العقائد بلسانهم وباللسان العربي ، فإذا فرغوا وقف الخليفة أيضاً وبسط يديه ودعا ؛ وإذا كان وقتُ النزول أيضاً نزلوا مشاةً بين يديه إلى خيمته ؛ فإذا بلغها بسط يديه ودعا ؛ فلا يزال هذا دأبهم في جميع سفرهم كله .

صفة أحوالهم في إقامة الجمعة

فأما صفة أحوالهم وخطبتهم في جُمُعِهِمْ ، فيخرج الخليفة منهم عند زوال الشمس من خوخة في القبلة ، ويخرج معه خواص حشمه ، ويركع ركعتين ثم يجلس ؛ فيقرأ قارئٌ قَدَرُ عَشْرِ آيات ، حَسَنُ القراءة حَسَنُ الصوت ؛ ثم يقوم رئيسُ المؤذنين ومعه العصا التي يتوكأ عليها الخطيب فيقول : « قد فاء الفىء يا سيدنا أمير المؤمنين ، والحمد لله رب العالمين ! »

يريد بهذا القول استدانه في صعود الخطيب المنبر ، فيقوم الخطيب ويصعد المنبر ، ثم يناوله ذلك الرجل العصا ؛ فإذا جلس الخطيبُ

فوق المنبر أَدْن ثلاثَةٌ من المؤذنين مفترقين ، أصواتُهم في نهاية الحسن ،
قد انتُخبُوا لذلك من البلاد ؛ ثم يقوم الخطيب فيخطب ، فأول شيء
يقول :

« الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات
أعمالنا ، من يَهْدِ الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضِلَّ فلا هاديَ له ؛ ونشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ أرسله
بالحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة ؛ من يطع الله ورسوله فقد رَشِدَ ،
ومن يعص الله ورسوله فلا يَضُرُّ إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً ؛ أسأل الله ربنا
أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله ، ويتبع رضوانه ويجتنبُ سخطه ؛
فإنما نحن به وله ... » .

ثم يتعوذ ويقرأ سورة قاف من أولها إلى آخرها ، ثم يجلس .
فاذا قام إلى الخطبة الثانية قال :

« الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونتوكل عليه ، ونبرأ من الحول
والقوة إليه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً
عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه ففاتوا
الأنام جِداً وعَزَماً ، وأنفَدُوا وشَعَهُم في نصره والصبرِ على ما أصابهم فيه
وفاءً وصِدْقاً وحَزَماً ، وعلى الإمام المعصوم المهديِّ المعلوم أبي عبد الله
محمد بن عبد الله العربي القرشي الهاشمي الحسني الفاطمي المحمدي ،
الذي أُيدَ بالعصمة فكان أمره حتماً ، واكْتُنِفَ بالنور اللائح والعدل
الواضح الذي يملأُ البسيطة حتى لا يَدَعُ فيها ظلاماً ولا ظُلماً : وعلى

وارث شرفه الصميم قسيمه - رضى الله عنه - فى النسب الكريم ، المجتبى
لوراثته مقامه العلى ، الخليفة الإمام أبى محمد عبد المؤمن بن على ؛ وعلى أبى
يعقوب ولى ذلك الاستخلاص ومستوجب شرف الاجتباء والاختصاص .
اللهم وأرض عن المجاهد فى سبيلك ، المُحْيى سُنَّة رسولك ، الخليفة الإمام
أبى يوسف أمير المؤمنين ؛ ابن أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ؛ وعلى
الخليفة الإمام أبى عبد الله ابن الخلفاء الراشدين^(١) . اللهم وانصُر ولى
عهدهم ، الطالع فى أفق سعدهم ، القائم بالأمر من بعدهم ، الخليفة الإمام
أمير المؤمنين أبا يعقوب ابن أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ، ابن أمير
المؤمنين ، اللهم كما شَدَدْتَ به عُرَا الإسلام ، وجمعت على طاعته قلوب
الأنام ، ونصرت به دينَ نبيك محمد عليه الصلاة والسلام ؛ فاقض له
بالنصر المقرون بالكمال والتمام . اللهم كما اجتبيتَه من الخلفاء الراشدين ،
والأئمة المهديين ، فاجعله من المقتفين لآثارهم ، المهتدين بمنارهم ، المقتبسين
من أنوارهم . اللهم وأيدِ الطائفة المنصورة والجماعة ، إخوانَ نبيك ،
وطائفة مهديك ، الذين أخبرت عنهم فى صريح وحيك أنهم لا يزالون
ظاهرين على أمرك إلى قيام الساعة ؛ وأمدِّهم وكافة من انتظم فى سلوكهم من
أنصار الدين ، وحزبك الموحدين ، بمواد النصر والتمكين ، والفتح المبين ؛
واجعل لهم من عضدك وتأييدك أعزَّ ظهير ، وأكرم نصير... » .

(١) يعنى الناصر محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، أمير الموحدين فى عهد

المراكشى .

ثم يدعو وينزل فيصلى ؛ فاذا فرغ دعا الخليفة بنفسه وأمن الوزير
على ما تقدم .

فهذه کلیات سیرتهم مجملّة على ما يقتضيه شرط التقريب ؛ وفى أثناء
ذلك تفاصيل يطول شرحها وليس بالناظر فى هذا الكتاب إليها كبير
حاجة ؛ إذ قد بُيّن له ما يستدلّ على ما لم يُرسم فى هذه الأوراق بما رُسم .

ذكر أقاليم المغرب والأندلس

وهذا - أصلحك الله - منتهى ما بلغ من أخبار المغرب وسير ملوكه
ووزرائهم وكتّابهم وما تعلق بذلك حسب الاستطاعة ؛ وقد تقدم بسط
العدر عما يقع من التقصير أو الخلل ، مع أن أصغر خدام مولانا^(١)
لم تجر عادته بالتصنيف ولا حدث قط نفسه به ، وإنما بعثته عليه الهمة
الفخرية - أعلى الله رتبها - فما كان من إحسان فإلى تلك الهمة العلية
نسبته ، وعنهما مُنبعثه ، وما كان من غير ذلك فأغضاؤها يسترّه ، ومُسامحتها
تغمّره .

وقد رَسَم مولانا - حرس الله مجده - أن يُضاف إلى هذا التصنيف ذكر
أقاليم المغرب وتعيين مُدنه وتحديد ما بينها من المراحل عدداً ، من لَدُنْ بَرَقَة
إلى سوس الأقصى ؛ وذكر جزيرة الأندلس وما يملكه المسلمون من مدنها على
ما تقدم ؛ فلم يرَ المملوكُ بُدّاً من الجرى على العادة فى سرعة الإجابة وافتثال

(١) يعنى نفسه ، و د مولانا ، المقصود بـ لخطاب : هو السيد الذى سألّه إملاء هذا الكتاب .
انظر التقديم .

مرسوم الخدمة ؛ لوجوب ذلك عليه شرعاً وعرفاً ؛ هذا مع أن هذا الباب خارجٌ عن مقصود هذا التصنيف ، وداخلٌ في باب المسالك والممالك ؛ وقد وضع الناس فيه كتباً كثيرة : ككتاب أبي عبيد البكري الأندلسي ، وكتاب ابن فياض الأندلسي أيضاً ، وكتاب ابن خرداذبة الفارسي ، وكتاب الفرغاني ؛ وغيرها من الكتب المفردة لهذا الشأن المستوعبة له ؛ ونحن إن شاء الله ذاكرون من ذلك - موافقةً لرأي مولانا العالي - ما يقف به على حدود البلاد ويصور له صورتها على التقريب من غير تطويل ، جارين في ذلك على ما سلف من عادتنا في سائر الكتاب ؛ فنقول وبالله التوفيق ومنه الإعانة .

قد تقرر واشتهر أن أولَ حدِّ البلاد المصرية مما يلي الشام ، العريش ؛ وآخره مما يلي المغرب ، مدينة أنطابلس المعروفة ببرقة^(١) هذا عَرْض الديار المصرية ؛ وحدُّها في الطول من ثغر أسوان إلى مدينة رشيد الكائنة على ساحل البحر الرومي ؛ هكذا ذكر أصحاب المسالك والممالك والمعتنون بهذا الشأن .

[أولاً : المدن العامرة على الساحل]

وأول حدِّ بلاد أفريقية^(٢) والمغرب مدينة أنطابلس المذكورة ، المدعوة ببرقة ، بناها الروم فكانت حاضرةً لتلك البلاد ومجتمعاً

(١) يطلق اسم برقة الآن على الولاية التي تتاخم حدود مصر الغربية ، من الأراضي الليبية ، وعاصمتها بنغازي ، وإلى الغرب منها ولاية طرابلس .

(٢) يعنى ببلاد أفريقية ، ما يشمل المغرب الأدنى وإقليم تونس إلى مدينة قسطينة ، وأما ما يلي لك غرباً فهو المغرب في اعتباره .

لأهلها ؛ افتتحها المسلمون في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(١) ؛ ومنها كان ابتداء فتح المغرب ؛ ومن هذه المدينة - أعنى أنطابلس - إلى مدينة طرابلس المغرب ، قريبٌ من خمس وعشرين مرحلة .

[اتصال العمران بين الإسكندرية والقيروان]

وما بين الإسكندرية وطرابلس المغرب خمس وأربعون مرحلة ؛ وكانت العمارة متصلةً من مدينة الإسكندرية إلى مدينة القيروان ، تمشي فيها القوافل ليلاً ونهاراً ؛ وكان فيما بين الإسكندرية وطرابلس المغرب حصونٌ متقاربة جداً ، فإذا ظهر في البحر عدوٌّ نورٌ كلُّ حصن للحصن الذي يليه ، واتصل التنوير ؛ فينتهي خبرُ العدو من طرابلس إلى الإسكندرية ، أو من الإسكندرية إلى طرابلس ، في ثلاث ساعات أو أربع ساعات من الليل ؛ فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوهم !

لم يزل هذا معروفاً من أمر البلاد إلى أن خربت الأعرابُ تلك الحصون ونفقت عنها أهلها أيامَ خلَّى بنو عبید بينهما وبين الطريق إلى المغرب - وذلك في حدود ٤٤٠ - حين تغير ما بينهم وبين المعز بن باديس الصنهاجي وقطع الدعاء لهم على المنابر ودعا لبني العباس^(٢) ؛ فاستولى الخراب عليها إلى وقتنا هذا ، واستوطنها الأعراب من سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان

(١) فتحها عمرو بن العاص سنة ٢٢ هـ .

(٢) انظر ص ٢٧٢ - ٢٧٥ و ٢٩٣ - ٢٩٤ .

وغيرهم ، فهم اليوم بها ، وآثار المدن والحصون باقية إلى اليوم .

* * *

ومدينة أنطابلس هذه خراب ، لم يبق منها إلا آثارها ، وفيما بين برقة وطرابلس حصنٌ يسمّى **طَلَمَيْتَة** ، بالقرب منه معدنٌ كبيرٌ ؛ فأما مدينة طرابلس فلم تزل معمورة إلى هذا الوقت ، وهى أول مملكة المصامدة وقد استولى عليها فى مدة مُلكهم وفى ملك أبى يعقوب منهم ، المملوك قراقش المتقدم ذكره فى ترجمة أبى يوسف ^(١) . ثم أخرجها منها المصامدة ؛ واستولى عليها أيضاً يحيى بن غانية وعلى كثير من أفريقية حسبما تقدم تلخيصه ^(٢) ، ثم أخرجها عنها أيضاً المصامدة ، فهى فى ملكهم إلى وقتنا هذا ، وهو سنة ٦٢١ .

[بلاد أفريقية الساحلية]

فحدُّ بلاد أفريقية مما يلى الشرق مدينة أنطابلس المذكورة . وحدُّها مما يلى المغرب ، المدينة المعروفة بقسنطينية الهواء ، سُمِّيتُ بذلك لإفراط علُوِّها وشدة منعتها ؛ ومسافة ما بين أنطابلس وقسنطينية المغرب قريبةٌ من خمس وخمسين مرحلة ، فهذا حدُّ أفريقية طولاً ؛ وعرضُها يختلف بحسب مُزاحمة الصحراء العمارة ومباعدتها .

(١) انظر ص ٣٦٥ وما بعدها .

(٢) انظر ص ٣٤١ وما بعدها .

وسُميت أفريقية بذلك لنزول أفريقش من ولد حام بن نوح بها ،
وأفريقش هذا هو أبو البربر ، فالبربر كلُّهم من ولد حام بن نوح ، خلا
صنهاجة ، فإنهم يرجعون إلى حمير ؛ هذا كله قول أبي جعفر^(١) محمد
بن جرير الطبرى فى تاريخه ، من لدن ذكر أفريقش إلى ذكر صنهاجة .

فأول مدن أفريقية المعمورة ، طرابلس المغرب المتقدم ذكرها ، ومنها
إلى مدينة تسمى قابس ، عشرُ مراحل ؛ وقابس هذه على ساحل البحر
الرومى وكذلك طرابلس ؛ وتنصبُّ إلى قابس هذه أنهارٌ من بعض تلك
الجبال التى تليها ، فهى بذلك أخصب بلاد أفريقية وأوسعها
فواكه وأعشابا ؛ ومن قابس هذه إلى مدينة صغيرة على الساحل أيضاً تسمى
سفاقس : أربع مراحل ؛ ومن سفاقس إلى مهدية بنى عبّيد ، ثلاث مراحل ؛
وقد تقدمت صفة المهدية فى أخبار أبى محمد عبد المؤمن بن على^(٢) ؛
وبظاهر المهدية المذكورة وقريبٌ منها جداً ، مدينة تدعى زويلة ؛ بناها
بنو عبّيد حين بنوا المهدية ؛ فاختصوا المهدية لأنفسهم وحشَمَهم وأعيان
جُندهم ووجوه قوادهم ؛ وأسكنوا زويلة هذه سائر الناس من الرعية
والسودان وأراذل كتامة وغيرهم من أتباعهم ؛ ولما ارتحل المعزُّ إلى مصر
بعد أن افتتحها على يدَى خادمه جَوهر ؛ ارتحلت معه طائفة كبيرة
من أهل زويلة هذه ؛ فإليهم يُنسبُ البابُ والحارة التى بالقاهرة اليوم^(٣)

(١) فى الأصل : أبى عبد الله .

(٢) انظر ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

(٣) لم يزل هذا الباب والحارة موجودين حتى اليوم ، ويعرف العامة هذا الباب فى مصر
باسم « بوابة المتولى » .

ومن مهدية بنى عبيد إلى مدينة تسمى سوسة - وإليها تُنسب الثيابُ
السوسية - مرحلتان ؛ ومن سوسة إلى مدينة تونس ، ثلاث مراحل ؛
ولم تكن تونس هذه في قَدَم الدهر على أيام الإفرنج مدينة ، وإنما بنيت
في أول الإسلام ، بناها عَقْبَةُ بن نافع الفهري لمصلحة رآها ^(١) ، وإنما
كانت المدينة الكبرى مدينة على الساحل هناك تسمى قَرطاجَة ^(٢) بينها
وبين تونس نحو من أربع فراسخ .

[شَأْنُ مَدِينَةِ قَرطاجَة فِي الْقَدِيم]

وهذه المدينة - أعنى قَرطاجَة - هي كانت حاضرةً أفريقية أيام الروم ،
وهي مدينة عظيمة ، ظهر فيها من قوتهم وشدة طاعة رعيتهم لهم وفرطِ
جَبَروتهم ما يَعَجَبُ منه مَنْ تَأَمَّلَهُ ، ويعتبر فيه مَنْ وَقَفَ عليه ؛ وذلك
أنهم جلبوا إليها المياهَ من بُعد شديد ، وتحيلوا على ذلك بغرائب من الحيل
يعجز عن أيسرها جميعُ من في هذا العصر ؛ وكانوا يُضاهون بها مدينة
القسطنطينية العظمى ، المنسوبة إلى قسطنطين بن هيلان ملك الإفرنج ؛ ثم
لما افتتح المسلمون أفريقية في أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، خربوا

(١) كذا يذكر المراكشي ، ونظن الصواب غيره ، فان تونس مدينة قديمة ، قيل انها أقدم من
قرطاجه ، الا انها لم يكن لها شأن الا بعد خراب قرطاجه ، فرفع العرب شأنها وعمروها ،
وفيها أسس حسان بن النعمان - بأمر عبد الملك بن مروان - دارا لصناعة السفن والآلات البحرية ،
فكانت بذلك أول دار صناعة بالاسلام .

وفي تونس جامع الزيتونة الشهير ، بناء عبد الله الحبجاف في خلافة هشام بعد عبد الملك
واليها ينسب ابن خلدون صاحب التاريخ والمقدمة .

(٢) في الأصل : قرطجنة ، وهو خطأ ، فان قرطاجنة من ثغور الأندلس لا من ثغور المغرب .

هذه المدينة المذكورة^(١) ، وأتخذوا مدينة القيروان داراً ملكهم^(٢) ومقرّ ولاتهم ومجتمع جندهم ومركز جيوشهم ؛ وأسّسوا على ساحل البحر مدينة تونس المذكورة^(٣) ؛ وكان هناك قبل ذلك ديرٌ معظّم عند الروم يزورونه من أقاصي بلادهم ، فهدمه المسلمون وبنوه مسجداً ، وسمّوا المدينة تونس ، باسم الراهب الذي كان في ذلك الدير ؛ فما زالت تونسُ معمورة إلى وقتنا هذا .

ولما خربت مدينة القيروان على ما سيأتى الإيماء إليه ، صارت مدينة تونس حاضرةً أفريقية ومقرّ ولاتها وموضع مخاطبة أولى الأمر منها ؛ وكل ما بتونس من جيّد الرخام وخالص المرمر فمن مدينة قرطاجة المذكورة .

* * *

ومن مدينة تونس هذه إلى مدينة صغيرة على ساحل البحر تُدعى بُونَة^(٤) - ومعنى هذه اللفظة بلسان الإفرنج : جيدة - ستُّ مراحل : فيما بين تونس وبُونَة بُلَيْدَة صغيرة تسمى بَنِي زَزْت^(٥) ، بينها وبين تونس يومٌ تام في البرِّ للمُجِدِّ^(٦) ولبنى ززت ، هذه شأنٌ غريب ، وذلك أنه يخرج

(١) كذا ٠٠٠ وانما خربها الرومان قبل الفتح الاسلامي ، تخلصاً من أسباب النزاع التي لبثت دهرًا بين رومية وقرطاجة .

(٢) انظر التعليق رقم ١ ص ٣٢ .

(٣) انظر التعليق رقم ١ ص ٤٣٥ .

(٤) هي مدينة Hippos Reghis القديمة على حدود المغرب الأوسط ، وتسمى الآن « عناية » .

(٥) بنزرت .

(٦) ما بين العلامتين [] منقول عن هامش المخطوطة .

في بحرهما كلما طلع هلالٌ نوعٌ من السمك لم يكن في الشهر الذي قبل ذلك ؛ هذا متواتر عند أهلها لا يختلف فيه منهم أحد ، والمتفطنون من الصيادين يعرفون الشهور باختلاف السمك عليهم وإن لم يروا الأهله ؛ وهذا منسوبٌ إلى الطلّسات ، اعتنى به من عُنِيَ بخدمة القمر^(١)] ، ومن مدينة بونة إلى مدينة قسنطينية التي هي أحد حُلَيّ أفريقية ، خمس مراحل ؛ وقسنطينية بينها وبين البحر مرحلتان أو أكثر من ذلك قليلا .
هذاما على ساحل البحر أو قريبٌ منه من مدن أفريقية ؛ وبها مما يلي الصحراء مُدُنٌ أنا ذاكرها إن شاء الله تعالى إذا فرغتُ مما على ساحل البحر من بلاد المغرب .

[بلاد المغرب الساحلية]

ومن قسنطينية المغرب إلى بجاية خمسُ مراحل على الرِّفق ؛ وبجاية هذه هي دارُ مُلكِ بَنِي حَمَّادِ الصُّنهاجيين الذين تنتسب قلعة بَنِي حَمَّادِ إليهم وكانوا يملكون من قسنطينية المغرب إلى موضع يُعرف بِسَيُوسِيرَات ، وقد تقدم هذا الموضع^(٢) ، بينه وبين بجاية قريبٌ من تسع مراحل .

لم يزل بنو حماد يملكون بجاية وجهاتها إلى أن أخرجهم عنها في ولاية يحيى منهم ، أبو محمد عبد المؤمن على حسب ما سبق^(٣) .

ومن مدينة بجاية إلى مدينة صغيرة ندعى الجزائر — وتُنسب إلى قوم

(١) نفس الهامش رقم ٦ في الصفحة السابقة .

(٢) انظر ص ٢٧٢ وما بعدها .

(٣) انظر ص ٢٧٢ — ٢٧٦ .

يقال لهم بنو مزغنة^(١) - قريبٌ من أربع مراحل ؛ وهذه المدينة - المعروفة بالجزائر - على ساحل البحر الرومي : وكذلك مدينة بجاية ؛ ومن الجزائر هذه إلى مدينة صغيرة تسمى تنس ؛ أربع مراحل ؛ ومن مدينة تنس إلى مدينة وهران ، سبع مراحل ؛ ومن مدينة وهران إلى مدينة سبتة على التقريب ، ثمانى عشرة مرحلة .

[بلاد على المضيق]

وبساحل سبتة هذه يلتقى البحران ؛ بحر ما نطس الذى هو بحر الروم ، وبحر أقبائس الذى هو البحر الأعظم^(٢) : وهذا أولُ الخليج المعروف بالزقاق .

وسعة البحر فيما بين سبتة والأندلس ، ثمانية عشر ميلا ؛ ثم لايزال يضيق إلى أن ينتهى ذلك من عُدوة البربر إلى موضع يُدعى قصر مصمودة ، بينه وبين سبتة نصفُ يوم^(٣) ، ومن جزيرة الأندلس إلى موضع يدعى جزيرة طريف ، مقابل لقصر مصمودة المذكور ؛ فأضيقُ ما يكون البحر هنالك ، وسعته فيما بين هذين الموضعين اثنا عشر ميلا ؛ ترى رمال كل واحد من الشطين من الآخر فى كل وقت من أوقات النهار .

وقد ذكر المؤرخون أن الروم بنّت فى قديم الدهر قنطرةً على هذا الخليج ،

(١) هي الآن عاصمة القطر الجزائرى ، واليهالجا ابو يحيى الحسن بن على آخر ملوك بنى باديس . انظر التعليق ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٢) انظر التعليق رقم ٣ ص ٢٨ .

(٣) تقطعها السفينة فى ساعتين .

ثم طغت المياه فغطتها ؛ فيذكر قومٌ من أهل جزيرة طريف أنهم يرونها أوانً
سكون البحر وهدوئه حين تصفو المياه ! .

* * *

ومن مدينة سبتة إلى مدينة طنجة ؛ يومٌ تامٌ في البر ؛ وطنجة هذه آخر
الخليج الذي به يلتقى البحرين ، وهى على ساحل البحر الأعظم الذى لاعماره
وراءه^(١) ، وهو المعروف عندنا بالبحر المحيط ، المتصل ببحر الهند
والحبشة ...

وطنجة هذه آخرُ بلاد المغرب المحقق ؛ وما بعدها من البلاد فإنما هو في
الجنوب ، كمدينة سلا ، ومدينة مراکش - ثم لا يزال^(٢) دائراً في
الجنوب إلى أن يأتى بلاد الحبشة والهند .

فأول بلاد المغرب مما على ساحل البحر الرومى ، مدينة أنطابلس المعروفة
ببرقة^(٣) ؛ وآخرها مما على ساحل البحر الأعظم ، مدينة طنجة ؛ ومسافة
ما بين ذلك على التقريب ، ست وتسعون مرحلة ؛ فهذا ذكر المدن التى
على ساحل البحر من بلاد المغرب .

[البلاد التى ليست على ساحل]

ثم نعود إلى ذكر ما ليس على الساحل من مدن أفريقية والمغرب ، فنقول:

(١) انظر التعليق ٢ ص ٢٩ .

(٢) يعنى المحيط .

(٣) انظر التعليق رقم ١ ص ٤٣٦ .

[بلاد أفريقية]

من مدينة قابس المتقدم ذكرها إلى مدينة تسمى قَفْصَة ، ثلاث مراحل ؛
ومن مدينة قَفْصَة إلى مدينة تَوَزَّر ، أربع مراحل .

وتوزر هذه هي حاضرة بلاد الجريد وأم قُراها ؛ وبلاد الجريد التي
يقع عليها هذا الاسم تنقسم قسمين : قسم يسمى قَسْطِيلِيَّة ، وهذا الاسم
يقع على توزر وأعمالها ؛ وقسم يسمى الزاب ، وهذا الاسم أيضاً يقع على
مدينة بسكرة وأعمالها .

ومن مدينة تَوَزَّر إلى مدينة بسكرة ، أربع مراحل ؛ وبالقرب من مدينة
بسكرة مدينة صغيرة تسمى نَقَاوس ، بينها وبينها مرحلتان ؛ فهذه المدن
التي تلى الصحراء من بلاد أفريقية ، ويتخللها قُرى كثيرة لم نذكرها
لصغرها .

[شأن القيروان في قديم الزمان]

وفيما بين مدينة تونس وتوزر ، مدينة القيروان المشهورة ؛ منها إلى
الساحل ثلاث مراحل ؛ وهي كانت - أعنى القيروان - دارَ مُلك المسلمين
بأفريقية منذ الفتح ؛ لم يزل الخلفاء من بني أمية وبني العباس يُؤلُّون
عليها الأمراء من قبلهم ، إلى أن اضطرب أمر بني العباس واستبدَّ الأغالبة
بمُلك أفريقية بعض الاستبداد ، وهم بنو أغْلَب بن محمد بن إبراهيم بن
أغلب التميميون ؛ فاتخذوا القيروان دارَ مُلكهم ؛ فلم يزالوا بها إلى أن

أخرجهم عنها بنو عبيد^(١) وملكوها أيام كونهم بأفريقية ؛ ثم ولّوا عليها حين ارتحلوا إلى مصر زيري بن مناد الصنهاجي ،^(٢) فلم يزل زيري وبنوه ملوكاً عليها ، إلى أن كان آخرهم الذي أخرجه العرب^(٣) عنها ، تميم بن المعز بن باديس بن منصور بن بلجين بن زيري بن مناد المذكور ؛ فانتهبتها الأعراب وخرّبتها ، فهي كذلك خرابٌ إلى اليوم ، فيها عمارة قليلة يسكنها الفلاحون وأرباب البرية .

وكانت القيروان هذه في قديم الزمان - منذ الفتح إلى أن خربتها الأعراب - دارَ العلم بالمغرب ؛ إليها ينسب أكابر علمائه ، وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم ؛ وقد ألّف الناس في أخبار القيروان ومناقبه وذكر علمائه ومن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء المتبتلين كتباً مشهورة ؛ ككتاب أبي محمد بن عفيف ، وكتاب ابن زيادة الله الطُّنّجي ، وغيرهما من الكتب ؛ فلما استولى عليها الخراب - كما ذكرنا - تفرّق أهلها في كل وجه ؛ فممنهم من قصد بلاد مصر ، ومنهم من قصد صقلية والأندلس ؛ وقصدت منهم طائفة عظيمة أقصى المغرب ، فنزلوا مدينة فاس^(٤) ، فعقبهم بها إلى اليوم .

* * *

(١) الفاطميون .

(٢) انظر التعليق ص ٢٧٢ - ٢٧٤ .

(٣) يعني بني هلال ، حين كثر عبثهم في تلك البلاد حتى غلبوا بني باديس على القيروان فانتقلوا عنها إلى المهدية .

(٤) وإليها ينسب جامع القرويين في فاس ، على غير قاعدة النسب .

فهذه نبذة من أخبار أفريقية ، وفيها مدن كثيرة قد خربت لا أعرف
أسماءها ؛ لقلة معرفتي بتفاصيل أحوال أفريقية ؛ لأنني لم أدخل منها إلا
مدينة تونس خاصة ؛ أتيتها في البحر من الأندلس ، وذلك سنة ٦١٤ ؛
ولما نقلت ما نقلته من أخبارها حسب المستفيض من السماع .

وفي خراب القيروان على ما تقدم يقول أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد
ابن شرف الجذامي :

تَرَى سَيِّئَاتِ الْقَيْرَوَانِ تَعَاطَمَتْ فَجَلَّتْ عَنِ الْغُرَانِ وَاللَّهُ غَافِرٌ !
تَرَاهَا أُصِيبَتْ بِالْكَبَائِرِ وَحَدَّهَا أَلَمْ تَكُ قَدْ مَآ فِي الْبِلَادِ الْكَبَائِرُ ؟

[بلاد المغرب]

... فقسطنطينية آخر بلاد أفريقية^(١) ، ما يلي البحر منها وما يلي
الصحراء ؛ وما بعد قسطنطينية فهو من المغرب غير أفريقية ؛ فأول ذلك
بليدة صغيرة قبلي بجاية في البر ، تسمى ميلة ، بينها وبين بجاية ثلاث
مراحل ، ومن بجاية إلى قلعة بني حماد أربع مراحل ؛ وهي أيضاً - أعني
القلعة - قبلي بجاية .

[طريق السفار من بجاية إلى مراکش]

وها أنا أذكر طريق السفار من بجاية إلى مراکش ؛ فمن بجاية إلى مدينة

(١) انظر التعليق ص ٤٣١ .

تَلَمَّسان عشرون مرحلة ، وفيما بين ذلك بُلِّدات صغار كمليانة ، ومازونة ووهران - وقد ذكرناها في بلاد الساحل - وبين مدينة تلمسان وبين البحر أربعون ميلا ؛ وذلك يومٌ للمُجِدِّ ؛ ومن مدينة تلمسان إلى مدينة فاس عشر مراحل ، سبْعُ منها إلى المدينة التي تُدعى رِبَاط تازا ، وثلاث إلى فاس ؛ وقبليُّ مدينة تلمسان في الصحراء ، مدينة سِجْلَمَاسَة ، منها إلى تلمسان عشرُ مراحل ؛ وهذه المدينة - أعنى سِجْلَمَاسَة - متوسطة في الصحراء ، مسافة ما بينها وبين تلمسان وفاس ومراكش ، على حد سواء ؛ فمن حيث قصدت إليها من أحد هذه البلاد ، كان ذلك مسافة عشر مراحل .

[التعريف بمدينة فاس]

ومدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا وموضعُ العلم منه ؛ اجتمع فيها علمُ القيروان وعلمُ قرطبة ؛ إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس ، كما كانت القيروان حاضرة الغرب ؛ فلما اضطرب أمر القيروان - كما ذكرنا - بَعِثَ العرب فيها ، واضطرب أمرُ قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت أبي عامر محمد بن أبي عامر وابنه ، رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة ؛ فراراً من الفتنة ؛ فنزل أكثرهم مدينة فاس ؛ فهي اليوم على غاية الحضارة ، وأهلها في غاية الكيس ونهاية الظُرف ، ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الإقليم ؛ وما زلت أسمع المشايخ يَدْعُونها ببغداد المغرب ، وبحق ما قالوا ذلك ؛ فانه ليس بالمغرب شيء من

أنواع الظرف واللباقة في كل معنى إلا وهو منسوب إليها وموجود فيها ومأخوذ منها ، لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب ؛ ولم يتخذ لتونة والمصامدة^(١) مدينة مراکش وطناً ولا جعلوها دار مملكة لأنها خير من مدينة فاس في شيء من الأشياء ، ولكن لقرب مراکش من جبال المصامدة وصحراء لتونة^(٢) ؛ فلهذا السبب كانت مراکش كرسى المملكة ؛ وإلا فمدينة فاس أحق بذلك منها ؛ وما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس ، أكثر مرافق ، وأوسع معاش ، وأخصب جهات ؛ وذلك أنها مدينة يحفها الماء والشجر من جميع جهاتها ، ويتخلل الأنهار أكثر دورها زائداً على نحو من أربعين عيناً ينقلب عليها أبوابها ويحيط بها سورها ؛ وفي داخلها وتحت سورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء ؛ ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شيء يجلب إليها من غيرها - إلا ما كان من العطر الهندي - سوى مدينة فاس هذه ؛ فإنها لا تحتاج إلى مدينة في شيء مما تدعو إليه الضرورة ، بل هي توسع البلاد مرافق وتملؤها خيراً .

* * *

ومن مدينة فاس إلى مدينة مكناسة الزيتون ، يوم تام للمجد ؛ ومن مكناسة الزيتون إلى مدينة سلا ، أربع مراحل .

ومدينة سلا هذه على ساحل البحر الأعظم المسمى أقيانس ، وهي في

(١) يعنى المرابطين ثم الموحدين .

(٢) أما الآن فإن كرسى الحكم فى الرباط ، رباط القنص ، لا فى مراکش ولا فى فاس ، وتوشك طنجة أن تقاسم الرباط هذا الشرف فتصير كرسى الحكم فى الصيف .

الجنوب كما ذكرنا ، ينصب إليها نهر يسمى وادى الرمان^(١) ، يصب
فى البحر الأعظم المذكور .

[مدينة الرباط]

وقد بنى المصامدة على ساحل هذا البحر مما يلى مراکش مدينة عظيمة ،
سموها رباط الفتح ، كان الذى اختطها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ،
وأتمها ابنه يعقوب ، وبنى فيها مسجداً عظيماً قد تقدّم ذكره^(٢) ؛ وقيل
إنهم إنما بنوها بأمر ابن تومرت إياهم بذلك ؛ وذلك أنه قال لهم : « تبنيون
مدينة عظيمة على ساحل هذا البحر - يعنى البحر الأعظم - ثم يضطرب
أمركم وتنقض عليكم البلاد حتى ما يبقى بأيديكم إلا هذه المدينة ؛ ثم
يفتح الله عليكم ويجمع كلمتكم ويعود أمركم كما كان ! » فلهذا سموها
رباط الفتح ؛ وبين هذه المدينة وبين سلا العتيقة ، النهر المذكور ،
وقد بنوا عليه قنطرة من ألواح وحجارة يعبر الناس عليها حين يعجزر
النهر ، فإذا مدّ عبّروا فى القوارب .

* * *

وبين مدينة سلا هذه ومدينة مراکش كرسى المملكة ، تسع مراحل ؛
فمراكش آخر المدن بالمغرب ؛ وكان الذى اختطها ملك لمتونة تاشفين بن
على^(٣) ؛ ثم زاد فيها بعده ابنه يوسف بن تاشفين ؛ ثم زاد فيها بعدهما

(١) وادى الرقاق .

(٢) انظر ص ٣٤١ وهى الآن عاصمة المغرب .

(٣) انظر ص ١٥٦ .

على بن يوسف بن تاشفين ؛ ثم ملكها المصامدة فزادوا فيها حتى جاءت في
نهاية الكبر ؛ فهي اليوم طولا وعرضا قَدْرُ أربع فراسخ - هذا إذا ضُمَّتْ
إليها قصورُ بني عبد المؤمن - وأَجْرَى المصامدةُ فيها مياهاً كثيرة لم تكن
فيها قبل ذلك ، وبنوا فيها قصوراً لم يكن مثلها للملك من تقدمهم من
الملوك ؛ فصارت بذلك في نهاية الحسن وغاية الكمال ، كما قال الأول :
ليس فيها ما يقال له كَمُلْتُ لو أنه كَمُلا

[ترجمة المؤلف لنفسه]

وهذه المدينة - أعني مراکش - مسقط رأسي ، وهي أولُ أرضٍ مس
جلدي ترابها : وكان مولدي بها لسبعِ خلون من ربيع الآخر سنة ٥٨١ ،
في أول أيام أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي .
ثم فَصَلْتُ عنها وأنا ابن تسعة أعوام إلى مدينة فاس ؛ فلم أزل بها إلى
أن قرأتُ القرآن وجودته ورويته عن جماعة كانوا هنالك مبرزين في
علم القرآن والنحو .

ثم عدت إلى مراکش ؛ فلم أزل متردداً بين هاتين المدينتين .
ثم عبرت إلى جزيرة الأندلس في أول سنة ٦٠٣ فأدركتُ بها جماعة من
الفضلاء من أهل كل شأن ؛ فلم أُحْصَلْ بحمد الله من ذلك كله إلا معرفة
أسمائهم ومواليدهم ووفياتهم وعلومهم ؛ انفردوا دُوني بكل فضيلة ؛ ولا مانع
لما أعطى الله ولا معطى لما منع ؛ يختص برحمته من يشاء وهو ذو
الفضل العظيم !

[بلاد السوس الأقصى]

فمراكش هذه آخر المدن الكبار بالمغرب المشهورة به ؛ وليس وراءها مدينة لها ذكر وفيها حضارة ، إلا بُلَيْدَاتُ صِغَارِ سوس الأقصى ؛ فمنها مدينة صغيرة تسمى تَارُودَانْت ، وهي حاضرة سوس ، وإليها يجتمع أهله ومدينة أيضاً صغيرة تدعى زُجُنْدَر ، هي على معدن الفضة ، يسكنها الذين يستخرجون ما في ذلك المعدن .

وفي بلاد جَزُولَة مدينة هي حاضرتهم أيضاً تسمى الكُست .

وفي بلاد لَمْطَة مدينة أخرى هي حاضرتهم أيضاً تسمى نُول لمطة .

فهذه المدن التي وراء مراكش ، فأما تارودانت وزُجُنْدَر فدخلتهما وعرفتُهما ؛ ولم أزل أعرف السُّفَّار من التجار وغيرهم ، وخاصة إلى مدينة المعدن المعروفة بزُجُنْدَر ؛ وأما مدينة جَزُولَة ومدينة لمطة فلا يسافر إليهما إلا أهلها خاصة .

ذكر ما بالمغرب من معادن الفضة والحديد

والكبريت والرصاص والزئبق وغير ذلك ، وأسماؤها مواضعها

قد تقدّم ذكر معدن الكبريت الذي بين برقة وطرابلس وأنه بالقرب من حصن يدعى طُلُمَيْتَة^(١) .

وفيما بين سبتة ووهران موضع قريب من ساحل البحر يسمى تِمْسَابَان فيه معدن حديد .

(١) انظر ص ٤٣٣ .

وفيما بين سَلاَ ومراكش قريباً من ساحل البحر الأعظم بمقدار يوم أو أكثر قليلاً ، موضع يدعى إِبْسَنْتَار ، فيه معدن جديد أيضاً : وليس هذا الموضع على طريق السفار ، إنما يقصده من أراد حَمَلَ الحديد منه .
وبالقرب من مكناسة الزيتون على ثلاث مراحل منها حصنٌ يدعى وَرْكَتَّاس ، فيه معدنٌ فضة .
وقد ذكرنا معدن زُجَنْدَر الذي بسوس ، غير أن فضته ليست هناك ، أعنى فضة معدن زُجَنْدَر .
وبسوس أيضاً معدنان للنحاس ، ومعدن توتيا ، وهى التوتيا التى يُصْبَغ بها النحاس الأحمر فيصير أصفر .
فهذا جملة ما بالعدوة من المعادن .

(المعادن بهجزيرة الأندلس)

وبهجزيرة الأندلس معادن أيضاً ؛ فمنها معدنٌ فضة ببلاد الروم فى الجهة المغربية ، بموضع يدعى شَنْتَرَة .
وعلى أربع مراحل من مدينة قُرطبة موضع يسمى شلون ، فيه معدن زئبق ، منه يفترق الزئبقُ على جميع المغرب .
وفى أعمال المَرِيَّة وعلى يوم ونصف منها بموضع يعرف بدلاية ، فيه معدنٌ رصاص .
وفى أعمال المرية أيضاً على يوم ونصف منها ، موضع يسمى بَكَارَش ، فيه معدن حديد أيضاً .

وما بين دانية وشاطبة موضع يسمى أَوْرِبَة ، على نصف يوم من دانية ،
فيه معدنٌ حديد .

فهذا أيضاً جملة ما بالأندلس من المعادن ؛ فأما الذهب فَمُسُوقٌ إليها
من بلاد السودان .

ذكر أسماء الأنهار العظام التي بالمغرب

فأول ذلك نهر ببلاد أفريقية على نصف مرحلة من مدينة تونس ،
يسمى بَجَرْدَة ، ينصبُّ من جبل هنالك ينتهى إلى البحر الروى .
ونهر بجاية الذى يسمى الوادى الكبير ، هو مُتَنَزِّهٌها وعليه بساطينها
وقصورها .

ونهر آخر فيما بين تلمسان ورباط تازا يدعى وادى مُلُويَة ، يصب فى
البحر الروى أيضاً .

ونهر يدعى سَبُو ، هو محيطٌ بمدينة فاس من شرقها وغربها .

ويجاور نهر سَبُو هذا نهر آخر كبير يسمى وَرَغَة .

وهذان النهران ينصبَّان إلى البحر الأعظم ، بحر أقيانس ، بعد أن يلتقيا
بموضع يدعى المعمورة .

وفما بين مكناسة وسَلا نهرٌ يدعى بَهْتَا ، ينصبُّ إلى البحر الأعظم أيضاً .
ونهر سَلا المتقدم الذكر^(١) .

(١) هو نهر الرقاق الذى يسميه المؤلف « وادى الرمان » ، ويصب فى البحر الأعظم .

انظر ص ٤٤٥ .

وفيما بين سَلاَ ومراكش ، وعلى ثلاث مراحل من مراكش ، نهرٌ عظيم يدعى أمّ ربيع ، ينصب من جبال صُنْهاجة من موضع يدعى وانْسيفَن ، يصب في البحر الأعظم أيضاً .

ونهر على أربعة أميال من مراكش ، عليه قنطرة عظيمة ، يسمى تانسيفت ونهر سوس الأقصى .

ونهر ببلاد حاحة ، يسمى شَفْشاوَة .

هذه الأنهار كلها تصبُّ إلى البحر الأعظم .

فهذه جملة الأنهار الكبار التي بالمغرب التي لا يقل مأوها ولا ينقطع شتاء ولا صيفاً ؛ ولم نتعرض لذكر الأودية الصغار والأنهار التي تَبَسُّ في الصيف .

- ذكر جزيرة الأندلس وأسماء مدنها وأنهارها -

فأما جزيرة الأندلس فهي المعروفة في قديم الزمان عند الروم بجزيرة إشبانية ، وقد تقدم ذكر حدودها في صدر هذا الكتاب فأغنى ذلك عن إعادته ههنا ؛ وكان دين أهلها في الدهر القديم دين الصابئة من عبادة الكواكب واستنزال قواها والتقرب إليها بأنواع القرابين ؛ شهدت بذلك طلّساتٌ وُجدت بها وضعتُها القدماء من أهلها . ثم انتقل أهلها إلى دين النصرانية حين ظهر على أيدي أصحاب المسيح عليه السلام .

وكانت هذه الجزيرة - أعنى الأندلس - منتظمة في مملكة صاحب رومية ، يستعمل عليها من شاء من أصحابه ؛ فلم تزل كذلك والروم يملكونها -

- وقاعدة ملكهم منها مدينة تسمى طالقة ، على فرسخين من إشبيلية ،
وهى مدينة عظيمة باقى أثرها إلى هذا اليوم - إلى أن غلبهم عليها القوطا ،
وهى قبيلة من قبائل الإفرنج ، فأخرجوهم عن الجزيرة وألحقوهم برومية
مدينتهم العظمى .

وانفرد القوطا هؤلاء بمملكة الجزيرة ، فملكوها أضخم ملك قريبا من
ثلاثمئة سنة ، وكانت دار ملك القوطا مدينة طليطلة ؛ وهى فى قريب من
وسط الجزيرة ، فلم يزالوا بها وطليطلة دار ملكهم - كما ذكرنا - إلى أن
افتتحها المسلمون فى شهر رمضان من سنة ٩٢ من الهجرة ، على ما تقدم
فى صدر الكتاب .

فلما افتتحها المسلمون تخيروا قرطبة دار ملكهم ومقر تدبيرهم وموضع
حلهم وعقدهم ؛ فلم تزل قرطبة على ذلك إلى أن انتشرت الفتنة واضطرب
أمر بنى أمية بالأندلس بموت الحكم المستنصر وتغلب أبى عامر محمد بن أبى
عامر وابنه على هشام المؤيد بن الحكم المستنصر حسبا تقدم فى صدر هذا
الكتاب (١) .

فهذا تلخيص أخبار جزيرة الأندلس .

[مجاز الأندلس]

وَأَنَا ذَاكِرٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَوَّلَ مَا يَلْقَاهُ مَنْ يَعْبُرُ إِلَيْهَا مِنْ حُدُودِهَا وَمَدْنِهَا ،
فَأُولَ ذَلِكَ أَنَّى أَقُول :

(١) انظر ص ٧٢ وما بعدها .

قد تقدم أن البحرين : بحر الروم ، وبحر أقيانس ، يلتقيان بساحل سبتة ؛ ثم يضيق الخليج ويتقارب العدوتان حتى ينتهي ذلك إلى قصر مصمودة من العدو وجزيرة طريف من الأندلس ، ثم يأخذ في السعة ؛ وأول هذا الخليج مما يلي طنجة ، الجبل الخارج في البحر الأعظم المعروف بطرف أشبرتال ، وآخره الجبل الذي شرق سبتة ؛ فإذا عبرت إلى جزيرة الأندلس من سبتة ، كان الذي تنزل به المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ؛ وإذا عبرت من قصر مصمودة وقعت إلى جزيرة طريف ؛ فالمدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء هي - في التحقيق - على ساحل البحر الرومي ، وجزيرة طريف على ساحل البحر الأعظم ؛ وبين الموضعين - أعني الخضراء وطريف - ثمانية عشر ميلا .

وفي شرق الجزيرة الخضراء الجبل المعروف بجبل الفتح ، ويسمى أيضاً جبل طارق ؛ وله طرف خارج في البحر يسمى طرف الفتح ؛ وعنده يلتقي البحرين بجزيرة الأندلس .

فهذا تلخيص التعريف بخبر مجاز الأندلس .

[البلاد التي تغلب عليها النصارى إلى سنة ٦٢١]

فاما ذكر مدنها فقد كانت فيها مدن كثيرة تغلب النصارى على أكثرها ؛ فأننا ذاكر أسماء المدن التي بأيدي النصارى في وقتنا هذا ، ومواضعها من الجزيرة من مشرق ومغرب ، من غير تعرض إلى ما بينها من المسافات ؛ إذ كان كون النصارى بها ما نعا من معرفة ذلك :

فأول المدن في الحد الجنوبي المشرقى على ساحل البحر الرومى : مدينة
برشونة ، ثم مدينة طَرْكُونة ، ثم مدينة طرطوشة ؛ هذه البلاد التى على
ساحل البحر الرومى المذكور ؛ أعادها الله للمسلمين !

والمدن التى على غير الساحل فى هذا الحد المذكور : مدينة سرقسطة ،
ولاردة ، وأفراغة ، وقلعة أيوب ؛ هذه كلها يملكها صاحب برشونة
- لعنه الله - وهى الجهة التى تسمى أرْغُنْ .

وفى الحد المتوسط ما بين الجنوب والمغرب من المدن : مدينة طليطلة ،
وكونكة ، وأقلبيج ، وطلبيّرة ، ومكّادة ، ومشرّيط ، ووَبْد ، وأبلّة ،
وشقوبية ؛ هذه كلّها يملكها الأَدَفَنش - لعنه الله - وتسمى هذه الجهة
قَشْتَال .

وتجاور هذه المملكة فيما يميل إلى الشمال قليلاً مدنٌ كثيرة أيضاً ، وهى :
سَمُورة ، وشَلَمَنكة ، والسَّبْطاط ، وقُلْمَرِيّة ، هذه كلها يملكها رجل
يعرف بالبَبُوج^(١) - لعنه الله - وتسمى هذه الجهة لِيُون .

وفى الحد المغربى الذى هو ساحل البحر الأعظم أقيانس ، مدن أيضاً ،
منها : مدينة الأَشْبونة ، وشَنْتَرين ، وباجة ، وشَنْترة ، وشَنْت ياقُو ؛
ومدينة يابرة ، ومدن كثيرة ذهب غنى أسماؤها ، يملكها رجل يُعرف
بابن الريق^(٢) ، لعنه الله .

فهذا ما بأيدي النصارى من مدن جزيرة الأندلس مما يلى بلاد المسلمين ؛

(١) انظر التعليق ١ ص ٤٠٠ .

(٢) انظر التعليق ٣ ص ٤٠٠ .

ووراء هذه المدن مما يلي بلاد الروم ، مدنٌ كثيرة لم تشتهر عندنا لبعدها عنا وتوغُّلها في بلاد الروم ؛ لم يملكها المسلمون قط ؛ لأنهم لم يملكوا الجزيرة بأسرها حين افتتحوها ، وإنما ملكوا معظمها واستولوا على أكثرها .

[المدن التي بقيت بأيدي المسلمين إلى سنة ٦٢١]

وأنا ذاك بعد هذا ما بقي بأيدي المسلمين من البلاد ، وعدد المراحل التي بينها ، وقربها من البحر وبعدها ؛ حتى يبين ذلك إن شاء الله تعالى : فأول شيء يملكه المسلمون بجزيرة الأندلس اليوم ، حصنٌ صغير على شاطئ البحر الرومي يسمى بَنَشْكُلَّة ، بينه وبين مدينة بلنسية ثلاث مراحل ؛ وهذا الحصن مما يلي بلاد الروم ، بينه وبين طرطوشة مرحلتان أو أكثر قليلا .

ثم مدينة بلنسية ، وهي مدينة في غاية الخصب واعتدال الهواء ، كان أهل الأندلس يدعونها فيما سلف من الزمان : مُطَيَّبَ الأندلس ؛ والمطيبُ عندهم حُزْمَة يعملونها من أنواع الرياحين ويجعلون فيها النرجس والآس وغير ذلك من أنواع المشمومات ؛ سموا بلنسية بهذا الاسم لكثرة أشجارها وطيب ريحها ؛ وبين بلنسية هذه وبين البحر الرومي قريبٌ من أربعة أميال .

ثم بعدها مدينة تُدعى شاطبة ، بينها وبينها مرحلتان . وبينهما مدينة صغيرة تدعى جزيرة الشُّقْر ؛ وسميت جزيرة لأنها في وسط نهر عظيم قد حفَّ بها من جميع جهاتها فلا طريق إليها إلا على القنطرة .

ومن شاطبة هذه إلى مدينة دانية التى على ساحل البحر الرومى ، يومٌ تامٌ .

ومن شاطبة إلى مدينة مرسية ثلاثة أيام .

ومن مرسية إلى البحر الرومى عشرة فراسخ .

ومن مدينة مرسية إلى مدينة أغرناطة سبع مراحل .

وبين ذلك بلاد صغار ، أولها مما يلى مُرسية : حصن لركة ، ثم حصن آخر يدعى بَلَس ، ثم حصن آخر يدعى قُلْبَة ، ثم بليدة صغيرة تسمى بَسْطَة ، ثم بليدة أخرى على مسيرة يوم من أغرناطة تسمى وادى آش ، ويقال لها أيضاً وادى الأشى ؛ هكذا سمعت الشعراء ينطقون بها فى أشعارهم فهذه البُليدات التى بين أغرناطة ومرسية .

وفى مقابلة وادى آش على ساحل البحر الرومى ، مدينة المَريّة (مخففة الراء) وهى مدينة مشهورة ، تضرب أمواج البحر فى سورها ، بينها وبين وادى آش هذه مرحلتان للمُجدد .

وبعد المدينة المعروفة بالمرية على ساحل البحر الرومى ، حصن مُنكَب ، وهى بليدة صغيرة يضرب البحر أيضاً فى سورها ، بينها وبين المرية أربع مراحل .

وبين حصن منكَب هذا وبين مدينة مالقة ثلاث مراحل .

وبين مالقة وبين الجزيرة الخضراء ثلاث مراحل للمُجدد .

وبالجزيرة الخضراء ، أو بجبل الفتح ، يلتقى البحران كما ذكرنا ، فالذى على ساحل البحر الرومى من بلاد المسلمين بالأندلس : الجزيرة

الخضراء ، ومالقة ، ومنكب ، والمرية ، ودانية ، وبين المرية ودانية نحو من ثمان مراحل ؛ ووراء دانية الحصن الذى يسمى بِنَشْكُلَة ، وقد تقدم ذكره .

فهذا ما على الساحل من بلاد المسلمين بالأندلس ، أعنى ما يضرب الموج فى سوره ؛ فأما مدينة بلنسية فبينها وبين البحر - كما ذكرنا - قريب من أربعة أميال .

* * *

ثم نعود إلى ذكر البلاد التى ليست على الساحل ؛ فنقول :
من مدينة أغرناطة إلى البحر قريب من أربعين ميلا ؛ وذلك مسيرة يوم تام أو يومين على الرفق .

ومن مدينة أغرناطة إلى مدينة جيان ، مرحلتان ؛ فبين جيان وبين البحر الروى ثلاث مراحل .

ومن مدينة جيان إلى مدينة قرطبة مرحلتان .

(ذكر قرطبة)

وقد تقدم ذكر قرطبة هذه وأنها كانت دارَ مُلك المسلمين ومقرَّ تدبيرهم إلى أن نشأت الفتنة واختل أمر بنى أمية بالأندلس .

وبلغت قرطبة هذه من القوة وكثرة العمارة وازدحام الناس مبلغاً لم تبلغه بلدة . حكى ابنُ فياض فى تاريخه فى أخبار قرطبة قال : كان بالربض

الشرقي من قرطبة مئة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي ؛ هذا ما في ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها ؟ .
وقيل إنه كان فيها ثلاثة آلاف مقلّس ، وكان لا يتقلّس عندهم في ذلك الزمان إلا من صلح للفتيا .

وسمعت ببلاد الأندلس من غير واحد من مشايخها ، أن الماشي كان يستضيء بسروج قرطبة ثلاث فراسخ لا ينقطع عنه الضوء .
وبها الجامع الأعظم الذي بناه أبو المطرّف عبد الرحمن بن محمد المتلقب بالناصر لدين الله ، وزاد فيه بعده ابنه الحكم المستنصر بالله ؛ فزيادة الحكم معروفة إلى اليوم .

وحكى أبو مروان بن حيّان - رحمه الله - في أخبار قرطبة ، أن الحكم لما زاد زيادته المشهورة في الجامع اجتنب الناس الصلاة فيها أياماً ؛ فبلغ ذلك الحكم ، فسأل عن علته ؛ ف قيل له إنهم يقولون : ما نذرى هذه الدراهم التي أنفقها في هذا البنيان من أين اكتسبها فاستحضر الشهود والقاضى أبا الحكم المنذر بن سعيد البلوطي المتقدم الذكر في قضائه (١) ، واستقبل القبلّة وحلف باليمين الشرعية التي جرت العادة بها أنه ما أنفق فيه درهما إلا من خمس المغنم . وحيثئذ صلى الناس فيه لما علموا بيمينه .

ومن الخمس أيضاً كان أبوه بناه وزاد فيه أبو عامر (المنصور) محمد بن أبي عامر زيادة أخرى من هذه النسبة ؛ فهو مسجد لم ينفق فيه درهم إلا من خمس المغنم ؛ وهو معظم القدر عند أهل الأندلس ، مبارك ، لا يصلّى

(١) انظر ص ٥٥ .

فيه أحدٌ ويدعو بشيء من أمر الدنيا والآخرة إلا استُجيب له ؛ قد عُرف ذلك من أمره واشتهر .

[وحكى^(١) غيرُ واحدٍ أن الأَدفنش - لعنة الله - لما دخلها في شهر سنة ٥٠٣ ، دخل النصارى في هذا المسجد بخیلهم ، فأقاموا به يومين لم تبُلُ دوابُّهم ولم ترُثُ حتى خرجوا منه ؛ وهذه الحكاية مما تواتر عندهم واستفاض بقرطبة^(٢)] .

وقد جمع أهل الأندلس كتباً في فضائل قرطبة وأخبارها ومن كان بها أو نزلها من الصالحين والفضلاء والعلماء .

(ذكر إشبيلية)

ومن مدينة قرطبة إلى مدينة إشبيلية ثلاث مراحل ؛ وإشبيلية هذه هي حاضرة الأندلس في وقتنا هذا . وهي التي تسمى عندهم في قديم الزمان حمص . سُميت بذلك لنزول أجناد حمص إليها حين افتتح المسلمون الأندلس^(٢) .

وقد زاد أمرُ هذه المدينة على صفة كل واصل ، وأتى فوق نعت كل ناعت ؛ وهي على شاطئ نهر عظيم ينصبُّ من جبل شَقُورة ؛ وتنصب فيه

(١) يرى دوزى أن هذه العبارة ليست من كلام المؤلف .

(٢) انظر التعليق ص ١٧٢ .

أنهار كثيرة ، فلا يصل إلى إشبيلية إلا وهو بحر خضم ؛ تصعد فيه السفن الكبار من البحر الأعظم ، تُرْسَى على باب المدينة ، بينها وبين البحر الأعظم سبعون ميلا ، وذلك مرحلتان .

وهذه المدينة كانت قاعدة ملك بنى عباد حسبما تقدم^(١) ، ثم صيرها المصامدة منزلاً لهم أيام كونهم بالأندلس ؛ منها ينفذ أمرهم ، وفيها يستقر ملكهم ؛ وبنوا بها قصوراً عظيمة ، وأجروا فيها المياه ، وغرسوا البساتين ؛ فزاد ذلك في حسن هذه المدينة ، أعنى إشبيلية .

* * *

ومن إشبيلية إلى مدينة شلب التي على ساحل البحر الأعظم ، خمس مراحل ؛ وبين ذلك بُليدات صغار ؛ كمدينة لبلة ، وحصن مرثلة ، ومدينة طبيرة ، ومدينة العليا ، والمدينة المعروفة بشنتمرية .

هذه البلاد كلها فيما بين شلب وإشبيلية من مغرب الأندلس . وبين قرطبة وبين البحر الرومي خمس مراحل ؛ وقرطبة أيضاً على ساحل هذا النهر الذي ينصب إلى إشبيلية ؛ يعظم جداً حتى تصعد فيه السفن كما تقدم ، وينحدر من أراد في القوارب من قرطبة إلى إشبيلية ، ويصعدون من إشبيلية إلى قرطبة ؛ كهيئة النيل .

(١) انظر ص ١٢٦ ثم ١٤٨ وما بعدها .

وبين مدينة إشبيلية ومدينة شريش مرحلتان .

وبين شريش وبين البحر ثلاث مراحل .

فهذه جملة أخبار بلاد المغرب وجزيرة الأندلس ومسافات الأبعاد التي

بين كل بلد وبلد على التقريب ؛ منها ما سافرت فيه بنفسى ، ومنها ما نقلته

مستفيضاً عن السفّار المترددين .

فصل

انهار الاندلس الكبار المشهورة

وقد رأيت أن أذكر ههنا جملة أنهار الأندلس الكبار المشهورة بها ؛ فأول ذلك مما يلي المشرق : نهر طرطوشة ، وهو نهر عظيم ينصب من جبال هناك إلى مدينة طرطوشة ، ثم يصب في البحر الرومي . وبين طرطوشة وبين البحر الرومي اثنا عشر ميلا .

ثم نهر مرسية ، وهو يصب أيضاً في البحر الرومي ، منبعه من جبل شقورة ؛ وهو قسيم نهر إشبيلية ؛ منبعهما واحد ثم يفترقان ؛ فينصب هذا إلى إشبيلية وهذا إلى مرسية .

ثم نهر إشبيلية الأعظم - وقد تقدم ذكر منبعه - ثم تنصب فيه قبل وصوله إلى إشبيلية أنهار كثيرة ، فيعظم حتى يصير بحراً كما ذكرنا ، ثم يصب في البحر الأعظم المسمى أقيانس .

ثم نهر عظيم ببلاد الروم يسمى تاجو ، وهو الذي عليه مدينة طليطة وشنترين ؛ وبين هاتين المدينتين قريب من عشر مراحل ؛ وعلى هذا النهر أيضاً مدينة الأشبونة ، وبينها وبين شنترين ثلاث مراحل ؛ ثم ينصب هذا النهر إلى البحر الأعظم .

فهذه جملة أنهار الأندلس المشهورة بها .

خاتمة

وقد نجز بحمد الله جميع هذا الإملاء حسبما رسمه مولانا ، وجريتُ في ذلك كله على عادتي في التلخيص ، وتركت أسماء القرى والضُّياع والأنهار الصغار وغير ذلك مما لا تدعو إليه الحاجة ولا يُخلُّ بالتصنيف تركُّه ؛ فإن وافق غرض مولانا ولاق بنفسه وأتى وَفَقَ مراده فهي البغية الكبرى والأمنية العظمى التي لم أزل أكدح لها وأسعى فيها وأسبق إليها ؛ وإن يَكُ غير ذلك فما أنا بأول من اجتهد فحُرِّم الإِصابة ولم يقع على المراد ولا وفي المقصود !

وبالله أَعْتَصِم ، وإياه استرشد ، وعليه اعتمد ؛ وهو حسبي ونعم الوكيل .

* * *

وكان الفراغ من هذا الإملاء يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة من سنة ٦٢١ . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل .

* * *

(مكتوب في آخر المخطوطة ما يأتي :)

« بلغ قراءة وتصحيحها على جامعته بتاريخ السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٢١ . »

فهارس الكتاب

فہرِس الموضوعات

الموضوع	ص	الموضوع	ص
المصحف وأبو بكر الزيدى	٦٢	تصدير اللجنة بقلم الدكتور مهدي علام	
أبو عمر الرمادى	٦٩	مقدمة المحقق	١
ولاية هشام المؤيد بن الحكم المستنصر	٧٢	موضوع الكتاب	١
المنصور بن أبى عامر	٧٢	قيمته بين المراجع التاريخية	٢
أبو العلاء صاعد	٧٥	مؤلف الكتاب	٥
رجع الى المنصور بن أبى عامر	٨٣	نقص الكتاب	١٥
ابن دراج القسطلى	٨٥	محاولات لتكميل النقص	١٦
المظفر بن أبى عامر	٨٥	تكميل آخر	٢٠
الناصر بن أبى عامر - أول الفتنة	٨٦	مقدمة المؤلف	٢٣
تفصيل ما سبق اجماله (ولاية محمود			
ابن هشام بن عبد الجبار المهدي	٨٨		
ولاية سليمان بن الحكم بن سليمان بن			
عبد الرحمن الناصر المتلقب			
بالمستعين بالله	٩٠		
اولية بنى حمود	٩٠		
ابن حزم الظاهرى	٩٣		
ولاية (على) بن حمود الناصر	٩٨		
ولاية القاسم بن حمود المأمون	٩٩		
ولاية يحيى بن على المعتلى	١٠٢		
رد الأمر الى بنى أمية ولاية عبد الرحمن			
ابن هشام المستظهر	١٠٥		
ولاية محمد بن عبد الرحمن المستكفى			
بالله	١٠٧		
ولاية هشام المعتد بالله	١٠٩		
ذكر اخبار الاندلس بعد انتقال الدعوة			
الاموية عنها	١١١		
فصل ، رجع الحديث الى بنى حمود			
ومطمع بنى عباد فى التغلب على			
قرطبة	١١٣		
فصل يتضمن ذكر احوال الاندلس بعد			
انقطاع الدعوة الاموية عنها على			
الاجمال لا على التفصيل	١٢٣		
		القسم الاول	
		المغرب قبل عصر الموحدين	
		فصل فى ذكر جزيرة الاندلس	
		وحدها	٢٧
		ذكر فتح جزيرة الاندلس	٢٢
		ذكر من دخل الاندلس من التابعين	٢٧
		فصل فى فضل المغرب	٢٨
		فصل ، اول الاختلال فى الاندلس	٣٩
		ذكر خبر دخول عبد الرحمن بن معاوية	
		الاندلس	٤٠
		ولاية الامير هشام بن عبد الرحمن	٤٣
		ولاية الحكم بن هشام المتلقب بالربضى	٤٤
		ولاية عبد الرحمن بن الحكم	٤٨
		ولاية الامير محمد بن عبد الرحمن	٤٩
		بقي بن مخلد	٤٩
		ولاية المنذر بن محمد	٥٢
		ولاية عبد الله بن محمد	٥٣
		ولاية عبد الرحمن الناصر	٥٤
		منذر بن سعيد البلوطى	٥٥
		ولاية الحكم المستنصر	٥٩
		أبو على القالى	٥٩
		عود الى الحكم المستنصر	٦١

الموضوع	من
ملوك الطوائف	١٢٤
بنو الافطس	١٢٧
عبد المجيد بن عبدون	١٢٨
قصيدة ابن عبدون	١٢٩
ابو بكر بن زهر	١٤٥
رجع القول الى ملوك الطوائف	١٤٦
اولية المرابطين بالاندلس	١٤٧
فصل ملك بنى عباد باشبيلية	١٤٨
ولاية المعتضد بالله العبادي	١٥١
نشأة المرابطين في مراكش	١٥٦
ولاية ابي القاسم بن عباد المعتمد على الله	١٥٨
عبد الجليل بن وهبون الشاعر	١٥٩
رجع الحديث عن المعتمد بن عباد	١٦٠
ابو الوليد بن زيدون	١٦٢
ابو بكر بن عمار	١٦٩
قتل ابن عمار	١٨٦
رجع الحديث الى بنى عباد	١٨٩
المرابطون بالاندلس	١٩٠
وقعة الزلاقة	١٩٣
بين المعتمد بن صمادح والمعتمد بن	
عباد	١٩٦
نكبة بنى عباد	١٩٩
استيلاء المرابطين على الاندلس	٢٠٠
ثورة اشبيلية	٢٠١
الاستيلاء على اشبيلية	٢٠٢
ابو بكر الداني	٢١١
رجع الحديث الى اخبار المعتمد	٢١٧
فصل (رجع الحديث عن دولة المرابطين	
بالاندلس)	٢٢٥
اعيان الكتاب في دولة المرابطين	٢٢٧
وزارة ابن عبدون	٢٢٨
ولاية ابي الحسن على بن يوسف بن	
تاشفين	٢٣٥
اعيان الكتاب في عهد ابي الحسن	٢٣٧
اختلال احوال المرابطين	٢٤١
الموضوع	من
القسم الثاني	
دولة الموحدين بالمغرب والاندلس	
ذكر قيام محمد بن تومرت المتسمى	
بالمهدي وبده أمر الموحدين بالمغرب	
والاندلس	٢٤٥
ابن تومرت في حضرة ابن تاشفين	٢٥١
بدء دعوة الموحدين	٢٥٤
طبقات الموحدين	٢٥٥
الحرب بين المرابطين والموحدين	٢٥٩
ذكر ولاية عبد المؤمن	٢٦٢
وصية ابن تومرت	٢٦٢
فصل ، حياة عبد المؤمن واعماله وعماله	٢٦٥
اولاده	٢٦٦
وزرائه	٢٦٦
كتابه	٢٦٧
قضائه	٢٦٩
رجع الحديث الى اخبار عبد المؤمن	٢٦٩
نهاية المرابطين وآخر من ولى الامر منهم	٢٧٠
تغلب عبد المؤمن على بجاية وقلعة بنى	
حماد	٢٧٢
فصل . احوال الاندلس بعد سقوط	
دولة المرابطين	٢٧٧
عبور الموحدين الى الاندلس	٢٨١
محمد بن حبوس الفاسي الشاعر	٢٨٢
الاصم المرواني الشاعر ، ابن الطليق	٢٨٤
الرصافي الرفاء الشاعر	٢٨٦
وصل الحديث عن عبد المؤمن بن علي	٢٩٣
منازل العرب الهلالية في المغرب	
والاندلس	٢٩٣
غزو الموحدين لافريقية	٢٩٧
فتح المهدية واسترجاعها من يد	
الصقليين	٢٩٨
امتداد مملكة الموحدين الى الشرق	٣٠٠
الوان من شكر النعمة	٣٠١
وفاة عبد المؤمن	٣٠٦
ذكر ولاية ابي يعقوب يوسف بن	
عبد المؤمن وما يتعلق بها	٣٠٨
صفة ابي يعقوب	٣٠٩

الموضوع	ص	الموضوع	ص
رجع الحديث عن بنى غانية فى بجاية	٢٤٧	ابو بكر بن طفيل	٢١١
استرجاع بجاية من يد البيورقيين ...	٢٤٨	أبو الوليد بن رشد	٢١٤
استرجاع قفصة	٢٤٩	رجع الحديث عن الامير أبى يعقوب ...	٢١٦
ابراهيم الزويلى الكاتب	٢٥٠	وزراؤه	٢١٦
رجع الحديث عن بنى غانية	٢٥١	كتابه	٢١٦
اختلاف بنى عبد المؤمن	٢٥٢	حاجبه	٢١٧
دعوة أبى يوسف الى الاخلا بالكتاب		اولاده	٢١٧
والسنة	٢٥٤	قضائه	٢١٨
استرجاع مدينة شلب	٢٥٦	فصل ، دخول بنى مردنيش فى طاعة	
طامع آخر من بنى عبد المؤمن	٢٥٧	الوحيدين	٢٢١
وقعة الارك	٢٥٨	الخارجون على طاعة الموحدين بالمغرب	٢٢٤
عزم أبى يوسف على قصد مصر ...	٢٦٠	صلاح ملك صقلية	٢٢٥
شئ من سيره	٢٦١	المصحف العثماني فى المغرب ...	٢٢٦
ممالك الفز المصريون فى المغرب ...	٢٦٥	حسن معاملة الموحدين لمن يلقبونهاهم من	
شعبان الفزى المصرى	٢٦٧	الملوك	٢٢٧
ابو يوسف وعقيدة العمامة فى ابن		اتساع الدولة وزيادة الخراج ...	٢٢٨
تومت	٢٦٨	محاولة أبى يعقوب فتح شنترين ،	
اهتمامه بالتشييد والبناء	٢٦٩	وفاته	٢٣٠
على بن حزمون الشاعر	٢٧٠	عاقبة أبى الحسن الملقب الخطيب ...	٢٣٢
محمد بن عبد ربه الكاتب حفيد صاحب		وفاة الامير أبى يعقوب	٢٣٤
العقد	٢٧٤	ذكر ولاية أبى يوسف يعقوب بن يوسف	
ابو جعفر الحيمارى المؤدب	٢٧٩	ابن عبد المؤمن	٢٣٦
اليهود فى عهد أبى يوسف	٢٨٣	صفته	٢٣٦
محنة أبى الوليد بن رشد	٢٨٤	اولاده	٢٣٧
ذكر ولاية أبى عبد الله محمد بن		وزراؤه	٢٣٧
أبى يوسف أمير المؤمنين	٢٨٦	حجابه	٢٣٨
صفاته	٢٨٦	كتابه	٢٣٨
اولاده	٢٨٦	قضائه	٢٣٩
وزراؤه	٢٨٧	تلخيص التعريف بخبر بيعته ...	٢٤٠
صلة المؤلف بابراهيم أبى يوسف ...	٢٨٧	بيان مدينة الرباط	٢٤١
اولية الوزير أبى سعيد بن جامع ...	٢٨٩	طمع بنى غانية فى التغلب على افريقية	٢٤٢
حجابه	٢٩٠	التعريف ببنى غانية ودار ملكهم ...	٢٤٢
كتابه	٢٩١	يحيى بن غانية	٢٤٢
قضائه	٢٩١	محمد بن غانية	٢٤٣
اعمال أبى عبد الله بن أبى يوسف ...	٢٩٣	اسحق بن محمد	٢٤٤
دخول الموحدين جزيرة ميورقة	٢٩٤	على ابن اسحق	٢٤٥
عبد الرحمن الجزولى الثائر	٢٩٥	استطراد انتفاض العرب بافريقية على	
فتح جزيرة ميورقة	٢٩٧	الموحدين	٢٤٦

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٤٢٥	اصناف الموحدين	٣٩٧	محاربة يحيى بن غانية بأفريقية
٤٢٦	صفة أحوالهم في السفر والحضر	٣٩٨	انتفاض الهدنة بين الموحدين والفرنجية
٤٢٧	صفة أحوالهم في إقامة الجمعة	٣٩٩	فتح شلبترة
٤٣٠	ذكر أقاليم المغرب والاندلس	٤٠٠	اشهر الامارات الاسبانية في ذلك العهد
٤٣١	اولا المدن المأثرة على الساحل	٤٠١	وقعة العقاب وهزيمة المسلمين
	اتصال العمران بين الاسكندرية	٤٠٣	وفاة الناصر محمد
٤٣٢	والقيروان	٤٠٤	ذكر ولاية ابي يعقوب يوسف بن محمد
٤٣٣	بلاد أفريقية الساحلية	٤٠٤	صفته
٤٣٥	شان مدينة قرطاج في القديم	٤٠٤	وزرائه
٤٣٧	بلاد المغرب الساحلية	٤٠٥	حجابه
٤٣٨	بلاد على المضيق	٤٠٥	فضائه
٤٣٩	البلاد التي ليست على ساحل	٤٠٥	كتابه
٤٤٠	بلاد أفريقية	٤٠٦	بيعته
٤٤٠	شان القيروان في قديم الزمان		فاطمي من سلالة ملوك القاهرة يشور
٤٤٢	بلاد المغرب	٤٠٨	بمراكش
٤٤٢	طريق السفار من بجاية الى مراكش	٤٠٩	عود الى الحديث عن ابي يعقوب الثاني
٤٤٣	التعريف بمدينة فاس	٤١٠	ناتران آخران على ابي يعقوب الثاني
٤٤٥	مدينة الرباط	٤١٠	وفاة ابي يعقوب الثاني
٤٤٦	ترجمة المؤلف لنفسه		ولاية ابي محمد عبد العزيز بن ابي
٤٤٧	بلاد السوس الاقصى	٤١١	يعقوب الاول
	ذكر ما بالمغرب من معادن الفضة	٤١٣	صفته
٤٤٧	والحديد	٤١٥	ولاية ابي يعقوب بن عبد المؤمن
٤٤٨	المعادن بجزيرة الاندلس	٤١٦	ولاية العادل بن المنصور
٤٤٩	ذكر أسماء الانهار العظام التي بالمغرب	٤١٦	ولاية المأمون بن المنصور
	ذكر جزيرة الاندلس وأسماء مدنها	٤١٦	المعتصم بن الناصر
٤٥٠	وانهارها	٤١٧	خروج الاندلس عن طاعة الموحدين
٤٥١	مجاز الاندلس	٤١٧	ولاية الرشيد بن المأمون
	البلاد التي تغلب عليها النصارى الى	٤١٨	ولاية المعتضد بن المأمون
٤٥٢	سنة ٦٢١	٤١٨	ولاية المرتضى ابي حفص بن اسحق
	المدن التي بقيت بأيدي المسلمين الى	٤١٨	ابو دبوس الوائق
٤٥٤	الى سنة ٦٢١	٤١٩	تغلب بنى مرين
٤٥٦	سذكر قرطبة		جامع سير المصامدة واخبارهم وقبائلهم
٤٥٨	ذكر اشيلية	٤٢٠	واحوالهم في ظعنهم واقامتهم
٤٦١	فصل ، أنهار الاندلس الكبار المشهورة	٤٢٣	ذكر قبائل الموحدين
٤٦٢	خاتمة	٤٢٤	حد بلاد المصامدة

فهرس الأعلام والبلدان والقبائل

- آسيا : = ٢٧
 الأمر بن المستعل : = ٢٤٦
 ابن الأبار : = ٨٣ ، ١٢٨ ، ٢٠٩ ، ٢٨٠
 أبله (مدينة) : = ٤٠٢
 إبراهيم (عليه السلام) : = ٣٨٨
 إبراهيم بن اسحاق بن غانية : = ٣٤٥
 إبراهيم بن الاشتد النخعي : = ١٢٤
 إبراهيم بن الأغلب : = ٣٢٥
 إبراهيم بن جامع : = ٣٨٩
 إبراهيم بن أبي حفص عمر ومزال : = ٤٢٠
 إبراهيم الزويلي الكاتب (أبو اسحاق) : = ٣٥١ ، ٣٥٠
 إبراهيم بن أبي سفيان (أبو اسحاق) : = ٣٨
 إبراهيم بن عبد المؤمن : = ٢٦٦
 إبراهيم بن ملكون (أبو اسحاق) = بن ملكون ٤١٤
 إبراهيم بن موسى الضرير : = ٣٠٩
 إبراهيم بن همشك = ابن همشك
 إبراهيم بن أبي يعقوب : = ٣١٨ ، ٣٣٧ ، ٤١١
 إبراهيم ابن أبي يوسف : = ٣٨٧ ، ٣٣٧
 إبرو (نهر) : = ١٢٤
 أبرويز : = ١٣٢
 أبستار (موضع) : = ٤٤٨
 أبله (مدينة) : = ٤٥٣
 القاضي الأبهري المالكي : = ٦٢
 ائل (أم المنذر بن محمد) : = ٥٢
 بنو الأنبيج : = ٢٧٤
 ابن الأثير : = ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٧٥ ، ٢٩٨ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩
 أحد (جبل) : = ١٢٣
 الأحطب بن الجند (أبو القاسم) : = ٢٣٧
 أحمد بن إبراهيم الدروقي : = ٥٠
 أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري (أبو العباس) : = ٣٦٩
 أحمد بن اسحاق (أبو بكر) : = ١٨١
 أحمد الحاجب : = ٣٦٦
 أحمد بن حنبل : = ٥٠ ، ٣٣٩
 أحمد بن خالد : = ١٠٧
 أحمد بن خراسان : = ٢٩٨
 أحمد بن سعيد بن حزم (أبو عمر) : = ٧٩ ، ٩٣ ، ٩٧
 أحمد بن سعيد بن اللب (أبو جعفر) : = ٩٢
 أحمد بن سليمان بن هود : = المقنبر
 أحمد بن طاهر (أبو بكر) : = ١٨١
 أحمد بن طولون : = ٣٦٥
 أحمد بن عبد ربه (صاحب العقد) : = ١٤٦ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥
 أحمد بن عبد العزيز بن أبي يعقوب : = ٤٠٢
 أحمد بن عبد الملك بن شهيد (أبو عامر) : = ١٠٦
 أحمد بن عطية : = أبو جعفر الوزير
 أحمد بن أبي حفص عمر أيتي : = ٤٢٠
 أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار (صاحب المسند) : = البزار
 أحمد بن قسي : = ٢٨١
 أحمد بن محمد (أبو جعفر) : = ابن البني
 أحمد بن محمد بن بقي (أبو القاسم) : = ٣٣٩ ، ٣٦٢ ، ٣٩١
 أحمد بن محمد بن دراج القسطلي (أبو عمر) : = ابن دراج القسطلي
 أحمد بن محمد بن عياش الكاتب : = أبو جعفر ابن عياش
 أحمد بن محمد بن يحيى الحميري (أبو جعفر) : = ٦ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١
 أحمد بن مردنيش : = ٢٧٨
 أحمد بن مضاء (أبو جعفر) : = ٢٢٠ ، ٣٣٩
 أحمد بن منيع (أبو جعفر) : = ٣٩١ ، ٤٠٦
 أحمد بن موسى المعروف بأبن بقة (أبو جعفر) : = ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥
 أحمد الناصر (أبو العباس) : = ٨ ، ٣٤٧
 بنو الأحمر : = ٤١٩
 الأحنف بن قيس : = ١٣٢
 الأخشيدي (الدولة) : = ٢٧٢

أدريس بن إبراهيم بن جامع (أبوالملاء) :
 = ٣١٦ ، ٣٩٠
 أدريس بن علي بن حمود : = ٩٨ ، ٩٩ ،
 ١٠٠ ، ١٠١ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،
 ١١٦ ، ١٥٠
 أدريس الوراق (أبوالملاء) : = أبو ديبوس
 أدريس بن يحيى بن علي بن حمود : = ١٠٤ ،
 ١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،
 ١٢١ ، ١٥٠
 أدريس بن أبي يعقوب (أبوالملاء) : = ٣١٨ ،
 ٣٣٧ ، ٣٩٤ ، ٤١٢
 أدريس بن أبي يوسف المنصور (أبوالملاء) :
 = ٣٣٧ ، ٤١٦ ، ٤١٨
 الأدفنش : = ١٢٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
 ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ،
 ٢٧٧ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ،
 ٣٦٣ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٩ ، ٣٨٨ ،
 ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ،
 ٤٥٣ ، ٤٥٨
 أربل (بلد) : = ٣٦٦
 أرسطو : = ٣١٥ ، ٣٨٤
 الأرض الكبيرة : = ٢٧ ، ٢٩
 أرغن (بلد) : = ١٢٥ ، ٢٧٧ ، ٣٩٩ ، ٤٥٣
 أرقم بن محمد بن سعد : = ٣٢٣
 الأرك (موضع) : = ٣٥٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٤ ،
 ٣٩٩ ، ٤٠١
 أركش (حصن) : = ٢٠٤
 ارم (قصر) : = ٢٢٣
 الأرمن : = ٣٦٥
 أروى (حظية المدغم بن صمادح) : = ١٩٨
 الأسبان : = ٢٨ ، ٣٠ ، ١٢٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ،
 ٢٩٥ ، ٣٦٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠
 أسبانيا : = ٢٠٠ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٥٠
 استجة (حصن) : = ١١٤
 أبو اسحاق إبراهيم : = ابن ملكون
 أبو اسحاق الحصري (صاحب زهر الآداب) :
 = ٢٠٥
 أبو اسحاق بن أبي يوسف المنصور : = ٦ ،
 ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤
 اسحاق بن يوسف بن تاشفين : = ٢٧١ ،
 ٢٧٢
 اسحاق بن محمد بن غانية : = ٣٤٤
 اسحاق بن محمد بن أبي يوسف : = ٣٦٨
 اسحق بن أبي يعقوب (أبوإبراهيم) : = ٣٠٩ ،
 ٣١٨

أسد (قبيلة) : = ١٣١
 أسد بن الفرات : = ٣٢٥
 الاسكندر : = ١٣٠ ، ١٤٧ ، ٢١٤ ، ٢٥٩
 الاسكندرية : = ٤٤ ، ٤٥ ، ٢٤٦ ، ٣٢٦ ، ٤٣٢
 اسماعيل بن إبراهيم (عليهما السلام) : =
 ١٣٠
 اسماعيل بن اسحاق المنادي الشاعر : = ٩٢
 اسماعيل بن عبد الله المخزومي : = ٣٥
 اسماعيل بن عبد المؤمن : = ٢٦٦
 اسماعيل بن أبي حفص عمر ومزال : = ٤٢٠
 اسماعيل بن محمد بن اسماعيل بن عباد : =
 ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٤٩ ، ١٥٠
 اسماعيل بن المعتضد العبادي : = ١٥٢ ، ١٥٦
 اسماعيل بن ذي النون : = ١٢٥ ، ١٢٦
 اسماعيل بن يحيى الهزرجي (أبوإبراهيم) : =
 ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥
 اسماعيل بن أبي يعقوب : = ٣١٨
 أسوان : = ٤٢١
 الأشبونة : = ٨٩ ، ١٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٠ ،
 ٤٥٣ ، ٤٦٠
 اشبيلية : = ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ،
 ٣٠ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٦٥ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،
 ١٠٤ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ،
 ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ،
 ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ،
 ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ،
 ١٨٤ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٨ ،
 ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ،
 ٢٢٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ،
 ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ،
 ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،
 ٣٣٤ ، ٣٤٠ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ،
 ٣٦٧ ، ٣٧٠ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ،
 ٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٨ ، ٤١١ ،
 ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٨ ،
 ٤٥٩ ، ٤٦٠
 الأشعرية : = ٢٥١
 أشهب (من علماء المالكية) : = ٢٣٦
 أشونه (حصن) : = ١١٤ ، ١٢١
 أشير (قلعة) : = ٢٧٣
 أصبغ (من علماء المالكية) : = ٢٣٦
 أبو الأصبغ : = عيسى بن حجاج الحضرمي
 أبو الفرج الأصفهاني : = ٦١
 الأصم الرواسي الشاعر (ابن الطلق) : =
 ٢٨٤ ، ٢٩٧

١٢٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٤ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ،
٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ،

الأكراد : = ٣٩٤

أكسفورد : = ١٨ ، ٧٣

البنيت (حصن) : = ١٠٨

الكست (مدينة) : = ٤٤٧

المان : = ٣٩٩

امرؤ القيس : = ٦٦ ، ١٣١ ، ١٦٢

أم الربيع (نهر) : = ٤٢٤ ، ٤٥٠

أم عاصم القوطية (زوجة عبد العزيز بن موسى

بن نصير) : = ٣٥

أميرة بنت الحسن بن قنون : = ١٠١

الأمين ابن الرشيد : ١٣٧

بنوأمية : ١٥ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ،

٤٣ ، ٤٦ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٩١ ، ١٠٥ ،

١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٢٣ ، ١٣٦ ،

١٥١ ، ١٨٠ ، ١٧١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ،

٤٤٠ ، ٤٤٣ ، ٤٥١ ، ٤٥٦ ،

أمين مرسي قنديل : = ١٨

أبو أنس = الضحاك بن قيس الفهري

أنسا (ضيعة) : = ٣٠٨

انطابلس (بلد) : = ٤٣١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٩ ،

انقرة (بلد) : = ١٣١

أورية (موضع) : = ٤٤٩

أيت ومنغار (قبيلة) : = ٣٠٣

ايعل أن وارغن (ضيعة) : = ٢٤٥

ايرش (حصن) : = ١١٨ ، ١١٩

أيسر غنين (قبيلة) : = ٢٤٥

إيطاليا : = ٣٢٥

بنوأيوب : = ٤٠٨

أيوب الجدميوي : = ٤٢٢

أيوب بن حبيب اللخمي (ابن أخت موسى بن

نصير) : = ٣٥

(ب)

باب تاطنت (من أبواب بجاية) : = ٣٠١

باب الفرج (من أبواب اشبيلية) : = ٢٠١

باب لد (من أبواب القدس) : = ٢٥٨

بابل : = ٥٧ ، ١٣٢

باجه : = ٢٤٨ ، ٤٥٣ ،

ابن باجة : = ٣١١

ابن باديس : = المعز بن باديس

بنو باديس : = ٢٧٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ،

٤٣٨ ، ٤٤١ ،

اطلس (جبال دون) : = ٢٨ ، ٢٥٩ ، ٣٢٤ ،
٤٢٤

اطلنطا : = ٢٨

اعتماد الرميكية (زوجة المعتمد بن عباد) : =

٢٠٧ ، ٢١٨

الأعراب (أعراب سليم) : = ٤٣٢

الأغالبية : = ٣٢٥ ، ٤٤٠

أغرناطة = غرناطة

أغلب بن محمد بن ابراهيم بن أغلب التميمي :

= ٤٤٠

أغمات : = ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ،

٢٢٥ ، ٣١٩ ، ٤٢٢ ،

أفراغة : = ١١٠ ، ١٢٤ ، ٢٧٧ ، ٤٥٣ ،

أفراغة : = ١١٠ ، ١٢٤ ، ٢٧٧ ، ٤٥٣ ،

الأفرنج : = ٢٩ ، ٤٤ ، ٨٩ ، ١٢٥ ، ١٣٦ ،

٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٥٦ ،

٣٦٦ ، ٣٩٨ ، ٤٠٢ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ،

٤٥١

الفرنسة = فرنسا

أفريقش : = ٤٢٤

أفريقية : = ٢٧ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٩ ،

٢٤٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٩٣ ،

٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ،

٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ،

٣٤٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ،

٣٥٢ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٧ ،

٣٩٨ ، ٤١٢ ، ٤٢٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ ،

٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ،

٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٩ ،

بنو الأفطس : ١٣٨ ، ١٩٨

ابن الأفطس = المتوكل

ابن الأفطس = المظفر

أفلاطون : = ٣١٥

الفونس هنريكنز (ابن الريق - ابن الريك) :

= ٤٠٠

الفونس الثالث : = ٣٩٩ ، ٤٠٠

الفونس السادس ملك قشتالة : = ١٢٦ ،

١٩٢ ، ٣٣٠

الفونس التاسع : = ٤٠٠

أقريطش (كريت) : = ٤٤ ، ٤٥

أفليج (مدينة) : = ٤٥٣

أقيانوس : (المحيط الأطلسي بحر الظلمات ،

البحر الأخضر ، البحر الأعظم ، المحيط

الأطلنطي) : = ١ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ،

برشانة (بلدة) : = ٣٣٨
برشلونة (برشونة) : = ١٢٤ ، ١٢٥ ، ٤٥٣

ابن برطل : = يحيى بن زكريا التميمي
برغواطة (قبيلة) : = ١١٩
برقة (بلد) : = ٤٥ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ ، ٤٤٧ ، ٤٣٩

البرك : الحجاج بن عبد الله الصريمي
قريفة (أم المنصور بن أبي عامر) : = ٨٤
البرار : (صاحب السنن) : = ٣٨٥
بسطة (بلدة) : = ٤٥٥

ابن بسام (أبو الحسن علي) : = ١٤١ ، ٢٣٨
أبوسام الكاتب : = ٤٦ ، ٤٧
يسكرة (مدينة) : = ٤٤٠

البسوس (امرأة) حرب البسوس : = ١٣١
البشكنس : = ٨٢
البصريون : = ٦٠
البنظام : = ٣٠٢

بطرو بن الريق : = بدر
ابن بطوطة : = ٢٨

بطليموس : = ٢٥٢ ،

بطليموس (مدينة) : = ١٢٧ ، ١٣٩ ، ٤١٧
بغداد : = ٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٤٤٣ ، ٤١٧ ، ٢٧٣ ، ٢٥٦ ، ٢٤٥

بقيص بن ريث بن غطفان : = ١٣١
البقاع : = ٣٦١

ابن بقنة = أحمد بن موسى بن بقنة
بقي بن مخلد : = ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٣٣٩ ،
ابن بقي (أبو القاسم) : = أحمد بن محمد بن بقي

بكارش (موضع) : = ٤٤٨

بكر بن وائل : = ٥٩ ، ١٣١

أبو بكر بن اسحاق بن محمد بن غانية : = ٣٤٩ ، ٣٤٥

أبو بكر بن الجعد : = ٣٥٥

أبو بكر الداني = ابن اللبانة

أبو بكر بن دريد : = ٨٠

أبو بكر الزبيدي : = محمد بن الحسن

أبو بكر بن زبدون = ابن زيدون

أبو بكر الشاشي : = ٢٤٥

أبو بكر بن الصانع = ابن باجه

أبو بكر الصديق : = ٢٨

أبو بكر الطرطوشي = الطرطوشي

أبو بكر بن طيفل = ابن طيفل

باديس بن بلكين : = ٢٧٣

باديس بن حيوس : = ١٢١ ، ١٨١

بياشتر (جبل) : = ٥٢ ، ١١٤

بجاية (مدينة) : = ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ،

٢٥٦ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ ،

٢٧٤ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ،

٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣١٧ ،

٣١٩ ، ٣٢٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٦ ،

٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣ ،

٣٩٣ ، ٣٩٧ ، ٤٠٦ ، ٤٣٧ ،

٤٤٢

بجاية (نهر) : = ٤٤٩

بجدة (نهر) : = ٤٤٩

البحري : = ٢٣٣

بحر مانطس : = ٢٨

البحر المتوسط : = ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٤٥ ،

١٢٤ ، ١٩١ ، ١٩٦ ، ٢١٢ ،

٣٢٥ ، ٣٦٦ ، ٤٣١ ، ٤٣٨ ،

٤٣٩ ، ٤٤٩ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ،

٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ،

بحر الهند : = ٤٣٩

البحيرة (موضع) : = ٢٦٠

البخاري ، (صاحب المسند) : = ٥ ، ٣٠٩

بدر (غزوة بدر) : = ١٣٢ ، ٢٨٥

بدر (مولى عبد الرحمن الداخل) : = ٤١

بنو بدر الديباني : = ١٣١

بدر بن محمد بن سعد : = ٣٢٣

بدر الثاني ملك أرجون : = ٣٣٩

بدور (ابن الفونس هنريكر ملك البرتغال) : = ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٥٦ ، ٤٠٠ ،

٤٥٣

ابن بدرون : = ١٣٨

بنة (بلد) : = ٢٨٠

البراذعي : = ٣٥٤

البرامكة : = ١٣٧

البربر : = ١٣ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٨٧ ، ٨٨ ،

٩٠ ، ٩١ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،

١٠٥ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٩ ،

١٢٠ ، ١٢١ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٤ ،

١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٩١ ،

١٩٣ ، ٢٠٣ ، ٣١٨ ، ٣٤٩ ، ٣٨٤ ،

٤٠٩ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٣٤ ،

٤٣٨

البرتغال : = ٣٥٦ ، ٤٠٠

بنو بزال : = ١١٤ ، ١٢٧ ، ١٥٤

(ت)

تاجرا (ضيعة) : ٢٦٥ ، ٣٠٢
 تاجه : تاجو (نهر) ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٤٦٠
 تدلا (بلدة) : ٣٥٢ ، ٣٥٣
 تارودانت (بلدة) : ٤٤٧
 التازي = عيسى بن عمران
 بتوتاشفين : ٢٥٦
 تاشفين بن اسحاق بن محمد : ٣٤٥
 تاشفين بن علي بن يوسف : ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٤٤٥ ، ٢٧٢
 تاشفين بن يوسف : ١٥٦
 تاطنت = باب تاطنت
 تاكرونة (بلدة) : ١٢١
 تانسيفت (نهر) : ٤٥٠
 تاهرت (مدينة) : ٤١١
 تبع : ٢١٣
 التجبيي : حجاج بن ابراهيم
 تدمر : ١٨٠
 تدمير (مدينة مرسية) : ١٨٠ ، ١٨٩
 الترك : ١٣٢ ، ١٣٨ ، ٣٢٩ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥
 الترمذي (صاحب السنن) : ٣٣٥
 تسول (قبيلة) : ٣١٨
 تغلب (قبيلة) : ١٣١ ، ٢٣٦
 تقي الدين الايوبي : ٣٥٠ ، ٣٦٦
 تلمسان (مدينة) : ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٦
 ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٣٠٢ ، ٣١٩ ، ٣٢٩ ، ٤١٨ ، ٤٤٣ ، ٤٤٩
 تليد النصى : ٥٩
 قمامان (موضع) : ٤٤٧
 ابو تمام : ٢٨٤ ، ٣٧٩
 قميم (قبيلة) : ٨٤ ، ٥
 قميم الداري : ٣٧
 قميم بن المعز بن ياديس : ٢٧٣ ، ٢٩٤ ، ٤٤١
 قنس (بلدة) : ٤٣٨
 تهتر (أم محمد بن الحكم) : ٤٩
 توذر (مدينة) : ٣٠٠ ، ٤٤٠
 اين تومرت : ١٤٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٥٩

أبو بكر بن عبد الله بن أبي حفص الوزير
 (أبو يحيى) : ٣٣٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢
 أبو بكر بن عبد الصمد الشاعر : ٢٢٥
 أبو بكر بن عبد العزيز البلسي : ١٩٢
 أبو بكر بن عمار الشاعر : ابن عمار
 أبو بكر بن القصيرة : ٢٢٧
 أبو بكر محمد بن زهر = ابن زهر
 أبو بكر محمد بن محمد = ابن القبطرنة
 أبو بكر مصعب بن عبد الله : ٦٦
 أبو بكر بن المنذر : ٥٧
 أبو بكر بن هاني : ابن هانيء
 أبو بكر بن يحيى القرطبي = بندوق
 أبو بكر بن أبي يعقوب : ٣١٧
 أبو بكر اليعمرى : ٢٨٠
 أبو بكر بن يوسف بن تاشفين : ٢٦٨
 أبو بكر بن أبي يوسف بن عبد المؤمن : ٣٣٧
 بلاد الجريد : ٣٠٠ ، ٣٤٧ ، ٤٤٠
 بلج بن بشر : ٣٦
 بلجين اللمتوني : ٢٠٠
 بلس (حصن) : ٤٥٥
 بلكين بن زيري : ٢٧٢ ، ٢٧٤
 بلنسية : ٣٠ ، ١٢٤ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ٢٤٠ ، ٢١٢ ، ١٩٦ ، ٢٧٨ ، ٣٢٢ ، ٣٤٣ ، ٣٩٥ ، ٤٢١ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦
 بنت الصحراوية : ٢٠٠ ، ٢٦٨
 بندوق بن يحيى القرطبي (أبو بكر) : ٣١٤ ، ٣١٥
 بنزرت : بني زوت (بلدية) : ٤٣٦
 بنشكلة (حصن) : ٤٥٤ ، ٤٥٦
 ابن البني (أبو جعفر أحمد بن محمد) : ٥٧ ، ٥٨ ، ٢٣٥
 بهتا (نهر) : ٤٤٩
 بني غازي : ٤٣١
 بوزابه (ملوك تقي الدين) : ٣٥٠
 بوصير (قرية) : ١٣٦
 بوابة المتولي : ٤٣٤
 بونة (مدينة) : ٢٧٣ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧
 بيان بن عثمان المثلث : ٢٥٣
 ابن ييجيت : ٤٢١
 بيزة (ميناء) : ١٢٤
 بمارستان مراکش : ٣٦٤
 البيهقي (صاحب السنن) : ٣٣٥
 بياسة (مدينة) : ٤٠٢

ابن جرموز : = ١٣٣
جرهم (قبيلة) : = ١٣٠
الجريد : = بلاد الجريد
جرير الشاعر : = ٢٢١
ابن الجزيرة : = عبد الرحمن الجزولي
الجزائر (دولة) : = ٢
الجزائر = جزائر بني مزغنة = بني مزغان
جزائر البليار = الجزائر الشرقية
الجزائر الشرقية : = ١٢٥
جزائر بني مزغنة = بني مزغان : = ٢٥٦ ، ٤٣٨ ، ٢٧٤
الجزر البريطانية : = ٣٩٩
جزولة : = ١٠ ، ٣٩٥ ، ٤١٠ ، ٤٢٥ ، ٤٤٧
الجزيرة : = ٢٢٠
الجزيرة الخضراء : = ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٧٢ ، ٩٠ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٩١ ، ٤٥٥ ، ٤٥٢ ، ٤١٧ ، ٣٧٥ ، ٢٨١
جزيرة الشقر : = ٤٥٤
جزيرة طريف : = ٤٢٨ ، ٤٤٠ ، ٤٥٢
جزيرة العرب : = ٢٧
جساس بن مرة : = ١٣١
جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي : = ١٣٤
جعفر الصادق : = ٢٤٧
أبو جعفر الوزير : = ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٠
جعفر بن أبي طالب : = ١٣٣
جعفر بن يحيى البرمكي : = ١٣٧ ، ١٧٨
جعفر بن أحمد (أبو الفضل) : = ابن محشوة
أبو جعفر أحمد بن محمد = ابن البني
أبو جعفر الحميري = أحمد بن محمد بن يحيى
أبو جعفر بن مضاء = أحمد بن مضاء
أبو جعفر الطبري = محمد بن جرير الطبري
أبو جعفر بن عياش : = ٤٠٦
أبو جعفر المنصور : = ٤٠ ، ٤٢ ، ١٥٢
جقر الهباءة (موضع) : = ١٣١
الجلاب (موضع) : = ٣٢٢
جنوة (ميناء) : = ١٢٤
الجواس بن قعطل المذحجي : = ٧٠
ابن أبي جمرة القاضي : = ٣٥٣
يوم الجمل : = ١٣٣
جنفيسة (قبيلة) : = ٤٢٣ ، ٤٢٥
الجنفيسي = محمد بن أبي سعيد
بنو جهور : = ١٦٣ ، ١٨٩ ، ١٩٠

٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٧ ، ٢٩٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣٢٦ ، ٣٣٤ ، ٣٥٥ ، ٣٦٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٤ ، ٤٠٥ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٣١ ، ٤٤٥
تومين (قرية) : = ١٤٩
تونس : = ٢ ، ٢٧٣ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٤٨ ، ٣٩٤ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٤٩
تينمل : = ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٣٠٨ ، ٣٠٥ ، ٣٣٤ ، ٣٦٠ ، ٣٦٨ ، ٣٩٤ ، ٤٠٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٢٥
تيودمير : = ١٨٠

(ث)

تبير (جبل) : = ٢١٩
التمالي (أبو منصور) : = ٨٥ ، ٣٧٣
تعلب : = ٧٩

(ج)

الجائليق : = ١٣٥
الجاحظ : = ٦٣ ، ٦٤
الجامع الأعظم : = ٤٥٧
جامع الزهراء : = ٥٦
جامع القرويين : = ٤٤١
جامع الزيتونة : = ٤٣٥
جبال أطلس : = أطلس
جامع البرانس : = ١ ، ٣٩٩
جبال غمارة = غمارة
جبل طارق : = ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥
جبل الفتاح : = جبل الفتحين = جبل طارق
ابن الجد = أبويكر
جديس (قبيلة) : = ١٣٠
جدميوه (قبيلة) : = ٤٢٤
جلم (قبيلة) : = ٢٧٨
جذوة المقتبس (كتاب) : = ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٩ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ١٠٢ ، ١٠٦
جذيمة بن الأبرش : = ٢٢٠

جهور بن محمد بن جهور (أبو الحزم) : =
١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٢٦ ، ١٦٢
جوهر الصقلي : = ٤٣٤
جيان (مدينة) : = ٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٨٠ ، ٣٦٩ ،
٤٠١ ، ٤١٧ ، ٤٢١ ، ٤٥٦

(ح)

أبو حامد الغزالي : ٢٣٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،
٤٢٥ ، ٤٥٠
حاحه (قبيلة) : = ٤٢٥ ، ٤٥٠
الحارث بن رائل = المهمل بن ربيعة
الحارث بن همام الشيباني : ٣٧٩
حام بن نوح : = ٤٣٤
الحامة = حامة دقيوس
حامة دقيوس : = ٣٠٠ ، ٣٤٩
الحافظ العبيدي : = ٢٧٤
حبابة (قينة) : = ١٣٦
الحبشة : = ٤٣٩
ابن حبوس (أبو عبد الله) = محمد
حبیب بن أوس = أبو تمام
حبیب بن أبي عبيدة الفهري : = ٣٤ ، ٣٥
ابن حبیب : = ٣٥٤
حجاج بن إبراهيم التجيبي : = ٣١٩
ابن حجاج البغدادي (أبو عبد الله) : = ٣٧٣
أبو الحجاج المغربي : = ١١٥
الحجاج بن عبد الله الصريمي : = ١٣٤
الحجاج بن يوسف الثقفي : = ١٣٥
أبو الحجاج = يوسف بن عيسى الأعم
أبو الحجاج = يوسف المراني
حجر الكندي : = ١٣١
الحجاز : = ٧ ، ١٣٠ ، ١٥٣
حدير بن واستوا : = ٢٠٢
حذيفة بن بدر : = ١٣١ ، ١٩١
أبو حذيفة الجذامي : = ١٢٤
الحر بن عبد الرحمن الثقفي : = ٣٥
الحر بن عبد الرحمن القيسي : = ٣٦
الحارث بن عامر بن نوفل : = ١٣٣
أبو الحزم بن جهور = جهور بن محمد ابن
جهور
ابن حزم : = ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٩ ،
٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٩ ،
٨٠ ، ٨١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٧ ،
١٠٦ ، ١٥٢ ، ٣٣٩
حسام بن ضرار الكلبی (أبو الخطار) : = ٣٦

حسبة السوق : = ٧٤
حسان بن مالك بن أبي عبدة (أبو عبدة) : =
٨٠
حسان بن النعمان : = ٤٣٥
أبو الحسن الأشعري : = ٢٥٥
الحسن ابن ادريس السامي : = ١١٤ ، ١١٨ ،
١٢٠
الحسن الثاني (ملك المغرب) : = ٣٠٨
الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب : =
٢٤٥
الحسن بن رشيق (أبو علي ، صاحب العمدة)
= ٣٢ ، ١٢٣
الحسن بن عبد المؤمن : = ٢٦٦
الحسن بن علي : = ٩٠ ، ٩٩ ، ١٠٧ ، ١٣٣ ،
١٣٧
بنو الحسن بن علي : = ١٠١ ، ١٠٧ ، ١١٣ ،
١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٣٧
الحسن بن علي بن باديس : = ٢٧٤ ، ٢٩٧ ،
٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٤٣٨
الحسن بن علي الكلبی : = ٣٢٥
الحسن بن عيسى بن عبد المؤمن : = ٣٤٦
أبو الحسن بن عياض = علي بن عياض
الحسن بن القاسم بن حمود : = ١٠٠ ، ١٠١ ،
١١٥ ، ١٢٦ ، ١٤٨
الحسن بن قنون : = ١٠١
أبو الحسن الملقى : = ٣٣٢ ، ٣٣٣
الحسن بن محمد بن الحسن : = ١٣٧
أبو الحسن المصخفي : = ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ،
٦٥ ، ٧٠ ، ٧٥
أبو الحسن بن مغن الكاتب : = ٣٢٩
الحسن بن يحيى بن علي بن حمود : = ١٠٤ ،
١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ٣٢٧
الحسن بن أبي يوسف المنصور : = ٣٣٧
الحسين بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع :
= ٣٩٠
الحسين بن عبد المؤمن : = ٢٦٦
الحسين بن علي : = ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٦ ،
١٣٧ ، ٣٩٢
الحسين بن علي بن الحسن : = ١٣٧
أبو الحسين الهوزني الأشيبلي : = ٣١٧
الحسين بن أبي يوسف المنصور : = ٣٣٧
ابن حزمون : = علي بن حزمون
الحصري الضرير الشاعر : = ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،
٢٢٥

(خ)

خارجة : = ١٣٤
ابن خاقان : = ١٤١ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٨ ،
٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٢٥ ، ٢٨٨ ، ٢٣٥
أبو خالد = يزيد الراضي
خبيب بن عدي الأنصاري : = ١٣٣
خراسان : = ٣٦٣
ابن خرداذبه : = ٤٣١
خرزاد صاحب الراية : = ٢٨
خوستوف كوليس : = ٢٨
ابن خروف = علي بن خروف
خزرج : = ١٣٢
ابن أبي الخصال = محمد بن أبي الخصال
ابن أبي الخصال = أبو مروان
ابن خلدون : = ٤٠ ، ٣٠ ، ٤٣٥
خلف الحصري : = ١٥٢
ابن خلكان : = ٨٣ ، ١٥٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،
٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٥ ، ٣٤٢ ،
٣٤٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠
الخليج الرومي : = ٢٧
خليج الزقاق : = ٢٨ ، ٣٢ ، ٩٠
خليج طنجة : = ٤٣٩
الخليل بن أحمد : = ٥٧ ، ٧٥
الخنوت بنت مخزومة بن أئيف : = ٧٨
الخوارج : = ١٣٤
خيران السامري (الصقلي) : = ١٢٧ ، ١٨١ ،
١٩٦

(د)

داحس : = ١٣١
دار البقر : = ٨٩
دارا : = ١٣١ ، ١٤٧
الدارقطني : = ٣٥٥
دانية : = ٣١ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ٢١١ ، ٢٧٩ ،
٣٤٣ ، ٣٥٢ ، ٤٤٩ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦
أبوداود (صاحب السنن) : = ٣٥٥
داود الظاهري (أبوسليمان علي بن خلف
الأصبهاني) : = ٩٤
داود بن أبي هند بن أبي عثمان : = ٣٨
أبودبوس الواثق : = ٤١٨
الدجال : = ٢٥٦ ، ٢٥٨ ،
ابن دحية (صاحب كتاب المطرب) : = ١٤٢ ،
٢١٨

حصن الفرج : = ٣٧٠
حصن قلبة : = ٤٥٥
حصن الرقة : = ١٩٣ ، ٤٥٥
حصن مارتلة : = ٢٠٤ ، ٢٨٠
الحطينة : = ٣٧٣
أبو حفص عمر بن أبي يعقوب = عمر الرشيد
ابن حفصون الثائر : = ١١٤
بنو حماد الصنهاجيون : = ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٩٣ ، ٣٢٧ ، ٣٤٧ ،
٤١١ ، ٤٣٧
حماد بن بلكية الصنهاجي : = ٢٧٢ ، ٢٧٤ ،
٢٧٥
الحكم بن سليمان بن الناصر : = ٩١
أم الحكم بنت سليمان المستعين : = ١٠٦
الحكم المستنصر : = ١٥ ، ٤٦ ، ٥٥ ، ٥٦ ،
٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ ،
٦٦ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ١٦٩ ،
١٨٠ ، ٣١٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٧
الحكم بن هشام الرضي : = ١٥ ، ٤٤ ، ٤٥ ،
٤٧ ، ١٢٤
حكيمية (أم أبي يعقوب) = قمر
حلاوة (أم ابن هشام) : = ٤٨
حلال (أم هشام بن عبد الرحمن الداخل) :
= ٤٣
حمالة الحطاب : = ٣٥٠
أبو حمالة الفائد : = ٢٠٢
حمد الذهبي القرطبي : = ٢٥٢
حمزة بن عبد المطلب : = ١٣٣
حمص : = ١٧٣ ، ٣٨٨ ، ٤٥٨
حمل بن بدر الذبياني : = ١٣١
حمسو بن علي بن غانية = محمد بن علي ابن
غانية
الحميدى = محمد بن أبي نصر
حمير : = ٢١٣ ، ٤٣٤
الحميريون : = ٨٤
حنش بن عبد الله الصنعاني : = ٣٧
الحنفاء (فرس حذيفة بن بدر) = ١٩١
أبو حنيفة : = ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩
حوراء (أم المستكفي بالله) : = ١٠٧
حوزاء (أم هشام بن عبد الرحمن) : = ٤٣
ابن حيان = أبو مروان بن حيان
الحيرة : = ١٣٢ ، ١٤٩ ، ٢١١
حي بن يقظان : = ٣١٢

الرشيد بن المأمون الموحدي (أبو محمد عبد
 الواحد) : = ٤١٧
 ابن رشيق (عبد الله) : = ١٨١ ، ١٨٢ ،
 ١٩٢
 الرصافة (بقرطبة) : = ٤٣
 رصافة بلنسية : = ٢٨٦
 الرصافي الرفاء الشاعر : = ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،
 ٢٩٠ ، ٢٩٢
 ابن الرقيق : = ٨٦ ، ٨٩
 رقية بنت أبي يعقوب : = ٤١٢
 رمادة : = ٦٦
 الرمادي الشاعر = يوسف بن هارون
 رميك (مولى اعتماد العبادية) ٢١٨
 ومبة (قرية) : = ٢٧٩
 ابن الرمي : = ٢٧٩ ، ٢٨٠
 ابن الرند = علي بن الرند
 رندة (حصن) : = ٢٠٤ ، ٢٨٢
 الروحي صاحب الاختيارات : = ١٢٨
 رولة (قلعة) : = ١٩٨ ، ٣٩٨
 الروم : = ٢٨ ، ٣٣ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٦ ،
 ٧١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ١٣١ ، ١٣٨ ، ١٥٧ ،
 ١٧٨ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤ ،
 ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٨٥ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ،
 ٣٠٦ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٨ ،
 ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧ ، ٣٤٥ ، ٣٥٧ ،
 ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ،
 ٣٧٣ ، ٣٩٣ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ،
 ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤٢٥ ، ٤٣١ ،
 ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ،
 ٤٥٤ ، ٤٦٠
 الرومان : = ٢٨ ، ٤٣٦
 رومة : = ٢١٢
 روميه : = ٢٩ ، ٢١٣ ، ٣٩٩ ، ٤٣٦ ، ٤٥١
 ابن الرومي : = ٢٨٧
 رياح (قبيلة) : = ٢٧٤ ، ٢٩٥
 ريعان الخصى : = ٣٣٨ ، ٣٩٠
 ابن الريق : = بندو
 ريموند بيرانجه : = ١٢٤ ، ٢٧٧
 ريه (مقاطعة) : = ٧٤

(ز)

الزاب : = ٤٤٠
 زادويه الفارس : = ١٣٤
 الزباء : = ٢٢٠

دحية بن عبد الله الكلبى : = ١٣٥
 درتوزة = طرطوشة
 ابن دراج القسطل : = ٨٤ ، ٨٥
 درن (جبال) = أطلس
 ابن دريد : = أبوبكر بن دريد
 دكالة : = ٤٢٥
 دلابة : = ٤٤٨
 دمشقي : = ٣٦ ، ٣٨ ، ١٣٦ ، ٣٦١
 الدولة للمتونية : = ٢٦٧ ، ٣٣٠
 الدولة المروانية : = ٤١
 دوزى : = ١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٤٦ ، ١٢٠ ،
 ٤١٢ ، ١٢٥
 ابن الدوقة = لوجار بن لوجار
 دون شانجو : = ٣٣٠

(ذ)

أبو الذبان : = عبد الملك بن مروان
 ذبيان : = ١٣١ ، ١٩١
 ذوحاجب = خرداد صاحب الراية
 ذو الرمة : = ١٤٢

(ر)

راح (أم عبد الرحمن الداخل) = ٤٠
 الراضي بالله ابن المعتمد = يزيد الراضي
 الراضة : = ٢٤٧
 رامة : = ٢١٣
 دباح (قلعة) : = ٣٥٩ ، ٤٠١
 رباط تازا : = ٣١٨ ، ٣٢٩ ، ٤٤٣ ، ٤٤٩
 رباط الفتح : = ٧ ، ٢٨ ، ٢٩٦ ، ٣٤١ ،
 ٤٤٤ ، ٤٤٥
 رباط وهران : = ٢٧١
 أم الربيع (نهر) : = ٤٢٤
 ربعة (قبيلة) : = ١٣١
 رجاجة (قبيلة) : = ٤٢٥
 يوم الرجيع : = ١٣٣
 ابن رذمير : = ٢٤٠
 رزق الله البرغواطى : = ١١٩
 رستم الأرمنى : = ١٣٢
 ابن رشد (أبو الوليد) : = ٣١٤ ، ٣١٥ ،
 ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥
 رشيد (نفر) : = ٤٣١
 الرشيد (هارون) : = ١٣ ، ١٣٧ ، ١٧٨

الزبيدي = محمد بن الحسن
 ابن الزبير = عبد الله بن الزبير
 الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين : = ٢٦٠
 الزبير بن العوام : = ١٣٣
 الزبير بن محمد بن سعد : = ٣٢٣
 الزبير بن محمد بن علي بن غانیه : = ٣٤٤
 الزبير بن نجاح : = ٣٩٧
 زجنندر (مدينة) : = ٤٤٧ ، ٤٤٨
 زخرف (أم الحكم بن هشام) : = ٤٤
 زرياب (المغني) : = ٤٨
 زغبية (قبيلة) : = ٢٧٤ ، ٢٩٥
 زفر بن الحارث الكلابي : = ١٣٥
 الزقاق (بحر - خليج - مضيق) : = ٢٨ ، ٤٣٨ ، ٢٨٨ ، ٩٠
 زكريا بن يحيى الهزرجي : = ٤٠٥
 زكريا بن أبي يوسف المنصور : = ٣٣٧
 الزلاقة (موقعة) : = ١٩٥ ، ٣٥٩
 زناتة (قبيلة) : = ٤١ ، ٣١٨
 الزنج : = ١٣٨
 زهر (أم محمد بن أبي يوسف المنصور) : = ٣٨٦
 ابن زهر (أبو بكر محمد) : = ٦ ، ٩ ، ١٢ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ٢١٨
 ابن زهر (أبو العلاء زهر بن عبد الملك) : = ٢١٨
 ابن زهر (أبو مروان عبد الملك بن زهر) : = ١٤٢ ، ١٤٣
 الزهراء (قصر) : = ٧٧ ، ٨٦ ، ١٦٢
 الزهرة (هيكل) : = ٢٩
 زهير بن أبي سلمى : = ١٦٢
 زهير العامري الصقلبي : = ١٢٧ ، ١٨١ ، ١٩٦
 زويلة (مدينة) : = ٤٣٤
 الزويلي = إبراهيم الزويلي الكاتب
 زياينة (أم مسلمة بن ذهل) : = ٣٧٩
 ابن زياينة التيمي : = ٣٧٩
 زياد ابن سمية : = ١٧٦
 زياد بن النابغة التميمي : = ٣٥
 ابن زياد = عبيد الله بن زياد
 ابن زيادة الله الطيني : = ٤٤١
 بنو زيان : = ٤١٨
 ابن أبي زيد (صاحب النوادر) : = ٣٥٤
 زيد بن عدى : = ١٣٢
 زيد بن علي بن الحسين : = ١٣٦
 أبو زيد الهنتاني : = ٣٦٣ ، ٣٨٧ ، ٣٢٨

أبو زيد الهلالي سلامة : = ٢٩٤ ، ٢٩٥
 ابن زيدون : = ١٠٨ ، ١٦٢ ، ٢٢٥
 بنو زيري بن مناد : = ٢٩٤
 زين بن قاصد : = ٣٧
 زينب بنت موسى الضرير : = ٣٠٨
 زينب بنت أبي يعقوب : = ٤١٢
 (س)
 ساحر (أم أبي يوسف المنصور) : = ٣٣٦
 سارة : = ٢٨٨
 بنو ساسان : = ١٣٠
 سالم (مدينة) : = ٨٤ ، ١٠٧ ، ٤٠١
 سبأ : = ١٣١
 سبئية : = ٣٢ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٩ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٩١ ، ٢٧١ ، ٢٨٢
 سبئية : = ٣٢١ ، ٣٢٩ ، ٣٩٠ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩
 سبطاط : = ٤٥٢ ، ٤٤٧
 سبيع بن حيان الثائر : = ٣٢٤
 سبو (نهر) : = ٤٤٩
 بنو سبوت : = ٢٠٢
 سبلماسة : = ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤٤٣
 سحنون : = ٣٥٥
 السراب (ناقه) : = ١٣١
 سربطره = شلبتره
 سرطه (قبيلة) : = ٤٢٤ ، ٤٢٥
 سرقسطه : = ١١٠ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٧٠ ، ١٨٢ ، ١٩٨ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٤١٧ ، ٤٥٣
 السطيفي : = ١١٦ ، ١١٧
 سعد بن أبي وقاص : = ٣٨ ، ١٣٢
 سعد بن أبي يوسف المنصور : = ٣٣٧
 السعيد أبو الحسن علي بن المأمون = المعتضد ابن المأمون
 ابن سعيد بن اللب = أحمد بن سعيد
 سعيد بن المنذر : = ١٠٨
 سعيد بن منصور : = ٥٠
 سعيد بن يونس : = ٥١
 السفاح : = ٣٩ ، ٤٢ ، ١٣٦
 سفاقس : = ٤٤٣
 سككات البرغواطى : = ١١٩
 سلا (مدينة) : = ٢٧١ ، ٢٩٦ ، ٣٠٦ ، ٣٢٩ ، ٣٤١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٤ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠

شانجو الأول : = ٤٠٠
 شذونة (مدينة) : = ٣١٠ ، ٤١٦
 الشذوني = عبد الملك الشذوني
 شربطرة = شلبطرة
 شرف الدولة ابن المعتمد : = ٢١٩
 الشر كس : = ٣٦٥
 شريش (مدينة) : = ١٠٠ ، ٢٩٥ ، ٣٩٠ ، ٤٥٩ ، ٣٩١
 الشريف القرناطي : = ٣٦١
 الشريف المرواني = طليق النعامة
 شعبان القرزي : = ٣٦٧
 شفشأوة (نهر) : = ٤٥٢
 الشقندى : = ١٢٨
 شقوبية (مدينة) : = ٤٥٣
 شقورة (حصن) : = ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٨
 شلب (مدينة) : = ٣٠ ، ١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٣٢٩ ، ٣٥٦ ، ٤٦٠ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠
 شلبطة : = ٣٧٠ ، ٤٥٩
 شلبير : = ١٢١
 شلمنكة : = ٤٥٣
 شلون (موضع) : = ٤٤٨
 الشماخ بن ضار : = ٨١
 شمر ابن الجوشن : = ١٣٣
 شمنت (قرية ، انظر و فرت) : = ١٠٧
 شنيوس : = ١٧٢
 شنت ياقو : = ٤٥٣
 شنترة : = ٤٤٨ ، ٤٥٣
 شنترين : = ١٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٤٦٠ ، ٤٥٣ ، ٣٤٠
 شنتمريه : = ٤٥٩
 شهريار أوبروي : = ١٣٢
 ابن شهيد = أحمد بن عبد الملك
 ابن أبي شيبة : = ٣٥٥
 شيرويه : = ١٣٢
 الشيعة : = ٣٨ ، ٥٤ ، ٢٤٧

(ص)

الصابنة : = ٤٥٠
 صاعد بن الحسن الربيعي اللغوي البغدادي
 (أبو العلاء) : = ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢
 صالح بن أبي يوسف المنصور : = ٣٣٧

سلامة القس : = ١٣٦
 سلمى (جارية) : = ٦٥
 بنو سليم : = ٢٤٨ ، ٢٧٤
 سليمان بن أبي حفص = سليمان بن عمر بن عبد المؤمن
 سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر : = ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٥
 سليمان بن داود (عليهما السلام) : = ٣٥
 سليمان بن عبدالله بن عبد المؤمن (أبو الربيع) : = ٣٤٦ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨
 سليمان بن عبد الرحمن بن محمد : = ١٠٥
 سليمان بن عبد الملك : = ٣٤
 سليمان بن عبد المؤمن : = ٣٥٢ ، ٣٥٣
 سليمان بن عمر بن عبد المؤمن : = ٤٠٩
 سليمان بن محمد بن هود (أبو أيوب المستعين) : = ١٢٤
 السمع بن مالك الخولاني : = ٣٥
 سمورة (مدينة) : = ٤٥٣
 ابن سيناء الملك : = ٣٧٨
 سهل بن أبي غالب الخزرجي (أبو السري) : = ٧٨
 السودان : = ١١٥ ، ١١٩ ، ٤٣٤ ، ٤٤٩
 سوسة (مدينة) : = ٤٣٥
 سوسى (بلاد - نهر - جبل) : = ١٠ ، ١٤٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٧٧ ، ٣٠٠ ، ٣٢٤ ، ٣٩٥ ، ٤٢٥ ، ٤٣٠ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٢
 سيبويه : = ٣٨٠
 ابن سير اللص : = ٢٨٦
 سير بن اسحاق بن محمد بن غانية : = ٣٤٥ ، ٣٩٨ ، ٣٤٩
 سير بن أبي بكر بن تاشفين : = ٢٠٢ ، ٢٢٨ ، ٢٠٤
 سيف (مملوك ابن وهبون) : = ١٦٠
 سبو سيرات (موضع) : = ٢٧٣ ، ٤٣٧

(ش)

الشاش = أبو بكر
 شاطبة : = ٤٤٩ ، ٤٥٤
 الشام : = ٧ ، ١٥ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٥٧ ، ٨٥ ، ١٣٥ ، ١٧٢ ، ٢٤٥ ، ٢٧١ ، ٣٦١ ، ٤٣١ ، ٣٦٦

طشانة : = ١٤٩
 ابن طفيل : = ٣١٥ ، ٣١٤ ، ٣١٣ ، ٣١١
 طلبة الحضرة : = ٤٢٦ ، ٢٦٩
 طلبة الموحدين : = ٤٢٦ ، ٣٥٦ ، ٢٦٩
 طلبيرة : = ٤٥٣
 طلحة بن عبيد الله التميمي (الفياض) : =
 ١٣٣
 طلحة بن عيسى التازي : = ٣١٩
 طلحة بن محمد بن علي بن غانية : = ٣٤٤
 طلحة بن أبي يعقوب : = ٣١٨
 طلحيثة : = ٤٤٧ ، ٤٣٣
 طليطلة : = ١٢٥ ، ١١٢ ، ٨٩ ، ٣٥ ، ٢٩
 ١٢٦ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،
 ١٩٣ ، ٣٦٠ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٩ ،
 ٤٠١ ، ٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٦٠
 طليق النعامة : = ٢٨٥ ، ٢٨٦
 طنجة (طنجيس) : = ٢٨ ، ٣٢ ، ٩٠ ،
 ٩٩ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ٢٠٠ ،
 ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٧١ ، ٤٣٩ ،
 ٤٤٤ ، ٤٥٢
 الطور : = ٢٨٥ ، ٢٨٧
 الطوسي = أبو عبد الرحمن
 طيوس : = ٢٣٣
 أبو الطيب المتنبي : = ٨٥ ، ١٥٩ ، ١٦٨ ،
 ١٦٩ ، ٣٦٧ ، ٣٨٠

(ظ)

الظافر بن المعتمد (أبو عمر) : = ١٨٩ ، ١٩٠ ،
 ٢٠٤ ، ٢٠٥
 ظبية (أم المستعين) : = ٩٢

(ع)

بن عائشة : = ١٩٠
 عائشة بنت أبي بكر : = ١٣٣
 عائشة بنت أبي يعقوب : = ٤١٢
 نائب (أم المعتد بالله) : = ١٠٩
 العادل بن المنصور : = ٣٣٧ ، ٤١٥ ، ٤١٦
 العاضد : = ٤٠٨
 عامر بن فتوح الفاتمي : = ٩١
 العامرية (قصر) : = ٧٧
 بنوعباد : = ١٣٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،
 ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٧ ، ٤٥٩

صبح (أم هشام المؤيد) : = ٧٢ ، ٧٤
 صفين (موقعة) : = ١٣٣
 صغد : = ١٣٢
 صقالبة : = ٩٨ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ٣٦٥
 صقلية : = ٤٥ ، ٨٣ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٩٨ ،
 ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٢٥ ، ٤٤١
 صلاح الدين الأيوبي : = ٣٢٦ ، ٣٦٦ ، ٤٠٨
 الصليبيون : = ٣٦٦ ، ٣٦٦
 صنهاجة (قبيلة) : = ١١٤ ، ١١٧ ، ١٥٠ ،
 ١٥٤ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ،
 ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٤ ،
 ٤٥٠
 الصنهاجيون : = ٢٧٤
 الصين : = ١٣٢ ، ٣٦٥

(ض)

الضحاك بن قيس الفهري (أبوانس) : =
 ١٣٥

(ط)

طارق بن زياد : = ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ،
 ٢٨٥
 طارق بن عمر = طارق بن زياد
 طالعة : = ٤٥١
 طالوت بن عبد الجبار المعافري : = ٤٤ ،
 ٤٥ ، ٤٧
 بنو طاهر : = ١٩٨
 الطبري = محمد بن جرير
 طبرية : = ٣٥
 الطينبي = ابن زيادة الله
 طبرية : = ٤٥٩
 طرابلس : = ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٣٠٠ ، ٣٢٦ ،
 ٤٢٥ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٤٧
 طرش (حصن) : = ٣٥٧
 طرش (قرية) : = ٧٢
 طرطوشة : = ٨٩ ، ١١٠ ، ١٢٤ ، ٢٧٧ ،
 ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٦٠
 الطرطوشي (أبوبكر) : = ٢٤٥ ، ٢٤٦
 طرف أشبرتال : = ٤٥٢
 طرف الفتاح : = ٤٥٢
 طركونة : = ٤٥٣
 طريف (جزيرة) : = ٢٠٠
 طسم : = ١٣٠

عباد بن محمد بن اسماعيل بن عباد
 اللخمي = المعتضد بالله العبادي
 عباد بن المعتضد = المأمون
 ابن عبد الحكم : = ٦٢
 بنو العباس : = ٤٠ ، ٤٢ ، ١١٨ ، ١٣٦ ،
 ١٣٨ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ٢٢٧ ، ٢٤٧ ،
 ٢٧٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٤١٧ ،
 ٤٣٢ ، ٤٤٠
 لعباس بن الأحنف : = ٩٣
 العباس بن المتوكل بن المظفر : = ١٢٨ ،
 ١٣٩
 لعباسية : = ١٤٧ ، ٢٥٦
 أبو عبد الله أمير المؤمنين = الناصر محمد
 ابن أبي يوسف المنصور
 عبد الله بن ابراهيم بن جامع : = ٣٩٠
 عبد الله بن ادريس : = ١١٤
 عبد الله بن اسحاق بن ابراهيم بن الحسين :
 = ١٣٧
 عبد الله بن اسحاق بن محمد بن غانية : =
 ٣٩٤ ، ٣٥٢ ، ٣٤٩ ، ٣٤٨ ، ٣٤٥
 عبد الله بن بلكين الصنهاجي : = ١٩٢
 أبو عبد الله الحسنی : = ١٠
 عبد الله بن جيل (أبو محمد) : = ٢٦٩
 عبد الله الجعجاب : = ٤٣٥
 عبد الله بن خراسان : = ٢٩٨
 عبد الله بن رشيق = ابن رشيق
 أبو عبد الله الرصافي = الرصافي الرفاء
 عبد الله بن الزبير : = ١٣٥
 عبد الله بن سليمان : = ٢٦٢
 أبو عبد الله الشافعي = محمد بن ادريس
 عبد الله بن طاهر : = ٤٤
 أبو عبد الله العاصمي النحوي : = ٨٠
 عبد الله بن عبد الرحمن المالقي (أبو محمد) :
 = ٣١٨ ، ٢٦٩
 عبد الله بن عبد المؤمن : ٢٦٦ ، ٢٧٥ ، ٢٩٧ ،
 ٢٩٨
 أبو عبد الله بن العريف = محمد بن يحيى
 عبد الله بن علي السفاح = السفاح
 عبد الله بن علي الهوزني (أبو محمد) :
 = ١٤٩
 عبد الله بن عمر بن الخطاب : = ٣٧
 أبو عبد الله بن عياش = محمد بن عبد الرحمن
 عبد الله بن فرج اليحصبي : = ١٢٦
 عبد الله بن محمد (أبو يحيى) = ابن الرمي
 عبد الله بن محمد بن جعفر الفرغاني

(أبو محمد) : = ٩٤ ، ٤٣١
 عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم
 الرضي : = ٤٦
 عبد الله بن محمد بن علي بن غانية : = ٣٤٤
 عبد الله بن موسى بن نصير : = ٣٤
 أبو عبد الله بن ميمون : = ٢٧٩
 عبد الله بن همشك = ابن همشك
 أبو عبد الله الوثريش = عبد الواحد الشرقي
 عبد الله بن أبي يوسف المنصور = العادل
 أبو عبد الله بن أبي يوسف = الناصر محمد
 ابن أبي يوسف
 عبد الله بن زيد (مولى قيس) : = ٣٥
 عبد الله بن أبي يعقوب : = ٣١٧
 أبو عبد الله بن أبي يعقوب : = ٣٠٩
 عبد الجبار بن المعتضد : = ٢٠٤
 عبد الجليل بن وهب (أبو محمد) : =
 ١٥٩ ، ٢٣٥
 عبد الحق بن ابراهيم : = ٢٥٤
 عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الأشبيلي
 (أبو محمد) : = ٣٤٧
 عبد الحق بن أبي حفص عمر ومزال : = ٢٢٠
 عبد الحق بن أبي يعقوب : = ٣١٨
 ابن عبد الحكم : = ٧٠
 عبد الرازق بن همام : = ٥٠
 عبد الرحمن الجزولي (أبو قصبه) : = ٣٩٥ ،
 ٣٩٦
 عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الرضي : =
 ٤٦ ، ٤٨ ، ١٢٤ ، ١٨٠
 عبد الرحمن الداخل : = ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،
 ٤٨
 أبو عبد الرحمن الطوسي : = ٣١٧
 عبد الرحمن بن العاضد المبيدي : = ٤٠٨ ،
 ٤٠٩
 عبد الرحمن بن أبي عامر = الناصر بن أبي عامر
 عبد الرحمن بن عبد الله العكي : = ٣٦
 عبد الرحمن بن عبد الله الفافقي : = ٣٧
 عبد الرحمن بن عبد العزيز بن أبي يعقوب : =
 ٤١٣
 عبد الرحمن بن عبد المؤمن : = ٢٦٦
 عبد الرحمن بن عطاء اليفرنى : = ١٠٢ ،
 ١٠٣ ، ١٠٨ ، ٢٨٥
 عبد الرحمن بن عمر بن عبد المؤمن (أبو زيد) :
 = ٣٤٠ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤
 عبد الرحمن بن عوف : = ٣٦١

عبد الملك ابن أبي العلاء زهر (أبو مروان) :
= ١٤٢ ، ١٤٤

عبد الملك الشذوني (أبو محمد) : = ٣١٠
عبد الملك بن عبد العزيز (أبو مروان) : =
١٢٥

عبد الملك بن قطن الفهري : = ٣٦
عبد الملك بن مروان : = ١٣٥ ، ٢٢١ ، ٤٣٥
عبد الملك بن المنصور أبي عامر (المظفر
أبومروان) : = ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٥ ،
٨٧ ، ٩٣ ، ٤٤٣

عبد الملك بن يوسف بن سليمان (أبومردان) :
= ٤٠٧

عبد المنعم بن عثير (أبو محمد) : = ٢٤٩
بنو عبد المؤمن : = ٨ ، ١٣ ، ٢٥٢ ، ٣١٦ ،
٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٤١٥ ، ٤٤٦

عبد المؤمن بن علي : = ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،
٢٥٠ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ،
٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ،
٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨١ ،
٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٣ ،
٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ،
٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ،
٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٢٧ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ،
٣٤١ ، ٣٩١ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤١١ ،
٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٢٩ ،
٤٣٤ ، ٤٣٧

عبد الهادي التازي : = ٢٠٨
عبد الواحد بن أبي حفص عمر ومزال : =
٣٩٣ ، ٣٩٨ ، ٤٢٠

عبد الواحد الشرقي : = ٢٤٨ ، ٢٦٠ ، ٢٩٦ ،
٤٠٧ ، ٤٢١

عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن : =
٣١٨ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥

ابن عبدون = عبد المجيد
عبس : = ١٣١ ، ١٩١

العيشيون : = ١٠٦
بنوعبيد : = ٣٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ،
٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٣٢٥ ، ٣٤٦ ، ٤٠٨ ،
٤٢٣ ، ٤٤١

عبيد بن الأبرص : = ٢٢٣
عبيد الله بن زياد : = ١٣٤

أبو عبيد البكري : = ٢٥٩ ، ٤٣١
عبيد الله بن محمد بن هشام بن عبد الجبار :
= ٨٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣

عبد الرحمن بن عياض : = ٢٧٨ ،
عبد الرحمن القالي (أبو القاسم) : = ٢٦٦ ،
٢٦٩ ، ٣١٧

عبد الرحمن بن محمد بن السليم : = ١٠٧
عبد الرحمن بن محمد بن أبي جعفر الوزير
(أبو القاسم) : = ٢٧٠

عبد الرحمن بن محمد المرتضى : = ٩٧ ، ١٠٣ ،
١٠٩

عبد الرحمن بن مقانا الفنداقى الأشبوني : =
١١٧ ، ١٢١

عبد الرحمن بن ملجم التحيمي : = ١٣٤
عبد الرحمن بن موسى بن يوجان = أبوزيد
الهنثاني

عبد الرحمن النسائي : = ٥١
عبد الرحمن الناصر : = ٤١ ، ٤٦ ، ٤٨ ،
٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ،
٦٠ ، ٦٩ ، ١٨٠

عبد الرحمن بن هشام المستظهر بالله : =
٩٣ ، ١٠٥

عبد الرحمن بن أبي يعقوب : = ٣١٨ ، ٣٥٨
عبد السلام الكومي : = ٢٦٧
بنوعبد شمس : = ١٠٦

بنو عبد العزيز : = ١٨١ ، ١٨٥
عبد العزيز بن أبي عامر (المؤمن) : = ١٢٥ ،
١٩٦ ، ١٩٧

عبد العزيز بن عبد الرحمن : = ١٨١
عبد العزيز بن عمر بن أبي زيد الهنتاني : =
٤٠٧

عبد العزيز بن عيسى (أخو ابن اللبانة) : =
٢١١

عبد العزيز بن موسى بن نصير : = ٣٤ ، ٣٥
عبد العزيز بن أبي يعقوب (أبو محمد) : =
٣١٨ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ،
٤١٥

عبد العزيز بن أبي يوسف المنصور : = ٣٣٧
ابن عبد القافر الفارسي : = ٣٨

عبد الله بن أبي شيبه : = ٤٩ ، ٥٠
عبد الله بن محمد بن همام : = ٥٣ ، ٥٤

عبد المجيد بن عبدون (أبو محمد) : = ١٢٨ ،
١٢٩ ، ١٣١ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ٢٢٨ ،
٢٣٤ ، ٢٣٧

عبد الملك بن ادريس الجزيري (أبو مروان) :
= ٧٥

عبد الملك بن جهور : = ١٨٩

العبيديون = بنوعبيد

أبوالمعاهية : = ٢٣٣

عثمان بن صلاح الدين (العزيز) : = ٣٦٠

عثمان بن عبد الله بن ابراهيم بن جامع

(أبوسعيد) : = ٣٩٠ ، ٤٠٤

عثمان بن عبد المؤمن (أبو سعيد) : = ٢٦٦ ،

٢٩٣ ، ٣٢٢

عثمان بن عفان : = ٦٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٣٢٦ ،

٤٣٥

عثمان بن أبي حفص عمر ومزال (أبوسعيد) :

٣٩٤ ، ٤٢٠ ، ٤٢١

عثمان بن أبي يعقوب : = ٣١٨

عثمان بن أبي يوسف المنصور : = ٣٣٧

المعجم : = ٣٢ ، ١٣٨ ، ٣٦٥ ، ٣٩٩

الملوة : = ١٢٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢

بنو عدى : = ٢٧٤

عدي بن زيد الشاعر : = ١٣٢

العدواني (ذي الاصبح) : = ١٣٦

ابن عذارى : = ١٢٥

العراق : = ١٥ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ١٣٢ ،

٢٢٠

العرب ٢٨٥ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٢٥ ،

٣٣٠ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ،

٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٤١١ ، ٤٢٥ ، ٤٤١ ،

٤٤٣

المرجى الشاعر : = ٦٧ ، ٦٩

ابن العريف = محمد بن يحيى (أبوعبد الله)

العريش : = ١٤٩ ، ٤٣١

العزيز عثمان = عثمان

عزيز بن محمد بن سعد : = ٣٢٣

العزيز بن المنصور بن المنتصر الصنهاجي

(أبو يحيى) : = ٢٤٩ ، ٢٧٤ ، ٢٩٤

عسكر بن محمد بن سعد : = ٣٢٣

عشار (أم عبد الله بن محمد) : = ٥٣

ابن عشير = عبد المنعم

عصام بن أبي جعفر الحميري : = ٣٧٩ ، ٣٨١

ابن عطف = عبد الرحمن ابن عطف اليفرنى

ابن عطية = أبو جعفر الوزير

عفراء : = ٧٨

عقيرة : = ١٣٠

العقاب (موقعة) : = ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤١٥

عقبة بن الحارث بن عامر : = ١٣٣

عقبة بن الحجاج : = ٣٦

عقبة بن نافع الفهري : = ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٤ ،

٤٣٥

أبوالملاء ادريس الوائلي = أبو دبوس

أبوالملاء المعري : = ٢٣٣

ابن عكاشة : = ١١٢ ، ١٨٩ ، ٢٠٤ ، ٣٠٥

علي بن أحمد بن حزم (أبو محمد) = ابن حزم

علي بن ادريس : = ١١٤

علي بن اسحاق بن غانية : = ٤٣٥ ، ٣٤٧ ،

٣٤٨ ، ٣٥٠

علي بن بسام (أبو الحسن) = ابن بسام

علي بن حزمون : = ٣٧٠ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤

علي بن حمود (الناصر) : = ٩٠ ، ٩١ ، ٩٧ ،

٩٨ ، ١٤٨ ، ١٥٢

علي بن خروف : = ٣٨٢

علي بن الرند (الناصر لدين النبي) : = ٣٢٥

علي بن صلاح الدين (الأفضل) = ٣٦٠

علي بن أبي طالب : = ٣٧ ، ٣٨ ، ١٣٣ ،

٢٤٥

علي بن عبد الله بن غانية (أبو الحسن) :

٣٩٧ =

علي بن عبد المؤمن : = ٣٦٦

علي بن علوي الكومي (والد عبد المؤمن) : =

٣٦٥ ، ٣٦٩

علي بن عمر بن عبد المؤمن (أبو الحسن) :

٣٩٣ =

علي بن عيسى التازي : = ٣١٩

علي بن عياش (أبو الحسن) :

أبو علي القالي : = ٤٦ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ،

٦٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٦

علي بن مجاهد (الموفق) : = ١٢٧ ، ٢١١

علي بن العز بن باديس : = ٣٤٩

علي بن موسى الضرير : = ٣٠٩

علي بن يحيى بن تميم بن باديس : = ٢٧٤

علي بن يوسف بن ناشفين (أبو الحسن) :

= ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٩ ،

٢٥٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ،

٢٧٧ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٤٤٦

العليا (مدينة) : = ٤٥٩

عليه بنت أبي يعقوب : = ٤١٢

عماد الدين القاضي المصري : = ٣٦٦

ابن عمار الشاعر : = ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،

١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،

١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ،

١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ، ٢٢٥ ، ٢٨٤

عمر بن أبي ابراهيم اسحاق = المرتضى

(أبو حفص)

(غ)

ابن غالى الرصافى = الرصافى الرفاء الشاعر
غانم بن محمد بن سعد : = ٣٢٣
غانية (أم صاحب ميورقة) : = ٣٤٢
بنو غانية : = ٣٤٢ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٦٠ ، ٣٩٤
غانية (أم المستظهر) : = ١٠٥
غبراء (فرس) : = ١٣١
غرسية بن شانجو : = ٨٢
غرناطة (أغرناطة) : = ٣٠ ، ٩٨ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٨١ ، ١٩٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩٣ ، ٣٢٢ ، ٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦
الغرونق (تلميذ أبى جعفر الحميرى) : = ٣٨٢
الغز : = ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٩٥ ، ٤٢٥
الغزالي = أبو حامد
علام ثعلب : = ٧٩
عمارة : = ١٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩
عمدان (قصر) : =
الغمر بن عبد الرحمن بن عبد الله : = ٣٦
الغمر بن يزيد بن عبد الملك : = ٤٢
أبو الغياط : = ٦٤

(ف)

فائق (مولى الحكم المستنصر) : = ٩١
فارج الخصى (أبو السرور) : = ٤٠٥
فارس : = ١٣٠ ، ١٣٤ ، ٢٥٦
فاس : = ٥ ، ٦ ، ٨ ، ٩ ، ١٣ ، ١٦ ، ٤٤ ، ٢٠٧ ، ٢٥١ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٤٠٩ ، ٤٤١ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٦ ، ٤٤٩
فاطمة بنت القاسم (زوجة المعتلى) : = ١١٥
الفاطمى النائر بسوس : = ٤١٠
الفاطميون = بنو عبيد
فتح (تلميذ أبى جعفر الحميرى) : = ٣٨١
الفتح بن خاقان = ابن خاقان
فج = فنج (موضع) : = ١٣٧
فحص الحديد : = ٣٥٨
فخر الدولة ابن المعتد : = ٢٢٢

عمر ازناج (أبو حفص) : = ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٤٢٢ ، ٤٢٦
عمر اينتى (أبو حفص) : = ٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٨٢ ، ٢٩٣ ، ٣٣٧ ، ٤٢١
عمر بن الخطاب : = ٢٨ ، ١٣٣ ، ٢٦٣ ، ٤٣٢
عمر الرشيد (أبو حفص) : = ٣١٦ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣
أبو عمر الزاهد المطرز = غلام ثعلب
عمر بن أبى زيد الهنتاني (أبو حفص) : = ٣٣٧
عمر بن عبد الله الصنهاجى = عمر ازناج
عمر بن عبد السلام الكومى : = ٢٦٧
عمر بن عبد العزيز : = ٣٥
عمر بن عبد المؤمن (أبو حفص) : = ٢٦٦ ، ٣٠٨
عمر بن المقر = المتوكل بن الأقطس
عمر المقدم : = ٣٩٤
عمر بن موسى بن عبد الواحد الشرقى (أبو علي) : = ٤٠٧
عمر بن ومزال = عمر اينتى
عمرو (جار أبى حنيفة) : = ٦٨ ، ٦٩
عمرو بن سعيد الأشدق : = ١٣٥
أبو عمرو الظافر = الظافر بن المعتد
عمرو بن العاص : = ١٣٤ ، ٤٣٢
عمار بن ياسر : = ١٣٣
عمروق (ملك طسم وجديس) : = ١٣٠
عنابة (مدينة) = بونة
عنبر الخصى : = ٣٣٨
عبيسه بن سحيم الكلبي : = ٣٦
عنبرة بن شداد العيسى : = ١٣١
عياش بن عبد الملك بن عياش (أبو محمد) : = ٣٦٧ ، ٣٦٩
عيسى بن حجاج الحضرمي (أبو الأصمخ) : = ١٤٩
عيسى بن عبد المؤمن (أبو موسى) : = ٢٦٦ ، ٤٠٦ ، ٣٤٦
عيسى بن عمر ومزال : = ٤٢٠
عيسى بن عمران التازي (أبو موسى) : = ٣١٨ ، ٣١٩
عيسى بن مريم : = ٢٥٦ ، ٢٥٨
عيسى بن موسى (صاحب شرطة بغداد) : = ٦٨ ، ٦٩
عيسى بن أبى يوسف النصور : = ٣٣٧

الغارات : = ١٣٣
أبو فراس : = ١٩١
باب الفرج : = ٢٠١
أبو الفرج الأصبهاني : = ٧٠
الفرس : = ١٣٢ ، ١٤٧ ، ٣٧٢
المرغاني = عبد الله بن محمد بن جعفر
انفرنج = الافرنج
المرنجة النورمانديون : = ٣٢٥
فرنسا : = ٢٧ ، ٢٩ ، ١٢٥ ، ٣٩٩
فره (قرية ، انظر « شمنت » : = ١٠٧
ثريهة بنت يحيى بن زكريا التميمي (أم المنصور
ابن أبي عامر) : = ٨٤
فصكة = عمر ابنتي
فضالة بن عبيد : = ٣٧
أبو الفضل بن حسداي : = ١٨٨
الفضل بن يحيى البرمكي : = ١٣٧
الفضل بن المتوكل بن المظفر : = ١٢٨ ، ١٣٨
أبو الفضل بن محسوة : = ٣١٧ ، ٣٣٨
فنزارة (موضع) : = ٢٤٩
بن فياض : = ٤٣١ ، ٤٥٦
الفيل = محمد بن أبي حفص
الفيوم : = ٣٩ ، ١٣٦

(ق)

القائم بأمر الله العباسي : = ٢٧٣
قابس : = ٣٠٠ ، ٤٣٤ ، ٤٤٠
ابن قتيبة (أبو محمد) : = ١٢٨
القادر بن ذي النون : = ١٩٠
القادسية : = ١٣٢
ابن القاسم (من علماء المالكية) : = ٣٣٦
أبو القاسم بن بقی = أحمد بن محمد ابن بقی
أبو القاسم بن الجعد = الأحمد
القاسم بن حمود (المأمون) : = ٩٠ ، ٩٩
١٠٠ ، ١٠١ ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢٦
١٤٨
أبو القاسم القالي = عبد الرحمن القالي
أبو القاسم بن عباد اللخمي = محمد بن عباد
القاسم بن محمد بن القاسم : = ١٢١
قاسم بن محمد المرواني : = ٩٢
القاسم بن المعتصم بن حمود : = ١١٥ ، ١٢١
القاضي عماد الدين المصري = عماد الدين
المصري
القاضي الفاضل : = ٣٧٨
قالم (مدينة) : = ٢٦٩
قالی قلا (بلد) : = ٥٩

القاهرة : = ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٩٨ ، ٣٧٨ ،
٤٠٨ ، ٤٣٤
القائد بن حماد : = ٢٧٤
ابن القبطرنة (أبو بكر محمد) : = ٢٣٧
قتيبة بن مسلم : = ٣٦٣
قراغوش الأيوبي : = ٣٥٠ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦ ،
٤٣٣
قرطاجة : = ٤٣٥ ، ٤٣٦
قرطاجنة : = ٤٣٥
قرطبة : = ٨٠٦ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٤٠ ،
٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ،
٦٠ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧١ ،
٧٢ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ،
٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٨ ،
٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ،
١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ،
١١٢ ، ١١٣ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٤٨ ،
١٥١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ،
١٧٨ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٩ ،
١٩٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٧ ،
٢١٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٩ ،
٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ،
٣٢٠ ، ٣٥٢ ، ٣٧٩ ، ٣٨٤ ، ٤١٧ ، ٤٤٢ ،
٤٤٨ ، ٤٥١ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ،
٤٥٩
قرونة : = ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٤ ، ١٢١ ،
١٥٤
قربش : = ١٢٣
فلسطين بن عيلان : = ٥٧ ، ٤٣٥
ف خطبة المغرب : = ٢٤٨ ، ٢٧٣ ، ٣٤٨ ،
٣٩٣ ، ٣٩٧ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ ،
٤٣٧ ، ٤٤٢
القسطنطينية : = ٢٩ ، ٥٥ ، ٣١٩ ، ٣٩٩ ،
٤٣٥
فشتاله : = ١٢٦ ، ١٨١ ، ١٩٢ ، ٣٩٩ ،
٤٥٣
أبو قصبه = عبد الرحمن الجزولي
القصر المبارك = المبارك
قصر مصودة : = ٤٣٨ ، ٤٥٢
قصير بن سعد اللخمي : = ٢٢١
ابن القصيرة (أبو بكر) = أبو بكر
بنوقصي : = ١٢٤
قطلونيا : = ٢١٢
قصصة : = ٣٠٠ ، ٣٢٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ،

كونكة (مدينة) : = ٤٥٣
 لكيا الهراس : = ٢٤٥
 كيسان : = ٦٤

(ل)

لاردة (مدينة) : = ١١٠ ، ١٢٤ ، ٢٧٧ .
 ٤٥٢
 ابن اللبانة : = ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،
 ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ،
 ٢٢٥
 لبلة : = ٩٣ ، ١٢٥ ، ٤٥٩
 لبونة بنت محمد بن الحسن بن قنون
 (أم المعتل) : = ١٠٢
 لبیب العامری : = ١٨١
 لبید : = ٢٣٣
 لخم : = ١٤٩ ، ٢١١
 لذريق : = ٣٣ ، ٣٤
 لسان الدين (ابن الخطيب) : = ٢٠٧
 لطيم الجن = عمرو بن سعيد الأشدق
 لمنسونة : = ١٥٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ،
 ٢٦٠ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٨٣ ، ٢٤٤ ،
 ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥
 لطة (قبيلة = مدينة) : = ٤٤٧ ، ٤٢٥
 أبو لهب : = ٣٥٠
 لوجار بن لوجار (ابن الدوق) : = ٢٩٨ ،
 ٣٢٥
 أبو لؤلؤة : = ١٣٣
 اللبط (حصن) : = ١٩٢
 ليدن : = ١٥ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٦٧
 ليون : = ٤٠٠ ، ٤٥٣

(م)

بنوماء السماء : = ٢١١
 ماردة : = ٤١٧
 ابن مارتين = ابن مردنيش
 مارتلة (حصن) : = ٤٥٩
 مازونة (بلدة) : = ٤٤٣
 مالقة : = ٣٠ ، ٣١ ، ٧٤ ، ٩١ ، ٩٩ ،
 ١٠٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ،
 ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٥٠ ،
 ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٤١٢ ، ٤٥٥
 مالك بن أنس : = ٤٤ ، ٤٦ ، ٢٢٦ ، ٢٣٦ ،
 ٣٥٥

٣٦٦ ، ٤٤٠

قلعة أيوب : = ١٢٥ ، ٤٥٣
 قلعة بجاية : = ٢٤٩
 قلعة بني حماد : = ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٣٤٧ ،
 ٤١١ ، ٤٣٧ ، ٤٤٢
 قلعة (حصن) : = ٤٥٥
 قلعة رباح : = ٣٥٩
 قلعة شنترين : = ٢٣٠ ، ٢٣١
 قلعة الكوفة : = ١٣٥
 قلعة محرز بن زياد : = ٢٧٤
 قلمرية : = ٤٥٣
 قمر (أم أبي يعقوب يوسف) : = ٤٠٤
 قنطش (جبل) : = ٨٨
 القوطا : = ٢٩ ، ٣٣ ، ٤٥١
 ابن القوطية : = ٣٣
 القيروان : = ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٥٤ ، ٢٧٣ ،
 ٢٧٤ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٤٣٢ ،
 ٤٣٦ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣
 قيس بن زمير العيسى : = ١٣١
 قيس بن عيلان : = ٢٤٨ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥
 قيصر : = ١٣١ ، ٢١٣

(ك)

كافور الخصى (كافور بفرقة) : = ٣١٠ .
 ٣٣٤ ، ٣١٧
 الكباشي الكاتب : = ٣٣٩
 كتامة : = ٤٤٣
 ابن كثير : = ٢٧٥
 كمبر عزة : = ١٦٢
 كربلاء : = ١٨٣
 الكرد : = ٣٦٥
 كريت = أقريطش
 الكست : = ٤٤٧
 كسرى : = ٢١٣
 الكعبة : = ١٢٥ ، ٣٦٩
 الكلبيون : = ٣٢٥
 كليب : = ١٣١
 كمارش (الحصن) : = ١١٥
 كمال الدين القزوي = محمد بن أحمد بن
 صاعد
 الكوفة : = ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦
 كوليسوس : = ٢٨
 كومية (قبيلة) : = ٢٦٥ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦
 كندة (قبيلة) : = ٦٦ ، ١٣١

مالك بن وهيب : = ٢٥٢ ، ٢٥٣
مانطس = بحر مانطس
مائدة سليمان بن داود : = ٣٥
مارب : = ١٣١
المامون = القاسم بن حمود
المامون بن ذي النون : = ١٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،
١٨٩ ، ١٩٠
المامون العباسي : = ٤٤ ، ١٣٧
المامون بن المعتمد (أبو النصر) : = ١٩٠ ،
٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥
المامون بن المنصور الموحدى = ادريس بن أبي
يوسف المنصور
المبارك (قصر) : = ١٨٥ ، ١٨٩
ابن مبارك (صاحب شقورة) : = ١٨٢ ، ١٨٣
مبارك الصقلي : = ١٨١
المبارك بن عبد الجبار : = ٢٤٥
المبرد : = ٦١
مبشر الخص العاجب : = ٣٩٠ ، ٤٠٥
مبشر العامري (الناصر) : = ٢١٢ ، ٢١٤ ،
٢١٦
المتنبي = أبو الطيب : = ٦٦
المتوكل بن الألفطس = المتوكل بن المظفر
المتوكل العباسي : = ١٢٧
المتوكل بن المظفر بن الألفطس : = ١٢٧ ،
١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٩٩
المتوكل على الله بن هود : = ٤١٧ ، ٤١٩
متيجة : = ٢٤٩
مجاز الأندلس : = ٤٥١ ، ٤٥٢
مجاز الزقاق : = ٩٠
مجاهد العمري : = ٢١١
المجدل : = ٣٦١
المجسطي : = ٢٥٢
بنو مجيز : = ١٩٧ ، ٢٦٥
محسن بن حماد (محسن بن القائد بن حماد) :
٢٧٤ =
محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : =
٣٨ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ٢٥٧
محمد بن أحمد بن صاعد القراوى (كمال
الدين) : = ٣٨
محمد بن ادريس الشافعي : = ٩٤
محمد بن ادريس بن علي المهدي : = ١١٤ ،
١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١
محمد بن ادريس بن يحيى المستعلي : = ١٢١
محمد بن اسحاق التميمي (أبو عبد الله) :
٧٣ =

محمد بن اسحاق بن محمد بن غانية : =
٣٤٥ ، ٣٥٢
محمد بن اسماعيل بن عباد = محمد بن عباد
القاضي
محمد بن اسود : = ٢٥٣
محمد بن أوسى بن ثابت الأنصاري : = ٣٧
محمد بن بشير القاضي : = ٧٣
محمد بن ثاويت الطنجي : = ١٨
محمد بن جرير الطبري (أبو جعفر) : =
٥٠ ، ٩٤ ، ٤٣٤
محمد بن جهور (أبو الوليد) : = ١١٢
محمد بن حبوس القاسي (أبو عبد الله) : =
٢٨٢ ، ٢٨٣
محمد بن الحسن الزبيرى (أبو بكر) : =
٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٥ ،
١٠٠ ، ١٤٩
محمد بن أبي حفص عمرو مزال (أبو عبد الله) :
= ٣٣٨ ، ٤٢٠
محمد بن حمد بن (أبو عبد الله) : = ٢٣٦
محمد بن الحنفية : = ١٣٥
محمد بن أبي الفضال (أبو عبد الله) : =
٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤١
محمد بن سعد = ابن مردنيش
محمد بن أبي سعد الجندبي : = ٣٤٨
محمد بن أبي سعيد بن شرف الجندبي
(أبو عبد الله) : = ٤٤٢
محمد بن السليم : = ٧٣
محمد بن سليمان بن الحكم : = ٩١
محمد بن طاهر (أبو عبد الرحمن) : =
١٨٠ ، ١٨١
محمد بن طفيل (أبو بكر) = ابن طفيل
محمد بن أبي عامر = المنصور بن أبي عامر
محمد بن عباد اللخمي القاضي (أبو القاسم) : =
١٠٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٦ ،
١٤٩ ، ١٥٢
محمد بن عبد ربه (أبو عبد الله) : = ٣٧٤ ،
٣٧٨
محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام
الريضي : = ٤٦ ، ٤٩ ، ٣٣٩
محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله
المستكفي
محمد بن عبد الرحمن بن عياش (أبو عبد الله) :
= ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٩١ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧
محمد بن عبد العزيز بن أبي يعقوب : =
٤١٣

محمد بن يخلفتن بن احمد الفازارى
(أبو عبد الله) : = ٣٩١ ، ٤٠٦
محمد بن يريم الالهاني : = ١٠٠ ، ١٤٩
محمد بن أبي يوسف المنصور (أبو عبد الله)
= الناصر محمد

محمد بن أبي يعقوب : = ٣١٨ ، ٣٣٧
محمد بن يوسف بن هود (أبو عبد الله)
= المتوكل على الله
الحيط الأطلسي = اقيانوس
عشارق : = ٢٣٣
المختار بن عبيد القفاي : = ١٣٤
ابن مخلوف : = ٢٧٩
المدينة : = ٤٥
مدهج : = ١٣١

المرايطون : = ٢٧ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ،
١٤٨ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٩٠ ،
١٩٥ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ،
٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،
٢٦١ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٩ ،
٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥٩ ، ٢٢٤ ،
٤٢٥ ، ٤٤٤

مراكس : = ٥ ، ٦ ، ٨ ، ٩ ، ١٢ ، ٢٧ ،
١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٥٦ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ،
١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٨ ،
٢٤١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ،
٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٩٣ ،
٢٩٦ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٢ ،
٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ،
٣١٩ ، ٣٤٨ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ ،
٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٧٠ ، ٣٨٥ ،
٣٨٩ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٤٠٩ ،
٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ،
٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٢١ ،
٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٣٦ ، ٤٤٢ ، ٤٤٤ ،
٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠

المرقضى أبو حفص بن اسحاق : = ٤١٩
مرجان أم الحكم المسننصر : = ٥٩
مرج راعط : = ١٣٥
مردنيش : = ٢٧٨
ابن مردنيش : = ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٣٠٦ ،
٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣
بنو مردنيش : = ٣٢١
مرزدغ بن حيان : = ٣٢٤

محمد بن عبد الله البرزالي : = ١١٤
محمد بن عبد الله بن طاهر الحسيني
(أبو عبد الله) : = ٣٩٢
محمد بن عبد الله بن فاسم (أبو عبد الله) :
١٠٩

محمد بن عبد الله المظفر = المظفر بن الافطس
محمد بن عبد الملك بن مروان : = ٦٠
محمد بن عبد المؤمن : = ٢٦٦ ، ٣٠٦
أبو محمد بن عفيف : = ٤٤١

محمد بن علاجه : = ٨٦
محمد بن علي بن أبي عمران الضريز (أبو عبد الله)
أبو يحيى : = ٣٨٩

محمد بن علي بن عمانية : = ٣٤٢ ، ٣٤٥
محمد بن عمار (أبو بكر) = ابن عمار الشاعر
محمد بن عيسى : = ٢٧٣

محمد بن عيسى الداني = ابن اللبانة
محمد بن عيسى بن عمرو الجلودى : = ٣٨
محمد بن غالب البلسي (أبو عبد الله) =
الرصائي الرفاء

محمد الفاسي : = ٦ ، ٧

محمد فريد أبو حديد : = ٢٠٨
محمد بن الفضل الكاتب : = ٢٨٧
محمد بن أبي الفضل الشيباني أبو عبد الله :
١

محمد بن القاسم بن حمود : = ١٠٠ ، ١١٥ ،
١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٤٨

محمد بن لب : = ١٢٤
محمد بن محمد بن الفبطرنة = ابن العبطرنة
محمد بن مروان (أبو عبد الله) : = ٣٣٩ ،
٣٩١

أبو محمد المصري (الطبيب) : = ١٦١
محمد بن معن بن صمادح (أبو يحيى) =
المتعصم بن صمادح

محمد بن موسى الضريز : = ٣٠٩
محمد بن أبي نصر الحميري (أبو عبد الله) :
= ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٢

٩٣ ، ١٢٢
محمد بن هاني (أبو القاسم - أبو الحسن)
= ابن هاني الأندلسي

محمد بن هشام بن عبد الجبار (المهدي) :
= ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ١٠٥
محمد بن واسع (أبو عبد الله) : = ٣٦٣

أبو محمد واسنار : = ٤٢٢
محمد بن يحيى (أبو عبد الله) : = ٧٦

مسلمة بن عبد الملك : = ٢٤٠
مسوفة (قبيلة) : = ١٥٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٤٢٥

مشريط (مدينة) = ٤٥٣
المصامدة : = ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٣ ، ٢٤٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٩ ، ٢٨١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٦ ، ٣٣٠ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٥٢ ، ٣٨٣ ، ٣٩٥ ، ٤١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٥٩

مصر : ٢ ، ٧ ، ١٦ ، ٣٩ ، ١٣٨ ، ١٤٤
مصعب بن الزبير : = ١٣٥
مضر : = ١٣٠

المصرية : = ٤١
الضيق : = ٤١٦
المطرز = غلام ثعلب
المطرف : = بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن : = ٥٤

ابن مطرف = أحمد بن إبراهيم المري
المظفر بن الأفطس : = ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٩٩
بنو المظفر بن الأفطس : = ١٢٨ ، ١٣٨
مظفر الصقلبي : = ١٨١

المظفر بن عبد العزيز : = ١٨١
المظفر بن المنصور أبي عامر = عبد الملك بن المنصور

معاوية بن أبي سفيان : = ٢٨ ، ١٣٣ ، ١٣٤
معاوية بن صالح الحضرمي الحمصي : = ٤١
المعتد بالله = هشام بن محمد بن عبد الملك
المعتد بالله بن المعتد : = ٢٠٤
المعتز العباسي : = ١٣٧
المعتزلة : = ٢٥٥

المعتصم بن حماد : = ١٢٧ ، ١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨

المعتصم بن الناصر الموحدي : = ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨

المعضد بالله العبادي : = ١٢٢ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٩٠

المعتضد بن المأمون الموحدي : = ٤١٨
المعتلي بن حمود الأموي = يحيى بن علي

مرسية : = ١٢ ، ٣٠ ، ١٥٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٨ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣ ، ٤٠٦ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤٢١ ، ٤٥٥ ، ٤٦٠

مرو : = ١٣٢
بنو مروان : = ٤١ ، ٥٩ ، ٧٠ ، ١٢٤ ، ١٩٠ ، ٢٨٥

أبومروان = عبد الملك بن أبي العلاء زهر
مروان بن الحكم : = ١٣٣ ، ١٣٦
أبو مروان ابن حيان : = ٤٥ ، ٨٣ ، ٤٥٧
أبومروان بن أبي خصال : = ٢٣٧ ، ٢٤٠
أبومروان بن رزين : = ١٢٥
مروان بن محمد : = ١٣٦

مروان بن عبد الرحمن بن عبد الملك
ابن الناصر : ٢٨٥

مروان بن موسى بن نصير : = ٣٢
المروانية (الدولة) : = ٤١
مريم الصنهاجية : = ٤١١
بنو مريم : = ٤١٨

المرية : = ٣٠ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٩٢ ، ١٩٦ ، ٢٥٣ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٣٣٨ ، ٤٤٨ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦

بنو مزغنة (بنو مزغنان) : = ٢٧٤ ، ٤٣٨
مزنة (أم المهدي) : = ٨٨

مساعدة بن أبي يوسف المنصور : = ٣٣٧
المستعين العباسي : = ١٣٧

المستعين بن هود = سليمان بن محمد بن هود
المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن : = ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨

المستنصر الأموي : = ٧٠ ، ١٨٠
المستنصر العبيدي : = ٢٧٣ ، ٢٧٤

مسجد الرايات : = ٣٣
مسجد الرباط : = ٣٤١ ، ٤٤٥

مسجد العباء : = ٢٥٠
مسجد بن أبي عثمان بقرطبة : = ١٠٠

مسجد ملاله : = ٢٤٨
مسعود بن سليمان بن مفلت الفقيه (ابوالخير) : = ٨١

مسكالة (قبيلة) : = ٢٦٢ ، ٤٢١

مسلم : = ٣٨ ، ٥١ ، ٣٠٩
أبومسلم بن فهد : = ٦٣

مسلمة بن ذهل = ابن زياية التيمي
مسلمة بن سليمان المستعين : = ٩٢

المعتمد بن عباد : = ١٠٤ ، ١١٢ ، ١٢٢ ،
 ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ،
 ١٦٣ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ،
 ٦٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
 ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،
 ١٨٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،
 ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ،
 ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،
 ٣٢٧ ، ٣٢٨
 معرة النعمان : = ٢٣٣
 المعز لدين الله العبيدي : = ١٦٩ ، ٢٧٢ ،
 ٢٧٤ ، ٤٣٤
 المعز بن باديس بن المنصور بن بلكية : =
 ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٩٤ ، ٤٢٣
 المعمورة : = ٤٤٩
 معن بن صمادح : = ١٩٦
 المغيرة : = ٦٩
 المغيرة بن شعبة : = ١٣٣
 المقنن بن هود : = ١٢٤ ، ١٢٧
 المقرئ : = ٧٣ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ١٠٧ ، ١١٥ ،
 ١٢١ ، ١٥٩ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٧٩ ،
 ٢٨٤ ، ٣٣٩ ، ٣٦١
 مكارمة (مدينة) : = ٤٥٣
 مكة المكرمة : = ٣٨ ، ٦٩ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ،
 ١٥٣ ، ٢٤٦ ، ٣١٩
 مكناسة (مدينة) : = ٤١ ، ٢٠٧ ، ٢٧١ ،
 ٢٨٠ ، ٣٢٩ ، ٣٥٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٨ ،
 ٤٤٩
 ملالة (ضيعة) : = ٢٤٧ ، ٢٤٨
 المثلثون : = ٢٤١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٣٥٠
 ابن الملح الشلبى : = ٢٨٣
 ملك صقلية = لوجار بن لوجار
 الملك العادل الأيوبي : = ٣٤٥
 ملكة الصنهاجية : = ٤١١
 مليلة (مدينة) : = ١٢١
 ابن ملكون (أبو اسحاق) : = ٣٠٩
 مليانة (بلدة) : = ٣٤٣
 بنو مناد : = ٢٧٣
 منازل جرد : = ٤٦ ، ٦٠
 المنتصر الصنهاجي : = ٢٧٤
 المنتصر العباسي : = ١٣٧
 المنتصر العبيدي : = ٢٧٤

المنذر بن سعيد البلوطي (أبو الحكم) : =
 ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٤٥٧
 المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم
 الربضي : = ٤٦ ، ٥٢
 المنذر بن هشام : = ٤٤
 المنستير (مدينة) = ٢٤٦
 المنصور بن أسحاق بن محمد بن غانية :
 = ٣٤٥
 المنصور بن بلكين الصنهاجي : = ٢٧٣ ،
 ٢٧٤
 المنصور بن أبي عامر : = ٦٢ ، ٧٠ ، ٧١ ،
 ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ،
 ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ٩٣ ،
 ١٠٧ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٦٩ ، ١٨١ ،
 ٢١٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٤٤٣ ، ٤٥١ ،
 ٤٥٧
 المنصور أبو يوسف = أبو يوسف
 منكب (حصن) : = ١٢١ ، ٤٥٥
 منورقة (جزيرة) : = ٣٤٣ ، ٣٩٧
 المهدي : = ١٦٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٧٢ ،
 ٢٧٤ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ،
 ٣٠٣ ، ٣٢٦ ، ٣٩٧ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ،
 ٤٤٣
 المهدي = ابن تومرت
 المهدي رأس دولة العبيديين : = ٢٩٨
 المهدي العباس : = ١٣٧
 المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار : =
 ٩٣
 المهلب بن أبي صفرة : = ١٦٩
 المهلب بن ربيعة : = ١٣١
 مؤته : = ١٣٣
 المؤمن بن هود : = ١٨٢
 الموحدون : = ٢٧ ، ٢٤٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ،
 ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٣ ،
 ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ،
 ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ،
 ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ،
 ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ،
 ٣٦٦ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ،
 ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٧ ،
 ٤١١ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٩ ،
 ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ،
 ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ،
 ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ،
 ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ،
 ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ،
 ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ،
 ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ،
 ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ،
 ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ،
 ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ،
 ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ،
 ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ،
 ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ،
 ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ،
 ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ،
 ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ،
 ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ،
 ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ،
 ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ،
 ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ،
 ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ،
 ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ،
 ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ،
 ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ،
 ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ،
 ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ،
 ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ،
 ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ،
 ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ،
 ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ،
 ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ،
 ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ،
 ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ،
 ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ،
 ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ،
 ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ،
 ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ،
 ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ،
 ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ،
 ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ،
 ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ،
 ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ،
 ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ،
 ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ،
 ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ،
 ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ،
 ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ،
 ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ،
 ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ،
 ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ،
 ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ،
 ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ،
 ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ،
 ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ،
 ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ،
 ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ،
 ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ،
 ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ،
 ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ،
 ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ،
 ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ،
 ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ،
 ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ،
 ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ،
 ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ،
 ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٢ ،
 ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ،
 ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ،
 ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ،
 ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ،
 ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧ ،
 ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ،
 ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٧ ،
 ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ،
 ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ ،
 ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ،
 ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ،
 ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢ ،
 ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ،
 ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ،
 ٨٢٣ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ،
 ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ،
 ٨٣٣ ، ٨٣٤ ، ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ،
 ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ ، ٨٤٢ ،
 ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ،
 ٨٤٨ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥١ ، ٨٥٢ ،
 ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ،
 ٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٢ ،
 ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٦٧ ،
 ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ،
 ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ،
 ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ،
 ٨٨٣ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ،
 ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ،
 ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٧ ،
 ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢ ،
 ٩٠٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ،
 ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ،
 ٩١٣ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ،
 ٩١٨ ، ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ ،
 ٩٢٣ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ،
 ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ،
 ٩٣٣ ، ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ،
 ٩٣٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ ،
 ٩٤٣ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ، ٩٤٧ ،
 ٩٤٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥١ ، ٩٥٢ ،
 ٩٥٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ ،
 ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ ،
 ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ،
 ٩٦٨ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ ،
 ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٩٧٦ ، ٩٧٧ ،
 ٩٧٨ ، ٩٧٩ ، ٩٨٠ ، ٩٨١ ، ٩٨٢ ،
 ٩٨٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ،
 ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩١ ، ٩٩٢ ،
 ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ،
 ٩٩٨ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠

يونس الحبيدي : = ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٥١ ،
٦٦ ، ٦٨
أبو النصر بن المتمد = المأمون
نصير بن مردنيش : = ٣٢٣
النعمان بن المنذر : = ١٣٢ ، ١٤٩ ، ٢١١ ،
٢١٣
النعميم (موضع بمكة) : = ١٣٣
نعميم اللخمي (جد بني عباد) : = ١٤٩
بنو نقرة : = ٤١
نقطة (بلد) : = ٣٠٠
نقاوس (مدينة) : = ٤٤٠
نول لطة (مدينة) : = ٤٤٧
نهر أبرو : = ١٢٤
نهر أبي الرقراق : = ٢٩٦
نهر أشبيلية : = ٢٩٠
نهر تاجو : = ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٣٣١ ، ٤٦٠
نهر السوس : = ٤٥٢
نهر العاصي : = ١٧٢
نهر ورغة : = ٤٤٩
النورمانديون : = ٣٢٥
نيسابور : = ٣٨
النيل : = ٤٣١

(هـ)

عاجر : = ٣٨٨
عارون (عليه السلام) : = ١٨٣
هارون الرشيد = الرشيد
ابن هانيء الاندلسي : = ١٦٩ ، ٢٨٢ ،
٣٦٩
يوم الهبابة : = ١٩١
الهفجف بن غيدقان بن يثري : = ٧٨
الهفل : = ١٨٦
هرغة (قبيلة) : = ٢٤٥ ، ٣٠٤ ، ٤٤٣ ،
٤٢٦ ، ٤٢٥
هرمز : = ١٣٢
ابوهريرة : = ٣٧
مزرجة (قبيلة) : = ٤٢٥
هزمير (قبيلة) : = ٤٢٥
مكسورة (قبيلة) : = ٤١٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥
هشام بن بشر الواسطي : = ٣٨
هشام بن الحكم = هشام المؤيد
هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر :
= ٨٨ ، ١٠٥

موسى (عليه السلام) : = ١٨٣ ، ٢٨٥
موسى بن أبي يعقوب : = ٢١٨ ، ٤١١
موسى بن الأمين : = ١٢٧
موسى بن رزق : = ٢٩١
موسى بن عبد المؤمن : = ٢٦٦
موسى بن علي الضير (أبو عمران) : =
٢٠٨ ، ٤٢١
موسى بن عفان السبتي : = ١١٧
موسى بن عكاشة : = ابن عكاشة
موسى بن عمرومزال : = ٤٢٠
موسى بن عيسى النازي (أبو عمران) : =
٣١٩ ، ٣٩٢ ، ٤٠٥
موسى بن نصر : = ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ،
١٢٥
الموصل : = ٧٦
ونت قوط : = ١٨١
المؤيد بن عبد الله الطوسي : = ٣٨
ميدمان بن يزيد : = ٧٩ ، ٨٠
ميلة (بلدة) : = ٤٤٢
ابن ميمون = أبو عبد الله
مينورقة (جزيرة) : = ٢١٢ ، ٣٤٣
مينورقة (جزيرة) : = ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٦٨ ،
٢٧٢ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥
الميورقيون : = ٣٤٢ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٩٤

(ن)

الناصر بن أبي عامر المنصور : = ٨٦ ، ٨٧ ،
١٥٢ ، ٩١
الناصر بن علناد : = ٢٧٤
الناصر محمد بن أبي يوسف المنصور : =
٩ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢١ ، ١٤٥ ،
٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ،
٣٩٠ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ،
٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣
الناصر بن المستضي : = ٦٢
نبيل الصقلبي : = ١٢٤
نجما الخادم الصقلبي : = ١١٣ ، ١١٥ ،
١١٦
نجاح الميورقي : = ٣٥٢
النسائي : = ٣٥٥
نصر بن خزيمه : = ١٣٦
النصاري : = ٨٨ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ٢٧٩ ،
٢٨٠ ، ٣٠٠ ، ٣٢٢ ، ٣٣٠ ، ٤٢٠ ،
٤٥٢ ، ٤٥٣

ابن ولاد بمصر : = ٥٧
ولادة بنت المستكفي : = ١٠٨ ، ١٦٢ ،
١٦٨ ، ١٦٣
أبو الوليد بن رشد = ابن رشد
الوليد بن سليمان : = ٩٢
أبو الوليد بن ضابط النحوي الملقب : = ١٤١
وليد الطائي = البحتري
وليد بن محمد الكاتب : = ٩٢
الوليد بن يزيد بن عبد الملك : = ١٣٦ ، ٢٩
ونشريس : = ٢٤٨
ابن وهبون = عبد الجليل
وهران : = ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٣٣٩ ، ٤٣٨ ،
٤٤٣ ، ٤٤٧

(ي)

يابه : = ١٢٧ ، ٤٥٣
يابسة (جزيرة) : = ٢١٢ ، ٣٤٣
ياقوت الحموي : = ٨٣ ، ١٨٢
أبو يحيى صاحب الشرطة = أبو بكر بن عبد الله
ابن أبي حفص الوزير
أبو يحيى (أخو عبد المؤمن) : = ٣٥٧
أبو يحيى (أخو أبي يوسف المنصور) : =
٣٥٨ ، ٣٥٧
يحيى بن ابراهيم بن جامع : = ٣٩٠
يحيى بن أبي ابراهيم الهزرجي (أبو زكريا) :
٤٠٨ =
يحيى بن ادريس بن حمود : = ١١٤ ، ١١٥
يحيى ابن اسحاق بن غانية : = ٣٤٥ ، ٣٤٨ ،
٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٧
يحيى بن اسماعيل بن عبد الرحمن = المأمون
ابن ذي النون
يحيى بن اسماعيل الهزرجي : = ٣٠٤
يحيى ابن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين : =
٢٦٧
يحيى بن تميم بن المعز بن باديس : = ٢٦٤ ،
٢٧٤
يحيى بن حسن بن تميم البادي : = ٢٩٩
يحيى بن أبي حفص عمرو مزال : = ٤٢٠
يحيى بن خالد البرمكي : = ١٣٧
يحيى بن زكريا التميمي (ابن برطل) : =
٨٤
يحيى بن زيان : = ٤١٨
يحيى بن عبد المؤمن : = ٢٦٦

عشام بن عبد الرحمن الداخل : = ٤٣
عشام بن عبد الملك : = ٣٦ ، ٦٩ ، ١٣٦ ،
٤٣٥
عشام بن محمد بن عبد الملك (المعتد بالله) :
= ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١
عشام المؤيد بن الحكم المستنصر : = ٢٦ ،
٦٢ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ،
٨٩ ، ٩١ ، ١٠٧ ، ١٥٢ ، ٢٨٦ ،
٤٥١
علال أبو القمر = هلال بن محمد بن مردنيش
بنو هلال : = ٣٥٠ ، ٣٦٦ ، ٤٢٢
بنو هلال بن عامر : = ٢٧٤ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥
علال بن محمد بن مردنيش (أبو القمر) : =
٣٢٣ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨
ابن همشك : = ١٨٢ ، ٢٨٠ ، ٣٢١
هنتانة (قبيلة) : = ٤٢٣ ، ٤٢٥
الهنتاني = عمر بن أبي يزيد
الهند : = ٤٣٩
ابن هند = معاوية بن أبي سفيان
عند بنت عتبة : = ١٣٤
بنو هود : = ١١٠ ، ١٢٤ ، ١٨٢ ، ٢٨٠ ،
٤١٧
هود بن عبد الله الجذامي : = ١٢٤
هيكل الزهرة : = ٢٩
هيلانة : = ٤٢٥

(و)

الواق بن المعتصم بن حمود = القاسم بن
المعتصم
وادي آرو : = ٧٢ ، ٨٩
وادي آش : = ٤٥٥
وادي الرقراق : = ٤٤٥
وادي الرمان : = ٤٤٤ ، ٤٤٩
الوادي الكبير (نهر بجاية) : = ٤٤٩
وادي ملوية : = ٤٤٩
واسنار = أبو محمد واسنار
واضح الصقلي : = ٨٩
وانسيفن (موضع) : = ٤٥٠
وبذة (مدينة) : = ٣٢٣ ، ٤٥٣
ورغة (نهر) : = ٤٤٩
وركناس (حصن) : = ٤٤٨
الوزغي = أحمد بن محمد بن يحيى
الوصي = علي بن أبي طالب
وطا عمره (موضع) : = ٣٤٨

يحيى بن العزيز بن المنصور بن المنتصر
الصنهاجي : ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،
٢٧٥ ، ٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٢٧ ،
٤٣٧
يحيى بن علي بن حمود (الملقب) : ٩٨ ،
١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،
١١٣ ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٤٨
يحيى بن علي بن غانية : ٣٤٢ ، ٤٣٣
يحيى بن عمر بن عبد المؤمن : ٤٠٦
يحيى بن غانية : ٢٧٢ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ،
٣٩٧ ، ٤٣٣
يحيى بن محمد بن طفيل : ٣١٢
يحيى بن محمد الناصر = المعتصم بن الناصر
يحيى بن يحيى الليثي : ٣٩ ، ٤٤
يحيى بن أبي يعقوب يوسف (أبوزكريا) :
١٠ ، ١١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٧ ، ٣٣٥ ،
٣٥١
يزدجرد : ١٣٢
يزيد الرازي بن المعتمد بن عباد (أبوخالد) :
١٨٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥
يزيد بن أبي سفيان : ٩٣
يزيد بن عبد الملك : ١٣٦
يزيد بن قاسط (ابن قسيط) السكسكي
المصري : ٣٧
يزيد بن معاوية : ٣٨ ، ١٣٤
يعرب : ٨٤ ، ١٣٠
يعقوب (من ولد عمر بن عبد المؤمن) :
٣٤٨
أبوعقوب الثاني = يوسف بن محمد بن أبي
يوسف
يعقوب بن عبد المؤمن : ٢٦٦
يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن = أبويوسف
المنصور
أبوعقوب يوسف بن عبد المؤمن : ١١ ،
٢٥٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٨٣ ، ٢٩٣ ،
٢٩٥ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٢ ،
٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ،
٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،
٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠ ،
٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٥ ،
٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ،
٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٨ ، ٤٢٢ ، ٤٢٦ ،
٤٢٩ ، ٤٣٣ ، ٤٤٥
يعقوب بن أبي يعقوب = أبويوسف المنصور

يعلى بن أبي زيد : ١٠٦
يفرن : ١٠٢ ، ١١٧ ، ١٢١
أبو اليقظان = عمار بن ياسر
اليمامة : ١٣٠
اليمانية : ٤٠ ، ٤١
اليمن : ٧٧ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ٢٧٨
اليهود : ٣٥٩ ، ٣٨٣
يوسف بن تاشفين اللمتوني : ٢٧ ، ١٢٧ ،
١٢٨ ، ١٤٧ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،
١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
٢٠٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ،
٢٣٤ ، ٢٤١ ، ٢٥١ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ،
٣٢٧ ، ٣٥٩ ، ٤٤٦
يوسف بن سعد الرئيس بن مردنيش :
٣٢٢
يوسف بن سليمان : ٢٦١ ، ٤٢١
يوسف الصديق (عليه السلام) : ٩٥
يوسف بن عبد الرحمن الفهري : ٣٩ ،
٤٠ ، ٤١
يوسف بن عبد الله بن ابراهيم بن جامع :
٣٩٠
يوسف بن عبد المؤمن بن علي = أبو يعقوب
يوسف بن عيسى الأعم (أبو الحجاج) :
١٧٣
يوسف بن عيسى التازي : ٣١٩
يوسف بن محمد بن يوسف المنصور (أبويعقوب
الثاني) : ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٣ ، ١٤ ،
٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٨٦ ، ٣٩٠ ، ٤٠٤ ،
٤٠٦ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٥
يوسف المراني (أبو الحجاج) : ٣٦٠ ، ٣٩١
أبويوسف المنصور أمير المؤمنين : ٥ ، ٩ ،
١٠ ، ١٤٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،
٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٠٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ،
٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ،
٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ،
٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ،
٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ،
٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ،
٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٩ ، ٣٨٣ ،
٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ،
٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ،
٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤٢٦ ،
٤٢٩ ، ٤٣٣ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦

يوم القليب : = ١٣٢	يوسف بن هارون الرمادى (أبو عمر) : = ٤٦ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ،
يوم مؤتة : = ١٣٣	٧٥
يوم الهبأة : = ١٩١	يوشع : = ٢٩١
ابن يونس : = ٣٥٤ ، ٣٥٥	يوليان : = ٣٣
بنو يوتان : = ١٣٠	يوم الجمل : = ١٣٣
يونس بن أبى حفص عمرومزال : = ٤٢٠	يوم الرجيع : = ١٣٣
يونس بن أبى يوسف المنصور : = ٣٣٧	